الجزء الثاني



أمراض الاستبداد

المواجهة بين موسى وقومه من بني إسرائيل
وتشابه ذلك مع بعض أحوال الأمة المسلمة





أمراض الاستبداد

(الجزء الثاني)

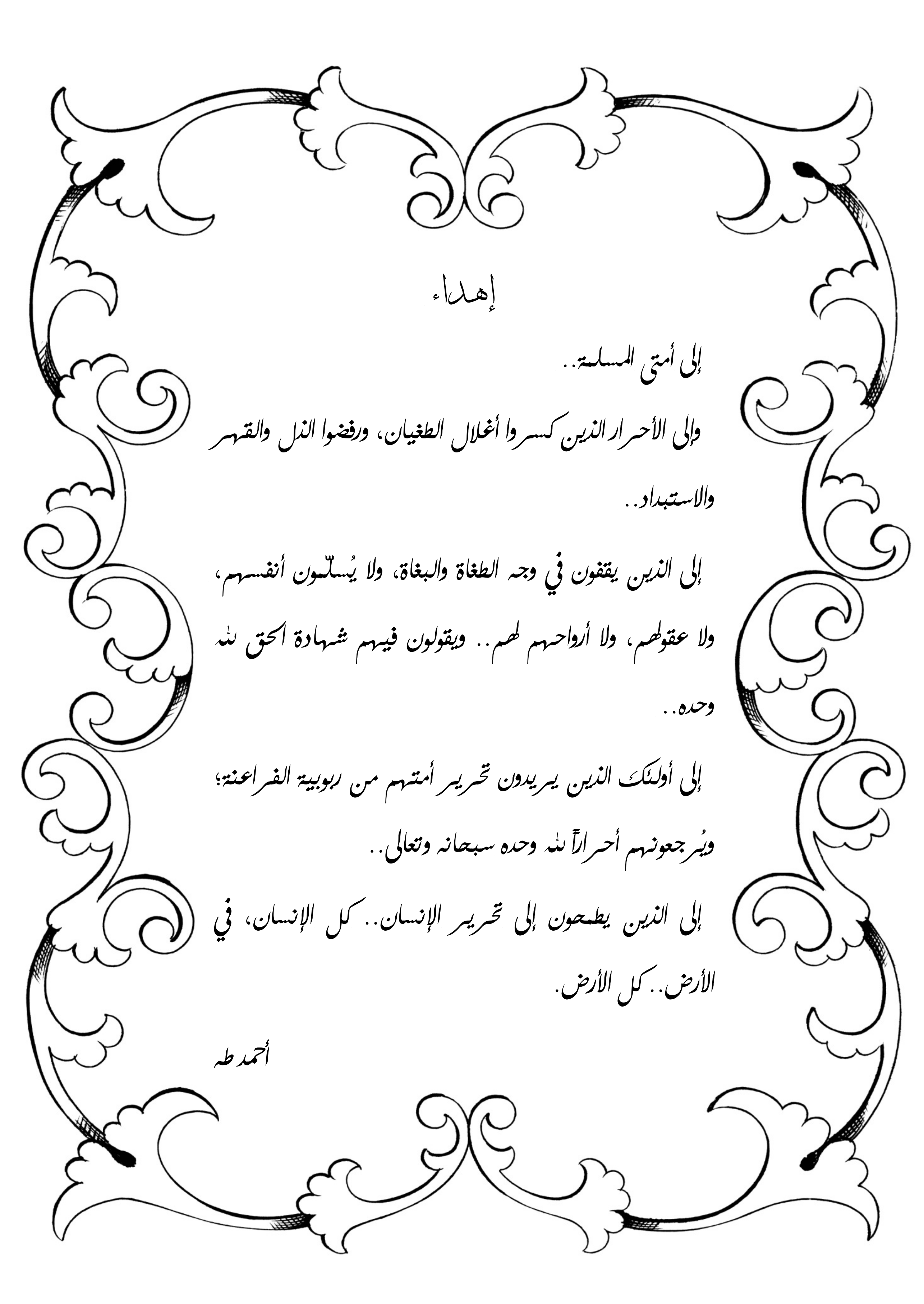
الطبعة الإلكترونية الأولى Pdf

(1439 هـ - 2018 م)




بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل]



إهداء

إلى أمتي المسلمة..

وإلى الأحرار الذين كسروا أغلال الطغيان، ورفضوا الذل والقهر والاستبداد..

إلى الذين يقفون في وجه الطغاة والبغاة، ولا يُسلّمون أنفسهم، ولا عقولهم، ولا أرواحهم لهم.. ويقولون فيهم شهادة الحق لله وحده..

إلى أولئك الذين يريدون تحرير أمتهم من ربوبية الفراعنة؛ ويُرجعونهم أحراراً لله وحده سبحانه وتعالى..

إلى الذين يطمحون إلى تحرير الإنسان.. كل الإنسان، في الأرض.. كل الأرض.

أحمد طه

فهرس

***

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، وبعد:

فالإسلام.. رسالة الحرية؛ جاء ليضع عن الناس "الآصار والأغلال" الاجتماعية والمادية والسياسية والاقتصادية والفكرية والروحية؛ ليطلق الناس أحراراً كرماء - كما خلقهم الله - وليضعهم على صراط الله المستقيم؛ وليصل الدنيا بالآخرة في رحلة ممتدة في شعاب الزمان؛ لتصل بالإنسان إلى الله وجنته وقد رضي الله عنه، وانطلق الإسلام يُعرّف الإنسان حقيقة الله، والكون، والحياة.. وحقيقة الإنسان نفسه، حتى لا يضل، أو تتخطفه الشياطين؛ فتحيد به عن سبيل الله..

رسالة عظيمة لا يدركها حق الإدراك إلا العظماء من الناس.. ولما جاء بها سيد المرسلين صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ آمن به الأفذاذ من الناس، فقد تفتحت قلوبهم، وارتقت عقولهم، وسمت أرواحهم إلى آفاق الإسلام العظيمة، فوجدوا فيه "طريق الخلاص"، ولما كان الإسلام رسالة تغييرية تقود العالم وفق تصوراته الفريدة، وأحكامه الربانية، وشريعته الإلهية، كان - ولا مفر - من الصدام مع الجاهلية المحيطة به..

كان الإسلام بمكة في حال استضعاف، ولم يُأمر المسلمون حينها برد العدوان، أو تحويل القضية الأصلية لثأر، أو خصومة شخصية.. فظل التمسك بقضية "الإسلام" يواجه عقائد الجاهلية بكل "تجرد" من أي عوالق أو نوايا أخرى، فانطلقت الجاهلية تُعمل يد الإفساد والقهر والتعذيب أمام العظماء من المسلمين، وصمد المسلمون أمام "فرعونية" وطغيان الجاهلية.. بكل إيمان، وثبات، وصبر، ويقين في رسالتهم.. ولعل الحكمة من تلك الفترة - ومن الاستضعاف - أن تكون رسالة الإسلام، والمواجهة خالصة تامة بين الإسلام والكفر، وليس ثمة أي ملحقات بهذه المواجهة؛ لكشف عوار الجاهلية، وإسقاط شرعية الفرعونية، وبيان الدين متجرداً من كل ما سواه..

وانتصر - في هذه المواجهة - الإسلام على الكفر، والروح على المادة، والعقيدة على الألم.. وذكّر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ المسلمين - عندما طلبوا النصر منه - بإخوانهم في العقيدة عن واجهوا مثل ما واجهوا: فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ

بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: " أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟، فَقَالَ: **قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**" [صحيح البخاري/ 6943]

ثم انتقل الإسلام إلى مرحلة أخرى في طريق التمكين المادي، وقبل الحديث عنها، نؤكد أن حالة الاستضعاف المادي الظاهري في مكة، كان يُقابلها حالة من التمكين الروحي الكامن في قلوب المؤمنين.. تمكين لم تستطع الجاهلية بكل أدواتها أن تزحزحه، فكان الموت أحب إلى المؤمنين من أن يعودوا إلى الكفر مرة ثانية..

وفي طريق التمكين المادي، أتى "الأنصار" ليسمعوا عن هذا الدين الجديد، فدخلوا فيه.. وبايعوا على "الموت" في سبيله، وعلى "المنعة" لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، واختاروا "معاداة" الجاهلية كلها من حولهم..

فكانت الهجرة، وترك الأوطان، وهجر الأصحاب، وضياع الأموال.. في سبيل شيء واحد فقط لا غير.. "هذا الدين" العظيم الذي في قلوب العظماء.. وبدأت مرحلة التمكين "الغير مستقرة" – في أول الأمر – والغير مغرية لأحد.. ممن يطمح إلى متاع الحياة الدنيا!

وبدأ الإسلام "صراعه" المادي مع الجاهلية.. بعد أن كان قد قطع شوطاً كبيراً من الصراع الفكري والروحي معها في مكة، وبدأت المواجهة الكبرى، فكان الجهاد في سبيل الله.. غزوات تلو الغزوات يقاتل فيها الإسلام لا بعتاد ولا عدة فحسب، وإنما بهذا الدين، كان الفارق المادي رهيباً بين القوة المادية للإسلام، وبين الجاهلية التي تحشد كل ما لديها من قوة، لكن "الإيمان" و"التمكين" الذي في قلوب المؤمنين.. كان كافياً لتعويض الفارق في القوى؛ فكان النصر للإسلام وأهله على يد "العظماء" من المسلمين.. الذين دخلوا في هذا الدين، وتحدوا كل قوى الجاهلية في فترة الاستضعاف بمكة وكونوا هم "المهاجرين"، والذين دخلوا في هذا الدين، وتحدوا تحزب الجاهلية كلها من حولهم، ومنعوا الإسلام وأهله، فكونوا هم "الأنصار"..

وبالمهاجرين والأنصار.. قامت دعائم "دولة الإسلام" برجال خلصت نفوسهم وأرواحهم من كل حظ سوى "ابتغاء وجه الله الكريم ومرضاته" فكانت أعظم أنموذج في تاريخ الإنسانية، وجيل فريد، صنع الله جَلَّجَلَالُهُ به الفتوحات، وعلت به كلمة الإسلام، ودولته..

ومع التمكين للإسلام، ظهرت فئة "المنافقين" التي دخلت في الإسلام لسلطانه المادي، الذي فرضه في واقع الأرض، ووجد المنافقون أنفسهم أن لا بد لهم من "المداهنة" مع الإسلام حتى لا يصطدموا به، والمنافق صاحب نفسية جبانة ضعيفة، ليس في شجاعة من يستعلن الكفر، ويفخر بدينه، ويقاتل عليه.. فهذا الكافر واضح الكفر، تكون معركته ومواجهته "سهلة" لا تحتاج إلى "جهاد البيان" وكشف الحقائق الخفية.. كما في حالة المنافق، ومضى القرآن الكريم، يفضح خبايا المنافقين، وفكرهم، ويكشف عن أحوالهم النفسية؛ حتى يحذرهم أهل الإسلام.

ثم جاء الفتح العظيم.. فتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ودخل جمع كبير من الناس الإسلام دون أن يصلوا إلى مستوى "الحالة الإيمانية" التي وصل إليها المهاجرون والأنصار، فكانوا من "جماهير الإسلام" أو "طلقاء مكة" دخل بعضهم – أو جلهم – الإسلام بعدما حاربوه ما يقرب من حوالي ثمانية عشرة سنة، إما حرب مباشرة واستعلان العداوة، والرغبة في الاستئصال، وإما التأييد للجاهلية ضد الإسلام، وإما رفض على استحياء عصبية وحمية لبعض مبالغات قريش في عداوة المسلمين.. دخلوا في الإسلام بعدما فرض سلطانه المادي والتمكين المستقر، فقد جاء النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاَلِهِوَسَلَّمَ في عشرة آلاف مسلم – من عظماء المسلمين – بعدما كان يوم بدر.. يوم الفرقان، لا يتجاوز تعدادهم الثلاثمائة!

والفرق بين عظماء المسلمين من المهاجرين والأنصار، وبين "طلقاء مكة".. أن الإسلام تمكن من قلوب المهاجرين والأنصار.. فقد باعوا أنفسهم "لله"، وبايعوا قائد المسلمين صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاَلِهِوَسَلَّمَ على الموت في سبيل الله، وخاضوا معارك: بدر، وأحد، والأحزاب، وغيرها.. من أجل هذا الدين لا لشيء آخر، وكانت هذه المعارك الفارق المادي والمقاييس الحربية فيها كبير ولصالح الجاهلية.. ومع ذلك، كانت حرارة الإيمان في القلوب، وقوته في الأرواح، كانت تحصد الجاهلية حصداً.. تتسابق نحو جنان عرضها السماوات والأرض.. وتم التأكيد على هذا المعنى يوم الحديبية – وهم خارج بلدهم المدينة، وفي غير استعداد للحرب – يوم استُشعر الخطر على الإسلام وأهله، وبايعوا على

الموت.. وقالوا: "لَا وَاللَّهِ لَا نَكُونُ كَالْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا لِمُوسَى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنَّا نَقُولُ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ" [مسند الروياني/1358، التمهيد لابن عبد البر]

أما الطلقاء فلم يخضوا مثل هذه التجربة، ولم يعايشوا مثل تلك الأحداث، فقد وجدوا الإسلام حط بأرضهم بقوته وبأسه وسلطانه؛ فدخلت فيه الجماهير..

وبدأت مرحلة جديدة للإسلام.. بعد موت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وحمل المهاجرون والأنصار لواء "الخلافة الراشدة" فأقاموا دعائم دولة عظمى عالمية.. ثم فتُحت على المسلمين الدنيا الحلوة الخضرة التي حذرهم الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ منها فقال: "**وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**" [صحيح البخاري/ 4015]

فتنافس الناس على الدنيا، وعلى المُلك فكان "الملك العضوض"! وبدأ انحسار ظل الأمة الراشد، وإبعاد أئمة العلم والفضل فيها عن القيادة والتوجيه والحكم.. وانطلق السيف في أبناء الأمة يحصد خيرهم وشرهم! لكن ما ميز تلك الفترة في تاريخ الأمة.. أن عدوها الأبدي اللدود من اليهود والصليبيين والمشركين لم يستطع أن ينال منها، أو يفسد كل تصوراتها.. كما بلغت الفتوحات مبلغاً عظيماً في تلك الفترة.. فكان للإسلام دولة يرتعد منها العدو، ويُحسب لها ألف حساب.

وقد بدأ الملك العضوض على يد بني أمية(1)، عن طريق الاستبداد بالمال والحكم لهم - دون بقية الأمة! - وبهذا نقضوا عُرى الإسلام في جانب الحكم(2)، وبدّلوا سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في الخلافة والقيادة، وتبعهم على هذه السنة القبيحة من جاء بعدهم.. حتى نهاية الدولة العثمانية، وقد كان صلاح الملوك يأتي كيفما اتفق - دون مشورة الأمة واختيارها - وقد كان يأتي من حسن التربية

---

(1) عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَارِحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنهما، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**إِنَّ اللَّهَ بَدَأَ هَذَا الأَمْرَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، وَكَائِنًا خِلافَةً وَرَحْمَةٍ، وَكَائِنًا مُلْكًا عَضُوضًا، وَكَائِنًا عُتُوَّةً وَجَبْرِيَّةً وَفَسَادًا فِي الأُمَّةِ، يَسْتَحِلُّونَ الْفُرُوجَ وَالْخُمُورَ وَالْحَرِيرَ، وَيُنْصَرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيُرْزَقُونَ أَبَدًا حَتَّى يَلْقَوُا اللَّهَ عز وجل**" [السنن الكبرى للبيهقي/ (8: 157)]

(2) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**" [مسند أحمد/ 21655]

وتقوى الله، أو في اللحظات الحرجة التي تمر بها الأمة - كغزو التتار والصليبيين - ولكن رغم الانحراف في جانب الحكم والمال.. لم يكن ملوك "الحكم العضوض" في حرب مع الإسلام ذاته، ولم يكونوا في عداء مع الأمة المسلمة.. لقد فتنهم الملك وحب السلطة والمال، ولكنهم في ذات الوقت كانوا جزءاً من هذه الأمة، يدافعون عنها، ويدفعون عنها الأخطار الخارجية، ولهم سيادة وقوة..[1]

ف "الصراع الفاسد الباطل" كان داخلياً على الأحقية بالملك والسلطان.. و"الصراع الصحيح الحق" كان خارجياً لدفع العدوان عن الأمة المسلمة، ونشر رسالة الإسلام، وإن أصابها دخن بفعل "فتنة الملك".. ولم يحصل التآمر على الأمة المسلمة - إلا في حالات نادرة من ملوك الطوائف - ومن حصل منه تآمر كان مصيره القتل، واللعنة.. ولهذا استمر تواجد الأمة المسلمة بحضارتها العريقة رغم فقدان "الخلافة الراشدة".

كانت أمراض الملك العضوض من داخل الأمة.. لا من خارجها كانت في شهوات البشر في السلطان والمتاع والمُلك، وعندما كانت تقع مواجهة داخلية في الأمة.. لم تكن تستهدف الإسلام ذاته، أو استئصال المسلمين.. إنما كانت صراعاً على السلطان!

وفي مراحل مختلفة من الملك العضوض بدأ التأثر الفكري - في لحظات الضعف - بالفكر الإغريقي اليوناني الفلسفي، وبدأ ظهور التفرق في الدين، واتباع سنن أهل الكتاب، الأمر الذي أعمل فتنة كبيرة في الأمة.. حولت الإيمان من طاقة روحية، تنطلق لإعلاء كلمة الله في أرضه، إلى قضايا فلسفية جدلية باردة!

وظلت الأمة تتقلب في مرحلة الملك العضوض من حال إلى حال.. تتعافى تارة، وتتهاوى تارة، تنتصر تارة، وتنهزم تارة، وكانت كل مشكلاتها داخلية، ما أن تنطلق إلى إدراكها وعلاجها، إلا وتتعافى سريعاً، وكان ظل الشريعة يظلل حركتها، وقضية لا تقبل الجدل أو المماحكة، ففي أضعف لحظات الأمة - في تلك الفترة - لم تتنكر لهويتها، ولم تخجل من إسلامها، ولم تترك شريعة ربها..

---

(1) عسى أن نعود بالتفصيل في هذا الأمر - إن شاء الله - في الجزء الثالث من هذا الكتاب، حيث مناقشة المدخل التاريخي للاستبداد.

وإن انهارت تحت وقع الحملات الصليبية – في لحظات ما – كانت سرعان ما تتعافى؛ لأنها مشدودة إلى هوية ودين وشرع وتاريخ وحضارة؛ فتعود مرة ثانية..

كان هَم "الملك العضوض" هو المُلك.. ولم يكن يمنع الأمة من العلوم النافعة، ولا يحطم بنيتها أو ثقافتها أو هويتها أو دينها أو شريعتها.. وإن انحسر دور الأمة – بسبب الاستبداد – فقد ظل العلماء – من غير علماء السلطان – يحركون الأمة، ويقفون معها في اللحظات الحرجة، والخطيرة، بل ويقودون المعارك – أحياناً – أي: لم تكن هناك خطة ممنهجة لإفساد الأمة، أو الفتك بها.. وكان الصراع على الملك – في كافة أحواله – لا يستهدف الأمة بالأساس..

ثم انتقلت الأمة – بعد سقوط الدولة العثمانية – إلى مرحلة من أخطر وأعنف وأشد ما تكون.. إنها مرحلة "الملك الجبري والطواغيت" أو "الفرعونية".. وهذه المرحلة ليست صراعاً على المُلك – كما في الملك العضوض – إنما صراعاً مع الإسلام ذاته، ومع الأمة بأكملها.. وبدأت الحرب من حينها.. حتى هذه اللحظة، الغرض منها تدمير الإسلام، وتدمير أمة الإسلام!

تدمير الإسلام بالخروج من هويته وشرعه وأحكامه.. فالهوية الإسلامية أصبحت عاراً يجب على الأمة التخلي عنه واستبداله بالهوية والحضارة الغربية وقيم الحداثة، حتى اللغة العربية تنكرت لها الجاهلية الفرعونية! وكانت هذه الهجمة الوحشية على مفاصل الإسلام وهيكله لم تتعرض لها الأمة من قبل بهذه الصورة التي تستهدف "سلخ" الإسلام من كل مقوماته.. فقد كانت الأمة في الملك العضوض تفخر بدينها وهويتها وشرع ربها.. حتى ولو حادت عنه حيناً، فلم تكن ترى أفضل منه، ولا أكمل منه، ولا أعدل منه.. ولكن هذه "الفرعونية" تستهدف كل مقومات الإسلام، ودعائمه.. وتترك للمسلمين فقط "الاسم" خالياً من أي مضمون! بل ولا تقبل الإسلام إلا أن يكون خادماً لها، والأمة المسلمة مجرد عبيد وعمال في صرحها! كما كان حال بني إسرائيل مع الفرعون.

فبعد سقوط الدولة العثمانية كآخر مظاهر "الملك العضوض" تمت السيطرة على "العالم الإسلامي" أو كما كان يسميه الاستعمار – الاحتلال المجرم – حينها "الرجل المريض"، ونجحت الحملات الصليبية أخيراً في تفتيت ووراثة العالم الإسلامي والسيطرة على القرار السياسي والاقتصادي والثقافي فيه، ومنع أي محاولة لعودة هذا التكتل العملاق من جديد؛ لتأتي مرحلة "الملك الجبري والطواغيت"؛ وتم تقسيم العالم الإسلامي عبر اتفاقيات قامت بها بريطانيا وفرنسا وروسيا..

لإضعافه، وإحلال "الدولة القومية" بديلاً عن "الخلافة الإسلامية"، وجاءت من ورائهم أمريكا لترث الإمبراطورية البريطانية، ولتحمل مشروع جديد لتقسيم العالم الإسلامي ليكون أشد ضعفاً، وأبعد عن القوة والاتحاد.

وأصبحت "مؤهلات الحاكم" – سواء أكان ملكاً أو رئيساً – في الدول القومية – تحت "الحكم الجبري الأمريكي والأوروبي" – أن يكون خائناً للإسلام، محارباً له.. وأن يبيع أمته، ومقدراتها، وثرواتها، وأن يحافظ على مصالح أسياده وأولياء أموره.. ويصبح كـ "الكلب المسعور" تجاه دينه وأمته، ومن يحاول الاستقلال والسيادة، ومن يحاول الدفاع عن الإسلام، ومن يحاول الحفاظ على مقدرات الأمة وثرواتها، بل ومن يُظهر قليلاً من المروءة والوفاء والصلاح.. يكون مصيره العزل أو القتل أو الانقلاب، ثم يسترون هذه الخيانة للدين والأمة بمسابقات القرآن الكريم، والاحتفال بليلة القدر، وبالمولد النبوي الشريف... إلخ؛ ليظهر الخونة أنهم حماة الدين والوطن.

والواجب على الأمة – شرعاً وحضارة وتاريخاً – أن تحشد أبناءها وعلماءها لمعركة التحرير من هذا الاستبداد والطغيان؛ لتعود ليس مرة أخرى إلى "الملك العضوض" ولكن إلى "الخلافة الراشدة" بإذن الله.. الخلافة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في قيادة أمته على كتاب ربها، وسنة نبيها التي فيها: الحكم بالحق والعدل، والشورى والحرية.. وعلى الأمة أن تقطع الطريق على "دجاجلة الحكم الجبري" الذين يَعبدون الطاغوت من دون الله، ويُركِعون الأمة للخونة والأعداء بزعم وأد الفتنة.. ألا في الفتنة سقطوا.

وعلى الأمة أن تدرك أنه لن تقوم لها قائمة، ولن يكون لها أي وجود حضاري إلا بأن تتحرر من هذا "الحكم الجبري"، وبأن تقوم لله بالحق، وتشهد بالقسط، وتمضي على صراط الله المستقيم.

***

وإنَّ محاولة تدمير أمة الإسلام تأتي من خلال "الطواغيت" أو "الفراعنة الجدد"، ويتم اختيارهم على أساس: جنون السلطة، وقسوة القلب، وكراهية الإسلام؛ فأعملوا في الأمة القهر والاستبداد والتدمير وإفساد العقول والقلوب والأرواح.. فحاربوا الدين، وسرقوا الثروات، ودمروا العقول، وقتلوا العلماء، وقهروا الأولياء، وأفسدوا الأخلاق.. وأطلقوا جنون الجنس، والكرة، والموضة، والعري، والإباحية.. حتى أصبح حال الأمة كـ "حال بني إسرائيل" تحت حكم فرعون.. فكان ما

قال عنه النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: "**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ**" [صحيح البخاري/3456]

فأصاب الأمة مثل ما أصاب بني إسرائيل من أمراض الاستبداد والفرعونية!

وفي أمراض الاستبداد: يصطدم الدعاة والمصلحون بمجتمع يعاني من أمراض الاستبداد والقهر، تدمرت بنيته النفسية والعاطفية، فلقد تركته أنظمة الطاغوت "بقايا إنسان" ومن هذه الأمراض: (الجدال بالباطل، العصيان، التكلم بغير علم، الشك، العناد، التعنت، الحقد والتباغض والحسد، أحادية النظر وسطحيته، المادية المفرطة، قلة الاستيعاب، الحرص والبخل، الرعونة، عبودية الذات، عبودية الشهوات، الترهل النفسي، التفلّت من الأوامر، المراوغة، ضيق النفس، النكوص والارتداد عن طريق الحق، عدم الوفاء، الجفاف العاطفي، الجمود في التعامل مع الرسالة، الخوف من السلطان المادي أكثر من الخوف من سلطان الله!، قلة المروءة، العصبية الجاهلية والحزبية، الشك وعدم اليقين، تقليد الأقوى بلا تعقل، الغرور بالجهل!، ضعف وشيجة العقيدة، وأواصر الأخوة).

وكما يرى الناظر كثرة هذه الأمراض وخطورتها الشديدة، وما يجب أن يكون في حسبان "أهل البناء" من أن هذه الأمراض تأخذ وقتاً وجهداً في العلاج، وتحتاج إلى وقاية دائمة، وتعهد دائم بها، وعدم استعجال ثمرتها.

إذ أن الكيان النفسي في الإنسان معقد بصورة عجيبة! وعندما يدخل عليه أمراض الاستبداد، ويتشرب الباطل.. ويعجز العقل عن رؤية النفس من الداخل، فيصيب الإنسان حالة "الكبر والهوى"؛ فتضيع منه "الحكمة والهداية"؛ فيكون في صورة عصية جداً على من يحاول بناء دولة ومجتمع وإنسان رباني خالص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

وعليه.. فلا يجب أن يُصدم دعاة الحرية والإصلاح بما سيلقونه من نفوس عصية، وهاربة، وضائعة، وغريبة، ومتقلبة، وتائهة، ومضطربة، ومتناقضة، ومندفعة، وخاملة، ومحدودة الرؤية والنظر والتفكير.. وإن إصلاح هذه النماذج يُمثل في حد ذاته "المعيار الحضاري" والتفوق الحقيقي للدولة المسلمة، فهي معنية ببناء الإنسان الرباني، وتوظف كل طاقاتها المادية والبشرية في هذا السبيل، وتعتبر خروج النموذج الإنساني الصحيح هو من معايير الفلاح في الدنيا.. وليس هو مقاييس العلمانية الجاهلية.

ويصبح الدعاة والمصلحون أمام تحديين:

الأول: إصلاح ما يمكن إصلاحه مما فسد من الإنسان سواء في عقله أو في نفسه أو علاقته بالإسلام، والعمل على اتخاذ كل التدابير اللازمة للوقاية له من الارتداد، واستباق العلاج له.. ومع ذلك لا يتوقع أهل البناء كبير استجابة أو ثمرة، لأن هناك الكثير من الحالات قد فسدت قلوبها بتشربها "التام" للباطل.. وعملية تطهيرها ربما لا تكفي ما تبقى من العمر!

الثاني: وهو بناء الجيل الجديد على أسس نظيفة، وصحيحة، وربانية.. غير متلوث بأي شيء خارج عن الإسلام وتصوراته سواء من الجاهلية المحيطة به، أو من العلمانية السائدة، وسيكون التحدي الكبير هو وجود "الكوادر" التي تفهم حجم وضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقها في إخراج "جيل قرآني فريد".. سيعيد رسم حضارة البشرية كلها من جديد!

وسيكون التحدي الآخر: هو قدرة هذه الكوادر على "تطهير" نفسها – أو على الأقل لديها استعداد قوي للتطهر من الجاهلية واللوثة العلمانية التي قد تصيبها بفعل العدوى المنتشرة – حتى تستطيع أن تضطلع بمهمة ستكون علامة فارقة في بناء "الحضارة الربانية الإسلامية" من جديد؛ فيشرق في الكون فجر جديد.. تنتظره الإنسانية كلها.

***

ولقد جاء القرآن الكريم يستعرض في آيات طوال رحلة بني إسرائيل – بعد نجاتهم من فرعون – ويكشف للأمة المسلمة حالة النفوس التي تعرضت لـ "الفرعونية" و"الطاغوتية" فترات طويلة.. في إشارة واضحة إلى ما ستؤول إليه أحوال الأمة في مرحلتي "الملك العضوض والجبري والطواغيت" أو "الفرعونية الجديدة".. وليضع لها طريق العلاج، ذلك أن الملك الجبري ليس هو الفصل الأخير من تاريخ هذه الأمة، وليس هو مصيرها النهائي المحتوم..

إنها على موعد مع الهداية والراشد، إنها على موعد مع "خلافة على منهاج النبوة".. وهي تستطيع أن تعود للرشد مرة ثانية.. ولا بد لها من عودة، ولا بد لها من إحياء، ولا بد لها من شفاء، ولا بد لها من "تمكين" لـ "الإيمان" في القلوب أولاً، وفي الحياة ثانياً.. ولا بد لها من "التطهر" من آثار الفرعونية، حتى تتأهل لـ "دخول الأرض المقدسة" التي كتب الله لها؛ ولتُطهر "مسرى" رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ ولـ "تطهر" بيت المقدس من رجس ودنس يهود.. ولا دخول للأرض المقدسة

دون جهاد، وهزيمة القوم الجبارين "الفراعنة – الطواغيت" الذين يقطعون الطريق على الأمة.. ولابد للأمة "الخروج" من التيه.. إلى "الأرض المقدسة".

ولكن لا بد من علاج.. والعلاج في القرآن الكريم فهو شفاء ورحمة للمؤمنين، "شفاء": مما أصابهم من الفرعونية، وأمراضها، وإفسادها، و"رحمة": لهم من إرهاب الجاهلية، وقهرها المادي، وسلطانها الوحشي.

فكيف نكتشف هذه الأمراض؟ وكيف نعالجها؟

هذا ما سنتناوله – بفضل الله – في السطور التالية.

***

تمهيد

في هذا الجزء – بإذن الله – سنرى طبيعة وأنواع أمراض الاستبداد التي ترسخت في نفوس بني إسرائيل، بفعل طول فترة الاستبداد والقهر تحت نظام الفرعون، وسنرى كيف أن القعود عن معالجة هذه الأمراض، والعجز عن الإمساك بها في مكنونات النفس الإنسانية.. يصيب الإنسان بـ "الهلاك" ويحوله إلى "فرعون" أشد وحشية وكفراً من الفرعون ذاته..

فإن أمراض الاستبداد عندما تنتقل من الفراعنة إلى العبيد – الذين لا يريدون الحرية ولا التحرر من أغلال وآصار الفرعون – يجعل هذه الأمراض تتطور وتتحور بصورة كبيرة، تحول العبيد إلى وحوش ! وإلى فسدة في الأرض!

ولهذا نجد أن القرآن الكريم أفرد لهذه الأمراض وأحوالها في النفس الإنسانية مساحة كبيرة، في سور شتى؛ ليقف المؤمنون على طبيعة هذه الأمراض وخطورتها، وكذلك على طريق العلاج الصحيح.. الذي يشفي – بإذن الله – الإنسان من هذه الأمراض.

وإن هذه الأمراض ليست خاصة بقوم بعينهم، أو جيل في زمان ما.. بل هي حالة عامة تصيب الإنسان عندما يقع تحت الاستبداد والقهر، ويستسلم له دون مقاومته، أو عندما يأتي من يحرره من هذا الاستبداد.. فتتكاسل نفسه، وتترهل روحه عن النهوض، فتستعذب القيود، وتتلذذ بالعبودية! فيورثها ذلك ذلاً لا يرفعه الله حتى تتوب النفس، وترجع إلى الله، وتُخلص له العبودية!

ولكن.. ما الذي يجعل النفس تستعذب القيود، وتتلذذ بالعبودية، وترد يد الحرية التي تريد أن ترفع عنها قيود الطغيان والفراعنة؟

يحدث ذلك نتيجة حالة من "الانقلاب النفسي" عجيبة.. إن النفس الإنسانية مُكرمة، حتى الطفل الرضيع يشعر بكرامته، ويبكي إن شعر بالإهانة! أو التجاهل أو قلة التقدير والاحترام! وعندما يبلغ الإنسان، وتتشكل كامل شخصيته.. يكون إحساسه بذاته، وكرامته قد اكتمل، وعندما يأتي الفراعنة

والطغاة لسحق هذه الكرامة، وإذلال الإنسان عن قصد وعمد، واستعباد إنسانيته تلبية لحاجة الفراعنة ربما في الضحك، أو التسلية، وقتل البعض مضيعة للوقت، أو نشراً للإرهاب والعذاب، وتثبيتاً للملك!

كل ذلك يجعل هذه النفوس تتخذ وضعية "الدفاع الذاتي" عن النفس، من القهر والبطش.. والمطلوب من النفوس السوية: هو إنكار هذا المنكر، ورد هذا الطغيان، وعدم الاستسلام للمجرمين من الفراعنة والطغاة، والصبر على هذا الأذى حتى يأتي أمر الله.

ولكن يحدث أن بعض النفوس الضعيفة، لا تقوى على "الدفاع الذاتي" بل تتخذ وضيعة أخرى خطيرة جداً، إنها تجد في وضعية الدفاع وإنكار جرم الطواغيت.. مسألة ثقيلة على النفس، أو مُجلبة لها مزيد من القهر والعذاب، فتتخذ وضعية "الاستسلام" للوضع القائم، ولا يتوقف الأمر عند الاستسلام فحسب.. بل تحاول النفس "تبرير" اختياراتها؛ والهجوم على من اتخذ وضعية الدفاع.. باعتبار أنه متهور مندفع حماسي، لا يدرك العواقب جيداً!

ثم تنتقل النفس إلى مرحلة أشد، فبعد التبرير.. تأتي مسألة "التماهي" في الفراعنة، وحبهم، والتعلق بهم.. فيقعون في "حب الجلاد" أو حب صفات الجلاد، وهي محاولة للتخلص من العذاب الواقع عليهم، أو حباً فيمن يملك القوى المادية الظاهرة !

ثم تأتي المرحلة الأخيرة وهي "التقليد" إذ يصبح شغف كل عبد أن يكون مثل الفرعون، وأن يعيش حالة الفرعون.. وأن يقلد الفرعون، وفي هذه المرحلة تنتقل أمراض الفراعنة، مقرونة بأمراض الاستبداد لتترسخ في نفوس العبيد، وعندها يستلذون الذل، ويستعذبون القهر، ويتسابقون على باب الفرعون، وإن شاهدوا الفرعون وهو يسحق غيرهم من العبيد بعد أن طردهم من على بابه.. لم يعتبروا ذلك درساً وعظة يستفيقون على إثرها، بل يجدون في ذلك فرصة عسى أن يقبلهم الفرعون!!

وعندما يأتي النور الإلهي، وتأتي يد الرسالة ترفع عنهم الذل والعذاب.. وترفع من كرامتهم، وتحترم إنسانيتهم.. يعتبرون ذلك ضعفاً لا يستحق التقدير؛ فيُعرِضون عن النور، ويتطاولون على الرسل والدعاة، ويؤمنون - إن آمنوا - على قلة حيلة، ويأساً من قرب فرعون، يؤمنون وهم يحملون هذه الأمراض، فتكون كارثة على مجتمع المؤمنين.

وأما أولئك الذين يعرفون عِظم النور الإلهي، ونعمة الرسالة، وقدْر الرسل والدعاة.. فأولئك هم المؤمنون حقاً، إذ هم في انتظار هذه اللحظة، ويستعدون لها، ويقاومون، ولا يستسلمون من أجلها، فإذا جاءت.. كانوا أفرح وأسعد الناس بها؛ فيبيعون أنفسهم وأرواحهم من أجل انتصار الحق.. وقليل ما هم أولئك الأحرار.

***

وسنقف في السطور التالية - إن شاء الله - على طبيعة كل مرض من أمراض الاستبداد على حدا؛ لنحاول الكشف عن أسبابه، وكيف أصاب هذه الأمة، وتشريح أحوال النفس المقهورة والمستبد بها.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

***

أمراض الاستبداد

أولاً: عدم تقدير الرسالة واستشعار نعمتها

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف]

في تعقيب بعض بني إسرائيل على عذاب فرعون لهم قبل رسالة موسى وبعدها، قالوا له: { أُوذينا من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا } وفي هذا الرد قلة احترام للرسالة، وعدم تقدير للرسل.. لقد رأى القوم ظاهر الأمر لا حقيقته..

شاهدوا فقط عذاب فرعون لهم قبل بعثة نبيهم، ومن بعدها! ولكنهم لم يشاهدوا الحقيقة كاملة.. إنها "نعمة" الرسالة، و"نعمة" وجود رسول من عند الله يُوحى إليه.. يعيش بينهم ! إنها نعمة عظيمة تستوجب الشكر التام، والفرح العظيم.. فذلك فضل الله ورحمته، نعم.. رحمته رغم عذاب الفرعون! وإن عذابه مجرد ابتلاء عابر في هذه الدنيا، لن يدوم، ولن يستمر.. وكل المطلوب: الاستعانة بالله، والصبر.. فهي أرضه، وكل من عليها عبيده وملكه، ولهذا كان جواب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون }

ولعل قومه من بني إسرائيل كانوا يريدون طريقة سحرية غامضة الأسباب، ساقطة التكاليف، تنجيهم من عذاب فرعون، دون أن يكون لهم دوراً أو مشاركة أو صبراً أو جهاداً، وهذا يكشف عن

حالة "الكسل الذهني" و"الترهل النفسي" الذي يسببه الاستبداد، إذ يُفقد الإنسان الفاعلية، والمبادرة، ويقعد به ينتظر لحظة القدر، دون أن يكون له دور أو خلافة في الأرض!

لقد تصور البعض أنه بمجيء الرسول ستنحل جميع المشكلات فجأة، دون إعداد أو تربية أو جهاد أو تغيير ما بالنفوس، وهذا تصور الذين يهربون من تكاليف الحرية، ويرضون بضريبة الذل والعبودية !

وإن النفس تحت القهر والاستبداد تُجيد "فن الشكوى" ولا تُجيد "فن الفاعلية".. تجيد التطاول، ولا تجيد الاحترام.. إن العذاب قد وقع عليهم من فرعون، وفيهم نبي من أولي العزم من الرسل، كانوا بدلاً من أن يقولوا له: { أُوذينا } يقولون: لقد مَنّ الله علينا بك، وشرّفنا برسالتك، وإنا في عذاب فرعون، فادعوا الله لنا أن يخفف عنا، وادعوا الله لنا أن يستعملنا في مقاومة فرعون، أو قل لنا سبيلاً يخفف عنا هذا العذاب.. ولقد سبق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ القول بـ : {استعينوا بالله واصبروا} ولكن يبدو أن قومه لم يفهموا الرسالة جيداً.

وإن الذين لا يدركون مكانة هذه النعمة، وعظم هذا المَنّ.. يتلقون الرسالة بصورة من "الاستهانة" و"قلة التقدير".

***

وإن انتهى عصر الرسل الكرام، فإن الصورة تتكرر مع خلفاء الرسل، والدعاة – حملة الرسالة من بعدهم – عندما يأتون قومهم، وهم في أذى من الفراعنة والطواغيت.. وهم منغمسون في الشقاء والعذاب، مسلوبة حقوقهم، ومسروقة حريتهم، وضائعة كرامتهم، عندما يأتيهم الدعاة بدعوة الرسل، وبالتوحيد الخالص.. فلا نجد الاحترام اللازم للدعوة، ولا التقدير المطلوب للرسالة.. ولا الشعور الحقيقي بأهميتها!

ولا يجدون فيها – مثلما لم يجد بنو إسرائيل – الخلاص من الأذى والعذاب، بل ربما اعتبروها مزيداً من العذاب لهم! وعندما يتبعون الداعية على أمل من متاع أو رفع من عذاب، ثم لا يجدون ذلك عاجلاً، قالوا: أوذينا! ويستعجلون الداعية بالمتاع، ولا يريدون أن يضطلعوا بدورهم ومهمتهم.

***

ولكن.. لماذا تتكاسل النفس عن حمل الرسالة، ولا تستشعر نعمتها ؟

لأن النفس المقهورة والمستعبَدة، تُمتهن كرامتها، وتسحق إنسانيتها، وتختزل حياتها في القدرة على الاستمرار في العيش، وتجنب بطش الطغاة والمجرمين! ومن ثم فهي لا تجد في أنفسها قيمة أو كرامة، ولا تستطيع أن تدرك قيمة رسالة روحية ربانية – هي في حقيقتها أثقل من ملء الأرض ذهباً – فالنفس لكي تحمل رسالة سماوية لا بد وأن تتحرر من الأغلال الروحية والمادية التي يفرضها الطغاة عليهم.

ويصبح التحرر من الطغاة، وإعادة الكرامة الإنسانية إلى وضعها الطبيعي.. ضرورة لا مفر منها للإنسان والحياة.

***

وفي الأمة المسلمة:

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أخرج هذه الأمة إلا من أجل إقامة الحق والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – بعد الإيمان به جَلَّ جَلَالُهُ – وإن تخليها عن حمل هذه الرسالة وبلاغها للناس، لهو تحلل من سبب وجودها وميلادها الأول، بل هو الانسلاخ من نسبها وكتابها وتاريخها..

والقرآن الكريم يوجه المؤمنين إلى شعور فضل الله ومنته بهذه الرسالة؛ حتى يشكروا نعمتها، ويوقروا حاملها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، والخلفاء فيها من بعده.. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس (57، 58)].

فالإسلام والقرآن هما الفرح العظيم، وهما خير مما يجمع الإنسان.. ولمَ لا؟ وهذه الرسالة أعظم من ملء الأرض ذهباً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران (91)].

وفي هذا المن العظيم بالرسالة يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران (164)].

ويقول تعالى في حالة "الأعراب" الجاهلون بنعمة الرسالة: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات (17)].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة (128)].

واحترام الرسالة، واستشعار نعمتها، وتقدير حاملها.. مسألة ضرورية أولية، وخطوة أولى على الطريق، وأول معالم شُكر النعمة، وإن عدم شكرها يؤدي إلى زوالها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم (7)]. ومن شكر النعمة الصبر على الأذى، واحتساب الأجر على الله، فضرر الطغاة محدود، وسيذهب – وسيَهلكون به – ويبقى الأجر عند الله: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ﴾ وسيأتي التمكين بإذن الله، عند اكتمال سننه وأسبابه: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران (111)].

والصبر على الأذى، والتقوى في كل شيء من عزم الأمور، والسبيل لإحباط أذى الأعداء: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران (186)].

***

ثانياً: اتخاذ الأصنام والأوثان

قال تعالى:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّـهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف]

حالة عجيبة.. يجب أن نتأملها طويلاً ! نبي من أولي العزم من الرسل، ومعه أخيه نبي الله هارون، ومن قبله أنبياء، وجاءوا بالآيات المعجزات البيّنات، آخرها أن انفلق لهم البحر، فمروا فيه، وأنجاهم الله من فرعون، وهلك فرعون الذي سامهم سوء العذاب، فيمر الركب الناجي على قوم عاكفون على أصنام لهم.. فيشعرون بالرغبة أن يتخذوا أصناماً مثلهم ! ويطلبون ذلك من نبيهم ! أنى هذا ؟!

ما الذي دفعهم إلى الرغبة في اتخاذ الأصنام؟

أهو التقليد ؟! ولمَ لا يُقلدوا نبيهم الكريم، ويستنوا بسنته؟!

أهو الشعور بالدونية، والرغبة في محاكاة الأقوى؟ كيف وقد فضلهم الله على العالمين – حينها – وأرسل فيهم نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

الحقيقة.. حالة يصعب فهم بواعثها النفسية، إلا أننا نستطيع أن نقول: إن حقيقة الإيمان في قلوبهم لم تنضج وتكتمل بعد، ولم تعرف كيف تؤمن في حالة تامة من الغيب الذي لا يحتاج إلى "صور مادية" – الأصنام والأوثان – وإن عقولهم تتصور أنها بحاجة إلى صورة من التقديس المادي الملموس المحسوس، يتوجهون إليها بالإيمان والعبادة!

ولعل هذه الحالة تناسب بعضاً من أحوال الجماهير والعامة، التي لا تريد أن ترتفع إلى مستوى الإيمان القلبي الخالص لله جَلَّجَلَالُهُ، ولا إلى مستوى الشفافية الروحية، ولا إلى مستوى الرقي العقلي الذي يرى آثار الله وصنعه الذي اتقن كل شيء في كل الوجود.. وعندما لا ترتفع إلى هذا المستوى تبحث عن "الصورة المادية" لتعويض هذا النقص..

ويصحب اتخاذ الأوثان.. إقامة أسواق التجارة بـ "الإيمان"؛ فتُقام المهرجانات والاحتفالات، وتنشط أسواق صناعة الأصنام، وينتعش سوق سدنة الأصنام، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويبيعون لهم الأوهام، فيُقدسون الخرافة، ويحترمون الجهل، ويصرفون صور من العبادة لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ !

فيصبح الإيمان في أسواق الأصنام والأوثان سلعة كأي سلعة.. لا قيمة قلبية لها ولا آثر، مهما زاع سيطها، وكثر أتباعها، وراج سوقها.

وإنْ استهول الناس اتخاذ الأصنام المادية المنحوتة من الحجر والشجر وغيرها.. حاولوا التحايل؛ ليتخذوا "الأوثان" المعنوية والفكرية والقلبية.. فيُقدسون الرجال، أو الأفكار الباطلة، أو المذاهب الوضعية، ويجعلونها معياراً وميزاناً، يأخذون منها القيم والتصورات، والأخلاق والمفاهيم، والفكر والشعور والتوجيهات، ويجعلونها حكماً وتبعاً لـ "الإيمان" أو يجعلون من الإيمان شعاراً مضمونه المذاهب الوضعية أو تقديس الرجال!

وإن النفوس ضعيفة الإيمان، ليست بحاجة إلى البحث عن آلهة ! ترى فيها الإله الأعظم ! بل بحاجة إلى مزيد من الإخلاص والتجرد، ومزيد من العمل والتقوى، ومزيد من الحب والشوق، لله رب العالمين.. ولكن نفوس العبيد، لا تريد أن تكون عبوديتها لله وحده لا شريك له، بل تطمح إلى "ممارسة" صور العبودية للبشر – كما عاشت، وكما تكيفت نفوسها – فتبحث عن "آلهة" مادية أرضية – ولو كانت أصنام لا تنفع ولا تضر – وإن كانوا في نفس ذات الوقت يؤمنون بإله للكون!

وإن هذه الثغرة الخطيرة.. ينفذ منها "تجار الأديان" في كل زمان ومكان؛ ليبيعوا للعبيد الوهم والخرافة، ولتنشيط أسواق الأصنام والأوثان.

ودعوة التوحيد تلفظ اتخاذ الأصنام المادية، والأوثان المعنوية.. وتريد القلب خالصاً تاماً لوجه الله الكريم، وتريده ممتلئاً بحب الله، وبالإيمان به، وتريد تحريره من الخرافة، والجهل، والوهم.. وتريده أن يصرف كل صور العبادة من دعاء وصلاة واستعانة واستغاثة ونُسك...إلخ لله وحده لا شريك له، وتريد أن تحرره من سدنة الأصنام والأوثان، فلا يخضع لهم، ولا يستجيب لخرافاتهم، ولا يذهب لسوقهم؛ فينطلق الإنسان حراً كريماً عبداً لله وحده لا شريك له.

***

وفي الأمة المسلمة:

مرّت حادثة مشابهة لحادثة بني إسرائيل هذه في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ وَهُوَ الْحَارِثُ بن مالك، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ وَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ شَجَرَةٌ خَضْرَاءُ عَظِيمَةٌ، يَأْتُونَهَا كُلَّ سَنَةٍ فَيُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا سِلاحَهُمْ، وَيَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَكَانَتْ تُسَمَّى ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِشَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ خَضْرَاءَ، فَتَنَادَيْنَا مِنْ جَنْبَيِ الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ نَسِيرُ إِلَى حُنَيْنٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: " **اللَّهُ أَكْبَرُ، كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَأْخُذُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ** " [دلائل النبوة للبيهقي: 5 : 124 | جامع الترمذي: 2180]

وفي راوية أخرى: عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: " **قُلْتُمْ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: { اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} إِنَّهَا لَسُنَنٌ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُنَّةً سُنَّةً** " [مسند أحمد بن حنبل/ 21389]

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَتْحِ وَنَحْنُ أَلْفٌ وَنَيِّفٌ، فَفَتَحَ اللَّهُ لَنَا مَكَّةَ وَحُنَيْنًا حَتَّى إِذَا كُنَّا بَيْنَ حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ أَبْصَرَ شَجَرَةً كَانَ يُنَاطُ بِهَا السِّلاحُ، فَسُمِّيَتْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، وَكَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ انْصَرَفَ عَنْهَا فِي يَوْمٍ صَائِفٍ إِلَى ظِلٍّ هُوَ أَدْنَى مِنْهَا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِهَؤُلاءِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: " **إِنَّهَا السُّنَنُ قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُوا إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، فَقَالَ: أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** " [المعجم الكبير للطبراني/ 27]

ولا نتصور أن الرجل القائل "اجعل لنا ذات أنواط" من المهاجرين أو الأنصار أو أهل بيعة الرضوان.. بل نحسبه حديث العهد بالإسلام، من طلقاء مكة أو نحو ذلك.. كما جاء في رواية الإمام مالك بن أنس: "فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ: وَنَحْنُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِالسِّدْرَةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، " اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: " **اللَّهُ أَكْبَرُ ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ** "، السِّيَاقُ لِمَالِكٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَعْمَرٌ، وَلا ابْنُ إِسْحَاقَ، حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ [معرفة الصحابة لأبي نعيم]

وإن كانت هذه الحادثة أخف من حادثة بني إسرائيل الذين صرحوا بـ: { اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة} وهنا: "اجعل لنا ذات أنواط" وليس "اجعل لنا إلهاً".. فهنا لم يكن المقصد الصريح كما طلبه بنو إسرائيل، ولكن حدث اشتراك في تلامس أجزاء الحالة النفسية للحادثتين، الأمر الذي جعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: "الله أكبر.. إنها السنن" ولعل القائل لم يكن يقصد – أو لم يكن يعرف – أن هذا الأمر يُعتبر صرفاً لصورة من صور العبادة لغير الله – كالذبح، والتقديس والعكوف عند الشجرة – وإن مسألة الشرك – ولو الرياء القلبي – مسألة جد خطيرة، وأخطر وأشد

وأعظم ما تحذر منه دعوة التوحيد، وهي مسألة شديدة الحساسية.. يجب أن تكون هكذا في القلب والشعور سواء على المستوى المادي أو المعنوي.

وإن مسألة التقليد في عمارة الأرض، وفي حضارتها المادية، وفي الجهد الإنساني المشترك في ترقية وسائل الحياة، واكتشافها.. فهذا مجال إنساني عام مفتوح، يساهم فيه الجميع، لكن عندما يدخله المسلم، يدخله وهو مُستعلٍ بإيمانه، مستغنٍ بدينه ورسوله عن كل ما سواه من أديان ومعتقدات، ويدخل بنية خلافة للأرض راشدة.

وأما مسألة التقليد أو المحاكاة في صور العبادة لأي قوم – مهما كانوا ومتى كانوا – مسألة مرفوضة جملة وتفصيلاً في دعوة التوحيد، فإن جميع صور العبادة والشعائر، وجميع صور التصورات عن الله والكون والإنسان والحياة، وجميع صور الاعتقاد في الله، وجميع صور التشريعات والحلال والحرام.. جميعها يجب أن يُأخذ من مصدر واحد هو "وحي" الله لأنبيائه ورسوله، ولا يؤخذ عن غيرهم.

ولقد ركب قوم من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سنن بني إسرائيل، فاتخذوا "ذات أنواط" من قبور أو مزارات يذبحون عندها، ويعكفون لها، ويقدسون مكانها.. ويصرفون من صور العبادة لها، تلك العبادة التي يجب أن تكون خالصة لوجه الله الكريم..

وعلاج هذا المرض الخطير سواء على المستوى المادي والمعنوي، يكون ببيان حقيقة التوحيد، وبيان خطورة اتباع سنن بني إسرائيل، وبيان صور الشرك وأنواعه التي حذر منها القرآن الكريم، ويكون بالصبر على جهالة الناس، والأخذ على أيديهم برفق، وروية؛ لرفع مستوى فهمهم ووعيهم وإدراكهم.. بعد أن ركبت رؤوسهم الجهالة والخرافة، وبعدما اتخذها السدنة والأحبار وسيلة للعيش والكسب، وخداع الناس، وأكل أموالهم بالباطل !

***

ثالثاً: كثافة الحس، ومادية الفكر

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّـهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً ﴾ [النساء: 153]

{لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}! إذن، فماذا كان في قلوبهم يوم أن جاءهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهم تحت عذاب فرعون؟! وماذا كان في قلوبهم يوم الزينة، يوم انتصر موسى على باطل سحرة فرعون؟! وماذا كان في قلوبهم يوم أن انفلق لهم البحر، فنجوا.. وهلك فرعون؟!

إن هذه القلوب الملتوية لا تمسك بالإيمان، ولم تتذوق حلاوته، ولم تعرف حقيقته.. إنها الآن بعد كل هذا الفضل والنعمة من الله، تكفر، وتتنكر، وتتكبر، وتشترط في إيمانها أن ترى الله جهرة ! وهي صياغة سافلة منحطة، تدل على كثافة حس، ومادية فكر، وانحطاط تصور، وسفه عقل.. وقد كان يمكن صياغة الطلب بأدب وحب وشوق إلى الله، وهذا حال المحبين مع محبوبهم الأعلى! ولكن الطلب هنا يدل على استكبار واستنكار لحقيقة الإيمان بالله غيباً..

فقد اشترطوا حتى يؤمنوا.. رؤية الله ! وماذا هم ؟ وماذا كل من وما في الوجود.. حتى يشترطوا هذا الشرط ؟! إنهم ذرات تائهة بالنسبة لهذا الوجود المادي الكبير، فما بالهم بالله خالق هذا الوجود، وخالقهم؟!

ولقد تصوروا الله جَلَّجَلَالُهُ في صورة جسم محدود يستطيع البصر إدراكه، وهذا جهل فوق جهلهم.. وضيق في تصوراتهم التي لا تستطيع إلا أن تؤمن بالمحسوس من الأشياء، وتتنكر وتكفر ما وراء ذلك!

وإن حقيقة الإيمان بالله، تكمن في رؤية آثار الله، ونعمته في هذا الوجود.. فترى صنع الله الذي اتقن كل شيء، وترى ما في أنفسها، وما في الأفاق؛ فيتبين لها أنه الحق، ليست بحاجة إلى رؤية الصانع، فهذا الوجود كله دال عليه جَلَّجَلَالُهُ.. والإنسان في هذه الدنيا من أجل هذا الإحساس بالغيب، والتصديق بالله، والإيمان به، وعدم الإشراك به، واتباع صراطه، وعدم التوالي عن هدى الله..

والإنسان بتكوينه هذا لا يستطيع أن يرى الله، ولا ما هو دون الله من خلقه الآخرين – كالملائكة والجن ومما لا نعلم – فكيف بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟! وحتى ولو افترضنا أن الله جَلَّجَلَالُهُ قد خلق في الإنسان هذا الاستعداد لرؤيته، فلا يصح الإيمان إلا غيباً، فاشتراط الرؤية – والمعجزة المادية القاهرة – لا ينفع معها الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر (85)]. وهذا الإيمان لا ينفع عند رؤية عذاب الهلاك، وانكشاف بعضاً من أستار الغيب لهم لحظة الهلاك، فما بالنا بحقيقة إيمان من يطلب رؤية الله جهرة ؟!

وإن هذا الطلب برؤية الله، وجعله شرطاً للإيمان ! يكشف عن "موت الروح" و"انغلاق القلب".. الأمر الذي أعماهم عن "رؤية" بديع صنع الله.. ونظرة واحدة في السماوات أو في الأرض أو مما خلق الله من الدواب والأنعام، أو مما خلق من النبات والجماد، أو عودة إلى النفس لتتأمل ولو

للحظات أحوالها، نظرة واحدة بقلب مفتوح "مستعد" لتلقي نور الله، كفيلة وحدها باشعال جذوة الإيمان في القلوب !.

أما القلوب المتحجرة المقفلة، والعقول القاصرة الضيقة، والنفوس الخبيثة الوضيعة.. لا تستطيع أن ترتفع إلى ما فوق المحسوس، فلا يتعدى إدراكها عالم البهيمة، ولا اهتمام البهيمة، ولا شهوة البهيمة !

وإن الفارق بين تفكير أهل الإيمان، وتفكير أهل الكفر والأوثان.. هو الإيمان بالغيب، والعمل لليوم الآخر، ولا يصح الإيمان إلا به، فهو الذي يرفع من تصورات الإنسان، ويوسع من رؤيته، ويرقي من خلقه، ويزكي أفعاله ! أما من يعبد المادة والمحسوس من الأشياء، فلا تتعدى حركته في الحياة حركة الأنعام بل أضل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف (179)].

والحقيقة إن عقل الإنسان لا يكف عن التفكير في الله، وتمني رؤيته.. ولكن هناك فرق بين التشوف والتطلع والشوق والحب لرؤيته الله، وسكون الروح عند جنابه العظيم – فلا تسكن إلا بهذه الرؤية وهذا الحب – وبين الاستكبار والتنطع وسوء الأدب، ووضاعة السؤال، والاشتراط على الله بعدم الإيمان إلا عند رؤيته. فرق شاسع جداً، إنه ببساطة الفرق بين القلوب المؤمنة والقلوب الكافرة..

ولقد سأل موسى أن يرى الله.. ولكنه سؤال المحب لربه، سؤال الذي لا يصبر على شوقه لله فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف (143)]. وإذا كان الجبل العظيم لا يصمد أمام سبحات نور الله؛ واندك الجبل.. فكيف بجسد موسى الضعيف ؟!

وكان من دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ: "**اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**" [سنن النسائي الصغرى/ 1305]

وجعل الله نعيم رؤيته فوق كل نعيم: قَالَ اللَّهُ جَلَّ في عُلاه: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق (35)]. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة (22، 23)].

أما النفوس الكافرة التي تطاولت، واستكبرت، واشترطت الرؤية في الدنيا للإيمان، فلن تر الله في الدنيا، ولا في الآخرة، ولن يكلمهم الله، ولن يزكيهم، ولن ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران (77)].

ولو كانت القلوب التي قالت: {أرنا الله جهرة} حقاً تريد الرؤية شوقاً وحباً إلى الله – لا عناداً واستكباراً وإعراضاً – لأسكب الله في قلوبها من الرضى والحب والطمأنينة والسكينة، ما تتقوى به على يوم اللقاء، ولكن لما كان الطلب في استكبار واشتراط أخذتهم الصاعقة والعذاب ! ليعلموا أنهم تحت يد الله، وفي إرادته ومشيئته المطلقة.. فما أن أتموا طلبهم حتى أخذتهم الصاعقة، ثم أرجعهم الله إلى الحياة مرة أخرى؛ لعلهم يشكرون، ويؤمنون، فقد أراهم الله نعمته وفضله وكرمه وعطاءه، وها هو جَلَّجَلَالُهُ الآن يُريهم غضبه وعذابه وانتقامه.. فليس لهم إلا التسليم لوجه الله الكريم، وتوقير الرسالة، وتوقير رسول الله إليهم.

فكان الإيمان تحت وقع العذاب والتنكيل، تلك الاستجابة الذليلة، كالاستجابة تحت وقع السياط، فإذا رُفع.. وقع التمرد، وإذا أُنعم عليهم تبطروا، وهذه الفطرة الفاسدة تكونت بفعل "طول الذل" من طغيان فرعون الطويل عليهم..

وكرم الله لهم حاضر ودائم، فيُهون سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عليهم حياة الصحراء، وقسوتها.. بالسحب وبالطعام السهل القريب المنال؛ لعلهم يشكرون، وإن كفروا.. فما ظلموا الله جَلَّجَلَالُهُ، ولكن

أنفسهم يظلمون، كما جاء في الحديث القدسي: "... **يَا عِبَادِي: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي، فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...** " [صحيح مسلم/2580]

***

ويواجه نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نفس كثافة الحس، ومادية الفكر مع قومه من قريش، فسألوه مثل الذي سألته بنو إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّـهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ [الفرقان : 21]

فتشابهت قلوب الذين لا يؤمنون !

***

وفي الأمة المسلمة:

انتشر الفكر المادي، وعلت صيحات "الشيوعية" و"الإلحاد" و"عبادة المال والمادة" وكل زبالات ملاحدة الفلاسفة في كل جيل، وصار الناس يتفاخرون - في أجيال مختلفة - بماديتهم، وبإلحادهم! فإذا انكسرت وفشلت، غيروا المسمى، وغيروا معها جلودهم وشعاراتهم..

وتبجح البعض بأنه لا يؤمن - كما فعلت بنو إسرائيل - إلا بالمحسوس من الأشياء، وما وراء ذلك فغير موجود، أو على الأقل لا يعنينا وجوده !.

وعلى هذا التصور المادي الباطل أقاموا مؤسساتهم وحياتهم، بل ونظم التعليم التي كانت تعلم المادية والإلحاد لأبناء المسلمين - بكل وقاحة وكفر في جيل من الأجيال - وانتظر الناس وعود الشياطين، وجنة الحياة الدنيا، فلم يجدوا إلا وحوشاً مفترسة، أكلت إنسانيتهم وإيمانهم وثرواتهم وحياتهم وضيعت مقدرات أوطانهم، ولمَ لا ؟ فكيف لمن لا يؤمن إلا بالمادة ويعبدها، أن يتنازل عنها أو يعطيها عن طيب خاطر؟ ولماذا يقيم العدل، ويضحي بمصالحه، ومتعته الآنية وهو لا ينتظر جزاء في الآخرة، فهو لا يؤمن بها؟! ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة (268)].

وتطور الفكر المادي - حتى تستسيغه الأمة - ليلبس ثوب الإسلام.. صار أهل المادية يؤمنون بالإسلام "عقيدة" وبـ "الإلحاد" و"عبادة المال" مذهباً وطريقاً ومنهجاً في الحياة، حتى التبس على كثير من الناس حقيقة الأمر، وطبيعة هذا المكر والانحراف..

فأقاموا نظم حياتهم ومعاشهم وتشريعاتهم بعيداً عن هدى الله، وشرعه.. مع رفع شارة العقيدة الإسلامية؛ حتى يتخدر الناس بها، ولا يثورون من أجل غيابها.

وهذا الفكر المادي، وهذا الكثافة في الحس والشعور، وهذا الانحطاط في التفكير، والبلادة في الفهم.. حصر التصور الإسلامي عن الله والكون والإنسان والحياة في أضيق صورة، وكبل انطلاق الفكر الإسلامي المتفرد الرباني ليعمل في الحياة بصورة مستقيمة صحيحة متكاملة.. فذلت الأمة، وخضعت لكل وغد جبان مخادع.

ولا سبيل للعودة إلى الريادة والإمامة والقيادة إلا بجلاء حقيقة الإيمان بالغيب في القلوب والعقول والأرواح، وبتطهير النفس مما أصابها من لوثة المادية التي تضرب أرجاء الأرض الآن.

***

رابعاً: الاستجابة للباطل، والقابلية للضلال "اتخاذ العجل"

قال تعالى:

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ

فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [طه]

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة]

هناك مشكلة خطيرة وكبيرة في هذه القلوب التي اتخذت العجل، وهي: الميل لطلب "الانحراف" لا اتباع "الهداية"، إن هذه القلوب التي اتخذت العجل، قلوب فسقت؛ لأنها أعرضت عن آيات الله البيّنات، وانصرفت عنها بظلمها، واتبعت أحوال "دار الفاسقين" بعدما كتب الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الألواح: الأخلاق والمواعظ والتشريعات، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا

سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف (145، 146)].

وانتقلت هذه القلوب من مجرد "محاولة التقليد" السابقة في عبادة الأصنام – بينما موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معهم! – إلى "عبادة العجل" الأمر الذي يُوضح إصرارهم على الانحراف، ونيتهم المستقرة نحو الضلالة !

فعندما تفسق القلوب تُعرض عن سبيل الرشد، وإن رأت سبيل الغي مشت فيه! ولقد سبق الحديث في قولهم: {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة} لتكشف في صورة مبكرة عما أصاب هذه القلوب، وعند مدى الخلل النفسي، والفساد الفكري، وقد كان يكفي هذا الدرس.. لا سيما بعد "معجزة" نجاتهم من فرعون وجنده، وقول رسولهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن أن الذين يعكفون على هذه الأصنام هالكون، وباطل ما كانوا يعملون.

وإن انخدعت العقول مرة، فقد كان يكفي هذا الدرس من نبيهم.. أما أن يعدوا وفي صورة أشد إلى ذلك – في صورة اتخاذ العجل – فالمسألة إذن لم تكن غفلة عقل، ولا انخداع حال.. بل حالة من "فسق القلوب" وقابليتها للانحراف، واستعداها للضلال.

ولقد وردت هذه القصة – اتخاذ العجل إلهاً! – في سورة الأعراف، وطه، والبقرة.. وإشارة للتذكرة – وجمع لجرائمهم – في سورة النساء؛ لتكشف عن حقيقة وخطورة هذا المرض، وكيف انزلق القوم إلى عبادة عجل، وفيهم اثنين من أنبياء الله!

ولأن بعض القوم – من بني إسرائيل – لم يفهموا حقيقة التوحيد، ولم تتشربها قلوبهم، بل كان فيها بقايا من رغبة "اتخاذ الآلهة والأصنام" فوجدها "السامري" فرصة لإضلال القوم عن دين الله، وهي وقاحة شديدة منه، وجرأة رغم وجود نبي الله هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بينهم، ولعل السامري وجد من "فسوق قلوب بني إسرائيل" فرصة عظيمة ليتقوى بها على سعيه في إضلالهم.. وكل هذا الأحداث

هي تحت عين الله، وبقدر الله؛ ليبتلي المؤمنين، ويذل الكافرين ويطردهم من رحمته، ويكشف أحوال قلوبهم، وانحرافها عن الصراط المستقيم؛ لتكون درساً للمؤمنين في كل جيل.

ومضى السامري يحقق لهم الرغبة الكامنة في قلوبهم من "اتخاذ الأصنام" فأخرج لهم - بعدما تخلصوا من الحُلي والذهب الذي كان معهم من مصر - عجلاً جسداً، يُحدث صوتاً! ورغم سخافة أن يكون هذا إلهاً.. إلا أنهم صدّقوا السامري، وكذّبوا نبي الله هارون، بل كادوا يقتلونه !؛ لأن في قلوبهم رغبة لذلك، استطاع السامري أن يتلاعب بها.

ولما رجع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، واشتعل غضباً من هول ما رأى، رغم أن الله أخبره بضلال قومه - قبل أن يصل إليهم - لكن وقع العين على النفس، ليس كوقع الأذن.."فليس الخبر كالمعاينة" فكان تبرير القوم غاية في الوقاحة، والاعتذار البارد.. ومحاولة لـ "الهروب" من الاعتراف بالذنب، وتحمل المسؤولية، ومحاولة إلقاء التبعة على غيرهم، دون البحث في ذواتهم عن أسباب "استجابتهم" لهذا الباطل، وعن مدى "قابليتهم" لهذا الإضلال.. وهذا يُعد بعداً آخر لفساد وفسوق هذه القلوب، فلو كانت ضَلّت - لأي سبب - وهي خالصة النية والقصد لله، لكانت عند انكشاف الحقيقة أسرع للتوبة والندم والاعتراف، وشعور الغصة والعذاب من كبير الجُرم الذي وقعوا فيه، والشجاعة في الاعتراف بالجريمة، وتحمل تبعاتها ومسؤوليتها.. لكنهم "يبررون" موقفهم بكل وقاحة، ويلقون تبعة الأمر كله على شخص "السامري"، وعلى ما كانوا يحملونه من حُلي وذهب قوم فرعون!

وهذا الانحراف النفسي الذي يجعلهم يتورعون عن حمل ذهب قوم فرعون الذي كان عندهم، واعتذارهم عنه، وادعوا أن هذا الأمر فوق طاقتهم: {ما أخلفنا موعدك بملكنا، ولكنا حُملنا أوزاراً من زينة القوم} تورعوا عن ذلك، بينما وقعوا في عبادة عجل! ليكشف عن أثر الاستعباد الطويل في النفس، وانقلاب الموازين، واختلال الفكر، وسيستمر هذا المرض وهو "الورع الكاذب" - الذي يحاسب على البعوضة، ويبتلع الجمل - معهم فيما سيأتي من أحداث.

وإن الذين فسقت قلوبهم وعبدت العجل، سينالها الغضب والذلة في الحياة الدنيا، والذين تابوا من بعدها وأصلحوا.. فلهم المغفرة، فمن رحمة الله العظيمة الواسعة أن يقبل التوبة، ويعفوا عن السيئات.

***

ورغم بلادتهم وتفاهتهم في عبادة عجل! يتطاولون على نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويَدعون أن هذا إله موسى، لكنه نسي وضل عنه.. عندما ذهب للقاء الله! وفي هذا سوء أدب، كسوء أدبهم السابق في قولهم: {أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا} وأما قولهم: {هذا إلهكم وإله موسى فنسي} فكأن هؤلاء المنحرفون السفهاء يريدون أن يقولوا: إنهم أعلم بالله وبحقيقته من نبيهم! وهذه عادة للبلهاء "ادعاء الذكاء والفطنة"، والاستكبار عن التواضع للحق، واتباع الصراط المستقيم، ربما لشعورهم بالنقص والفراغ.

ونلحظ شدة إيمان الذين فسقت قلوبهم في عبادتهم للعجل ! فقد هَموا بقتل هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لما نهاهم عن هذا الفعل الشنيع.. ولم نجد هذه "الغيرة" في عبادة العجل، كغيرتهم في عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا العجل لا يُكلمهم، ولا يرد عليهم، ولا يملك لهم نفعاً، ولا ضراً.. ولم ينجهم من عذاب فرعون، والله جَلَّ جَلَالُهُ هو الذي أنجاهم من هذا العذاب.. والعجيب أنهم لم يعتبروا العجل مجرد شيء مُبارك فحسب - وهذا باطل محض - ولكنهم وصلوا بهذا العجل إلى التمجيد والتقديس الكلي، فاعتبروه إلهاً، وزيادة في التأكيد.. {وإله موسى}، ويبدو أن الدعاية الكاذبة هنا عملت عملها، فبعد أن أخرج السامري العجل، تحركت الدعاية {قالوا: هذا إلهكم} فلم يقلها السامري وحده، بل نشر الخبر جماعة من القوم؛ ليتطاير الأمر بينهم.

ونجد حالة التوافق بين فرعون والسامري.. ففرعون استعبد قومه، وأذل بني إسرائيل فقال: {ما علمت لكم من إله غيري} {أنا ربكم الأعلى} ولعل السامري كان يريد أن يطمح إلى أن يكون مثل فرعون هو الآخر، لكنه لا يُملك سلطاناً ولا متاعاً ولا حكماً.. فوجد من اتخاذ عجل يكون هو

خادمه، والقائل بأمره.. فرصة للاستخفاف ببني إسرائيل، كما استخف فرعون بقومه.. الذين كانوا فاسقين.

والسامري كذلك لا يملك حجة، ولا دليل.. فهو يدعي المعرفة، وما زينته له نفسه أو زينه الشيطان له ! وهو اعتذار قبيح مثل اعتذار الذين استجابوا له، وجاءت العقوبة من جنس العمل، فقد كان يطمح إلى الشهرة، وكثرة الأتباع.. فأصبح لا يمسه ولا يقترب منه أحد، ولا يقرب هو أحداً – لمرض أصابه – عقوبة من الله في الدنيا جزاء ما فعل، وله كذلك موعد في الآخرة.

***

ونجد من جانب آخر: تشرّب وامتلاء قلوبهم بحب العجل!: {وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم} وهي حالة عجيبة، كيف يمتلأ القلب بحب عجل وعبادته، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كرّمهم، وسخر لهم العجل ليأكلوا منه، وينتفعوا به؟! كيف يتنازلون عن إنسانيتهم وكرامتهم وأمانتهم ليعبدوا شيئاً سخره الله لهم، هو وما في السماوات وما في الأرض: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية (13)] ؟!

تقول بعض التفاسير: "إنهم لما اتخذوا العجل إلهاً.. صاروا يجتمعون حوله ويتراقصون ويتواجدون"، ولعل الشيطان زين لهم ذلك، وأوقع في قلوبهم الفاسقة الألفة والمحبة بينهم، فجعل هذا الرقص والتواجد والهيام والصياح، حالة من "العشق" الجماعي، بفعل "المشاركة" في العبادة.. مما جعل قلوبهم "تتشرب" حب العجل! وعبادته ! فتكون هذه الحالة من الحب والاقتناع حاجزاً أمام العقل لإدراك البديهيات، وترك نفوسهم في حالة من الإيمان بالعجل! جعلتهم لا يتورعون عن محاولة قتل نبي الله وهو يناههم عن ذلك.

وفي المودة والحب في اتخاذ هذه الأوثان.. يواجه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الحالة مع قومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت : 25]

وقطعاً هذه القلوب الفاسقة لم تتذوق الإيمان.. مهما ادعت قولها باللسان، فإن حالة التشرب هذه معناها أن القلوب خاوية، فاسقة، كافرة، استقبلت حب عجل بهذا الترحيب والقناعة بل واليقين !.

ولهذا جاء الجزاء من جنس العمل، فإن كانت توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً.. {فاقتلوا أنفسكم} فدلالة أنفسكم هنا: توحي بالتماهي فيما بينهم في عبادة العجل، فكان العقاب هو أن تُقتل هذه الألفة الباطلة، وهذا الحب الشيطاني؛ حتى يتوب عليهم من خلقهم ورزقهم وصورهم.. فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التواب الرحيم.

وإن كان المُخاطب بقتلهم هم البقية من بني إسرائيل الذين لم يعبدوا العجل واتبعوا هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذلك أيضاً هو "المفاصلة" التامة لأولئك الذين عبدوا العجل، حتى ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم، فعند الشرك بالله تسقط وشيجة القرابة والدم، وتبقى وشيجة العقيدة وحدها.. وهي عقوبة ثقيلة جداً على النفس أن يقتل الأخ أخاه.. فهذه كأنما قتل نفسه، ولكنها تربية للنفوس التي لا تتماسك عن شر، ولا تتناهى عن منكر.. وتوبة من الله على الطائعين الذين لم يمنعوا هذا المنكر الشنيع، وتوبة كذلك على ما ارتكب هذا الشرك العظيم.. وهذه رحمة الله، ورأفته بعباده؛ لفتح باب التوبة لهم.

***

وفي الأمة المسلمة:

ورد عن ابْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: "أَنْتُمْ أَشْبَهُ الأُمَمِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ سَمْتًا وَهَدْيًا، تَتَّبِعُونَ عَمَلَهُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، غَيْرَ أَنِّي لا أَدْرِي أَتَعْبُدُونَ الْعِجْلَ أَمْ لا؟" [معالم التنزيل تفسير البغوي، مصنف ابن أبي الشيبة / 38383]

والحقيقة – والفضل من الله – لم يُسجل تاريخ الأمة المسلمة – حتى الآن – أن اتخذت عجلاً جسداً، وجعلته إلهاً ! لكن التاريخ يسجل حقيقة أنها اتخذت من البشر آلهة ! فقد جعلت من بعض الطواغيت "زعماء" ووجدنا القوم الفاسقين، وهم يسجدون لصورهم، ويُقبلونها، بل ويطوفون

حول تماثيلهم وصورهم! في صورة شبيهة باتخاذ بني إسرائيل للعجل، ووجدنا حالة "الألفة" و"التوافق" بينهم، وتشرب قلوبهم لهذه العبادة !

ووجدنا "سامري" هذا العصر، كلما هلك طاغوت أو إله مما يصنعونه من خلال الدعاية الكاذبة والبطولات المزعومة، أخرج لهم إلهاً آخر، جعل له نفس الزعامة والدعاية، وجعل الناس يتراقصون حوله، ويسجدون لصوره، ويتخذون له التماثيل!

وكلما نهاهم داعية إلى الله عن ذلك.. إما قتلوه أو اتخذوه هزواً، ووجدنا قلوب القوم الفاسقين وهي "تتشرب" حب هؤلاء الطواغيت، رغم قهرهم وإذلالهم للجميع، ورغم جرائمهم، وفسادهم، لكنها تجتمع على "حب الفسق" و"تشرب عبادة الطاغوت".. بل وهناك منهم من يستمر تأثيره بعد هلاكه، ويجعلونه قدوة ومثالاً للأجيال من بعدهم!

ووجدنا كذلك الدعاية الكاذبة التي تُشبع المجتمع بالقول: "إنه الزعيم" "إنه القائد" حتى يصبح كل قول غير ذلك، هو خرافة وباطل!

ولكن رغم كل هذا التشابه بين سامري بني إسرائيل، وسامري الأمة المسلمة.. إلا أن التصريح المباشر بالقول: {هذا إلهكم} لم يتجرأ عليها أحد بعد، بل يَدعون الإسلام؛ ليتستروا به على عبادة السامري، والطاغوت، ولخداع القوم الفاسقين.

وإن الذين يتشربون حب الطواغيت والآلهة المدعاة والمزعومة، ويتبعون سبيل الغي؛ ينالهم الغضب والذلة في الحياة الدنيا، ومن يتوب ويستفيق، ويسارع إلى ابتغاء مرضاة الله، ويتبع سبيل الرشد.. فالله يتوب عليه ويرحمه.

***

خامساً: تبديل القول، والنطع عن الاستجابة

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف]

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة]

الله جَلَّجَلَالُهُ يدعوهم إلى الخير والعزة بعد الاستكانة والذلة.. ويجعل لهم من قرية – أي: مدينة كبيرة، ويقال: إنها بيت المقدس – سكناً وأمناً، فيه من الرغد والعيش ما يشاؤون.. وعليهم التواضع والخشوع والسجود شكراً لله على هذه النعمة العميمة والجزيلة – كما فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ لما دخل مكة فاتحاً ساجداً على ظهر دابته – عليهم أن يستغفروا الله من ذنوبهم، ويتوسلون إليه أن يحط عنهم أثقال وآثار هذه الذنوب، والله رحيم يغفر الذنوب جميعاً، بل ويُبدل السيئات حسنات، ويفرح للذين يتوبون من قريب، بل والزيادة في الطريق إلى المحسنين.. الذين أخلصوا نفوسهم وقلوبهم لوجه الله الكريم، إلا أن كل هذا الفضل والخير يُقابله الذين ظلموا وفسقوا بتبديل القول، والاستهزاء بالدعوة، والاستخفاف بالفضل، ورفض الرحمة، والإعراض عن الاستغفار، فخالفوا في القول والفعل معاً.. مخالفة تامة لا تحتمل الاجتهاد أو التأويل؛ فحق عليهم العذاب بما ظلموا وبما فسقوا.

وهذه طبيعة في النفوس التي قاست الذل والاستعباد طويلاً.. إنها:

(1) تستخف بدعوة الحق.

(2) تتكاسل عن الاستجابة.

(3) ترد اليد التي تريد أن ترحمها.

(4) وتذل وتخضع ليد البطش الضاربة عليها.

(5) ورغم هذه الذلة والخضوع للقوى الظاهرة، تستكبر وتستعلي عن دعوة الحق.

(6) وهذه النفوس لا شك ظالمة، لا شك فاسقة.

لماذا لم يستجيبوا لدعوة الله لهم بدخول "بيت المقدس" ولماذا استهزءوا بالاستغفار من ذنوبهم، وتبديل القول؟ ما هي المشقة في الاستغفار؟! وأخذ أمر الله بجد وقوة ويقين؟! ولماذا لم يكن هذا الاستهزاء مقابل دعوتهم لعبادة عجل؟ ولماذا لم يتواضعوا ويسجدوا لله جَلَّجَلَالُهُ وقد هموا بالسجود لعجل، واتخاذ أصنام ؟!!

إننا نقف طويلاً أمام هذه الأسئلة ولا نجد جواباً سوى وصف الله لهم بـ "الظلم" و"الفسوق".. فقد ظلموا أنفسهم مراراً من قبل، ظلموا أنفسهم فلم يوقروا نبيهم موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وأخيه هارون الذين هموا بقتله، وظلموا أنفسهم فلم يأخذوا أمر الرسالة، وحمل الدين بإيمان وصدق، وظلموا أنفسهم لما لم يطلبوا الرحمة والهداية من الله؛ ففسقت وفسدت هذه النفوس، وأُغلقت هذه القلوب عن سماع الحق، والاستجابة للهدى؛ فذلت لفرعون، واستكبرت عن دعوة الله لهم بالرحمة والمغفرة! فأي شقاء وظلم للنفس هذا؟

إن النفوس التي أفسدها طول القهر والاستعباد تحسب أن دعوة الرحمة والمغفرة، ودعوة الخير والإصلاح.. هي دعوة تصدر عن ضعف، وهم لا يحترمون إلا الفراعنة التي تلسع ظهورهم بالسياط!

إنها لا يجدون لأنفسهم كرامة، ولا مكانة، فيردون داعي الخير، ويُقبِلون يد الجلاد.

والدعوة هنا صادرة عن رب الأرض والسموات.. دعوة للمغفرة ورغد العيش معاً، فردها يدل على وقاحة شديدة، وبلادة لا تصدر إلا عن سخف عقلي، وفسوق نفسي.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم (7)]. فكفر نعمة المغفرة من الله، يُوجب العذاب الشديد، وكفر نعمة التواضع والعبادة لله، يُورث النقمة والذلة والهلاك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر (60)]. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران (97)].

***

وفي الأمة المسلمة:

كثير منها مَن يتباطأ عن الاستجابة، وحمل الرسالة.. ولا يأخذ الأمر بعزم ويقين، بل في أحيان كثيرة تحسب الأمة أنها غير المعنية بالخطاب ! ويُبدل حقيقة الدعوة إلى التوحيد، وحمل الرسالة كثير من الناس ! وتتلكأ عن الاستغفار من ذنوب القعود، وذنوب التيه، وذنوب البغي، وذنوب المنكر، وذنوب الجهل، وذنوب الظلم، وذنوب الفسوق... إلخ.

وها هي تتقلب في العذاب والذلة، حتى ترجع، وتتوب.. ها هي ترد دعاة الخير، وترحب بدعاة الشر !

ها هي تحسب الدعوة إلى الخير ضعف وخوار! وتستخف بدعاتها.. ولا توقرهم، وتتطاول عليهم، بينما دعاة الشر، ومن يحملون السياط فهي تتواضع أمامهم، وتذل لهم! فأي انقلاب في النفس هذا!

وإن القضية الأصلية ليست في يد الشر التي تحمل السياط.. إنما في النفس التي تنحني أمام هذه السياط، ثم تُحب الجلاد في النهاية! القضية هي في "اعتدال النفس" واستقامتها حتى ترى الخير خيراً وتمضي فيه، وترى الشر شراً وتمتنع عنه!

إن يد الجلاد ارتفعت على الظهور، لما رأى انحاءها، ولو أنها مستقيمة راسخة واقفة مؤمنة عادلة، ما استطاع الجلاد يوماً أن يرفع عينه فضلاً عن أن يرفع سوطه!

دوماً تكون القضية الأصلية والمشكلة العميقة هي داخل النفوس والقلوب والعقول.. والإصلاح يبدأ من هناك، وإنَّ مظاهر المشكلات من جلادين وطغاة وغيرهم.. ليس هو الموضوع الرئيس، بل هم أعراض المرض، والعلاج في اليقين بالإيمان، والإسراع بالاستجابة لداعي الله، والمعالجة بالمغفرة، والتسابق بالخيرات، وحمل الرسالة بصدق، وتوقير دعاة الخير، واحتقار دعاة الشر، واستقامة الموازين النفسية، والتصورات العقلية على هدى الله؛ وذلك الذي يجعل الإنسان يرى الخير خيراً، والشر شراً، ولا تنقلب الصورة عنده كما هو حال القوم "الظالمين الفاسقين".



سادساً: التحايل والتفلت من التكاليف

قال تعالى:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 60]

إن قوم موسى – في هذه القصة – يؤمنون بالله ! ولكن هذا الإيمان يكاد لا يُوجد له حقيقة أو أثر في واقع حياتهم، أو في طرق تفكيرهم، فكأنهم يحسبون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم، وكأنهم لا يعلمون أن الله يعلم ما كان وما سيكون من أفعالهم.. فليجأون إلى "التحايل"! ولكن على من يتحايلون والله سميع عليم بصير بهم، وهو خالقهم وأعلم بما في نفوسهم؟! ولكن هذه المعاني الإيمانية لا تستطيع أن تحويها قلوب "الفسقة" الذين اعتدوا على حرمات الله..

ومن الناحية النفسية نرى حالة من الالتواء والتذبذب والهرب من شبح "فسوقهم" و"إعراضهم" و"كفرهم" فلا يملكون الشجاعة في الكفر، ولا الصدق في الإيمان! وهذه هي طبيعة "النفوس المقهورة المُستذَلة" ولهذا تلجأ إلى "الحيلة"! ولا بد من اختبار "الإرادة والاستعلاء" عن الإغراء، والارتفاع عن الأهواء والأطماع.

والله يبتلي القوم الفاسقين.. فيكون البلاء عقوبة على فسقهم، ومن جانب آخر تربية لهذه النفوس الخوارة التي لا تصمد أمام الفتنة، وتستجيب لدعوة الباطل، ولا ترتفع عن المتاع والمُلك.

وقد أجاب الله طلبهم بأن يجعل لهم يوم عيد في الأسبوع، فكان يوم السبت لهم عيداً لا يعملون فيه.. وهذه النعمة والاستجابة من الله لهم، يجب أن يوفوها حقها، ويؤدوا شكرها.. ويستشعروا فضلها ومنتها، ولكن كفر النعمة كان هو الحاصل؛ فكان من بني إسرائيل قوم تُطل مدينتهم على البحر، فيبتليهم الله بأن تظهر لهم الأسماك والحيتان في يوم السبت، وفي غيره لا تأتي.. فتفتنهم الحيتان بأمر الله وقدرته! ورغم وضوح أن الأمر ابتلاء من الله، وليس محض صدفة، وعليهم أن يصبروا على هذا البلاء، إلا إنهم يلجأون إلى "التحايل"..

وقالوا: نسد عليها ونحبسها ونحجزها يوم السبت ولا نصطادها، ثم نأخذها في اليوم التالي.. وهي عملية "تحليل للحرام" لكن بصورة ملتوية، بصورة جبانة لا تملك الشجاعة في اقتراف الذنب بصورة كاملة؛ فتقع فيما هو أشد من الذنب نفسه، وهو "تحليل الحرام" ولو أنهم فعلوا ذنباً فتابوا من قريب، وصدقوا الله لكان خيرا لهم، ولأبدل الله سيئاتهم حسنات، ولكن النفوس الملتوية الخبيثة لجأت إلى الحيلة؛ حتى لا تشعر بمرارة الذنب، ووخز الضمير.. فاستحلت الحرام في صورة "التحايل".

ولو أنهم قالوا: إن هذه الحيان والأسماك مخلوقات من مخلوقات الله، والله يرزقها، ويرزقنا.. ولنحترم يوم العيد الذي اختاره الله لنا، وما فيه من تشريعات وأحكام، وإنا لنصبر على ابتلاء الله لنا.. لو أنهم فعلوا ذلك.. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا أن يكون الإيمان حقيقة تحتويها القلوب، ونور يترقرق في الأرواح، وإشعاع يتخلخل العقول، فتصمد أمام هذا الابتلاء، إلا أن النفوس الخوارة، والعزيمة المنكسرة تستجيب للقريب ولو كان فتنة، ولا تصبر على البعيد ولو كان خيراً.. وتستعجل القريب ولو فيه العذاب.

ورغم أن التكليف لهم بسيط، وهو عدم العمل يوم السبت.. إلا أنهم تفلتوا منه عندما لاحت الفتنة لهم، وهو تكليف "امتناع" عن شيء، فكيف بهم إذا تم تكليفهم بـ "أداء" شيء! ولهذا كان وصمهم بـ "الفاسقين"، والفاسقون لا يحملون الرسالة، ولا يؤدون الأمانة، ولا ينهضون بالتكاليف، والفسق هو نفس الوصف الذي وصفه الله جَلَّجَلَالُهُ لقوم فرعون؛ فقد انتقل إليهم المرض.

وتُبين الآيات سبيل النجاة في إنكار المنكر، ورفض الباطل.. ووجود القوم المؤمنين، وأخذهم على يد الظالمين المعتدين.. فهذا سبيل النجاة لأهل الإيمان، ورغم أن تذكير أهل الإيمان وإنكارهم على الفاسقين هو في حد ذاته نعمة.. لكنهم كفروا بها وأعرضوا ونسوا ذكرها، فحق عليهم العذاب..

وجاء الجزاء من جنس العمل، فكما استحلوا الحرام بهذا التحايل والتذاكي على الله، السميع العليم البصير المحيط الشاهد على السر والعلن بل وما خفي حتى على نفوسهم.. وكما قلبوا الحرام إلى حلال، ووصلوا إليه بطرق ملتوية.. وأبقوا على "الشكل" وأفسدوا "الغاية والمضمون"، فمسخوا حقيقة التكاليف، ومسخوا حقيقة الإيمان، فجاء العقاب أن مسخهم الله كذلك قردة وخنازير.. وسواء أكان المسخ حقيقياً أو مسخاً معنوياً روحياً بأن صارت أخلاقهم وحياتهم وأفعالهم وسلوكهم هي أخلاق القردة والخنازير.. فكله سواء؛ فالمسخ الروحي أو المسخ الجسدي عقوبة شديدة، وانقلاب كامل من "التكريم الإنساني" إلى "أسفل سافلين"؛ فكان "طيش" القرود في الفكر والتصور عن حقيقة علم الله، و"خسة وقذارة" الخنزير في تسافل النفس للحرام، صورة حيوانية فقدت "الإرادة" وارتكست لعالم الحيوان.. بل أضل!

وليس هذا فحسب.. بل جعل الله من يسموهم سوء العذاب – كما حدث في تاريخ يهود – وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.. بما كانوا عند دين الله وشرعه يفسقون.

***

وفي الأمة المسلمة:

يحذر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من هذا المرض، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ**" [إبطال الحيل لابن بطة]

ونجد في الأمة المسلمة هذا المرض الخطير.. الذي يغضب منه الله جَلَّ جَلَالُهُ، وهو "التحايل" "والهرب من التكليف" و"الوصول للحرام بطرق ملتوية" فهذا انتقاص لعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وانتقاص لقدره جَلَّ جَلَالُهُ، وانتقاص لشرعه وحكمه، والنفوس التي تقع في ذلك هي نفوس جاهلة بالله تامة الجهالة.. فيصبح التعامل مع ظاهر النصوص، ويُراد التفلّت من حقيقة ومقاصد النصوص، وليست هذه بقلوب المتقين.

فهذه النفوس تراعي جناب الناس والعرف والشكل، ولا تراعي جناب الله ورضاه وعلمه**!** فيكون خوفها من الناس أو الظاهر أشد خشية من الله، فتلجأ إلى التحايل على شرع الله**!**

وهي نفوس لا تحمل – ولن تستطيع – رسالة الإيمان، والإخلاص لها.

والله جَلَّ جَلَالُهُ – من خلال آياته – يربي الإنسان على الشجاعة والصدق.. الشجاعة: في الاعتراف بالذنب؛ ليتسنى للعبد التوبة والمثوبة والرجوع إلى الله، والصدق: في الإيمان، فيكون القلب به مطمئناً، وله فرحاً، ولرسالته مصدقاً ومضحياً ومجاهداً.. فلا حاجة للالتواء ولا التحايل ولا الوصول للحرام بطرق ملتوية حتى لا تشعر النفس بالذنب، وتأخذها العزة بالإثم، وتستكبر عن اعترافها بالوقوع في الحرام. فتقع في: (1) إتيان الحرام. (2) وعدم التوبة منه. (3) واستكبارها عن الاعتراف بالذنب.

لا حاجة لذلك لأن الأمر بالنسبة للإنسان لن يخرج عن الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله، ولن يخرج عن الصدق في الإيمان، وصلاح العلاقة مع الله.. وأما عند الله فهو جَلَّ جَلَالُهُ يعلم ما كان وما سيكون وما قد كان، فعلمه لطيف، عجيب.. لا يستطيع العقل البشري حتى تصوره فيقول

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام (59)].

فهذا الإله العليم لا يليق بجلاله وعلمه وعظمته التحايل..

ولكن عند الفسوق عن صراط الله المستقيم، يجهل الإنسان حقيقة هذا الإله.. فيروح يتحايل، ويتذاكى على الله.. فوقع من بعض أفراد الأمة وفرقها هذه الحالات من التحايل والتفلت..مثل:

التحايل في أكل الربا، ويسمونه بغير اسمه، والتحايل في شرب الخمر ويسمونها بغير اسمها، والتحايل في الزنا ويسمونه بغير اسمه، والتحايل في التشريعات والأحكام، ويسمونها "أمور الدنيا"، والتحايل في زواج المُطلقة بعد الطلقة الثالثة، كما جاء في الحديث: عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **"لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ"** [السنن الكبرى للبيهقي/ (7 : 207)]

وغيرها من صور التحايل التي تكشف عن نفوس منهزمة متذبذبة.. تحافظ على "شكل" وتُفسد المضمون؛ فتصد بذلك عن دين الله وشرعه، وتجعله في صورة مُنفرة، غير ذات قيمة، وإبطال لسلطان الشرع والإيمان في القلوب.. وهذا لا شك مسخ لدين الله.

هذا المسخ هو إفساد للرسالة، فكيف إذن سيكون حملها بين العالمين، وخلافة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فيها؟

وهذا الفسوق عن دين الله، يمسخ القلوب والأرواح.. إلى صورة مشوهة منحطة وضيعة، يجب "النهي" عن أفعالها والإنكار عليها.. وعلاج فسق القلوب، بالتوبة والتقوى، وعزل القلوب الفاسقة، والأرواح الممسوخة عن مراكز التوجيه والقيادة، والتربية والإصلاح في كل مجتمع.

***

سابعاً: التمني على الله الأباطيل

قال تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف]

وهكذا كان مصير بني إسرائيل أن يكونوا أمماً متقطعة في الأرض، منهم الصالحون المتبعون نور الله وشرعه، ومنهم دون ذلك من أصحاب النفوس المتخلخلة المتهلهلة التي لا تستمسك بهدى، وتتبع سبيل الغي.. وهؤلاء ابتلاهم الله بالحسنات والسيئات – كما ابتلى قوم فرعون من قبل – لعلهم يرجعون إلى سبيل الرشد، وصراط الله المستقيم، والابتلاء سنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في خلقه.. كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء (35)]. فابتلاء النعمة (الخير)، وابتلاء الشر (العذاب).. ليس إلا لتوجه القلب إلى الله؛ ليحفظه من فتنة النعمة فلا يطغى، وليحفظه من فتنة الشر فلا يقنط وييأس، والابتلاء ضروري للنفوس ليقوي بنيانها، ويهذب سلوكها، ويرفع تصوراتها، ويحفظها من النسيان والبوار..

ومن شقاء الإنسان أن يفشل في فهم المراد بابتلاء الخير والشر، فيحسب الخير نعمة خاصة له، أو أنه أتاها على علم عنده، أو يحسب ابتلاء الشر هو جذع وقنوط وعذاب لن يزول عنه.. والله يوجه الإنسان إلى الرجعى إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا هو الغرض من كل ابتلاء.

ولكن ماذا بعد الأمة الصالحة، وما دونها من غير الصالحين.. ماذا بعدهم من خلف؟!

خلفٌ ورثوا الكتاب.. والكتاب نعمة من الله وأمانة، فيها هدى ونور، الغرض الكلي منه هداية الإنسان في هذه الحياة فلا يضل ولا يشقى، ولكن يهود لما ورثت الكتاب لم تفعل ذلك.. بل إنها "احترفت" التلاعب بهذا الكتاب، وتقسيمه؛ بحيث يجدون مخرجاً لكل حرام يقترفونه! فهم يقعون في السيئات والمعاصي والحرام، ويقولون كما يقول الكتاب: {سيُغفر لنا} وكلما لاح لهم من عرض الدنيا شيء تهافتوا عليه من جديد، ويقولون: {سيُغفر لنا} وبالفعل الله وعد العاصين بالتوبة، وعلى هذا الوعد يتكلون ويقترفون المعاصي، وهم في انتظار هذه التوبة، ولكنهم لا يتوقفون عن المعصية، ولا يُقلعون عنها، ولا يشعرون بالندم من اقترافها، بل يُبيتون النية، لإتيان المعاصي والإصرار عليها على أمل التوبة، فهل هذا ما قاله الكتاب؟!

كلا.. لقد تلاعبوا بالكتاب، وبفهم آياته، فالكتاب يعد بالتوبة لمن يقترف الذنب، ثم يعود إلى الله، ويتوب، ويرجع، ويُنيب إليه جَلَّجَلَالُهُ، ويعقد العزم على أن لا يعود مرة ثانية لهذا الذنب، فهذا وعد الله بالمغفرة للإنسان، فلا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يغرق في المعاصي ظناً منه أنه لا رجعة له.. فهذا معنى المغفرة..

ولكن ليس هذا معناه أن يصر الإنسان على المعصية متمنياً على الله الباطل، واعتقاداً منه أن المغفرة ستكون له.. فالكتاب يضع الإنسان على صراط الله المستقيم، فلا جذع من عدم التوبة، فالله غفور رحيم.. وهذا يضبط جانب عدم اليأس من رحمة الله، ولكن الله عزيز ذو انتقام يعاقب العصاة الذين لا يقلعون عن ذنوبهم، ويؤذون الناس، ويفسدون في الأرض.. وهذا يضبط جانب عدم تمني على الله الأباطيل، والتفلت من الدين والشرع، وارتكاب الفواحش باسم المغفرة !

وهذا "التوازن" هو ما يحمله كل كتاب جاء من عند الله، فلا يميل هنا أو هناك.. بل صراط مستقيم يضبط حركة الإنسان كلها في الحياة، وإن من يحاول أن يميل بهذا الكتاب في جانب ويغفل آخر يرتكب جرماً شنيعاً ، فقد أخذ الله الميثاق على الذين آمنوا أن لا يقولوا على الله إلا الحق.. الحق الشامل المتكامل الذي لا يطير بآية من الكتاب، ويغفل غيرها..

وأما الذين يحترفون التلاعب بالكتاب، ويأكلون بآياته، ويشترون الحياة الدنيا بالآخرة، فأولئك ليس لهم نصيب من هداية الكتاب، وأما الذين يريدون الله والدار الآخرة.. ويقولون على الله الحق الواضح الكامل كما جاء في الكتاب فأولئك هم المتقون، وأولئك هم العقلاء الذين عقلوا الكتاب، ودرسوا ما فيه، وفهموا تصوراته الكلية، وقيمه، وموازينه، وأخلاقه وتشريعاته.. وقالوها كاملة لوجه الله الكريم، لا يبتغون بها عرضاً من متاع الدنيا.

ولكن النفوس المنكسرة الذليلة المُستعبدة.. ترى في وعد "المغفرة" فرصة للتفلّت، واقترافاً للذنوب، والفواحش، والإصرار على السيئات.. وتحترف إيجاد "المهارب" الشرعية من الكتاب. وهذه تتوعدها الآيات بالعذاب لهذا السلوك المنحرف.

أما النفوس المؤمنة الطائعة القريبة من الله.. ترى في وعد "المغفرة" فضل من الله ونعمة، وترى في اقترافها للذنوب.. حسرة وألماً ولوماً وعتاباً.. يرفعه الله عنها بوعد "المغفرة" فلا تعيش الألم، بل يتفضل عليها الله بالاطمئنان والسكينة إلى جواره، فتأتي الطاعات وهي في حالة من "الوجل": ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون (60)]. وعندما تقع في السيئات تسارع إلى التوبة، فتتوب من قريب، ويبدل الله سيئاتها حسنات:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء (17، 18)].

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه (82)].

فالذين يتوبون من قريب، فأولئك هم المصلحون المستمسكون بالكتاب كله، ويقيمون الصلاة.. التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنهى عن الفساد في الأرض، وأولئك الذين يأخذون الكتاب بـ

"قوة" و"يذكروا" كل ما فيه.. حتى يكون البلاغ الصحيح المبين فلا يقنط أحد من رحمة الله، ولا يتمنى أحد على الله الأباطيل.

وبهذا نجد التصور الصحيح في مسألة المغفرة والتوبة أنه أولاً: يخاطب القانطين اليائسين برحمة الله وعفوه.. فيناديهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر (53)]. وثانياً: يردع المتبجحين الظالمين بعذابه ونقمته، فيحذرهم: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس (27)]. ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة (81)].

***

وفي الأمة المسلمة:

بعدما وقعت أسيرة لأمراض الاستبداد التي تحيط بها من كل جانب.. احترفت فئة التلاعب بالكتاب، وتمنت فئة على الله الأباطيل، وغرقت النفوس الذليلة المهلهلة في مستنقع الذنوب والآثام، ويقولون: "سيغفر لنا" !

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: "سَيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتُ، يَقْرَءُونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلَا لَذَّةً، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَعْمَالُهُمْ طَمَعٌ لَا يُخَالِطُهُ خَوْفٌ، إِنْ قَصَّرُوا، قَالُوا: سَنَبْلُغُ، وَإِنْ أَسَاءُوا، قَالُوا: سَيُغْفَرُ لَنَا، إِنَّا لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا " [سنن الدرامي / 3251]

فصار لدينا – والعياذ بالله – الداعرة الشريفة! واللص المحترم! والمرتشي خفيف الظل! والإداري الفاسد الذي يتبرع للفقراء! وصار لدينا الساقطة التي تقيم موائد الإفطار في رمضان.. وإذا أنكر عليهم أحد، قالوا: {سيُغفر لنا} ولو أنهم تابوا مما هم عليه، لتاب الله عليهم.. لكنهم يتبرعون للفقراء، ويطعمون المسكين، وهم بذنوبهم مستمسكون، وبفسادهم متفاخرون، وعليه مصرون،

وإليه داعون، ومشجعون.. وفسادهم يملأ الأرض فتنة وصد عن سبيل الله، ففي كل ذنب يقعون ويغرقون.. ويقولون: {سيُغفر لنا} فليس ذنباً واحداً، بل كلما لاح لهم من عرض الدنيا شيء لم يتركوه.. على تأولهم أن المغفرة حاصلة لهم حتماً !

ثم يخرج إليهم محترف ممن يتلاعب بالكتاب، ويُحرف الكلم عن مواضعه.. ليقول: الداعرة تؤدي عملها، والعمل عبادة! ويقول: سيغفر الله لهم، ويسوق من الآيات والشواهد ما يؤيد صحة كلامه! ويغفل باقي الآيات التي تتوعدهم، وتحذرهم، فيعمد إلى آيات التوبة التي نزلت للنفوس التائبة القريبة من الله.. فيضعها فيهم، ويغفل آيات الوعيد والعذاب النازلة فيهم، ولا يقولها، والله أخذ الميثاق على كل أهل كتاب سماوي أن: يقولوا ما فيه كاملاً لوجه الله الكريم، لا لـ "تبرير" موقف، ولا للدفاع عن مصالح شخصية وذاتية، ولا للتشجيع على المعاصي واقتراف الآثام، ولا للاحتيال على النصوص.

فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**" [جامع الترمذي/ 2459]

والله جَلَّ جَلَالُهُ يوضح للأمة كيفية التعامل مع الكتاب في: أخذه بقوة ويقين وجد والاستمساك بكل ما جاء فيه، وذكره للناس كما أُنزل من عند الله.. دون احتيال على النصوص، ودون تعنت ولا تنطع ولا تزمت.. بلا إفراط، ولا تفريط، بلا محاباة، ولا مجاملة، بلا حرج أو تردد، بلا مداهنة أو تذبذب.. فهذا الكتاب لا يؤدي وظيفته في حياة الأمة إلا عند أخذه بقوة، وبصورة كلية شاملة متكاملة؛ لتنضبط حركة الإنسان في الحياة على سبيل الرشد، وصراط الله المستقيم.. وهؤلاء الذين يقيمون الصلاة، وبالكتاب مستمسكون، لا بالمعاصي مجاهرون متفاخرون.

وأما النفوس المقهورة الذليلة.. التي تتخذ من وعد المغفرة ساحة لاستباحة المعاصي، والغرق في الآثام، فهي نفوس بحاجة إلى "التربية والتهذيب" من جديد، وبحاجة ليس إلى سماع وعد المغفرة.. بل سماع آيات العذاب والوعيد؛ حتى تعود ترهب جناب الله العظيم، وتحترم حدوده، وحلاله

وحرامه، ولا تستسهل الذنوب، ولا تصر على المعصية؛ فتألفها وتدمنها وتعجز عن الإقلاع عنها، ولهذا يهزها الله بالشر تارة وبالخير تارة؛ علها تستفيق، وتتوب، وذلك من رحمة الله بعباده؛ لعلهم يرجعون.

***

ثامناً: الانسلاخ من الآيات

قال تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّـهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف]

آيات الله نور.. هي رداء للروح، بها تستنير وتشرق وترفرف إلى ملكوت السماء، فيها الرضى والسكينة، وفيها الخير والفلاح، فيها الهداية والراشد. يرفع الله بها عباده إلى الدرجات العُلى؛ ليكونوا في رحاب رحمته، وفي عظمة قدسه وجلاله..

ولكن النفس التي تتحطم فيها مقومات الإنسانية والكرامة، وتَذل وتُستعبد تتبدل هذه الصورة الجميلة فإذا بها تمزق الرداء، وتنسلخ من الآيات، وتهوي إلى أسفل سافلين؛ فيتلقفها الشيطان؛ ليأخذها ليس فقط إلى الضلال.. إنما إلى الضلال البعيد، وليزين لها كل قبيح ! فيصبح مصيرها كـ "الكلب" اللاهث الذي يظل فاتحاً فاه في كل أحواله، وهي صورة ترسم حالة النفس الإنسانية العارية المنسلخة من الآيات، وهي "تلهث" و"تخلد إلى متاع الأرض" لتأخذ العرض القريب، فلا تنال الرضى ولا الطمأنينة، بل تظل لاهثة سواء حصل لها ما أرادت أو لم يحصل، فتستمر في حالة من "الحرمان" عقاباً لها على انسلاخها من الآيات..

والقرآن يصور آيات الله كأنها هي الكساء للروح، والانسلاخ منها.. هو تدمير لها، وتعرية لها، فتهوي بذلك إلى أسفل سافلين.

ولكن.. لماذا تنسلخ النفس من الآيات هكذا، وتتعرى، وتترك رداءها، وتخلد إلى الأرض؟!

يبدو لي أن هذه النفس تلقت الآيات وهي على وسخها، غير متطهرة من أمراض القلوب والعقول، فإذا هي ظاهراً جميلة، وباطناً نجسة ! ولعلها اغترت بجميل الثناء والإطراء ممن حولها، ونسيت أحوالها الباطنة ! ولم تتطهر للآيات، ولم تترك للآيات عملية التطهير الداخلي، فكأن الشكل الإنساني الظاهر هو صورة "مزيفة" من رداء جميل، وباطن يغلي بالشرور والآثام !

فيحدث في لحظة من اللحظات حالات "الانفجار النفسي" و"التصادم" بين ظاهر النفس وباطنها، فتمزق رداء الآيات الجميل، وتنسلخ منه، فلا تعود إليه مرة ثانية؛ وتهوي إلى نجاسات الأرض؛ لتُشبع نجاسات النفس.. وتلهث وتلهث، ولا تشبع، وكلما تمرغت في النجاسة، وشربت من الوحل؛ ازداد عطشها، ونهمها، ولن تشبع ! فتظل في "الحرمان".

وفي النفوس المحطمة الفاسدة التي لا تريد السمو والتطهر، والبحث عن قيمة، ورسالة، بل تأخذ العرض القريب.. وتخلد إلى الأرض، لا تصمد طويلاً أمام طهر الآيات وجمال الرداء على الباطن القبيح، فتذهب تخلع الرداء وتنسلخ منه، وتلتبس بما يناسب باطنها !

والعجيب أنها تُعرض عن طيبات الأرض، وحلالها.. إلى الحرام والنجس ! وهذا من خذلان الله لها، جزاء الإعراض عن "التطهر" و"التزكية" بـ "الآيات"..

ويصبح رداء الروح الجميل، وزينته.. أثقل شيء على هذه النفس، وتشعر بالرغبة الشديدة في الانسلاخ منه، فتمد يدها تمزق، وتحطم؛ لتتحرر من ثقله! فتشعر برغبة في الارتكاس والتدني، وتجد فيه اللذة والمتعة والزينة!

وهذه الحالة تعجز عن العودة إلى الإيمان مرة ثانية، فهذه الصورة ليست مجرد ذنباً يقع فيه الإنسان، ويسارع بالتوبة إلى الله.. بل حالة "انسلاخ كلي" لا يعود الإنسان إليها مرة ثانية، فمن ينسلخ من شيء، كمن يسلخ الجلد من اللحم، أو اللحم من العظم، لا يُرجعه مرة ثانية، والإعجاز القرآني في استخدام لفظ "الانسلاخ" ليُبين هذه "الحالة النفسية" التي تمزق بعنف وجهد ومشقة جلدها

ولحمها بيدها، فتصبح مشوهة قبيحة محرومة، وهذا المثل هو أوضح وأسوأ صور "التكذيب" بالآيات، وأوضح وأشد صور "ظلم" النفس لنفسها.. فماذا بعد أن تمزق النفس نفسها بهذه الصورة؟!

وهذه الصورة المخيفة لهذه الحالة النفسية الخطيرة لا عاصم من الوقوع فيها إلا "هداية الله" جَلَّجَلَالُهُ، والصدق الخالص في الإيمان به، وحسن التوكل عليه، ومن يُضل عن سبيل الله.. فذلك هو الخسران المبين.

فالعلم وحده ليس هو العاصم.. إنما العاصم هو هداية الله، والإيمان به، العاصم هو العقيدة الحارة الدافعة التي تحرك القلوب، وتترك آثارها في النفوس، وتطبع مدلولاتها في الحياة، وترفع الاهتمامات والغايات؛ فلا تخلد إلى الأرض، ولا تتلاعب بها الأهواء، ولا تستجيب لإغواء الشيطان، ولا ثقلة الأبدان.

***

وفي الأمة المسلمة:

وجدنا حالات كثيرة ممن اكتسوا بآيات الله، وصاروا أعلاماً وشيوخاً وعلماء، فإذا بهم في لحظة من اللحظات يمارسون عملية "الانسلاخ" هذه.. ونرى النفس وهي تمتد تمزق، وتحطم، وتتكشف، وتتعرى، فتترك الشيخ عارياً.. بصحبة الشيطان ! بلا غطاء واقي، ولا درع حامي، ذو لحية طويلة، لكنه يقف محطماً عارياً ممزقاً منسلخاً من الآيات، جاثياً على يديه ويمشي إلى عرض الدنيا على أربع ! يلهث كـ "الكلب" وراء متاع الأرض، ولا يشبع ولا يرضى.. صورة قبيحة ينفر منها كل صاحب فطرة سوية.

وهذه الصورة من "التكذيب" من أضر ما يكون على صورة الإسلام ورسالته.. فالإسلام "رسالة عالمية" وقيمة عليا ومثلى للإنسانية كلها، ويجب أن تكون النفس في حالة من "التطهر والسمو والإخلاص والتجرد" وهي تحمل هذه الرسالة.. وهي تتحدث بآيات الله، فلا يكون الإنسان على

نجاسة قلبية، ولا وساخة نفسية.. ولا يجعل من الآيات رداءً يتعالى به، ويتزين به، وباطنه عارياً من حقيقة الزينة، فيكذب على الناس بارتداء رداء ليس برداءه، وبتقمص صورة ليست على حقيقته؛ فيصدهم عن سبيل الله، والويل كل الويل لمن يصد عن سبيل الله، وعن حقيقة دينه.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يضرب هذا المثل – ولعله رجل من بني إسرائيل – ليحذر كل من يحمل آيات الله ورسالته، وليفتش في باطنه، ويطهر سريرته، فإن وجود الآيات على باطن نجس لن يصمد طويلاً، وسيحدث التصادم الذي تنسلخ فيه النفس، فلا تعود مرة ثانية إلى الآيات، وتُحذر الآيات على وجه الخصوص، تلك النفوس التي تلذذت بالذل والعبودية والقهر والطغيان، وتكيفت مع الباطل.. تُحذرها أن تتخذ من الآيات "وسيلة" للتجمل والتباهي والتفاخر والتعالي! وباطنها على هذا الباطل والفساد، فرداء الآيات لا يصمد إلا على النفوس الطاهرة الطيبة التي لا تنتظر جزاء ولا شكورا، ولا تغتر بما هي فيه..

وتُحذرها كذلك من أن تنسلخ من الآيات لأجل عرض من الدنيا زائل، أو تُحرّف الآيات وتسلخها عن مواضعها تلبية لرغبة سلطان باطل أو طاغية متكبر.. فذلك هو التعري من الهدى، وهو الغواية، والضلال عن سبيل الرشاد.

فآيات الله غرضها الهداية، والاستقامة على طريق الإيمان.

***

تاسعاً: عبادة المال، وكفر النعمة

قال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص]

ترسم الآيات قصة "ابتلاء الخير" وحال النفس الإنسانية الذليلة معه.. عندما تذل وتخضع لـ "المال" – كما في هذه القصة – وتنسى الإله الذي أعطى هذا المال، وتبدأ القصة من نقطة نهايتها وهي "البغي" والظلم بدلاً عن "الشكر والحمد".. وعندما يكون رد فعل النفس على ابتلاء الخير هو "البغي" فهذا يعني هلاكها، وما أكثر ما تهلك النفس من هذا الجانب.

ثم تُفصل القصة هنا عظمة الكنوز التي جعلت مفاتيح الخزائن وأوعيتها تحتاج إلى العصبة القوية من الرجال لحملها! وكل هذه الكنوز والأموال مردها إلى المعطي المانع "وآتيناه" فالله جَلَّجَلَالُهُ

وحده هو صاحب الإرادة والمشيئة المطلقة في ذلك، ومتى أدرك الإنسان هذه الحقيقة الأولية البسيطة.. نجى وفلح وفاز.

ولكن قارون هنا لم يتنبه إلى تلك الحقيقة، بل اغتر وفرح وتبطر بما عنده، واستغنى ونسي من أعطاه! ونسي الآخرة، وأصابته عدوى الفراعنة من عبودية المادة ! وجاءه النذير والتحذير والمنهج الصحيح القويم: (لا تتبطر وتغتر وتفرح، ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، لا تنس نصيبك من الدنيا، أحسن كما أحسن الله إليك، لا تبغ الفساد في الأرض) خَمس وصايا فيها الفلاح والنجاة والفوز والعاقبة الحسنة، وما أيسرها على النفس السوية، وما أضبطها لحركة الإنسان في الحياة.

لقد أعطاك الله مالاً وكنوزاً فاجعل مما أعطاك الله طريقاً إلى الله، والدار الآخرة.. وهنا تتجلى حقيقة الإيمان باليوم الآخر – في صورته العملية – هل سيُعد الإنسان لهذه الدار الآخرة؟ هل سيُنفق ليبني داراً له هناك ؟ أما سيكون اليوم الآخر مجرد فكرة نظرية باردة في العقل؟

وفي البناء وابتغاء الطريق للدار الآخرة، لا تنس نصيبك من الدنيا، فالله أحل الطيبات، وجعلها للذين آمنوا، فخذ نصيبك منها بالقدر الحسن بلا إسراف، ولا تبذير، ولا تكبر، ولا تجبر، ولا إفساد.

ولتسمو النفس، وتزكو لا بد من الإحسان.. وهو بذل المزيد من الخير، شعوراً بنعمة الله، وشكراً لمنّه وفضله وكرمه، والتسابق في الخيرات، إرضاء لوجه الله الكريم، بلا سمعة أو رياء أو عُجب.. والإحسان في المال – موضوع القصة – يكون بإحسان التصرف فيه، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكر والحمد للمُنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا تجعل من نعمة الله عليك وسيلة للإفساد في الأرض، أو البغي، أو الظلم، أو القهر، أو غمط وسلب حقوق الناس، أو إهمال حقوق الله فيما افترضه من زكاة وصدقة.. لا تجعل من نعمة الله حرباً على أولياء الله وعباده، ولا تجعلها في يد أعداء الله يحاربون بها دين الله، ولا تحبس المال عن

التداول بين الناس؛ فتفسد القلوب والحياة، لا تُفسد في الأرض بالاستكبار بهذا المـال فيها، ولا تملأ صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء والفساد بإنفاق المـال في غير ما يُرضي الله.

ما أيسر هذا الدين، وما أوضح طريقه، وما أتم موافقته للفطرة السوية، إنه يُقدم حالة من "التوازن" التي لا يقدر عليها إلا دين من عند الله.. فلا يطغى في جانب، ويهمل الآخر، بل يلبي حاجات النفس الإنسانية، ويأخذها من كل جوانبها، ويضبط مساراتها في الحياة، في توازن بين الدنيا والآخرة..

ولكن النفوس العابدة للمال والمتاع، وترى فيه العزة والمنعة والقوة، ولا تشعر نعمة الله؛ فتكفرها! لا تفهم هذه المعاني.. بل تقول: "إنما أوتيته على علم عندي" وهذه هي أوضح صور الكفر بنعمة الله، والكفر بالمنهج الذي حدده للنجاة في هذه الحياة، والفوز بالدار الآخرة، إنه ينسب نعمة الله عليه وفضله إلى "العلم الذي عنده" وأنه ناله "استحقاقاً" على هذا العلم! وليس من حق أحد أن يُملي عليه طريقة التصرف في هذا المـال!

ومن الذي أعطاه هذا العلم؟! ومن الذي جعل له عينين ولساناً وشفتين لينطق ابتداء بهذا القول؟! ومن الذي جعل له عقلاً ليتعلم ويفكر؟! ومن الذي وهبه الحياة ابتداء ليكون بعد أن لم يكن؟!... إلخ من الأسئلة التي لا تحتاج إلى جواب، بقدر ما تحتاج النفس إلا الارتقاء من عبودية المـادة إلى عبودية الله، ورؤية نعم الله، لا لمعة الذهب والمـال!

والموقف الصحيح دوماً هو: التواضع وعدم العُجب والفخر والبغي، كما جاء عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: "**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**" [الأدب المفرد للبخاري/ 428]

ولكن الآيات تردعه بما يناسب حالته النفسية الوضيعة الذليلة.. إنها تُذكره وتُعلِمه بـ "هلاك" مَن قبله مِن القرون، وقد كانوا أشد قوة، وأكثر جمعاً! وإن جرمهم في حق أنفسهم.. وكفرهم بنعم الله وفضله عليهم، وإنكار امتنانه لهم، والعلو والإفساد في الأرض، كلها جرائم لا تحتاج إلى سؤال

وجدال، بل هي إلى الهلاك أقرب، ومن العذاب أدنى، وهذا هو "العلم المُنجي" لا العلم الذي حصل به المال، ونسب الفضل لنفسه لا لربه ! ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر (83)]

ثم تصور الآيات مشهد الحياة الدنيا، عندما يخرج فيها هذا الوضيع الحقير في زينة وبهرجة واحتفال وموكب، يأخذ أصحاب القلوب الضعيفة إلى "التمني" أن يكونوا مثله! بينما هو في حقيقة أمر الغيب في انتظار لحظة "الهلاك"، لكن القلوب الضعيفة، والنفوس الصغيرة لا تستطيع أن تفهم ما وراء هذه الزينة والبهرجة، يأخذها لمعان الذهب، وجمال الموكب، وكثرة المتاع.. فتتمنى أن تكون مثله، وترى أنه ذو حظ عظيم.. ولا تدري أنه في ابتلاء أشد من ابتلاء الفقر، فالإنسان لا حيلة له أمام الفقر سوى الصبر والاحتساب وابتغاء الرزق، أما أمام ابتلاء الخير والمال والمتاع فسرعان ما يكفر ويستكبر ويبخل، وقليل من يصبر على ذلك.

وأما أصحاب العلم الرباني، أهل الثبات والإيمان، ومن أدركوا السنن الإلهية في هذه الحياة، لم تخدعهم هذه الزينة اللامعة، ولا المتاع الكثير.. بل حذروا أصحاب النفوس الصغيرة من "تمني" قد يجر صاحبه إلى الهلاك، بل الصحيح هو رجاء "ثواب الله" في الدنيا والآخرة، وهو ثواب يناله من آمن وعمل صالحاً، ولا ينال ذلك الإيمان إلا بالصبر على الابتلاء سواء بالخير أو الشر، فهذا هو الطريق ولا طريق سواه.

ويأتي العقاب الإلهي في صورة الخسف به وبداره، وبكنوزه، وبمتاعه، وزينته.. ولم يكن له من أحد ينصره من دون الله، وما كان من المنتصرين، وذهبت الكنوز، وذهبت الحياة، وضاعت الآخرة.. فلم يكسب شيئاً سوى لحظة الغرور والاستكبار والكفر بنعم الله، وجاءه العقاب من جنس عمله، فكما بغى وأفسد واستكبر وعلا في الأرض، جاءه الخسف والهدم والبوار.

وما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون!

وفي هذا العقاب الواقع.. ينتبه من تمنى مكانه بالأمس، ويدرك الدرس في صورته العملية، بعد أن سبقته الصورة النظرية التي طرحها الذين أتوا العلم، وأدركوا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء، وهذا البسط والمنع مهما كان قدره وحجمه إنما هو ابتلاء فليس البسط في الرزق دليل رضى، ولا المنع دليل سخط!

بل المنع كان هنا هو "المنة" والفضل والعطاء.. {لولا أن مَنّ الله علينا} فالإنسان لا يطلب مجرد بسط الرزق، فقد يكون سبباً في هلاكه، وهو لا يدري.. إنما يطلب "ثواب الله" في الدنيا والآخرة، ويطلب الفلاح والنجاة والحسنة في الدنيا والآخرة، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يُفلح من يكفر النعمة، وينكر الفضل، ويستكبر عن الشكر.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الإِيمَانَ** ". [المستدرك على الصحيحين/ (1 : 34)، مسند أحمد / 3663]

والفلاح والفوز العظيم هو في "دار الجزاء" لا "دار العمل".. هو في الآخرة، والفلاح والفوز بها ليس لمن يُعلو ويستكبر في الأرض بغير الحق، ولا يُفسد فيها، ولا يتخذ من نعم الله وفضله وآلاءه وسيلة للإفساد..

والعاقبة للمتقين.. الذين يرجون ثواب الله، ويخشون عقابه، ويسارعون في الخيرات، ويريدون وجه الله الكريم، وابتغاء فضله.

ولقد جمع القرآن الكريم بين فرعون وهامان وقارون – وهو من قوم موسى – في مصير واحد رغم اختلاف القوم، والدين، ولكن جمعهم "العلو والاستكبار في الأرض بغير الحق" فقال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت (39)]. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر (23، 24)]. فدين هؤلاء عبادة المنصب والجاه، وعبادة المال.. والإخلاص والتوحد كان في هذه العبادة!

***

ولكن.. ما الذي جعل قارون يكفر نعمة الله بهذه الصورة، رغم عميم فضل الله عليه؟!

إن حالات كفر النعمة عموماً تدل على نفوس وضيعة ذليلة جائعة فارغة.. هذا الفراغ عندما يمتلأ بنعم الله، تمتد إليه النفس لتتشبث به، وتعض عليه بالنواجذ، ولا تفرط فيه أبداً، فتحدث حالة من "العبودية" للمال والمادة - كما في حالة القصة هنا - ترى في المال والكنوز كل شيء، هو القوة والصاحب والصديق، وهو المتاع واللذة والعلو.. فيأتيها المال بالبلاء الثاني وهو "السلطة الطاغية" وما أفسد للنفس من السلطة بعد أن كانت في استعباد وذلة، إنها لا تفرط في أي جزء من مال أو سلطة، وتتسلط على الخلق والعباد، وتنسى الله والدار الآخرة، وتتنكر لكل شيء وأي شيء إلا "المال والسلطة" وتكفر بكل شيء، ليس شرطاً استعلان الكفر والإلحاد، إنما "الكفر النفسي" الذي لا يرجو سوى "المال" الذي يراه صاحبه هو كل شيء في حياته.

وعند السؤال عن حق الله في المال، وزكاته وصدقته، وحقه في عدم الإفساد به أو العلو في الأرض.. يكون الجواب هو: {إنما أوتيته على علم عندي} ليس لأحد فيه حق، وإني حر التصرف فيه!

فلا يوجد مساحة في النفس لسماع "داعي الله والدار الآخرة" فقد امتلأت بحب المال، وعبوديته، ولم تعد بعد ترى شيئاً سواه، ولا هدفاً في الحياة سوى المزيد والمزيد منه.. وهذه من أشقى حالات النفس، التي تظل بين جمع المال والمتاع به، حتى تأتيها لحظة الهلاك؛ فتخسر الدنيا والآخرة، بل قد تُحرم من المتاع بالمال، بسبب "البخل" في الإنفاق من شدة العبودية للمال، والرغبة في عدم التفريط فيه!

وتكثر هذه الحالة من كفر النعمة في النفوس التي تعرضت للذل والحرمان طويلاً، ويُفترض لمن يتعرض للذل أو الحرمان - كما في حالة بني إسرائيل هنا - أن يستشعر نعم الله الأخرى، ويرى فضله في غير المال من: نبوة ورسالة واصطفاء على العالمين - حينها - ونجاة من الظالمين ... إلخ، وتقاوم حالة الذلة، وتستشعر الكرامة، وإن قهرها الفراعنة، فتكون في حالة من "الصبر" و"الشكر" حتى إذا جاءها التمكين والنصر، تأتيه بقلوب آمنة مطمئنة شاكرة نعم الله من قبل ومن بعد، أما إذا جاء وهم في حالة من الحرمان والفراغ والنهم الذي لا يشبع، تحولت عبوديتهم للمال والسلطة، كما حدث مع قارون، وكما حدث مع بني إسرائيل من بعد موسى.

ولقد ظلت "عبودية المال" خصيصة دنيئة في نفوس بني إسرائيل إلى اليوم، وصاروا هم أباطرة المال، وأصحاب البنوك العالمية، وصاروا هم من يُفسد ويستعلي في الأرض بهذا المال، وأصحبوا هم من يتحكمون في الاقتصاد العالمي، ويدمرون حياة الشعوب بالتلاعب في أسعار العملات، وبالأزمات الاقتصادية المفتعلة،وبالسيطرة على الثروات وسرقتها، ولم يتعظوا بما حل بأخيهم بالأمس.. قارون.

***

وفي الأمة المسلمة:

لما فتح الله عليها الدنيا.. وتنافسها الناس! وانقلبت سياسة "الحكم والمال" إلى صورة غير ما أرادها الله، وغير ما كانت عليه سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ اختل التوازن الاجتماعي في حياة الأمة، ووقعت الأمة فريسة للطغيان والفساد والظلم والقهر، وأحاطت بها الأمراض من كل جانب؛ فتفشت "عبودية المال" و"كفر النعمة" فيها..

فأصبحت النفوس صغيرة فارغة، ما أن يدخلها شيء من نعم الله، حتى عبدته - نفسياً - مع الله أو من دونه !

وضيّعت حق الله، وظلمت نفسها.. ولم تنتبه لوصية رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ وهو يحذرها: "**مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**" [صحيح البخاري/ 4015]

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ: "**أَلا إِنَّ الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَهُمَا مُهْلِكَاكُمْ**" [صحيح ابن حبان/694]

ومنهم من يبيع دينه بعرض من الدنيا! فقال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ: "**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**" [صحيح مسلم/ 120]

والنفوس المسلمة لله، المؤمنة به.. ليست صغيرة ولا فارغة.. بل نفوس كبيرة تتسع لتحتوي هذا الوجود من حولها، وترى نعمة الله وعظمته في كل شيء، وفي أي شيء، نفوس ممتلئة بحب الله، وجلاله، مستغنية بالله عن كل شيء.. فإذا أعطاها عرفت حق المُعطي، وإذا منعها عرفت حق المانع، وهي في كل أحوالها شاكرة لله المعطي المانع، صابرة في الفقر والغنى، تخشى الله في كل أحوالها..

وترى في نعمة الله عليها بالإيمان قيمة أثقل من ملء الأرض ذهباً، فسيذهب كل شيء، ويبقى الإيمان والعمل الصالح.. هذا النفوس لا يفتنها المال - بإذن الله - فهي لا تعبد سوى الله، وتستشعر فضل الله ونعمته؛ فلا تحصي نعم الله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل (18)].

ولكن لما اتبعت الأمة سنن بني إسرائيل، صارت تبعاً لهم في سياسة المال، وصارت ليهود تأخذ طريقتهم حذو النعل بالنعل، فصارت عبودية المال والمادة منهجاً وطريقاً في الحياة، وسلّمت الأمة نفسها وثرواتها وسياساتها ليهود فانتشرت البنوك اليهودية في أرض الإسلام بمسميات شتى، وصار

يتحكم في الأمة ومصيرها الشركات العابرة للقارات التي يقودها يهود ومن شايعهم، وصارت سياسات البنك الدولي وصندوق النقد – الذي يديره هؤلاء – هو لنا شرعة ومنهاجاً!

والأمة بحاجة إلى علاج من الجذور.. علاج للنفوس من أعماقها.. علاج يرفع عنها الصغار والفراغ، حتى تعرف أن عبودية الله وحده هي الطريق، وشرعه جَلَّجَلَالُهُ – لا شرع يهود – هو المنهج، ولا يتأتى ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله.

***

عاشراً: تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق

قال تعالى:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة]

تذكر الآيات هنا ثلاثة أمراض مجتمعة: بيع آيات الله بثمن قليل؛ الأمر الذي يؤدي إلى: "تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق"، ومن ثم يصبح حالهم هو أمر الناس بالبر والمعروف، ونسيان أنفسهم!

وآيات القرآن الكريم تتحدث عن بني إسرائيل في صورة متصلة من الطباع والخصال والأفعال، سواء الذين كانوا مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو الذين كانوا مع الأنبياء من بعده، أو أولئك الذين عاصروا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في المدينة.. وذلك لأن القرآن لا يعالج "مرحلة تاريخية" محددة لبني إسرائيل، إنما يأخذ الإنسان في رحلة بعيدة عميقة الأغوار في نفوس بني إسرائيل؛ ليُبين لنا كيف انحرفت؟ وكيف ضلت؟ في صورة تفصيلية؛ لتحذر المسلم من الوقوع في مثل ما وقعت فيه بنو إسرائيل، فقد جمعوا فأعوا خصال الانحراف عن صراط الله المستقيم.. ويكشف أن طبيعة الانحراف، و"جينات أمراض الاستبداد" كانت كامنة في نفوس القوم، فيواجه القرآن بني إسرائيل في المدينة على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بخصال أسلافهم، فقد تكرر الانحراف بتمامه، وعادت الأمراض كما هي، ولا نغفل لحظات التعافي والعلاج - مثل التي كانت لهم بعد التيه في الصحراء، ومجيء الجيل المجاهد منهم - وهذا عندما يغيرون ما بأنفسهم، ويصلحون بواطنهم مما أصابها.

وتذكرهم الآيات هنا بنعمة الله عليهم - ونِعم الله لا تعد ولا تحصى - وإن أعظم نعمة هي نعمة الاصطفاء والرسالة، فإرسال رسول إلى قوم لهدايتهم إلى الله، هو أعظم فضل ونعمة يَمن الله بها على قوم، ولما كان إرسال محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ للناس كافة.. كان بذلك نِعمة ورحمة للعالمين، وتُذكر الآيات بواجب الوفاء بالعهد مع الله، واتباع شرعه، ودينه، والقول على الله بالحق.. واستسلام القلب لله وحده، وتحقيق العبودية الخالصة للمولى سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ويُذكر النفوس المتبلدة بالله وعذابه، فلا يكون هو - جَلَّجَلَالُهُ- أهون من يعتبرون مقامه، فعليهم أن يرهبوا جنابه، ويُجلوا مقامه، ويُقدسوا كلامه، ويطيعوا أوامره.. لكن النفوس المقلوبة المتبلدة الجامدة، لا تستشعر هذه المعاني، وذلك بما كسبت يداها.

فجاءت "الرهبة" من الله مقرونة بالوفاء بالعهد والميثاق، وجاءت "التقوى" مقرونة بعدم بيع آيات الله بثمن قليل، والصدق في بيان الحق.. والرهبة هنا هي: الخوف من عذاب الله، وخشية الأجساد من عقابه، والتقوى هنا هي: حفظ جناب الله، ومقامه، وخشية القلوب منه، وخشوعها له.. فلا يرهب أحد فوت حظ أو بطش ظالم، فالله وحده هو النافع، وهو صاحب القوة والإرادة المطلقة.. فلا تخافوا من غيره، فالخير عنده، وإن الأحق بالخوف والخشية هو الخوف من عقابه وعذابه جَلَّجَلَالُهُ، فهو وحده لا شريك له أحق بالرهبة والتقوى..

وتوجههم الآيات إلى الإيمان برسالة الإسلام التي جاء بها محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، والتي تُصدق رسالة الإسلام التي جاء بها موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، والتي تُصدق شريعة التوراة الصحيحة وآياتها.. وهم أولى الناس بالإيمان بها، وهم كانوا ابتداء في انتظار بعثة نبي، وكانوا يظنون أنه سيخرج في بني إسرائيل من نسل إسحاق بن إبراهيم، ولكنه خرج في العرب من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهم صلوات الله أجمعين، فلما لم يحدث ما يوافق أهوائهم؛ كفروا بالإسلام.. رغم إيمانهم ببعثة نبي في ذلك الزمان، لكنهم قدّموا أهوائهم على إيمانهم - وهم أصحاب كتاب سماوي - حسداً

من عند أنفسهم؛ فكانوا أول كافر بالرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، رغم أن الصورة الصحيحة، والمقدمات الإيمانية السوية لديهم تفترض أن يكونوا هم أول مؤمن به!

وقد كتم اليهود أمر عظيم جلل خطير، وهو أمر بعثة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 156] فكفروا بالتوراة، وكفروا ببعثة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وأضلوا أقوامهم، واتبعوا أهوائهم؛ فضلوا عن سبيل الله..

والآيات تذكرهم بنِعم الله والوفاء بالعهد، في معرض تكذيبهم بالرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فجعلوا من نعمة الله عليهم سبباً في الكفر، ذلك بأنهم ظنوا أن نعمة الله بالنبوة والرسالة محصورة فيهم، وأن الله لا يبعث نبياً إلا منهم، وهذا محض هوى وغرور، واتخاذ الدين مجرد "منصب وجاه واستعلاء على الخلق" فبعثة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ من بني إسماعيل هو انقطاع العهد عن بني إسرائيل بظلمهم: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة (124)]. وكونه النبي الخاتم ولا نبي بعده، زادهم كفراً وحسداً، فكفروا واخترعوا تبريرات تُبقي عليهم رياستهم وأوضاعهم!

ومع اتباع الهوى، تُباع وتُشترى آيات الله بثمن قليل، وكل الأثمان – ولو كانت الدنيا وما عليها – هي قليلة.. كل الأثمان قليلة، ولو كانت ملء الأرض ذهباً.. ذلك أن القضية هي قضية إيمان، ونجاة في الدنيا والآخرة، وليس لحظة متاع أو عناد أو غرور أو تعصب تمر بلا تبعة وجزاء وحساب، وكان الثمن هنا الخوف على المصالح والرياسة وما تدره عليهم من منافع وإتاوات!

ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ – في آيات أخرى – في بيان مرض تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ

الْهُدَىٰ هُدَى اللَّـهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾
[آل عمران]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّـهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّـهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران]

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران]

فهم يجتهدون غاية الجهد في تلبيس الحق بالباطل، وتُبين الآيات في مواطن ومناسبات مختلفة هذا المرض الخطير.. وهذه الجريمة الكبرى، وتُشرّح الآيات بعضاً من أساليب وطرق تلبيس الحق بالباطل: فمنهم من يؤمن ظاهراً بعضاً من الوقت - وهو يضمر الكفر - حتى يطمئن إليه المخلصين، ثم يعود للكفر ليقول إنه وجد الحق الذي آمن به أول مرة.. وجده كفراً وباطلاً؛ فيحدث بلبلة وفتنة للناس، ومنهم من يجتهد أن يلوي لسانه محاولاً أن يحاكي كتاب الله، ونظمه، وأسلوبه، وطريقته.. ليقول للناس هذا كتاب الله! في صورة من الكذب والغش والتدليس، ومنهم من يبيع عهده وميثاقه مع الله ببيان الكتاب، ويشتري بكتاب الله ثمناً قليلاً، ويُلقي كتاب الله وراء ظهره.

وقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يُبينوا كتاب الله كما أُنزل دون تحريف أو زيادة أو نقصان أو كتمان أو تدليس أو التباس غيره به، أو تلبيس الحق الذي فيه، بغيره من الباطل، بيانه التبيان الكامل الشافي

الواضح لوجه الله الكريم، ابتغاء مرضاة الله، واتباعاً لرضوانه، وابتغاء لسبل السلام.. بلا انتظار أي جزاء مادي أو معنوي من الناس.

ومع هذه الجريمة الكبرى في أعز وأغلى وأعظم ما ينفع الإنسان، وهي "رسالة الله".. فإذا برجال الدين تبيعه من أجل منصب أو مال أو جاه.. مع هذه الجريمة يفرحون بالكتاب، ويحسبون أنفسهم وحدهم أهل الفوز والنجاة! والكتاب حجة عليهم لا لهم، ويريدون أن يُحمدوا ويُقدسوا وأن تظل مكانتهم عظيمة جليلة في قلوب الناس، ولم يفعلوا للدين شيئاً يُحمدوا عليه، بل أجرموا غاية الجرم في حقه!

ولكنهم اتخذوا من الدين وسيلة للجاه والرياسة والتعالي على الناس، فيحبون أن يُحمدوا ويُبجلوا.. مع جرمهم، وحتى لو افترضنا أنهم فعلوا الخير، وأقاموا الدين، فيجب عليهم أن لا ينتظروا جزاءً ولا شكوراً ولا حمداً ولا تقديراً، فيجب أن يكون عملاً خالصاً تاماً نقياً لوجه الله الكريم، خالياً من أي حظوظ معنوية تقديرية من الناس، وطاهراً من دنس مد الأيدي لتناول جزاء مادي.. هذا على افتراض أنهم فعلوا الخير، لكنهم لم يفعلوه بل فعلوا الجريمة وباعوا آيات الله بثمن قليل – وكل الأثمان قليلة أمام دين الله – وهؤلاء ليسوا بمفازة من العذاب، ولهم عذاب أليم.

ولكن.. كيف تُباع آيات الله؟

يبيع آيات الله، المحترفون بمعرفة الكتاب.. أو ما يُسمى "رجال الدين" – من الأحبار والرهبان – الذين يعرفون الكتاب، ويعرفون مواضعه، وآياته، وأحكامه.. وكل كتاب من عند الله، يأتي لهداية الإنسان، وتنظيم حياته الروحية والمادية، ويخاطبه بصورة كلية شاملة متكاملة، يأتي الذي يبيع آيات الله، بإظهار بعض الآيات، وإخفاء بعضها.. لتظهر عملية "البيع" في النهاية أنها هي الحق، والدين.. وأن اختيارهم لم يخرج عن صحيح الدين، ومعهم "الدليل" الشرعي!

أي أن الذي يبيع آيات الله، لا يكفر بالكتاب كله.. إنما يمارس عملية "التدليس" و"التلبيس"؛ ليكون ما يظهر للناس صورة مشوهة من الدين، لكنها لا بد أن تحمل صبغة الكتاب؛ حتى ينخدع فيها الناس، ويتابعون عليها رجال الدين!

ولهذا جاء وصف الآيات لعملية البيع هذه: "تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق.. وأنتم تعلمون" فلا بد من وجود مسحة من "حق"؛ لتخفي معالم الباطل والتضليل.. فيتم كتمان الحق، وإخفاء مراد الله، وأمره، وإظهار الباطل في ثوب الحق، وتقديم الباطل للناس على دُعامة من حق.. ولا يقوم بهذه العملية الخطيرة إلا "رجل دين" محترف التلاعب بالكتاب، ويعرف مراد الله حق المعرفة، ولكنه لا يتبع مراد الله، ويبلّغه بصورة كاملة للناس، بل يكتم مراد الله من الآيات.. ويظهر بعضها، ويُخفي الآخر! ويُنزل الآيات في غير محلها وفي غير مواضعها.. فتكون عملية "كتمان الحق" حرفة وصنعة!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة]

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّـهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة]

ولأن كتمان الحق، وتزين الباطل ضرورة لاستمرار الفساد والطغيان في الأرض.. فأصبح وظيفة، فالناس لها عاطفة دينية، ينبغي احترامها، وتنفر ممن يكفر جملة بالدين أو يستعلن الإلحاد، إن الناس تريد أن تشعر أنها على صلة بالدين، وأنها تنتظر النجاة، بل إنها وحدها هي الناجية دون غيرها، وبالتالي تبرز أهمية "رجل الدين المحترف" الذي يستطيع تزين الباطل، وكتمان الحق، وخداع الناس باسم الدين!

فيكون حال هؤلاء المدلسون – من رجال الدين وغيرهم – هو أمر الناس بالمعروف؛ ليكسبوا به عند الناس مكانة، ومهابة، بينما هم في قرارة أنفسهم منحرفون عما يأمرون به الناس من بر.. فالأمر بالبر لديهم هو مجرد حرفة وصناعة، تستلزمها عباءة الدين الخارجية، لا حقيقة الإيمان الذي في القلوب.. فتنسى قلوبهم الموعظة بطول الأمد عليها، وقسوتها، وتعودها على المعصية، وتعود ألسنتهم واحترافها دعوة الناس؛ فتفقد الناس الثقة في رجال الدين عندما يرون التناقض بين القول والفعل، بل يتطرق الشك والتنازع إلى الدعوة ذاتها؛ فينطفأ نور الإيمان في القلوب، وتذهب حرارة العقيدة الصادقة، وإخلاص القلوب، وفي ذلك صد عن سبيل الله كبير.

***

ولكن.. لماذا يقع الإنسان في تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق، مع العلم به؟

إن الإيمان الحقيقي هو الذي يخالط القلوب والعقول والأرواح، وعندما تكون هذه القلوب طاهرة نقية صادقة مخلصة، فعندما يأتيها الإيمان تستمسك به، ولا تفرط فيه، وتراه هو "النعمة والفضل والفرح" وتكره أن تعود للكفر مرة ثانية كما تكره أن تُلقى في النار، وكلما جاءتها آية زادتها إيماناً، واحتساباً، وعرفت عظمة الدين، وقيمة الرسالة، وضرورة البلاغ الصادق التام عن الله رب العالمين.

أما عندما يأتي الإيمان إلى قلوب صلدة، متحجرة، قاسية.. ونفوس بليدة، جافة، منحرفة، فاسقة، فإنها ترى في الإيمان والآيات "سلعة" إنها قد تضطر للإيمان حيناً من الدهر ظاهراً مع موجة

المجتمع، أو عادة الآباء! لكن هذا الإيمان لم يخالط قلبها، ولن يخالطها وهي على نجاستها وأمراضها هذه!

ثم تجد "فرصة تجارية" لا لتتاجر مع الله، وتبتغي الدار الآخرة، بل لتتاجر مع الطغاة، فتبيع لهم آيات الله بثمن قليل، وتُخفي الحق، وتُظهر الباطل في ثوب الحق، فتُضل عن سبيل الله.

جاء عن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: **"مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا"** [سنن أبي داود/ 3664]

ولكن.. من الذي يَدفع في عملية بيع آيات الله هذه؟

من يدفع هم أصحاب المصالح الذين تصطدم مصالحهم مع آيات الله.. أصحاب المصالح من الطغاة، ورؤوس القوم، وأصحاب الأموال، عندما تردعهم آيات الله بإقامة الحق والعدل، والمساواة بين الناس، وتحكيم الشرع، فتأتي الحاجة إلى "رجال الدين" ممن يخدعون الناس؛ ويُصورون لهم أن طاعة الطغاة والفسدة على باطلهم هي "الدين"، وأن طاعة الرؤساء وعلية القوم هو التواضع والنجاة، وأن المطالبة بحقوق المال هي من الاعتراض على نعم الله على عباده... إلخ من صور التلبيس وكتمان الحق، فيكتشف أصحاب المصالح أنه لا غنى عن "رجال الدين" لخداع الجماهير، وتجرع مرارة الظلم والقهر والاستبداد بنكهة "التدين" فتنشأ علاقة التزاوج بين "الطغاة ورجال الدين" الذين تكون وظيفتهم "التبرير الشرعي" لكل جريمة يقترفها أصحاب المصالح، و"اللعنة" على من يعترض – ولو بكلمة – على هذا الظلم والباطل.. وكله بالدليل، لكنه الدليل الباطل الذي يكتم الحق، ويزين الباطل بآيات الله، ويا لها من جريمة!

***

وفي الأمة المسلمة:

ظهرت هذه الفئة من رجال الدين الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق، ويأمرون الناس بالبر حرفة وضرورة صنعة لا عن حقيقة إيمان، ثم في النهاية يريدون أن يُحمدوا ويُبجلوا ويُقدسوا، ويقولون عن أنفسهم: "لحوم العلماء مسمومة"!

ولقد تَوعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ هذه الفئة أشد الوعيد، فعنه: "**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟**" [مسند أحمد بن حنبل/13103]

وقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ** [أَيْ تَنْقَطِعُ أَمْعَاؤُهُ] **فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**" [صحيح البخاري / 3267]

ولقد حذر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من هذه الفئة أشد التحذير فقال: "**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الأَئِمَّةُ الْمُضِلُّونَ**" [مسند أبي داود الطيالسي / 1068] والأئمة هنا تُفهم على أنها الإمامة في العلم والدين، أو الإمامة في الحكم والسلطان..

وعندما يَضل الإمام في العلم والدين: فإنه ينحرف بجموع من الأمة عن سبيل الله، وصراطه المستقيم.

وعندما يَضل الإمام في الحكم والسلطان: فإنه يُخضع الأمة بقوة السلطان للباطل والضلال.

وتتكون في النفوس الهيبة والرهبة – من السلطان ورجال دينه – التي تمنع قول الحق! فجاء عن رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ : "**لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ فِي حَقٍّ إِذَا رَآهُ، أَوْ شَهِدَهُ، أَوْ سَمِعَهُ**" [مسند أحمد بن حنبل/ 10634]

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، فَلا يَقُولُ بِهِ، فَيَلْقَى اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَقَدْ أَضَاعَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَا مَنَعَكَ؟ فَيَقُولُ: خَشِيتُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى"** [مسند أبي دواد الطيالسي / 2320]

وعندما يحصل التزاوج بين باطل الإمام في العلم والدين، مع باطل الإمام في الحكم والسلطان، فقد تم إحكام السيطرة الروحية (من قِبل رجال الدين) والسيطرة المادية (من قِبل رجال السلطان وجندهم) على الأمة، وصارت مُكبلة بالأغلال والآصار! فتكون بحاجة إلى عملية تحرير مزدوجة.. تحرير من "الأسر" الروحي الذي تم عليها باسم "الدين"، وتحريرها من "الأسر المادي" الذي يجعلها مستسلمة لهذا الباطل باسم "الدين" أيضاً.

وحسب تدين الشعب تكون درجة الحاجة إلى حرفة "رجل الدين" فإذا كانت الجماهير في بلد ما متدينة؛ فإن الحاجة إلى "رجل الدين" - المحترف بيع آيات الله - تكون شديدة، وتكون مكانته مرموقة، وشهرته واسعة، والإنفاق عليه وحمايته - من قِبل الطغاة والظالمين – كبيرة؛ لأنه يؤدي وظيفة ومهمة لا يستطيعها غيره، وتكون موضوعاته محددة بدقة بالغة، ولا يتجاوز فيها برأيه، بل يجب إتباع دليل الإرشاد المخصص لخداع الجماهير، وعزلهم عن واقعهم وحياتهم ومشكلاتهم، ويبتعدوا عن أي كلمة تمس جناب السلطان ولو من بعيد، أما جناب الله، ونبذ شرعه ودينه.. بل وسبه والتطاول على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ونبذ سنته، كلها أمور لا يتمعر لها وجه رجل الدين، أما هم فلا يثيرون "الفتنة"! ويصبح هناك تعريف واحد فقط لا غير لـ "الفتنة" وهي: أي خطر يُمس حكم وملك الطغاة والظالمين، فهو الفتنة والضلال والخروج من الدين!

وإن كان تدين الجماهير ضعيفاً وأقرب إلى الحياة العلمانية منها إلى الحياة الإسلامية، فإن الحاجة إلى رجل الدين - المحترف كتمان الحق - تكون قليلة، ذلك لأن الجماهير ليست بحاجة إلى الضلال فقد ضلت من تلقاء نفسها، وغرقت في أوهام زينة الحياة الدنيا.. ولكن لا تنعدم هذه الحرفة، ذلك أن الإسلام رسالة تنبعث في قلوب المؤمنين دون إذن الطغاة، ويظهر في كل جيل من يدعو الناس إلى

صراط الله المستقيم، ويكشف زيف الباطل، ويُظهر حقيقة الإيمان كاملة، ولا بد لهذا الخطر من مواجهة، ولا يستطيع أحد مثل رجل الدين – المحترف كتمان الحق – أن يواجه هؤلاء المؤمنين، بل لا بد من وجود هيئة دينية تكون دائمة الوجود بجانب الطغاة والظالمين؛ لتبرر أفعالهم، وتخدع الجماهير باسم الدين، وتحتكر هي تفسير الدين، وتُفسق وتُبدع كل من يُظهر الحق للناس، ويحطم زينة الباطل.

والحديث واسع في استعراض تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق.. ففي مجال الاعتقاد والعبادات: نشأت التأويلات الباطنية التي تذهب بمعاني القرآن الظاهرة، وتخترع معاني جديدة ما أنزل الله بها من سلطان. وفي مجال المعاملات والسلوك: اخترعت تأويلات للظالمين والعصاة تشجعهم على مزيد من الظلم، لا العدل، ومزيد من الذنوب لا التوبة، فقدموا آيات المغفرة، وأعرضوا عن آيات الوعيد والعذاب.. وغيرها مما يُضل عن سبيل الله.

ويتبين العلاج في الآيات الكريمات من خلال: (ذكر نعمة الله بالإسلام والإيمان. الوفاء بالعهد مع الله. إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. الانقياد والخضوع وترك التمرد والركوع مع الراكعين العابدين لله. تلاوة الكتاب بعقل حاضر مبصر مخلص. الاستعانة بـ "الصبر والصلاة". الخشوع لله رب العالمين. تذكر اليوم الآخر.. يوم الرُجعى إلى الله)

ومتى حضرت هذه الأمور في قلب مسلم، فإنه لا يقوى ولا يقدر على أن يتجرأ أن يكتم الحق، أو يبيع آيات الله بثمن قليل.. وأقول: قلب مسلم سواء من عرف كتاب الله ودينه ودعى إليه، وصار من "أهل العلم"، أو قلب مسلم لا يستمع قلبه للباطل، ولا يُصدق الكذب، مهما تجمل وتزين..

ذلك أن الباطل لا يثبت إلا في النفوس المريضة، والقلوب الفاسقة.. أما القلوب المؤمنة فإنها تطرد الباطل، حتى دون أن تعرف "الرد العلمي" على الباطل المتزين والمتخفي بثوب الحق، فالقلوب المؤمنة تطرده، كما يطرد الجسم الصحيح السوي الأجسام الضارة عنه.. ولا يتأتى ذلك إلا في

القلوب الصادقة الطاهرة المخلصة دينها لله.. وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين إلى يوم اللقاء والرُجعى مشتاقون.

***

حادي عشر: الدناءة والذلة

قال تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّـهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّـهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

يَمن الله على بني إسرائيل - بعد نجاتهم من فرعون وخروجهم من مصر - بـ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160]

فجعل الله جَلَّجَلَالُهُ حياة الصحراء والبادية.. حياة ميسرة طيبة فقد: فجر لهم العيون من الماء، وجعل لكل سبط منهم عيناً خاصة بهم رأفة بهم، وظلل عليهم الغمام والسحب؛ لتُسهل لهم حياة البادية التي لم يكونوا يألفونها من قبل، واختار الله لهم من الطعام المن والسلوى، والمن هو كالعسل، والسلوى طائر كالسِمان.. وهو إليهم سهل قريب، فهذا هو الماء والعسل والطير والغمام، نِعماً من الله وفضلاً، فوق نعمة النبوة والرسالة، وفيهم نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونجاتهم – بفضل الله – من فرعون، فهي نِعم لا تعد ولا تحصى، وما عليهم سوى أن يذكروا نعمة الله ورزق الله، ويشكروا له ولا يسيروا في الأرض مفسدين..

ولعل مناسبة ذكر "الإفساد" في الأرض في معرض الحديث عن "نعم الله" هو الإفساد بالكفر بنعمة الله، و"الظلم" - كما جاء في آية سورة الأعراف - فجُمع بين "الفساد والظلم" ولعل المناسبة

في ذلك – وهم قد خرجوا من "فساد وظلم" فرعون – ألا يقعوا فيما وقع فيه فرعون ويقلدوه ! ولعل من "الفساد والظلم" عدم الصبر على المرحلة الجديدة التي تؤهلهم لدخول الأرض المقدسة، وعدم الجدية في تغيير ما بنفوسهم من أمراض القلوب والعقول والنفوس، وهي ملاحظة جديرة بالتأمل أن يُذكر "الفساد والظلم" وينهاهم عنه، في مناسبة التفضل بالنعم والتكريم لهم، فالمتوقع أن يكون بعد التفضل بالنعم، التوجيه إلى شعور الشكر والعرفان، والأمر بالتسبيح والتحميد لله جَلَّجَلَالُهُ.. ولكن جاءت خاتمة الآيات بعدم الظلم والإفساد، كمرحلة أولى لا يمكن تخطيها.. وتؤهلهم إلى مرحلة "الحمد والشكر" فلا يُتصور لمن يظلم ويفسد أن يَشكر وهو على حالته هذه، بل عليه التوقف عن الفساد والظلم أولاً.

ولعل ذكر مناسبة "الحجر" وانفجار المياه منه.. هي دعوة لتفجر الإيمان في القلوب القاسية، وألا تكون أقسى من الحجر، بعدما ألفت الذل، وتشربت الاستعباد، وأحبت الجبن، وأنِست رؤية الشعائر الوثنية عند الفراعنة؛ وإن وجود نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معهم غايته هو تطهير القلوب، وجلاء حقيقة الإيمان.

فهل شعروا هذه النِعم، وهذا اليسر والفضل من الله لهم، هل شكروها؟!

كلا.. ظلموا أنفسهم، فلم يشكروا نعمة الله، ولم يقوموا بما أوجبه الله عليهم، وطلبوا الأدنى من الطعام، مثل: العدس والبصل والبقول، ولم يشكروا نعمة الله عليهم، مثل: العسل والطير والغمام، فقدموا أهوائهم على ما اختاره الله لهم، فهبطوا من البادية إلى مصر من الأمصار.. وضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وحل عليهم غضب الله، فقد كانوا بآيات الله يكفرون، ويتجرؤون على قتل الأنبياء، وذلك بسبب عصيانهم، واعتدائهم على حرمات الله.

فتمسكوا بالمألوف من طعامهم، وعجزوا عن تركه.. رغم بذل الأفضل لهم، فكيف بالمألوف من المعاصي، ومن الخصال التي اكتسبوها من حياة الجاهلية الفرعونية؟!

ولقد كانت حياة البادية لهم تربية – والله جعلها يسراً لهم فضلاً منه وتكرماً – تربية تفصلهم عن بيئة الاستبداد التي ألفوها في وجود الفرعون ونظامه، وكانت محطة لهم لصقل نفوسهم، وتقويتها، وتمحيصها؛ لتكون مؤهلة إلى حمل الرسالة، والوفاء بالعهد والميثاق مع الله، وتكوين نفس مسؤولة ذات همة عالية، وروح سامية، ونفس طاهرة، وعزيمة قوية..

ومعالجة للتخلخل والخسة والوهن والضعف الذي في النفوس، ومحاولة تزكيتهم، والاستعلاء بهم من عالم العبيد إلى عالم الأحرار.. من عالم الاستسلام للجلاد والشهوات إلى عالم الحرية والعزة والإباء والشرف والكرامة.. ومحاولة عزلهم عن غيرهم من الأمم الفاسدة، أو التأثر بالحياة المادية حولهم؛ فيركنوا إلى الحياة الدنيا، ويتركوا دينهم وشرع ربهم.

كانت حياة البادية هذه – بعد خروجهم من مصر – محطة تربوية هامة وضرورية لتلك الشخصية التي تعرضت للاستبداد والذل طويلاً؛ لتنظيفها مما علق بها من رجس جاهلية فرعون، ومما أصاب النفس من "أمراض الاستبداد"، والله جَلَّجَلَالُهُ جعل لهم حياة البادية الجافة القاسية الموحشة: (ماء وعسل وطير وسُحب وغمام) وفوق كل ذلك معهم نبي من أولي العزم من الرسل يُوحى إليه من عند الله، وإن النفس المؤمنة عندما تستشعر هذه النعم، وتحاول أن تحصيها لا تستطيع، ولا تجد إلا أن تخر ساجدة شكراً لله وعرفاناً بفضله وكرمه..

أما النفس الخسيسة الدنيئة.. والبنية النفسية المفككة، والجبلة الهابطة المتداعية لم تفهم الغاية من الخروج من مصر، وعجزت حتى عن تغيير مألوف طعامها، فضلاً عن التطهر من الذلة والمهانة.. وحسبت أن المسألة – ويا لتفاهة تصوراتهم – هي "قائمة طعام" وتحسب أن قضية التواجد في البادية هي قضية "طعام وشراب"!! ولكن هل استطاعوا – بذكائهم! – حتى أن يختاروا الخير من الطعام؟ كلا.. اختاروا الأدنى منه من العدس والبصل!

والمؤمن لا يستسلم لاختيار نفسه.. وهواها، كلا.. بل يدعو الله أن يختار له، وقد كان من دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: **"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ** " [المستدرك على الصحيحين / (1 :545)]

وقد وَكل الله هذه النفوس إلى نفسها، فاختارت الشر؛ اختارت الخروج من "المحضن التربوي"، وتركت الخير، واختارت الأدنى؛ سواء من طبيعة المكان الملائم لصلاح شخصياتهم، أو من اختيار الطعام وتقديم البصل على العسل!

ولا ندري ماذا لو كان محضنهم التربوي أشد صعوبة، فحرمهم الله من الطعام إلا القليل؟! ولكن رحمة منه، وعلمه بأحوال النفوس.. كان الاختبار يسيراً، ورغم ذلك رسبوا فيه بعصيانهم وغيهم.

ولما فشلت هذه النفوس الدنيئة أن تفهم طبيعة المرحلة وأهميتها في لحظتهم هذه، طردهم الله منها، فلما لم يعرفوا لله فضلاً، ولم يرتقوا في تصوراتهم.. طُردوا من حياة العزة والكرامة إلى حياة الذلة والمسكنة، ومن الرزق الذي اختاره الله لهم من العسل والطير إلى ما اختروه لأنفسهم من العدس والبصل!

وحل عليهم غضب الله.. وهذه الدناءة والخسة جعلتهم يكفرون بآيات الله، ولم يكن كفرهم ككفر فرعون.. بل كفر العبيد، التي تسمع آيات الله، وتحفظها، وتحملها، لكنها عن "حقيقة" الآيات، و"مدلولاتها" و"أفعالها" كافرة، معرضة، منكِرة، فلم يكن هو كفر الجحود والتكذيب العلني بل كفر الإيمان والعمل الواقعي.. الأمر الذي لم يجعلهم يكفوا حتى عن قتل أنبيائهم، وهي جريمة كبرى، وكفر شنيع بنعمة الرسالة والرسول، وعصيان واعتداء على أشد حرمات الله.. ولكن النفوس الهابطة الذليلة تتجرأ على المعصية، ولا تخاف إلا من المحسوس من الأشياء!

حلّت عليهم الذلة والمسكنة، وهم كانوا فيها في عهد فرعون، وها هم قد خرجوا مع نبيهم موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وفي مرحلة التربية، وتطهير النفوس.. تركوها إلى الاهتمام بنوعية الطعام، وما ألفوه منه! وعدم القدرة على تركه وإن كان دنيئاً بالنسبة لغيره! فلم يستطيعوا الصبر على ذلك وهو هين،

والبديل الأفضل من الطعام ميسر لهم! فضُربت عليهم الذلة وانطبعت في نفوسهم، فقد كانت هذه فرصة عظيمة لتطهير النفوس، وإزالة ركام الفراعين عنها، ومسح آثار الذل والعبودية.. فصارت الذلة لازمة لهم.

وجعلتهم - فيما بعد - لا يوقروا نبياً، ويكفروا بآيات الله، فهم لم يقتلوا أنبياء في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما يأخذهم السياق إلى آثار تلك الذلة فيما بعد، وإلى غضب الله عليهم، وهم عن هديه معرضون.

***

ولكن.. ما الذي يجعل النفس - وهي ترجو لنفسها كل خير - تختار الأدنى؟

إن النفس الإنسانية مجردة.. غير مؤهلة للاختيار، فالنفس تريد الفجور أمامها، والاندفاع لأي لائح لها، والإقبال على أي عارض لها، حتى ولو كان هو الشر المحض.. والنفس بحاجة إلى الهداية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستقامة على صراطه المستقيم.. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وهو أكمل الناس إنسانية، وأشرفهم خُلقاً، وأهداهم سبيلا كان يدعو فيقول: "**أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ**" فما بالنا بمن هو دون الأنبياء!

إن النفس في حالة عدم الهداية.. تحسب أن كل "استجابة" لعارض من شهوة أو فكرة هو "خير" لها، وتنطلق لتُقدم عليه، وتتحمس له! وتصر عليه! وبمجرد الوصول إلى تحقيق "الهوى" يفقد لذته، وتكتشف النفس الخدعة، وترجع إن كانت صادقة، أو تستمر في الغي إن كانت في حالة من النهم والدناءة والذلة فتغرق فيه، فلا ترغب في الرجوع والعودة والاعتراف بالخطأ!

كما أن عامل "الغرور" يشكل خطورة بالغة في هذه الحالة، فاعتقاد النفس في نفسها "النباهة والفطنة والذكاء" يجعلها في حالة من "الاستغناء" عن سماع الحق، وإبصار طريق الهداية.. بل يجعلها إن كانت على طريق الهداية - مثل بني إسرائيل في الآيات السابقة - تُعرض عن الطريق، وتريد الأدنى.. فتعجز عن الارتفاع، والسمو؛ فتتمرغ في الذلة والوحل، وهذا هو "الكِبر" الذي يرد الحق،

وينتقص الناس ويتعاظم عليهم: "**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**" [صحيح مسلم/ 92] فردوا الآيات، وقتلوا الأنبياء!

كما تأتي خطورة "إِلف" النفس لأحوال الدناءة.. فإن استسلمت النفس لهذا الحال، دون الرغبة في التغيير، ودون التطلع للعزة والكرامة وحمل الأمانة، والإرادة في السمو، والعزيمة على الرشد؛ تكاسلت وترهلت عن أي حركة تُخرجها أو تحركها عن مألوفها، حتى ولو كانت خروجاً من الذل إلى العز، ومن العبودية إلى الحرية.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع خلق كثير منها في الدناءة والذلة والمسكنة والفقر، وترك الخير، واختيار الأدنى!

فأعرض كثير من أبناء الأمة عن الخير المعنوي والخير المادي.. عندما جاءهم، وفضّلوا حياتهم السابقة عليه، وحدث هذا على مستوى الأشخاص والجماعات والطوائف في مراحل مختلفة من تاريخ الأمة.

وفي محاولات علاج الأمة من أمراض الاستبداد التي أصابتها - مثلما أصابت بنو إسرائيل من قبل - يختار الكثير من أبنائها الأدنى على الذي هو خير، ويفضلون الذلة والمسكنة على العزة والمرحمة، ولا يصبروا على تكاليف العلاج، فيعيشوا دوماً في وحل وعذابات الأمراض.

ونجد كذلك تفاهة اهتماماتهم عندما تُعرض قضية علاج ما بالنفوس من أمراض الاستبداد، وينشغلون بتوافه الأمور مثلما انشغلت بنو إسرائيل - وهي في مرحلة الإصلاح والتربية - بـ "الطعام" رغم توافر الأجود منه لديهم! ولكن دناءة النفوس تجعل اهتماماتها سافلة دنيئة!

وفي الحديث الشريف: "**إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**" [المعجم الأوسط للطبراني/ 2943]

وإنها لقضية خطيرة عند محاولة انتشال الأمة من أمراض الاستبداد هذه، ومحاولة إعادتها إلى الحياة والوجود، وإعدادها لحمل رسالة الله إلى العالمين مرة أخرى.. أن يكون رد فعل البعض منها هو اختيار "الذلة والمسكنة" و"تفضيل الأدنى على الخير"، و"الركون إلى مألوف النفوس وعاداتها"، و"جزعها من تكلفة العلاج"؛ فتعيش وتموت في المرض!

والآيات هنا تستعرض لنا – في مثال بني إسرائيل – مصير أي أمة تُعرض عن العلاج، وتنشغل بالتوافه، ولا تصبر على التكاليف.. فلا ينتظرها سوى الذلة والفقر وعلو الآخرين عليها، بل إلى الكفر أقرب.. كفر العمل والإيمان، كفر الكبر والعصيان، ثم الطرد من رحمة الله.

ولقد كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء "**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ**" [صحيح البخاري / 3455]، وكانوا يقتلونهم! لأن تعاليم الأنبياء لا توافق أهواء بني إسرائيل ومصالحهم المادية، والأمة المسلمة تقتل كذلك دعاتها ومفكريها الذين يَخلفون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في دعوته، ويحملون رسالته، يقتلونهم لنفس سبب قتل بني إسرائيل لأنبيائهم.. تصادم المصالح والأهواء! ويتهمون الدعاة بنفس التهم!

ونجد في هذه الآيات أن طريق العلاج من الدناءة والذلة والمسكنة هو:

("احترام" مكان العلاج، وإدراك ضرورة العلاج، والانعزال عن بيئة الاستبداد ومؤسساته، وفهم ضرورة مرحلة التربية السوية، والارتفاع بالاهتمامات، والتمسك بمعالي الأمور عن سفاسفها، والخروج من الإلف والعادة، وهمة النفس وإرادتها للعزة والرفعة، واستشعار نعمة الله، وحسن التوكل عليه، والإخلاص له، وأخذ الكتاب بقوة لا وهن ولا استخفاف).

***

ثاني عشر: التشدد والتعنت، وكثرة السؤال

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة]

مناسبة هذه الآيات هي: وجود قتيل من بني إسرائيل لا يُعرف من قتله، وطلبوا من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يُعرّفهم الله جَلَّجَلَالُهُ بذلك القاتل، فجاء الوحي الإلهي، بذبح بقرة، ثم يضربوا القتيل ببعض لحمها، فيُحيي الله هذا القتيل - كمعجزة ربانية خارقة للعادة - فيتكلم باسم الذي قتله، ثم يعود ميتاً كما كان! وفي القصة غاية أكبر وهي: رؤية آيات الله سواء المنظورة للعقل ويألفها، أو التي خارقة لتصور العقل ولا تتكرر، فكلها آيات من عند الله للعقلاء؛ لتكون زاداً لهم، في إدراك مدلول هذه الآيات، وما يجب أن تتركه في النفس والحياة من قيم وموازين، وتصورات ومفاهيم، وأخلاق وشعور، ونظم وحضارة.

ونلحظ من نظم الآيات التركيز على موضع ومناسبة وعلة ذكر القصة بهذه الطريقة فكانت في نهايتها، وبدأت بالتحدث عن "البقرة" وشرح شكلها وأوصافها.. وطريقة بني إسرائيل في التعاطي مع قضية "التكليف والاستجابة" و"التكلّف الشديد والتعنت في مسألة تنفيذه" رغم بساطة الأمر، وسهولة المطلوب.

والآيات هنا ترشدنا إلى مسألة "الجهد الإنساني" المطلوب للتكاليف.. لقد تعود بنو إسرائيل على الحصول على المعجزات الخارقة، التي لا دخل لهم في عملها، وتعودوا على طلب كل شيء من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى طلب العدس والبصل – كما سبق الشرح – والآن نحن أمام قضية جنائية.. قضية قتل نفس، ويُفترض فيها بالنسبة للمسلم أمرين: أن يعرف حكم الله في قضايا القتل، ويتعلم كيف يصل إلى الجاني.. وفق الأدلة والقرائن، ويحقق ويجتهد ليصل، فيقوم بالقسط والعدل في معرفة حكم الله، وتنفيذه بلا انحراف عنه لهوى أو شهوة أو محاباة أو نبذه إلى غيره من الشرائع، والاجتهاد العملي في التحقيق الجنائي، وتفنيد الأدلة.

ولكن "ترهل" و"تكاسل" نفوس بني إسرائيل، وتعودها تنفيذ الأوامر تحت سياط الجلاد، وتحت القهر والذل، لا يجعلها تستوعب قضية "حمل الأمانة" و"القيام بالتكاليف"، فتلجأ إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ليحل لها لغز القاتل!

واللطيف في الآيات أنها لا تذكر من القاتل، فليس هو موضوع الآيات، ولا الغرض من ذكرها.. إنما الغرض هو "الكشف النفسي" عن أحوال هذه النوعية من النفوس؛ لتحذر الأمة المسلمة أن تقع فيما وقعت فيه بنو إسرائيل من تكلّف وتعنت وشدة، فكانت القصة اختباراً لبني إسرائيل لمدى "الطاعة والاستجابة والتسليم".

وتأتي التربية الربانية هذه المرة، باشتراط تكليف صغير عليهم أن يؤدوه ليصلوا إلى مرادهم، لقد تعودوا أن تحصل المعجزة بلا أي تكاليف، يضرب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحجر، فينفجر الماء، وينزل عليهم المن والسلوى بلا جهد وعمل... إلخ، وهذه المرة يطلبون معرفة القاتل، فجاءهم هذا التكليف بـ "ذبح بقرة"؛ ليُعودهم على بذل الجهد، واستفراغ الوسع، والسعي الحثيث، وسرعة الاستجابة والطاعة؛ لتتأهل نفوسهم لحمل أمانة هذا الدين.

فكيف استقبل بنو إسرائيل هذا التكليف؟

(1) الاستهزاء والسخرية. (2) التطاول والتلكؤ في الاستجابة للتكاليف. (3) التكلّف والتعنت. (3) الشدة على النفس. (4) الغرق في التفاصيل. (5) كثرة السؤال. (6) المشقة في الأمر اليسير. (7) تلمس الحجج والمعاذير. (8) الشك والتردد أثناء التنفيذ.

ويُوحي سياق الآيات أنهم لم يعرفوا الغرض من ذبح البقرة، وعلاقته بقضية "من القاتل؟".. ولعلهم عرفوا السبب فقط عند لحظة أمرهم بضرب لحم البقرة بالقتيل؛ وفي ذلك دلالة على قضية "الامتثال" للأمر الإلهي عموماً، وخصوصاً في مسألة طلب معجزة كهذه، وتجعل العقل لا يشترط الفهم الكلي لكل أمر من عند الله، فلكل أمر إلهي حكمة وعدل ورحمة وعلم سواء أدركها العقل البشري أم لا..

والحق إن آيات الله البيّنات حريصة على بيان الحكمة والعدل والرحمة والعلم في كل ما يأمر الله به، ولكن هناك نفوس صغيرة، متطاولة، سافلة، غبية، منحطة الفهم والإدراك.. ليس لها قلوب واعية، ولا نفوس طاهرة، ولا أرواح سامية، وهذه تقرعها الآيات بـ "الامتثال" في كل أحوالها، فهي يُفترض في حالة من العبودية التامة الخالصة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي موطن التكريم لهم، كان الاستهزاء منهم والتطاول.. فقد طلبوا من نبيهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المعجزة، وقد أجابهم بهذا "التكليف" لتتحقق لهم هذه المعجزة، وهو نبي من أولي العزم من الرسل، لا مجال للاستهزاء أو السخرية في أمر النبوة.. فظنوا بنبيهم ما لا يليق بالأنبياء، وتطالوا في موطن التواضع والأدب، فاتهموه! وقد كانوا من قبل ينفذون الأوامر بلا تفكير ولا تردد ولا سؤال، يوم أن كانت سياط الجلاد تلهب ظهورهم.

وها هم اليوم مُكرمون بالحرية وبالرسالة وبنبي الله.. فأنى يكون الجواب منهم هو "الاستهزاء والتطاول" وهذا ما فعلوه بنبيهم.. أما ما فعلوه في نفوسهم، فقد تعنتوا وتشددوا؛ فشدد الله عليهم!

قسوا على أنفسهم، وأكثروا السؤال في أمر سهل بسيط يسير قريب، وغرقوا في تفصيلات صغيرة، ثم بعد كل ذلك كانوا في حالة من التردد والتشكك والتذبذب في تنفيذ هذا الأمر.

ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا.. تأدباً مع نبي الله، ووحي الله، واستسلاماً لأمر الله، وذبحوا أي بقرة، وأقرب بقرة إلى أيديهم، لكفتهم، وانتهت المسألة، ولكن النفوس الملتوية العصية المقهورة تستقبل الأمر في "حالة الحرية" بهذه المشقة والعنت والسخرية والتلكؤ، وتستقبل الأمر في "حالة القهر والذلة" بالطاعة والاستسلام.. والله يريد لها أن تستقبل الأمر في حالة الحرية بالطاعة والانقياد والتسليم لله ورسوله، حتى تكون أمينة على دين الله وشرعه.

ودين الله يسر، ليس فيه مشقة ولا عنت ولا حرج.. ولا حاجة لا التنطع والتكلّف في تنفيذ أوامره، ولا حاجة للشدة على النفس في تنفيذ التكاليف.. بل الحاجة إلى الاستسلام لله رب العالمين، وتطهير النفس وباطنها؛ حتى تكون مؤهلة لحمل الإيمان والرسالة.

وليس في الشدة على النفس، ولا التكلّف في التنفيذ، ثواباً إضافياً.. أو إيماناً زائداً، بل على العكس فيه جهل بدين الله، وانصراف النفس لتبديد طاقاتها فيما لا طائل من وراءه، وفرض المشقة على الناس! بينما هو دين الفطرة، وصبغة الله للكون كله، ولكن هؤلاء القوم لما تشددوا وتعنتوا شدّد الله عليهم، ولما ضيقوا على أنفسهم ضيّق الله عليهم.. جزاء وفاقا.

ولقد كانت هذه الحادثة سبباً في إخراج "الكتمان" سواء من كتم ماهية القاتل، ومن كتم التواء النفوس وطريقتها المنحرفة في تنفيذ الأوامر، وكان إخراج هذا "الالتواء النفسي" هو الدرس الباقي، فقد ذهب القاتل والقتيل، بل والجيل الذي عاصر هذا الأمر، وبقي الدرس الأهم والمطلوب، وهو طريقة الامتثال لأمر الله، دون تكلّف أو مشقة أو تشدد أو تردد أو تلكؤ..

مع التصديق المطلق في كل ما جاء من عند الله.. وليس كما تطاول بنو إسرائيل للمرة الثالثة في حادثة واحدة، فالأولى: كانت اتهامهم لنبيهم بالسخرية منهم. والثانية: { ادع لنا ربك } كأنه ليس بربهم! وكأن المسألة لا تعنيهم، والصحيح أن يقولوا "ربنا" فيستشعروا القرب والعبودية لله! والثالثة: يقولون له { الآن جئت بالحق } وسبحان الله! هو جاء بالحق من قبل ومن بعد، فهو رسول

مُبلغ عن الله، ودوماً ما يصحب التطاول.. الجهل، فهم يجهلون مقام الرسالة والنبوة، وحقوق الرسول والأدب معه.

وهم لم يهتدوا إلى هذه البقرة إلا بعد الإنابة والتسليم في سؤالهم الأخير عنها، وقولهم: { إنا إن شاء الله لمهتدون } فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الهادي.. والامتثال لأمره وطاعته لن يحدث إلا بهذه الهداية، وحق على الإنسان أن يشغل قلبه بطلب الهداية، لا أن يتنطع ويتشدد على نفسه.

وهي معجزة ربانية لا يقدر على مثلها أحد من البشر، تُعبر عنها الآيات في: { كذلك يُحيي الله الموتى، ويُريكم آياته } ولكن سرد القصة تستحوذ عليه قضية "التعنت والتشدد" والتواء النفوس، فهذا هو ما يجب أن يلتفت إليه الإنسان، ويحذر أن يقع في مثله.. وأن يعقل الآيات بعقل رباني، ونفس طاهرة، وقلب مستسلم لله.. الذي يُحيي الموتى بهذا اليسر والقدرة المطلقة التي لا يتصورها ولا يقدر عليها أحد من البشر، ويبقى إحياء الموتى سراً من أسرار الألوهية، وآية لمن كان له قلب يعقل دلالة وحدانية الله جَلَّجَلَالُهُ.

***

ولكن.. ما الذي يجعل النفس تقسو على نفسها، وتتشدد وتتكلّف في تنفيذ التكاليف، وكثرة السؤال رغم سهولة الأمر؟!

الحقيقة هذا الموضوع متشعب الأطراف، ويلمس أمراض مختلفة في النفس الإنسانية، فهناك خط القسوة على النفس، وخط التشدد والتكلّف، وخط التردد والتشكك والتلكؤ، وفقدان الاطمئنان، وخط الجهل، وخط التيه وفقدان أصل القضية.

وكل اتجاه من هذه الأطراف بحد ذاته مرض مستقل بذاته، والنفس الإنسانية كجسد الإنسان.. وحدة واحدة، بمعنى إذ مرض عضو في الجسد، فإن باقي الجسد يتأذى ويتعب، وإذا كان هذا المرض خطيراً، ومتروكاً بلا علاج، فإنه يُحدث مضاعفات، وإصابات بأمراض أخرى في الجسد، ويضعف الجسد أكثر في هذه المتوالية من الأمراض! وهكذا في النفس الإنسانية.. إنها وحدة واحدة

علامة صحتها: الرضى والطمأنينة والسكينة وهي حرة مستسلمة لله، وتتناغم أوتارها عندما تسير في خط "التوازن" الذي رسمه لها كتاب الله.. أو ما نقول عنه: "الصراط المستقيم" "سبيل الرشد".

تأتي القسوة على النفس من طول التكيف مع القهر والظلم.. في البداية ترفض النفس هذا القهر والذل الواقع عليها، وبطول الأمد، ينكسر هذا الرفض، وتدخل مرحلة "التكيف" و"الإلف" لهذا الوضع، في هذه الحالة يتغير سلوك النفس تجاه ذاتها، وتصبح أكثر "قسوة" و"شدة" وينحسر فيها "الرحمة" و"الحب".. فإن تعودت القسوة من خارجها، فإنها تتعودها كذلك من داخلها، فتتقبل القسوة على نفسها!

وأما التشدد والتكلّف فإنه يأتي من مسألة كيفية تعاطيها مع "الحرية" الشيء الجديد الوافد عليها، والغريب عن تصورها.. لقد تعودت الاستعباد، والتنفيذ تحت القهر وعين الجلاد، واليوم تحررت من الجلاد، وفي حرية ذات تكاليف ليس فيها جلاد! فتكون النفس هي الجلاد على ذاتها! فهي التي تتشدد وتتكلّف دون أي حاجة لذلك.. لا من ناحية طبيعة التكليف، ولا من ناحية رضى الله الآمر بالتكليف! فلا تتصور "سهولة" في تنفيذ أمر هكذا بلا قهر أو عذاب، فتروح تتشدد على نفسها، وتتكلّف في التنفيذ.

وأما التردد والتشكك وفقدان الاطمئنان فإنه يأتي من الاضطراب الداخلي والتناقض بين الحرية الخارجية وبقايا العبودية الداخلية.. والنفس في حالة الترهل والالتواء، تحاول أن تُشبع نداء الداخل، وتلبي صرخات العبودية التي أدمنتها، ولا تريد الفكاك منها، وفي نفس الوقت عندما يتساءل العقل عن "الداعي" القاهر لذلك، ولا يوجد شيء مادي ظاهر يقهر النفس على شيء، وإن عليها السهولة في التعامل مع نفسها وغيرها.. يحدث التردد والتشكك، أيهما أحق بالتلبية صرخات العبودية، أم نداء العقل بترك المشقة؟!

وأما خط الجهل فإنه يأتي من الجهل بأحوال النفس، وبطبيعة التكليف، وبالغاية المقاصدية منه، والجهل بالله، وبرسالته، يصحب هذا الجهل حالة من "الادعاء الكاذب" بالفهم! لتكاسل النفس،

وقلة صبرها على التعلم، فتميل إلى "الاختزال والتعميم" على نفسها وغيرها.. فيصبح الجهل مركباً، والعقل محدود التصور.

وأما خط التيه فإنه يأتي من الغرق في التفصيلات الفرعية، وغير ذات العلاقة بأصل الموضوع؛ فيختزل الأصول الكبرى، ويضخم الأمور الفرعية الصغرى؛ وينقلب الفكر لتضخيم أصغر تفصيلة، في حين تجاهله لعنوان وأصل القضية المطلوب التعاطي معها! وهي زاوية بعيدة تهرب فيها النفس وتستريح بعيداً عن جحيم التردد والشك، وقسوة التشدد والتكلّف، فتذهب لتقعد عند التفصيلات الصغيرة، وتنسى ما هو مطلوب تحقيقه وتنفيذه، وتتخدر بالإمساك بتفصيلة بعيدة تجعلها في حالة من الشغل، وهذه أحد الحيل النفسية للهروب من المواجهة.

وباجتماع هذه الخطوط وتداخلها.. وصعوبة تحليلها بصورة دقيقة، وتفصيلها، ومعالجة كل اتجاه على حدا، تظهر النفس بهذا التشدد والتكلّف، والتلكؤ، والقسوة.

ومبالغة في الإشارة إلى خطورة هذا المرض، سُميت السورة بـ "البقرة" إشارة إلى حادثة ذبح البقرة، وطريقة تعاطي النفس المُستعبَدة مع التكاليف، وسورة البقرة هي أطول سورة في القرآن، وأوائل ما نزل بالمدينة، وتناولت قضايا شتى، وأحكام مختلفة، وأسس للحياة والوجود، ورغم هذا التنوع، جاء اختيار اسم السورة بـ "البقرة"!

لقد تناولت سورة البقرة في مطلعها الحديث عن الإنسان بكافة صوره.. فتحدثت عن الإنسان المؤمن، والإنسان الكافر، والإنسان المنافق، ثم عرجت تفصيلاً وشرحاً وتشريحاً على الإنسان المقهور والمستعبد واختار المثال الذي تناولته سور عديدة في القرآن الكريم وهم "بني إسرائيل".

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع التكلّف والعنت والمشقة، ووقع الاستهزاء والتطاول على الكتاب والرسالة، ووقع الغرق في التفصيلات وفي التيه البعيد، ووقع التنطع والشدة.

ورسالة الإسلام ترفض هذه الصورة – مثلما ترفض صورة التميع والتفلّت من الدين – ويرسم الإسلام صورة واحدة صحيحة هي: الصراط المستقيم، سبيل الرشد، وسبيل المؤمنين.. بلا شدة وتنطع، ولا تميع وانحلال، وسطية في التصور والفهم، والعمل والتطبيق.

وجاء التوجيه النبوي في مواطن مختلفة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**" [صحيح البخاري / 39]

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**" [صحيح البخاري / 6395]

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**مَنْ يُحْرَمْ الرِّفْقَ يُحْرَمْ الْخَيْرَ** " [صحيح مسلم / 2593]

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ "**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**" [صحيح مسلم / 2596]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ، وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ**" [صحيح مسلم / 12 : 10]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَانْتَهُوا، وَمَا أَمَرْتُكُمْ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** " [مسند أحمد بن جنبل/ 7320]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** " [صحيح البخاري/ 7288]

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ**" [مسند أحمد بن حنبل / 3928]

وجاء التحذير الواضح من اتباع التشدد والتعنت: "**لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**" [سنن أبي داود/ 4904]

فصور أقوام الإسلام في صورة الشدة والغلظة والقسوة، وتكلّف في الممارسة الظاهرية.. في حين المتأمل في أحوال هذه القلوب يكاد لا يرى فيها "بشاشة الإيمان".

وغرق أقوام في كثرة السؤال، وبحور من التفصيلات.. وهم لم يبرحوا مكانهم بعد، وفي كل تكليف شامل، وأمر عام، وقضية مصيرية، ينسحبون إلى الأطراف للحديث عن أصغر التفصيلات، والافتراضات التي لم تحدث بعد حتى في المنظور البعيد، وعند التوجيه بالانتباه للقضية الأصلية والمصيرية، يقولون: إن هذه التفصيلة من الدين، ولا يسعنا تركها؛ فصار الدين تفصيلات معقدة، واستنباطات كثيرة وعجيبة، حتى صار أفهام هؤلاء حملاً ثقيلاً على الأمة، بينما الدين حنيفاً سمحاً سهلاً يسيرا، ولقد تلقته الأمة أول مرة بهذه السماحة والامتثال للطاعة وعدم الغرق في كثرة الأسئلة والتفصيلات، ثم خلف من بعدهم خلوف.. وقعوا في كثرة السؤال، والافتراضات، والتفريعات، ثم الاختلاف فيها.. فكثر الكلام، وقل العمل.. فوقعت الفجوة بين الواقع الإسلامي، وبين الصورة النظرية التي أخذت في التباعد عن الواقع، حتى تخلّفنا عن الركب!

وكل شدة وتنطع، وكل قسوة وتكلّف، وكل عنت ومشقة في التعاطي مع هذا الدين، هي ولا شك تأكل من الصورة الكلية، وتشوه الحقيقة المطلوبة.. فمن يتنطع في شيء، ويتكلّف ويتشدد فيه، لا بد وأن يقع "التفريط والجهالة" منه في مواضع أخرى. وتختل صورة الإسلام في تصوره وفكره وعمله.

ويصف القرآن الكريم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86].

كما جاء النهي عن التشدق والتفيهق، والثرثرة لمجرد الكلام؛ والتعالي على الناس بفصاحة، والتكلّف في الحديث، فعن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي، مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي، مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ، الْمُتَفَيْهِقُونَ**"[مسند أحمد/ 17289]

ويبدو أن العلاج من هذه المجموعة المركبة من الأمراض هو في:

- "التعقل" في فهم رسالة الإسلام، وفهم مراد الله، وغاية التكليف،
- و"التوازن" في فهم النفوس، والشجاعة في مواجهتها، والحوار معها لتحريرها من أسر الأوهام، وأغلال العبودية، وآصار القسوة..

وعندما تتم هذه المهمة، يأتي "الحب" ليحل محل القسوة، و"الحنان" ليحل محل الشدة، و"الرفق" ليحل محل العنف، و"الإيمان" ليحل محل التنطع والتكلّف.

***

ثالث عشر: قسوة القلوب

قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ ۗ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة]

تأتي هذه الآية في مناسبة التعقيب على حادثة "ذبح البقرة" السابق شرحها، وهو تعقيب يكشف عن دلالة خطيرة، هي التي سببت "التعنت والتكلّف والشدة" في التعاطي مع قضية التكاليف.. ألا وهي "قسوة القلوب"، وإعراضها عن الاستجابة، وتنكرها للطاعة. وإفراد هذه الآية العجيبة لهذا التعقيب فيه إيحاءات ودلائل كبرى.

إن قضية الطاعة والامتثال لأمر الله جَلَّجَلَالُهُ هي قضية إيمان محله القلب، وقبل الامتثال للطاعة والتكاليف هناك إيمان في القلوب، وبشاشة في الصدور، وتطلع في الأرواح، تجتهد وترجو وتبتغي وجه الله الكريم، فإذا جاءها أمر من الطاعة والامتثال كانت له أسرع، ولتنفيذه أقرب، فتسارع في الخيرات.

إن الإيمان حينما يخالط القلوب، يُحولها إلى واحة غناء ندية، تتفتح فيها أزهار الخير، ويرى الناس بشاشة هذا الإيمان خلف قسمات الوجوه والأرواح، ويظهر الرضى والطمأنينة في حياة الإنسان وسلوكه وفكره وشعوره.

إنه الآن يتصل بالله، وما أعظمه من اتصال.. وما أقدسه من قرب، ولا تكاد تلامسه الحروف والكلمات إلا يسيرا؛ لأنه يبقى تجربة روحية.. نرى فقط آثارها في الحياة، وفي صفحات الوجود.

أما القلوب القاسية.. فقد انقلبت فطرتها، وخرجت عن وظيفتها.. إن القلوب القاسية حتماً لم تخالطها بشاشة الإيمان، وفرح الطاعة والاستسلام لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فلا تقبل موعظة، ولا تتأثر بذكرى، ولا تنبعث لطاعة، ولا تخاف من وعيد، ولا تمتثل لأمر، ولا تتحرك لآية.

هذه القسوة هي عنوان فقدان الإيمان، وبقاء الطقوس والشكليات، وهو وصف جد خطير على الإنسان؛ يجعله يتعاطى مع نفسه ومع الوجود من حوله بهذا التكلّف والتعنت والشدة التي رأيناها في قصة "ذبح البقرة".. ويجعله يمارس الطاعة بصورة جافة سطحية، تهتم بالمظاهر، وتهمل الباطن وما تحويه هذه القلوب من حقيقة الإيمان.

إن التعقيب بـ "قسوة القلوب" على التنطع في ممارسة الطاعة، يكشف عن أن القضية الأولى والأصلية ليست هي مجرد شكليات، بل هي قضية داخلية قلبية، ومتى صلحت القلوب وكانت عامرة بالإيمان فستكون إلى الطاعة والانقياد والتسليم أقرب، ومتى خربت القلوب وقست واهتمت فقط بالشكليات فستكون إلى العصيان والتمرد والشدة أقرب.. وقد تنقلب في أي لحظة فلا يبقى لها حتى الشكليات!

إن قسوة القلوب هو إعلان إفلاس من الإيمان، وكأن القلوب هي أرض خصبة طيبة ما أن تُروى بماء الإيمان حتى تُنبت من كل زوج بهيج، واحة تحتوي الوجود، ويبقى فيها الكثير، قلوب حاملة للخير، ناشرة له، متصدقة به.. فإن انقطع عنها ماء الإيمان، ذبل كل شيء، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاما، ثم يجف القلب، ثم يقسو، فيكون صحراء قاحلة، جافة، قاسية، مُنفرة، طاردة..

ولكن إن ماتت الأرض بعد إحياءها.. وذهب بهاءها وجمالها، وتساقطت أوراقها، وتحطم زرعها، ويبست ساحتها وقست، وتشققت الأرض حتى صارت كالحجارة، فإن قسوة القلوب أشد من قسوة هذه الحجارة!

وهو وصف عجيب مُعجز أن ينتقل الوصف القرآني من مرحلة القسوة والتشقق للقلوب، لتكون أشد من قسوة الحجارة التي في الأرض!

ثم ينتقل الوصف لحالة أعجب!

إن هذه القسوة التي في الحجارة فتلك هي طبيعتها المخلوقة عليها؛ لتؤدي دورها في الحياة على هذه الخلقة، أما القلوب فهي مخلوقة لتكون عامرة بالإيمان، وبالحب، وبالخير، وبالرفق.. لا أن تكون مثل هذه الحجارة، ولكن الحجارة تتفوق على القلوب!

إن قسوة هذه الحجارة لم تمنعها من الرقة والنداوة والجمال فمنها: ما يتفجر منه الأنهار، ومنها لما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها لما يهبط من خشية الله.. الله أكبر، أي نداوة وروعة وإيمان في هذه الحجارة! وأي وصف حي يتكرم به الله على الحجارة الجامدة؟!

"يتفجر، يتشقق، يهبط".. كلها حركة، وفاعلية، وإيمان، وحياة.. مقارنة بقلوب فيها التكلّف، والغلو، والجفاف، والجفاء، والكبر، والتفلّت.. فيا عجباً لحجارة تتفوق على قلب إنسان!!

يا لإيمان الحجارة التي يتفجر منها الأنهار، فتكسو الحياة جمالاً وبهاءً ورحمة!

يا لإيمان الحجارة التي يخرج منها الماء، فيُطعم الطير والحيوان والإنسان!

يا لإيمان الحجارة التي تهبط من خشية الله، وترهب جنابه!

ويا لوحشة القلوب التي تقسو وتجف، فتكون صلدة لا ينبت فيها إيمان!

ويا لشقاء القلوب التي لا يخرج منها إلا الغلظة والشدة والجفاء!

ويا لوضاعة القلوب التي لا ترعى جناب الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا تمتثل لطاعته!

إنه لمثال يجب أن تتوقف الإنسانية كلها أمامه طويلاً، وأن تراجع نفسها لا سيما أمام هذه القسوة التي كست وجه الأرض، وتحاول على الأقل في البداية أن ترتفع إلى مستوى الحجارة!

وإن انعقاد المقارنة بين قلب إنسان وحجر، لهو تذكير بأن هذا الكون المنظور وغير المنظور بكل مخلوقاته سواء إنسان أو حيوان أو نبات أو طير أو جماد هو كله مُسبح عابد لله.. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإِسْرَاءِ : 44]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج : 18].

والإنسان أحد هذه المخلوقات إلا أنه متميز بـ "السيادة على الأرض"، والخلافة فيها، وكل المخلوقات الأخرى مُسخرة له لأداء مهمته، ومتميز بأنه صاحب إرادة تختار بين الإيمان والكفر، بعكس باقي المخلوقات التي لا تملك إلا الاستسلام والطاعة لله رب العالمين.. وقد أتت باقي المخلوقات عن "رغبة" في الطاعة لا إكراه.. وسبحان القائل جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت : 11].

وعندما يكفر الإنسان بهذه النعمة، وهذه السيادة، وهذه الإرادة.. فإنه يَسفل إلى مستوى أقل من الحجارة، وأضل من الحيوان.

إن قضية الإيمان ليست قضية شكليات ومراسم، وليست قضية معرفة واطلاع، وليست قضية حمل كتاب.. نعم كل ذلك قد يعطي لصاحبه صورة ظاهرة، ولكن الإيمان الحق الصادق لا يكون إلا في القلوب الندية الرحيمة الحنونة الرقيقة التي تترعرع فيها واحة الإيمان، وتزداد كل يوم بهاء وجمالاً وروعة، فإن سقط الإنسان في ذنب ومعصية.. تآكل وجف جزء من هذه الحديقة الغناء، فإذا تاب وأناب، عادت حديقته تنبت من جديد، والقلب المؤمن هو ذلك القلب الذي يزرع هذه الحديقة؛ فتكون أجمل وأندى وأطيب مكان.

فإن كانت القلوب صلدة جامدة.. فإنه لا ينبت فيها شيء، وينحسر فيها الجمال، فتصبح خربة، تحوي القاذورات والنجاسات والأمراض، حتى وإن تجملت ظاهراً بسعة العلم، أو بالتكلّف في الشكليات والمظاهر!

وتُختم الآية الكريمة العجيبة بقوله: { وما الله بغافل عما تعملون } فهو على هذه القلوب مُطلع، وبحقيقتها عليم، وبأحوالها خبير، وبعملها شهيد، وسوف يُجزيها بما تستحقه.

***

ولكن.. ما الذي يجعل النفس الإنسانية تصل لهذا المستوى من القسوة؟

إن مسألة صلاح النفس الإنسانية تحتاج إلى: "اعتراف"، و"جهد".. اعتراف بحالة النفس، وتواضع في إدراك الذات وما هي عليه، ثم بذل الجهد في عملية الإصلاح هذه، كل هذه أمور – في داخل الإنسان – تحتاج إلى اليقظة والوعي اللازمين لمراجعة حالة القلب.. ولا تكون إلا بتقوى الله، وفي حالة الإعراض عن الله، ونسيان الإنسان جناب الله، فيُنسيه الله نفسه، فيجهل أحوال القلب، ومدى القسوة التي أصابته، ويجهل تسافل النفس، ومدى الانحطاط الذي وصلت إليه!

فلا تكون هناك حالة من "الاعتراف" ومن ثم فلن يكون هناك جهد في إصلاح النفس.. وإذا حصلت حالة من "الانكشاف" بفعل عوامل خارجية، كنصيحة أو غيره..فلن يكون هناك قدرة على بذل الجهد للعلاج! لأن المسألة تأتي في الشعور أولاً، وفي انكشاف الحقيقة للإنسان ثانياً.. وبالتالي يكون الكبر والغرور هو رد الفعل.

وفي غياب الاعتراف بالمرض، والجهد في العلاج، سوف تتجه النفس إلى عملية "الهرب والتحايل والتحصين" ضد النقد أو التغيير، وستُغلف مرض القلب بصورة شكلية ظاهرة مزيفة تتستر خلف دعاوى العلم والفضل، أو قرابة الصالحين والنسب إليهم، أو التكلف في الصورة الظاهرية.. وبالتالي فقد تم طمس القضية ودفنها خلف ستار جميل يُخفي حقيقة قبيحة قاسية..

فتشتد القسوة حتى تكون أقوى من الحجارة! ولنا أن نتخيل صورة إنسان – في عالم الروح – قلبه الذي به يعقل، وفيه ينبت الإيمان.. هو عبارة عن مادة شديدة القسوة والتحجر، ثم هو يمنع عنها ما يرقق هذه القسوة – ولو قليلاً – بادعاء أنه على خير، وفي علم!

***

وفي الأمة المسلمة:

قست القلوب فكانت كالحجارة؛ فكان البأس بينها شديد، والتقاتل فيما بينها عنيف، وإهمال بعضها لبعض جسيم!

فأصبحت صورة التدين – إلا من رحم ربي – شكليات ومظاهر، تمارس الدين بصورة فردية، أحادية.. تلتزم الصورة والشكل فقط، بلا تذوق حلاوة للإيمان في القلوب، أو رؤية لجمال السلوك في الحياة! بل وقاحة السلوك الجاف، القاسي.. الذي يصد عن سبيل الله، ومرض قسوة القلوب مرض لا يأتي وحده، فالقلب مركز انطلاق، وقاعدة عمل.. فإن قسى بهذه الصورة، فقد جر ويلات وأمراض أخرى، قد تطبع على القلب فلا يعود يسمع أو يعقل أو يتقبل خير أو ينشط لتصحيح وتغيير.

والأمة المسلمة هي في صورتها الكلية الجامعة قلب جامع، وجسد واحد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"** [صحيح مسلم / 2587]

فالود – وهو درجة أعلى من الحب – في "المعاملة القلبية"، والرحمة والتعاطف في "المعاملة السلوكية" بين المؤمنين هي مسألة ضرورية لـ "وحدة الأمة" فهي جسد واحد.. إذا اشتكى منه عضو، فالأمة كلها بحاجة إلى الانتفاضة واليقظة لمعالجة الخلل الذي أصابها، فالمسلم لا يحمل في قلبه إلا الود، ولا يمارس في سلوكه إلا الرحمة والتعاطف.

فالأمة في حال صحتها هي: قلب واحد يغمره الود والرحمة والتعاطف.

وإن أصابها مرض أو خلل، فلا بد من الاضطلاع بالمسؤولية عن العلاج أولاً؛ لأن الخطر عام على جسد الأمة كلها، وإنّ هذا العلاج لابد وأن يحمل حقيقة "المودة والرحمة والتعاطف" فمهما حدث من خلل أو اضطراب أو مرض لا يمكن أن يخلو العلاج من المودة والرحمة والحرص على العلاج.

والأمة في حال مرضها: هي قلوب شتى ناشزة بالقسوة والجفاء.

وفي حالة المرض بالقسوة تتفرق الأمة شيعاً وأحزاباً وطوائف وجماعات، يلعن بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضا، ويُكفر بعضها بعضاً. وفي القلوب القاسية لا ينبت الإيمان، ولا تكون الحديقة الغناء التي تحمل الخير والفلاح، بل يكون هجير الصحراء، قلوب تحمل الغل، والبغضاء، والحسد، والنفاق، والغلو، والعصبية، والحمية الجاهلية، والأهواء، والتشدد والتنطع، والاختلاف على أتفه الأشياء.

وإن الاختلاف قد يكون صورة طبيعية أو متوقعة بين بني البشر، ولكن عندما يصاحب الاختلاف القسوة.. فإنه يكون لعنة على الإنسان والحياة، تتحول فيها إلى ساحة حرب، تُستباح فيها الدماء، ولا بد وأن يقع الغرور والكبر، وغمط الحق ورده، وانتقاص الناس، والتعاظم عليهم.. واعتقاد "الحق المطلق" الذي يؤدي بصاحبه إلى تقديس الوهم، واعتقاد الخرافة، وتدمير العقل، وفقدان القدرة على التدبر والتفكر والإيمان.

بينما إن وقع الاختلاف في قلوب ودودة رحيمة متعاطفة، فإنها ستقدم الرحمة والود والحرص على كل شيء، وتمارسه في كل شيء.. ومتى يشعر الآخر بهذه الرحمة وهذا الود فإنه يخفض الجناح، وتهدأ النفس، وتضع سلاحها، ويصمت داعي البغضاء والحقد.. فيكون التصالح بين المتخاصمين أقرب، فإن أصر أحدهما على الباطل، فلا تكف عن بذل النصح بالود والرحمة، فإن تعاظم الشر، وسُلت السيوف.. لجأت إلى القوة العادلة الحقة التي تردع دون نسيان "المودة والرحمة" حتى تسلم القلوب من الغل الذي يأكل الإيمان، وتسلم اليد من الغرق في الدماء، كما حصل في تاريخ هذه الأمة للأسف.. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فأي احتكاك بين قلوب قاسية غليظة لا بد وأن يكون فيه دماء، وعذابات، وشحناء، وبغضاء، ونار فتنة لا تنطفأ وهي على هذه القسوة، فهي حجارة قاسية.. عند أي احتكاك يتطاير شررها!

وإن خطورة هذه القسوة فضلاً عن تفرق الأمة، والتقاتل فيما بينها.. فإنها تمثل خطورة بالغة على قضية حمل رسالة الله إلى العالمين، فما أُخرجت هذه الأمة إلى الوجود إلا من أجل حمل هذه الرسالة،

وخلافة رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فيها.. ولا بد أن تكون رحيمة حنونة ودودة وهي تقدمها للإنسانية.. فلا قسوة، ولا فظاظة، ولا غلظة.. بل رحمة، وحب، وحنان، وحرص على إفهام الإنسان، وتعليمه، وتقديم أفضل صورة يستوعبها عقله..

ومن الرحمة أيضاً إزالة القوى التي تُعادي هذه الرسالة وتعتدي عليها بالقوة الظالمة والعدوان الغاشم؛ حتى يُحفظ جناب الرسالة، ويسهل على الإنسان إدراكها دون أن تتخطفه شياطين الإنس والجن، وتَحول بينه وبين الله جَلَّجَلَالُهُ!

إن الناس لا تسمع قبل أن يُبنى بينها وبين الداعية جسور المودة والحب، وتشعر "الحرص" – بلا جزاء أو شكورا – فتدرك أن الداعية يحمل شيئاً أكبر من وجوده، وأسمى معناً وقيمة.. ومن هنا تبدأ الدعوة.

فإن فقدت الأمة "المودة والرحمة والتعاطف"، واستبدلتها بـ "القسوة والغلظة والعنف"، فقد فقدت مقومات الرسالة.. وصدت عن سبيل الله.

وقد ضرب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مثلاً لـ "الناس عامة" لعلهم يتفكرون: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : 21]

وعلاج القسوة هو الإيمان، وطهارة القلب لهذا الإيمان، وطلب الهداية، وعدم الاستخفاف بتشريع الله أو التعنت فيه، وذكر الله هو ماء القلوب؛ ليُنبت الإيمان. والمعصية تُورث القسوة، وتحرق جنة الإيمان، فيكون ذكر الله حالة دائمة لا تتوقف.. حتى يستمر الإيمان حياً رطباً في القلوب الندية الرحيمة لا القلوب القاسية الغليظة.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: "**لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي**" [جامع الترمذي / 2411]

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّـهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد]

***

رابع عشر: تحريف الكتاب والتمني

قال تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّـهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّـهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّـهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّـهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّـهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّـهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة]

فبعد تلبيس الحق بالباطل.. وكتمان الحق، والدناءة والذلة، والتشدد والتعنت، وقسوة القلوب؛ وصلنا إلى مرحلة "تحريف الكتاب" وهي مرحلة أشد من تلبيس الحق بالباطل، والتحريف هنا يمكن أن نفهمه على وجهين.. الأول: هو التحريف الكلي وإدخال نصوص في الكتاب ليست فيه، كما حدث مع التوراة والإنجيل، والثاني: هو تحريف الفهم والمعنى.. بوضع النصوص في غير موضعها ومكانها، بالتأويلات البعيدة والمنحرفة، كما قال تعالى: {يُحرّفون الكلم عن مواضعه}.

وقد وقع الأمرين معاً.. إلا أن الآية هنا يبدو أنها تتحدث عن التحريف الأول، وهو التحريف الكلي بكتابة نصوص بأيديهم؛ ليقولوا هي من عند الله. وعلى هذا نمضي في البيان بإذن الله.

تخاطب الآيات هنا الجماعة المسلمة في المدينة، وهي تطمع في هداية أهل الكتاب ممن حولهم من اليهود، وقد كانت الجماعة المسلمة يومها في حالة من الطهر القلبي، والصدق النفسي، والشفافية الروحية التي لا تتخيل الانحراف عن كتاب الله، أو النفاق فيه.. لقد كانت نفوساً حرة، اختارت

الإيمان عن قصد وإرادة، وعن حب ومعرفة، وعن شعور وإحساس ورغبة.. حتى الذين كفروا لم يكونوا بحاجة إلى حيل وأباطيل وكذب وتلبيس، بل كانوا يقصدون الكفر بكل استعلاء!

كانت الجماعة المسلمة على فطرتها الطيبة الطاهرة، السمحة.. ولا تتصور خبثاً في النفوس يصل إلى هذا الحد! ولهذا عمد القرآن الكريم إلى هذا التفصيل، والتشريح للنفس الإنسانية في هذه السورة – وغيرها – لتستبين الأمة سبيل المجرمين، وتحذر الأجيال بعدها أن تنزلق إلى ما أنزلق إليه يهود.

وهذا الاهتمام القرآني البالغ بهذا الموضوع خاصة، يكشف لنا عند مدى خطورته، وعن أهمية بيانه للأمة.. فهذا المرض يُفصله القرآن على طريقته، ويقدم أيضاً العلاج على طريقته، فهو الشفاء بإذن الله.

كما تُلهمنا الآيات إلى انتباه الجماعة المسلمة إلى "عدم الغفلة" أو "القابلية للاستغفال" أو "خداعها باسم الدين" بل يجب أن تكون في يقظة تامة، وفي حالة من الوعي بكل ما حولها.. حتى لا يستغفلها أحد، فيخرج بها عن الصراط المستقيم الذي رسمه الله لها.

فها هي جريمة يهود ظاهرة "تسمع" كلام الله، و"تعقله" ثم النتيجة "تُحرّفه" عند قصد الغواية والانحراف والهوى والتعمد وسوء القصد، وليس عن سوء فهم، أو التباس أمر، أو غموض تصور، أو خطأ أو نسيان! ومن تكون هذه جريمته، فلا طمع في هدايته.. بل يجب "الحذر" و"الحيطة" منه! فمن يتجرأ على كلام الله، فإنه يستبيح خلق الله..

والقلب الذي يطلب الهداية والإيمان يكون متفتحاً للنور، وفيه من الحساسية والتقوى والوجل من الله جَلَّجَلَالُهُ، وفيه من اللين والصفاء والنداوة، فهذه الطبيعة المستقيمة حق على الله أن يهديها إليه.

وقد كان اليهود يمارسون حيلتهم المعروفة في تاريخهم، على طريقة العبيد.. إنهم لا يقدرون على المواجهة الكاملة بكرامة واستعلاء، فلا يختارون الإيمان بقوة وعزة، ولا الكفر كذلك، بل يتخفون، ويقفون في المنتصف.. ينظرون أين مصلحتهم المادية، فيخاطبون كل فريق بما يرغب ويحب!

وها هم بالمدينة.. إذا لقوا الذين آمنوا بمحمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قالوا: آمنا! وهم لم يؤمنوا، ولكن وضاعة النفوس، ليس فيها من الهمة لاستعلان الكفر، أو الاعتزاز بموقف، فليس للعبيد موقف، ولا قضية، ويبدو أن العبيد كانت تتزلف للذين آمنوا أو تحاول خداعهم! إما التزلف بالحديث عن مواصفات النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ المذكورة في الكتاب الذي بين أيديهم، أو محاولة كسب ثقة المؤمنين أن الكتاب الذي مع يهود هو كتاب صادق، يمكنهم الاعتماد عليه، أو التصديق الكلي له.

ولكن عندما خلى بعضهم إلى بعض، واجتمع العبيد في حظيرتهم، انتبهوا إلى خطورة هذه الحيلة، وردة الفعل العكسية لها.. لقد حدّثوا المؤمنين بما فتح الله به على بني إسرائيل في التوراة وما بَيّنه الله لهم من قبل من شأن النبوة والدين الجديد، وهذه حجة بالغة، ودامغة، وتأكيد زائد على صدق النبوة، فكيف يقدمونها للمؤمنين مجاناً؟! ثم هي بعد ذلك حجة عليهم، فلم يعد هناك أي مسوغ لعدم اتباع محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويتساءل العبيد: أفلا تعلقون؟!

أين عقولكم؟! كأن العقول التي وهبهم الله إياها لا بد وأن تعمل فقط في احتراف فتنة المؤمنين والكفر والنفاق! وهذا يكشف عن الطبيعة المنحرفة، والنفوس الخاطئة الكاذبة.. التي لا تبحث عن حق، ولا تهتدي سبيلا! بل تستخدم عقولها في الفتنة والكفر، ولهذا يُضلها الله، وهي عالمة لا جاهلة.

فانتبهت نفوس العبيد لـ "رقابة المؤمنين وتساؤلاتهم" ولم تنتبه لـ "رقابة الله وعلمه وإحاطته" وظنت أن الله جَلَّ جَلَالُهُ بحاجة إلى "حجتهم" أو أدلتهم المادية، ليعلم ما يفكرون به، وما يختلج في صدورهم، أو أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين!

وعندما تتسافل نفوس العبيد، ويضيق عقلها، وتتخابث أرواحها.. تنسى الله، وتغفل إحاطة الله وشهادته عليهم، وعلمه المطلق بسرهم ونجواهم وعلانيتهم وما خفي حتى على نفوسهم، فلا يستشعرون معية الله، ولا يراعون جنابه، فقد أكل الاستبداد تلك الرقابة الغيبية، وحولّها فقط إلى

الخوف من سياط الجلاد.. فقد اجتمع الخوف والرجاء لدى العبيد فقط في الصور المادية التي تفرضها بيئة الاستبداد.

ثم تصف الآيات جماعة أخرى من اليهود أمية، لا يعلمون شيئاً عن كتابهم إلا "أماني كاذبة" أخذوها عن رجال دينهم، كما أن هذه المعرفة – المخلوطة بالوهم والهوى والتمني بالباطل، وتمني ما ليس لهم، ولم يعملوا من أجله – هي ليست معرفة يقينية تستلزم منهم الإيمان الجازم والعمل الصادق.. بل هي ظنون وشكوك في صدورهم.

ويمكن أن يكون المقصد كذلك من كلمة "أميون" ليس هو الجهل بالقراءة والكتابة، وإنما الجهل بالكتاب نفسه.. أي تلاوته دون فهم أو تدبر فتكون هذه هي "الأمية" بالكتاب! ولذلك هم لا يعلمون عن الكتاب إلا أماني؛ بالوعد بالمغفرة "سيغفر لنا"، وبتفضيلهم على العالمين، وبتصورهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وباعتقادهم أنه لن يدخل الجنة إلا يهودي أو نصراني: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]. وبالإعراض عن التحاكم إلى كتاب الله، والتولي عنه، مع اعتقاد الأمنية بأنها ساعات معدودة في النار ويخرجون منها، وكل ذلك غرور وكذب على الله، والله جَلَّجَلَالُهُ يواجههم بالحقيقة يوم الحساب، وكل نفس تحمل ما كسبت.. فلا أمنية ولا وساطة ولا محاباة بل هو العدل الكلي الذي لا يظلم مثقال ذرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّـهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران]. ففهموا الكتاب حسب أهوائهم، وإنزال صفات المؤمنين على أنفسهم، وصفات الكافرين على كل غيرهم! واحتكار الحق المطلق: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّـهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة]. فتحسب أن وعد الجنة والهداية والغفران هو فقط لـ "أهل الكتاب" ﴿وَقَالُوا

كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴿١٣٥﴾ [البقرة]. وكل هذه الأماني ما هي إلا ظنون وأوهام وأكاذيب، وهكذا شعور العبيد الصغار، فهم لا يستندون على دليل، ولا يقيمون حجة، ولا يقدمون عملاً صالحاً!

فهم يقرؤون قراءة حروف لا معنى، قراءة فيها شك وظنون.. ولا يعنيهم فهم المراد، ومواضع الآيات، فتكون الأمية بالكتاب رغم تلاوته! وقد افتروا في دين الله، وكذبوا ونافقوا؛ ليخدعوا بافترائهم الناس، ثم هم بعد هذا الافتراء يغترون به ويعجبون له، ويصدقون دجلهم وضلالتهم.. فضلوا وأضلوا!

ثم تصف الآيات جماعة اليهود التي ارتكبت أفحش جريمة، وهي الكذب على الله.. وكتابة كلام من عند أنفسهم، ثم دسوه في كتاب الله – التوراة – أو جعلوا مع كتاب الله كتباً من تأليفهم، وقالوا هي من عند الله أو من كتاب الله؛ ليصرفوا الناس عن الحق الذي أراده الله، من أجل ثمن قليل من مال أو منصب أو جاه أو ملك أو متاع.. وحماية الفساد والمفسدين والطغاة والظالمين باسم كتاب الله وآياته!

وقد توعدها الله بـ "الويل والعذاب" ثلاث مرات في آية واحدة!

فقد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الظلم والكفر.. فلما لم يُمكنهم تحريف الكلم عن مواضعه من مرادهم، ولم يجدوا ما يُقنعوا به الناس، لجأوا إلى كتابة ما يشاءون بأيديهم! دون الحاجة إلى جهد التأويل الباطل، وإقناع الناس بما لا يُستساغ! وعجباً لهذه الجرأة على الله، وكتابه! ويظل المسلم في حيرة وعجب.. كيف تجرأ يد خلقها الله على تعمد وقصد الكذب على الله جَلَّجَلَالُهُ من أجل دراهم معدودة؟!

ولكن العبيد لا ترعى جناب الكرماء.. والله أكرم الأكرمين، يُغريها العفو والإحسان، والفضل والإكرام.. فتتجرأ أكثر وأكثر!

والشعوب التي تظل متعلقة بالدين، وعاطفتها الدينية مازالت تنبض – حتى وإن كانت على باطل – لا بد من خداعها باسم الدين، ولقد احترف يهود هذه الصنعة؛ فويل لها مما كتبت، وويل لها مما كسبت.

ثم.. تفتق ذهن يهود عن "تبرير" من أعجب ما يكون لهذه الجريمة العظيمة، ويكشف القرآن الكريم عن مكنونات هذه النفوس الهابطة المنحرفة.. إنها تعترف بالجريمة، ولكنها تخترع تبريراً أو مخرجاً لها، فكافة ما يرتكبه اليهود من جرائم قالوا فيه: {لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة} وهذا داخل في الأماني الكاذبة الباطلة التي يظنها يهود في أنفسهم.. والتعقيب القرآني على قولهم لا يصف النار لهم هنا، بل يسألهم عن "العهد" و"الدليل" على قولهم! فهذه الجبلة الكثيفة السميكة – التي لا ترهب النار – لن ترعوي من التخويف بها.. وسبحان الله! فلو افترضنا أن النار ستمسهم أياماً معدودة فقط.. فهل سيتحملون لهيبها وعذابها، وقد يُحرّقون في هذه الأيام المعدودة آلاف المرات؟!

ولكن نفوس العبيد إحساسها بالغيب واليوم الآخر يكاد يكون معدوماً، والصور الحسية المادية.. هي فقط ما ترهبهم.

ويُعقب القرآن على هذا "التبرير" أنه لا يُوجد عهد مع الله بذلك، وإنهم ليقولون على الله ما لا يعلمون، ويتمنون على الله الأباطيل والأكاذيب والأماني والأوهام..

ثم يُعقب القرآن التعقيب الثاني – وهو خطاب للجميع – أن من ارتكب المعاصي والآثام، ولم يتب منها، ولم يرجع، ولم يُنب إلى الله.. واعتقد أن الله "سيغفر له" – متمنياً على الله الباطل – فترك المعاصي والآثام ترتع في قلبه، حتى أحاطت به، وأظلمت عليه، فلم يترك منفذاً للنور، ولا طريقاً للعودة.. حتى حاصرته جميع المعاصي من كل جانب، وأطبق عليه سجن الذنوب، ولم يتب.. معتقداً أنها مجرد أيام معدودة في النار ويخرج، فكلا.. فليس هذا بمؤمن بالله ولا باليوم الآخر.. بل أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

أما الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.. فأولئك الذين يعملون الصالحات، ويتبون من قريب، ويأتون الطاعة وهم في وجل وخشية من الله، ويقعون في المعصية وهم في ندم وإنابة وتوبة وعودة إلى الله، وأولئك لا تحيط بهم الخطايا، وأولئك لا يتبجحون بالقول بالبقاء في النار بضعة أيام.. إنما يُسارعون في الخيرات، ابتغاء وجه الله الكريم؛ وأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

وهكذا تشير الآيات إلى ثلاث فرق من اليهود:

- فئة تحرّف كلام الله من بعد ما عقلته.. أياً كان نوع التحريف.

- فئة من الجهلاء التي تقرأ الكتاب حروفاً بلا معنى.. وتتمنى أماني كاذبة.

- فئة تزور كتاب الله؛ لتشتري به متاع زائل.

وهذه الفئات الثلاثة لا طمع في إيمانها.. كما بدأت الآيات في مطلعها تتساءل في عجب: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم؟!

***

ولكن.. ما الذي يدفع النفس إلى تصديق الأمنية الكاذبة، وتُحرف كتاب الله وهي تعلم؟

النفس الإنسانية بحاجة دوماً إلى الشعور بالاطمئنان والسكينة.. ولا تستطيع العيش في حالة من القلق والخوف، وإلا فقدت توازنها وقدرتها على الحياة! النفس بحاجة إلى الشعور كذلك أنها على الحق المطلق، والصواب المبين..

وعندما تكون النفس في حالة من الكسل والترهل عن البحث عن الحق، وإبصار سبيل الرشد، فإنها تُعطل عمل العقل الذي يبحث في التصورات والمفاهيم، ويحتاج إلى صبر وأناة، وإلى تمحيص وأدلة، وإلى تدبر وفهم؛ حتى يصل إلى الحقيقة، وهو جهد لا يقدر عليه العبيد، وهداية لا يقدر عليها إلا الله جَلَّجَلَالُهُ.

وبالتالي فالنفس المستعبَدة تبحث في الحق ليس على أساس حجيته ومصداقيته بل على حسب هواها.. ثم تعتبره هو الحق المطلق، ثم تلغي عمل العقل في فتح هذه القضية مرة ثانية، ثم تتجه إلى خلق شعورها بالاطمئنان والسكينة.

ومن ثم.. يصبح اعتقادها الحق المطلق فيما هي عليه، وخلقها لحالة الاطمئنان والسكينة.. حائط صد ضد أي محاولة تغيير، أو مراجعة أو نقد.. وبالتالي تحترف "تأويل" و"تحريف" أي شيء يتعارض مع اعتقادها بأنها على الحق المطلق، ورد أي محاولة لكسر الاطمئنان.. حتى ولو كان اطمئنان على باطل! لأن الحق بالنسبة لها زلزل عنيف يحطم أسوار النفس ووسائل دفاعها، زلزل يدمر الحق المطلق، وينسف حالة الاطمئنان الكاذبة.

ولذلك عندما تأتي هذه النفس لقراءة كتاب ربها.. فإنها تقرأه على هذه الأمنية.. أمنية الحق المطلق، والطمأنينة، وتمر على كل آية، وهي تفسرها وتراها - أو تحرفها - لتوافق هواها.. فهي تحصر كل كتابها في أمانيها، فلا تعلم عنه إلا هذه الأماني!

وبالتالي فهي تقرأه ليس لتهتدي أو لتراجع نفسها أو لتصحح مسارها.. إنما تقرأه ليؤكد الكتاب على صحة أمانيها، وموقفها.. وتقرأ مجرد حروفه، لا حقيقة ومدلولات معانيه ومقاصده.

ومع ذلك تبقى حالة من "الشك" الداخلي لديها.. نعم هو ليس بالشك الكبير، الذي يحطم الاطمئنان، ويكسر الحق المطلق المزعوم.. لكنه الشك الذي قد يمثل يقظة الضمير نحو العودة إلى الإيمان، أو الانحراف إلى الإلحاد!

وأما مسألة الجرأة على الله، والعمد إلى تحريف كتابه.. ثم بعد ذلك التزي بزي الصلحاء والعلماء، فأحسب أن هذا من "زينة" الشيطان.. الذي يزين فعل هذه الجريمة، ثم رفع اللوم والحرج بعد ارتكابها؛ حتى يموت الضمير نهائياً، ولا يكون هناك صراع داخلي بين اللوم على ارتكاب الجريمة، وممارسة حياة الصلحاء.

إن ارتكاب هذه الجريمة يكون الغرض منه متاع الدنيا، وزينتها.. عملية بيع وشراء! ويدخل الشيطان ليصنع حالة من "التبرير" لهذه الجريمة، وتضخيم مسوغاتها في النفس، حتى يجعلها قضية لا مفر منها، وضرورة قاهرة يجب على الإنسان ارتكابها، ثم هو بعد ذلك آمن العاقبة، ولن تمسه النار إلا أياماً معدودة!

وقد يصور له أن تحريف وتزوير الكتاب هو ضرورة من أجل حفظ الشعب، وإخماد الفتنة، وحماية الدولة، والقضاء على الفاسقين... إلخ.

ثم يسوغ له الكسب من وراء التزوير.. بأنه لحفظ ماء الوجه، والكرامة، أو لإطعام الأبناء، والفقراء، أو لخدمة المعبد... إلخ.

فينزل إلى هوة سحيقة.. ويصير تزوير الكتاب حِرفة، لا يعود عنها، خوف المنصب، والجاه، وخوف الفضيحة، وخوف الفقر. ولا ينتهي "تبرير" كل جريمة، مع فقدان الشعور بالله، واليوم الآخر!

***

وفي الأمة المسلمة:

وجد فيها فئتين.. ومنع الله بفضله وكرمه الثالثة:

الأولى: الفئة التي تُحرّف الكلم عن مواضعه، ومقاصده.

الثانية: الفئة التي تقرأ القرآن حروفاً بلا معنى، وتعيش في الأمنيات الكاذبة.

أما الفئة التي تزور كتاب الله، وتقول هو من عند الله.. فقد تكفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحفظ كتابه من النقص والزيادة والتحريف والتزوير؛ ليظل مرجعاً للأمة إذا رغبت العودة؛ وليكون زاداً للبشرية كلها إذا فكرت يوماً في الهداية.

ولقد وقع الدس والوضع والاختلاق في كلام رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وأحاديثه، بفعل اليهود والمنافقين والذين في قلوبهم مرض.. وانبرى لهذه المهمة – مهمة الدفاع عن السنة، وتمحيص الأحاديث – علماء أجلاء؛ لتمييز الصحيح من الضعيف من الموضوع، فجزاهم الله خيراً عن الأمة.

وأما الفئة التي تُحرّف كلام الله عن مواضعه، ومقاصده.. فما أكثرهم، بل صارت لهم حِرفة كما كانت ليهود من قبل! وصارت تصرف آيات الله الواضحات البيّنات إلى ما يحبه السلطان الباطل! وتلوي أعناق النصوص لياً من أجل أصحاب المال والشهوات، وأصبحت تصرف آيات المؤمنين في الكافرين، وتصرف آيات الكافرين في المؤمنين، وتنزل الأحكام في غير موضعها، وصار لكل آية عشرات التأويلات التي تصرفها عن حقيقة المراد منها، الأمر الذي لا يحتاج إلى كبير كلام ولجاج بقدر ما يحتاج إلى الصدق في الإقبال على الآيات..

ولكن أصحاب الحرفة لا يتعاطون مع الكتاب من أجل الهداية والراشد.. بل من أجل خدمة السلطان الظالم، وحماية القرارات.. وإسباغ الشرعية الدينية، والمسحة القدسية على كل فعل وجريمة وسرقة وظلم واستبداد؛ فويل لهم.. ويل لهم مما كتبوا، وويل لهم مما كسبوا.

وعلى جانب آخر.. هناك فئة من الأميين، لا يعلمون عن كتاب الله إلا أماني وأهواء، ولا يقرؤون كتاب الله عن تدبر وتفكر، وعن علم وفهم.. بل يقرؤون حروفه ويضيعون حدوده ومقاصده!

وصار الأميون يضعون كتاب الله للتبرك في البيوت والسيارات والمكاتب وغرف النوم! وصار الأميون يستمعون إلى أصوات التراتيل الجميلة للنغم لا للعمل! وصار الأميون يجتهدون في ختم الكتاب وحفظه دون الجهد في التزامه وتدبره والعمل به!

وصار من الأميين من يفهم الكتاب فهماً حرفياً سطحياً، وصار من يختلق للكتاب معاني كاذبة وتأويلات باطلة..

ثم يظنون أن كل آيات النعيم هي لهم، وأن آيات الوعيد في غيرهم، وأن وعد المغفرة حتماً لهم، وأنهم أولياء الله وأحباؤه.. لمجرد قراءة الكتاب - دون تدبر وفهم، ودون إيمان وعمل! - وإني هي إلا أماني، وإن هم إلا يظنون.

فالأمنية كاذبة، والظن خاطئ.. والطريق واضح: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص (29)].

وخرج في الأمة المسلمة فئتين - من نوع آخر - على النقيض من بعضهما:

الأولى: فئة قالت مثلما قال يهود: {لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة} وطالما نحن مسلمون ونقول: "لا إله إلا الله" فلن يضر مع الإيمان معصية، حتى ولو كانت إهانة كتاب الله! بل وسب الذات الإلهية ! - فضلاً عن غير ذلك من الفواحش! - وسُميت هذه الجماعة "المُرجئة"[(1)]

وأحدث هذا الفكر جرأة شديدة على حرمات الله، وتفلّت من العبادات والطاعات، وسفك الدماء ونهب الأموال، وارتكاب الفواحش والموبقات والآثام.. ثم الاطمئنان الشديد أنهم من "أهل الجنة" وإنها لساعات معدودة في النار - إن دخلوها ! - ثم يخرجون إلى نعيم الجنة!

والقرآن الكريم ينفي هذا الزعم الباطل، والأمنية الكاذبة.. بأن من ارتكب المعاصي - على هذه الصورة - التي تتبجح بالفواحش على أمنية أنهم مسلمين، ثم لا يتوبون منها، بل تسود قلوبهم من كثرة المعاصي، فلا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً، وأحاطت بهم الذنوب حتى طمست أرواحهم، ومسخت نفوسهم.. فأولئك قلوب لم تؤمن بالله.. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

وأما **الثانية**: فهي الفئة التي اعتقدت أن من يرتكب معصية أو كبيرة، فهو كافر حلال الدم، واستدلت بالآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة (81)]. وسُميت هذه الجماعة "الخوارج" فخرجت تقتل أهل الإسلام، بحجة أنهم

---

(1) راجع – إن شئت – بحث: الفئة الباغية.

"كفار – مشركون"! وأحدث هذا الفكر أزمات كبرى في تاريخ المسلمين قديماً، وحديثاً في تجارب تحررهم من الاحتلال والاستبداد.

واتجه بعض العلماء إلى تأويل "السيئة" في الآية بأن معناها "الشرك – الكفر"، وأرى في ذلك بعضاً من التكلّف في التأويل.. والآية على ظاهرها تعطي معناها المطلوب، ومناسبتها في التعقيب على "نفوس يهود" وأمانيهم الباطلة..

والآية تشرح بعداً نفسياً ببلاغة قرآنية معجزة.. إنها تصور الإنسان وهو واقف على هذه الأرض، فإن هو ارتكب معصية فإنها تحيط به، وتحجب عنه الهداية، وتنكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب وأناب ورجع.. فرح الله لتوبته وتاب عليه.. أما إن اعتقد – كما اعتقد يهود – أن يفعل ما يشاء من المعاصي، وهو ضامن الجنة! فكلا.. فهذا الإنسان ستظل تحاصره المعاصي، وتُكبله الآثام، وتحيط به قيود وأغلال الفواحش.. فإذا بنا أمام إنسان مطموس القلب والبصيرة، والروح والفكر.. لا يستطيع الانطلاق إلى سبيل الرشد، فقد سقط في مستنقع الفواحش منكباً على وجهه، متمرغاً في وحل المعاصي.. خُتم على قلبه، وعلى بصره، وكل روحه غشاوة.. إحاطة تامة وحاصر كلي بالذنوب، ثم هو معتبراً كل ذلك "كسباً" والسيئات مغنماً، يلوذ إلى مواطنها؛ فيبقى محبوساً في سجن الخطايا.. ثم مات على ذلك ولم يتب.. فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

والوصف النبوي لمثل هذه الحالة يقول: "**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** ". [صحيح مسلم / 147].

ويقول: "**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهَ – تَعَالَى – فِي الْقُرْآنِ : {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }** " [جامع الترمذي / 3334].

وأما الجنة فهذا طريقها: (الأواب إلى الله، الحفيظ على عهد الله ودينه، الذي يخشى الرحمن بالغيب، صاحب القلب المنيب إلى الله) وهؤلاء هم المتقون: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة ق].

طريق: الذي يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن.. ففي عذاب النار قال:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وفي الوعد بالجنة قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّـهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

وإسلام الوجه – أي كيان الإنسان كله – لله اعتقاداً، والإحسان عملاً هو الذي يحقق الوحدة الإنسانية، والتناسق النفسي المطلوب، فهو يهدف إلى توحيد: الشعور والسلوك، والعقيدة والعمل، والإيمان القلبي والإحسان العملي، ومن هنا تتشكل الشخصية السوية أولاً، والشخصية الربانية ثانياً عندما يكون الإسلام لوجه الله الكريم؛ فتنجو النفس بذلك من التمزق والتشتت والتناقض والانحراف والتيه.

والمنهج القرآني: يتنوع بين منهج "الإدانة والحكم" وهذا الخاص بالأحكام القضائية.. ومنهج "التحليل والتشخيص والعلاج" وهو المعني بتربية الإنسان، وهدايته، وبيان ما يختلج في صدره من أفكار، وأمراض، ويُقدم العلاج، وهذا هو الجانب الأبرز في سور القرآن الكريم..

ويجب قبل إجراء الأحكام، أن نعرف أولاً هل الآيات تتحدث عن منهج الحكم، أم منهج العلاج؟ لأن منهج العلاج دوماً يحاول صناعة "الرقابة الذاتية" على الإنسان من داخله، ويستخدم آيات الوعيد..

وأحياناً يتحدث عن عدم الإيمان الحقيقي باليوم الآخر – حتى ولو كان صاحبه يعتقد فيه نظرياً – وعن "الكفر النفسي" والداخلي.. ويتوعد صاحبه بالنار، ويخاطبه هو تحديداً، ويُعلِمه ما بنفسه؛

ولذلك نرتكب خطئاً عندما نحاول "تأويل" الآيات وصرفها عن معانيها بحجة "الرد على أهل البدع" وهذا غير صحيح.. بل يجب بقاء الآيات على وعيدها كما هي، لأن الله جعل العلاج هكذا، والمعنى مقصود على صورته المذكورة؛ وذلك من إعجاز القرآن الكريم.

***

خامس عشر: نقض الميثاق، والتناقض

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة]

الله جَلَّجَلَالُهُ.. غني عن كل العالمين، لا تنفعه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، ومن جميل كرمه عز وجل أن يخاطب الإنسان بلغة تُشعره بأهميته وكرامته ومكانته، فيعقد المولى عز وجل "الميثاق والعهد" مع الإنسان.. وهو خالق الإنسان، والكون كله من حوله، لا يُعجزه شيء، صاحب الإرادة والقدرة والمشيئة المطلقة.. ولا يخرج في هذا الكون كله شيء على غير إرادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكنه جَلَّجَلَالُهُ يمنح الإنسان شيئاً من "الإرادة والاختيار"؛ ليبتليه ويختبر إيمانه.. ومع هذه الإرادة يعقد معه العهد والميثاق، وهو لفلاح الإنسان، وصلاحه، وهدايته، ورشاده، ثم هو بعد كل ذلك.. بعد الخلق والرزق والهداية والرشاد ومنح الكرامة والإرادة وأخذ الميثاق على الإنسان؛ يُجزيه الجنة إذا صدق ولم ينقض عهده مع الله..

وفي هذه الآيات يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل، وما أخذه الله عليهم في كتابهم من الميثاق، وقسمت الآيات هذا الميثاق على جزئين:

الأول: ما يجب عمله. **الثاني**: ما يجب الامتناع عنه.

أما ما يجب عمله:

(1) عبادة الله وحده {لا تعبدون إلا الله}.

(2) الإحسان إلى الوالدين.

(3) الإحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين.

(4) القول الحسن، والإصلاح بين الناس {قولوا للناس حسنى}.

(5) إقامة الصلاة.

(6) إيتاء الزكاة.

وأما ما يجب الامتناع عنه:

(1) لا يقتل بعضكم بعضاً.

(2) لا يُخرج بعضكم بعضاً من دياره.

وسبحان الله.. إنه لميثاق جامع للخير، ومانع للشر، يعرضه القرآن المعجز العجيب في آيتين؛ من أخذ بهما نجى وفلح وكانت له سعادة الدنيا والآخرة.

ونجد في الجزء الأول من الميثاق: المواد والعهود الواجب الالتزام بها، والمادة التمهيدية الأولى التي هي جزأ لا يتجزأ من الميثاق ولا يقوم الميثاق إلا بها.. وهي: "عبادة الله وحده لا شريك له" لا تعبدون إلا الله.. هكذا في نفي واستثناء جامع للحصر الكلي للقضية، لا تعبدون مع الله المال ولا الجاه ولا السلطان ولا متاع الدنيا، لا تعبدون مع الله الأوثان والأوهام والأماني الباطلة، لا تعبدون مع الله الأحبار والكهنة.. حصر للعبادة والتوجه والإرادة لله وحده لا شريك له، وطلب الرضى والهداية والرشاد منه وحده..

ثم تأتي بقية المواد فرعاً على أصل هو "عبادة الله".. فخص الميثاق بعض البنود، وتفضل عليها بالتفصيل والتقديم لأهميتها ومنها: الإحسان إلى الوالدين، والبر بهما، وخفض الجناح لهما؛ حتى

يشيع الود، وتتقوى العلاقات، وتبقى أواصر المحبة، واحترام الأسرة والعائلة، وخروج أجيال أصحاب أخلاق رفيعة حسنة، ترى القدوة وحسن المعاملة.. وفيها الوفاء والامتنان لعناية ورعاية الوالدين لأبنائهما، فالإحسان إلى الوالدين عملية متصلة فالأب يحسن إلى والديه، والأبناء يُحسنون إلى والديهم.. ويرونهم قدوة حسنة لهم؛ فيبقى حسن المعاملة مسألة متصلة في الأجيال لا تنقطع.. ومعه تتقوى علاقات ذوي القربى والدم والنسب؛ فتشيع بيئة من الود وصلاح ذات البين، وهذه البيئة الطيبة تقلل من الشحناء والبغضاء والحسد والحقد في النفوس..

والنفوس التي تتعرض للقهر والاستبداد طويلاً، تتهتك شبكة علاقاتها الاجتماعية، وتتقطع الأواصر بينها، وتتضخم الذات وتتورم، وتنشأ الفردية، ويتفسخ المجتمع، وهذا التوجيه هو لإعادة بناء المجتمع على أسس من الإحسان..

وهذا الإحسان هو أدب عام، ليس مقصوراً على روابط الدم والنسب فحسب، بل هو للجميع.. خاصة اليتامى والمساكين.. تلك الفئات المحرومة، الإحسان إليها واجب، فليس الإحسان لذوي الهيئات والأنساب والأموال، فليس هذا بإحسان إنما تملق، وانبهار.. إنما الإحسان يبدأ بالمساكين والمحرومين، وهذا لفتة مهمة يُنبهنا إليها القرآن.. أن نحافظ عن هذه الفئة، فتكون بمنزلة الأبناء.. حتى لا تَفسد، ويفسد بها غيرهم.. فيشيع الفساد في الأمة كلها.

ثم بعد كل ذلك يأتي التوجيه الرقيق الحنون: {قولوا للناس حسنى} هكذا بهذا الإطلاق.. لكل الناس، القول الحسن، وهو أدب جم، وخلق رفيع.. يأسر القلوب، ويهذب الأرواح، ويُسكن النفوس.. حتى لا ينزغ الشيطان بينهم، ولا يُوقع بينهم العداوة والبغضاء.. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء (53)].

وهكذا بعد الانتهاء من "جانب المعاملات والسلوك".. يأتي جانب العبادات، وهو إقامة الصلاة.. ودوام الاتصال بالله، وذكره، ودعاءه، بإخلاص لا رياء فيه، وبتجرد لا شرك فيه.. إقامتها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، وإتمامها وأدائها روحاً وجسداً، لا مجرد طقوس ومراسم.

وإيتاء الزكاة.. تزكية للنفوس، وطهراً للقلوب، ومغفرة للذنوب، وأماناً للمجتمع، ورحمة للجميع، وقدرة على التخلص من متاع الدنيا، والتحرر من حب المال، وحب طاعة الله، وابتغاء مرضاته.

وسبحان الله.. الآية جامعة للخير كله.

ونجد في الجزء الثاني من الميثاق: ما يجب الامتناع عنه، وهذا الامتناع هو ضمانة بقاء الخير المذكور في الجزء الأول من الميثاق.. وي كأن الجزء الثاني هو المحاذير والتنبيهات التي تمنع نقض الميثاق.

وأول مادة في الجزء الثاني هي: ألا يقتل بعضهم بعضاً، وبلغة القرآن: {لا تسفكون دمائكم} وهو يخاطبهم كأمة واحدة، وجسد واحد - فلا تقوم الأمم إلا بشعورها أنها جسد واحد، يحترم بعضه بعضا، ويحفظ بعضه بعضاً، ويُقوي بعضه بعضاً - والتقاتل الذي يقع بين أمة واحدة هو غالباً قتال من أجل "المُلك" وصراع على حطام الدنيا وزينتها! الأمر الذي كان فتنة لبني إسرائيل بعد خلافتهم في الأرض بعد هلاك فرعون، وانفتحت لهم الدنيا، حتى صارت همهم.. فتفرقوا شيعاً وجماعات، يحارب بعضها بعضاً، وليس ذلك فحسب..

بل تشديداً في العهد: "ألا يُخرج بعضهم بعضاً من دياره وأرضه" حتى إن وقع قاتل.. لا يفجروا فيه، ولا يخربون بيوت إخوانهم، وأن يحسموا مادة الشر، والقتال، وأن تبقى بيهم أواصر من المحبة - ولو قليلاً - تدفعهم لعدم إخراج إخوانهم، وتشريدهم، وإهانتهم..أو التعرض لمن لا يقاتل كالنساء والأطفال والشيوخ ومن في حكمهم، فلا تدفعهم "البغضاء والحسد" إلى تدمير المجتمع كله، ولتبق العلاقة الحسنة بينهم – ولو في أدنى صورها بعدم التهجير واستباحة الجميع – فهي أهم من الملك ومن متاع الدنيا.

وسبحان الله.. الآية مانعة للشر كله.

فماذا كان جواب بني إسرائيل على هذا الميثاق؟

في الجزء الأول من الميثاق: الذي فيه الخير، وما يجب عمله؛ تولت - إلا قليلاً - وأعرضت.. والقرآن الكريم يصف هذه الحالة النفسية وموقفها من الوفاء بالميثاق بـ "التولي والإعراض" فـ "التولي" : حالة من الارتداد، عكس طريق الميثاق.. كأنها سلكت الاتجاه المعاكس لطريق الميثاق، وليس ذلك فحسب بل و"الإعراض": عن الهدى، والتنكر له، وعدم طلبه والتزامه.. فهي لم تتول لالتباس أمر عليها، أو لانخداعها، أو لنسيانها.. كلا، بل هو قصد الإعراض، واستكبار القلوب عن قبول الطاعة، والقرآن الكريم يصف هذه الحالة النفسية في كلمتين!

وهذا الجزء كان يتضمن بذل الجهد، والقيام بالعمل، والنهوض بالتكاليف.. فسكت السياق عن قولهم بـ "الإقرار والشهادة" ومضى إلى بيان موقفهم مباشرة وهو: "التولي والإعراض".

وفي الجزء الثاني من الميثاق: الذي فيه ما يجب الامتناع عنه، وهو أمر ليس فيه جهد أو عمل مبذول - بل "جهاد النفس واستقامتها" - فقط الامتناع عن الشر، فبيّن السياق أنهم "أقروا وشهدوا على أنفسهم"! استسهالاً للأمر ربما! أو لأنه ليس فيه بذل مال. والامتناع عن الشر يحتاج إلى توفيق من الله - مثل كل شيء - وإلى مقاومة نفسية وروحية ضد الاستجابة إلى داعي الشر.. والغفلة عن ذلك تُوقع الإنسان في الشرور.

ويُفصّل السياق هنا ما فعله بنو إسرائيل في هذا الجزء من الميثاق:

(1) قتل بعضهم بعضاً.

(2) إخراج بعضهم بعضاً من دياره.

وهذا عكس ما يقول به الميثاق.. ولكن ليس ذلك فحسب، بل فجروا.. وانحرفوا.

(3) تظاهروا بأعدائهم على إخوانهم في الدين تظاهراً فيه الأثم والعدوان، فتَقوى كل فريق بالأعداء - أهل الأوثان - على بعضهم البعض؛ حتى يهزم أخاه، وهذا مما يُوقع في النفوس غلاً وبغضاً لا يمحوه إلا الدم!

(4) ثم تشير الآيات إلى حالة أخرى - بعد نقض الميثاق - وهي: طريقة تعاملهم مع الكتاب، والهوى في اتباعه.. فقد التزموا أن يفدوا الأسرى من بني إسرائيل - كما يقول الكتاب - ولم يلتزموا إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم! ويعقب القرآن إجمالاً: {وهو مُحرم عليكم إخراجهم} والتفصيل هو: محرم عليكم قتل بعضكم بعضاً، ومحرم عليكم التظاهر والتقوي بالعدو على إخوانكم.. والإخراج من الديار لا بد وأن يقع فيه القتل، والتظاهر بالأعداء.. فسكت السياق عنه إجمالاً؛ ليشير إلى قضية في منتهى الخطورة، وهي:

مسأل إقامة ما في الكتاب حسب الأهواء، والأمزجة، والمصالح الدنيوية، والفهم الحرفي للنصوص بصورة مختزلة، ومجزئة، ومتناقضة..

فهم التزموا بفك الأسرى - من إخوانهم من بني إسرائيل - ودفع الفدية لهم، ولم يسألوا أنفسهم وما الذي أوقعهم في الأسر.. أليسوا هم أنفسهم؟!

أليس هو "مُحرم عليهم" قتال بعضهم البعض، وإخراج بعضهم البعض؟ أليس هذا هو الأصل الذي يجب الالتزام به ابتداء - الذي يمنع وقوع أسرى - فما لهم يكفرون بذلك، ويؤمنون بفداء الأسرى؟!

وهذا التصرف يكشف عن عدم الإيمان بالكتاب والاستسلام له، والدوران معه حيث دار.. بل يكشف عن الهوى في اتباعه، واستهزاء بالدين، وتطويع الكتاب لما يريدون، كما هي أحوال النفوس الملتوية.. وما الله عنها بغافل.

وطريق الله واحد.. والأهواء شتى، فقد يقتلون بعضهم بعضا، من أجل مال أو مُلك أو تحالفات مع العدو أو لإزكاء حالة العداء لينشط سوق السلاح والديون! وقد يفدون أسراهم – كما يقول الكتاب – من أجل حمية عصبية، أو شعوراً بالاستعلاء، أو لتخدير النفوس أنها ملتزمة بكتابها!

فينشأ من هذا الهوى "حالة التناقض" بين نقض الأصل الذي يمنع الشر – وهو قتل بعضهم بعضا – والتزام الفرع – فداء الأسرى – الذي هو من أسباب وآثار نقض الأصل؛ ولو أنهم أرادوا الالتزام بالكتاب حقاً.. كان عليهم عدم نقض الأصل، وهذا التقسيم للكتاب، وتدمير منظومة عمله، وتجزئة أحكامه، والتعامل الحرفي مع النص منفصلاً عن روحه، وسياقه، وعن النظرة الكلية للكتاب.. هو ما يُنشأ حالة التناقض، والصد عن سبيل الله، والاطمئنان – رغم كل هذه الجرائم – أنهم على الصراط المستقيم!

وتطرح عليهم الآيات السؤال: {فما جزاء من يفعل ذلك منكم؟} تأكيداً على هول الأمر، وفداحته، وخطورته.. وترك النفس تتطلع للجواب، وهو: العذاب في الدنيا والآخرة.. أما في الدنيا: فهو الخزي والذلة والهوان والمهانة والصغار والشتات والفرقة والعار؛ جزاء وفاقا على نقض الميثاق الذي كان فيه خيرهم وعزهم وشرفهم وكرامتهم، وجزاء على طريقة تعاملهم مع الكتاب حسب الهوى والمصالح الدنيوية. وأما في الآخرة: فهو أشد العذاب.

والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ليس بغافل عنهم، ولا عما في نفوسهم، ولا عن طريقتهم المنحرفة في التزام كتابهم، ولا عن جرائمهم.. والله على كل شيء شهيد.

وهذا القتل والإخراج من الديار والاستقواء بالعدو.. يحطم واحة الخير، وجنة الفلاح المذكورة في الجزء الأول من الميثاق، فلن تجد معنى لـ "{لا تعبدون إلا الله} ولن تجد مجتمعاً حسناً راقياً طيباً، بل عداوات وثارات ودماء وحقد وغل يملأ الصدور.. ولن تجد للصلاة أثراً، ولا للزكاة طريقاً.. بل النفوس ناشزة متنافرة بالعداوة والبغضاء.

ثم يأتي التعقيب القرآني على هذا الجرم بنقض الميثاق الذي كان فيه نفعهم، والذي كان مانعاً لهم عن الضر – بإذن الله – يأتي التعقيب لبيان "السبب" الرئيس لهذه الجريمة.. إنه "الدنيا" ومتاعها، وتفضيلها على الآخرة، وهكذا كانت الدنيا والمُلك والمال مهلكة بني إسرائيل؛ فحرّفوا الكتاب من قبل من أجل دراهم معدودة.. واليوم يسفكون دمائهم من أجل نفس الدراهم.. فليتمتعوا بها قليلا، فغداً لا يُخفف عنهم العذاب يوماً، ولا هم يُنصرون.

وفي نقض الميثاق أيضاً جاءت آية سورة المائدة: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

فكان ميزان الاستجابة لديهم هو "الهوى" و"المصلحة الذاتية" ومن يخالفها يكون مصيره التكذيب والقتل، ولو كانوا رسل الله جَلَّجَلَالُهُ، ثم بعد اتباع الهوى، وتكذيب الرسل وقتلهم يحسبون أنفسهم في مأمن – بل وفي إيمان – فأصابهم العمى عن رؤية الحق، والصمم عن الاستماع لدعوته، ومن رحمة الله يتوب عليهم، ويصفح عنهم.. ويعطيهم الفرصة تلو الفرصة، فيتخذونها هزوا.. فيغرقوا في غيهم وعدوانهم، والله بصير بما يعملون.

***

ولكن.. ما الذي يجعل النفس تنقض عهدها وميثاقها، وتؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض؟

حتى تلتزم النفس بعهد أو ميثاق.. لا بد لها من الشعور بـ "الكرامة" وإيمانها بـ "الرقابة الذاتية" على نفسها، بحيث إن تعرضت لإغراءات من أجل نقض العهد.. لا تعبأ بها واعتبرت كرامتها، وصدقها، ووفاءها أغلى من أي قيمة مادية..

وعندما تفقد النفس الشعور بالكرامة.. وتنشأ في حالة من القهر والذل والعبودية، ولا تعرف رقابة سوى عيون الفرعون، ورجاله.. ولا تلتزم بشيء إلا والتهديد والوعيد فوق رأسها، فإنها لا

تعرف عهوداً ومواثيقاً ليس فيها رقابة خارجية قاهرة عليها! وتتعاطى مع العهود والمواثيق بشيء من الاستخفاف، فهي توافق وتقر وتشهد على ما فيها، وقبل أن يجف الحبر المكتوب به العهد، فإنها تنقضه لأتفه المغريات!

وهذه الحالة من الالتواء لا تنقض العهد فقط، بل تفجر في تنفيذ عكسه! كأنها تسخر أو تعاقب من احترمها وجعل لها كرامة فعقد معها عهداً أو ميثاقاً.. ليس فيه سلطان مادي قاهر عليها.

أمر آخر: وهو شدة الإيمان بمبدأ المصلحة أو "النفعية - البرجماتية" فهي تنقض الميثاق باسم المصلحة أو الوقاية، وتصغر في نظرها رؤية المصلحة في الوفاء بالميثاق مع الله، فتثق فيما عند الناس، ولا تثق فيما عند الله.

وأما الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض.. فهو لأن الإيمان بالكتاب ليس إيماناً حقيقياً ناشئاً عن استسلام وخوف ورجاء لمُنزل الكتاب، وليس إيماناً فيه طلب الهدى، واتباع الرشد.. بل هو إيمان بالهوى لا بالكتاب، فتؤمن ببعضه حسب هواها، كما أنها أيضاً تنفذ هذا الإيمان حسب هواها وبالطريقة التي تحقق بها مصالح دنيوية آنية، وتكفر ببعضه عندما يتعارض مع رغباتها، وما كفرت به اليوم، قد تؤمن به غداً إن وجدت فيه مصلحة..

والنفس لأنها تخاف تهمة الكفر.. فإنها لا تقول إنها كفرت ببعض، وآمنت ببعض، بل إنها تخترع "الحيل" اللازمة لإقناع نفسها - ومن حولها - أنها على الصراط المستقيم، والفهم القويم للكتاب، ويقوم بهذه المهمة "رجال الدين" المحترفون تحريف الكلم عن مواضعه، ومقاصده.. وتأويله تأويلاً يتناسب مع أهواء النفس.

ولكن هذه الحالة لا بد وأن ينشأ داخلها التناقض والاضطراب، ونبذ الكتاب كله في النهاية.. كما جاء في آيات سورة النساء وصفاً لما انتهى إليه حالهم، واجتماع الأمراض عليهم: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّـهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن

ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّـهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّـهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

فجمعت الآيات أمراضهم في: (عدم إيمانهم الحقيقي التام بالغيب، عبادة العجل، نقض الميثاق، الكفر بآيات الله، قتل الأنبياء، التنطع ورد الحق).. فنعوذ بالله من هذه الأحوال المُهلكة.

وأشارت آيات سورة المائدة إلى آثار نقض الميثاق، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّـهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّـهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

فقد أدى نقض الميثاق إلى: (1) اللعنة والطرد من رحمة الله. (2) قسوة القلوب. (3) تحريف الكلِم عن مواضعه. (4) نسيان الدين والشرع. (5) العداوة والبغضاء بين الفرق المتناحرة منهم.

وأصبحت "قسوة القلوب" خصيصة لبني إسرائيل منذ عبادة العجل! وتُذكر "القسوة" مرة ثانية هنا بعد أن لعنهم الله بكفرهم، فأصبحت قلوبهم قاسية بما كسبت أيديهم، قلوب مقطوعة الصلة بالله، وإن ادعت الإيمان به، قلوب انقطع عنها ماء الحياة من ذكر الله، والاتصال به، والتعلق

بجلاله، فأصبحت بواراً لا يخرج إلا نكدا.. وقلوب كهذه سوف تتعامل مع كتاب الله، كصفقة تبيع فيها آيات الله من أجل عرض الحياة الدنيا؛ فتُحرّف الكلم عن مواضعه، وتتلاعب بدين الله وشرعه، من أجل ذي مال أو سلطان!

ولن تعود تتذكر شيئاً من دينها، ومن كتابها.. فالباطن فاسد، والظاهر أقبح! وستظل العداوة والبغضاء هي ما يختلج في قلوب هؤلاء.. لن ينالوا خيراً، ولن يروا إلا ضنكا، وإن غرتهم الحياة الدنيا ببعض مفاتنها، أو كتب الله لهم متاعاً إلى حين.

***

وفي الأمة المسلمة:

فعلت مثلما فعل يهود من قبل! فقد نقض قطاع من أبناء هذه الأمة عهد الله، وميثاقه.. فتوقفت عن حمل رسالة الله إلى العالمين، وصارت بسلوكها وأفعالها تصد عن سبيل الله! وتوقفت عن إقامة شرع الله وحكمه، وتوقفت عن الأمر المعروف والنهي عن المنكر، وهداية البشرية.. وهي الأمة الشاهدة والمعلمة.

ونقضت الميثاق، وتولت وأعرضت.. في إخلاص العبودية لله.. فجعلت مع الله أوثاناً من مذاهب وضعية تناقض حقيقة التوحيد والألوهية واعتبرت ذلك علماً، وتحاكمت إلى غير شرع الله، واتبعت أهواء البشر، وصرفت من صور العبادة لله إلى غيره! فلم تخلص له العبادة تامة – ابتغاء مرضاته – سواء عن قصد أو جهل أو تقليد!

ونقضت الميثاق: فتفسخ المجتمع، ولم تعد هناك صلات القربى والمحبة بين الأسرة الواحدة، فضلاً عن العائلة والمجتمع، وتنكرت لليتامى والمساكين، وتسافلت أخلاقها – إلا من رحم ربي – فنشأت "العداوة والبغضاء" بدلاً عن "الحسنى" للناس.

ونقضت الميثاق: فلم تُقم الصلاة حق إقامتها، وقلة هي من يؤدي الصلاة، وقلة هي من تمنعهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

ونقضت الميثاق: فنسيت فريضة الزكاة، وحسبتها مجرد صدقة لفقير يسأل في الشارع! بل لا يوجد أصلاً مؤسسات - ذات سلطة - تقوم بتحصيل هذه الفريضة العظيمة، وإنفاقها على الوجه الصحيح.

ونقضت الميثاق: فوقع التقاتل فيما بينها.. وكان البأس بينها شديد - ومن قديم - وكله صراع على المُلك والمتاع والسلطان والدنيا.. وجرت دماء المسلمين أنهاراً قديماً وحديثاً، ولا يرعوي أحد عن وقف هذا التقاتل، وحسم مادة الفتنة، ونسيت وصية رسول الله في حجة الوداع: "**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**" [صحيح البخاري / 121]

ونقضت الميثاق: فأخرج المسلمون بعضهم بعضاً من ديارهم بالإثم والعدوان.. طمعاً في ملك أو مال أو تحالفات مع الطغاة.

ونقضت الميثاق: ووقعت الكارثة الكبرى، بالتحالف مع أعداء الدين، والتظاهر بهم - إثماً وعدواناً - على المسلمين، فسقطت بلاد المسلمين، ووقعت الفتنة، واندثرت الشريعة.. وفقدت الأمة حضارتها، ونسيت تاريخها، والعدو في الماضي كان يتحالف من أجل سقوط دولة المسلمين.. أما اليوم - وبعدها سقوطها - فإنه يتحالف ليحكم المسلمين، ويكون هو ولي أمرهم!

ونقضت الميثاق: فقسمت الكتاب، وكانت من المقتسمين ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر (91)]. وتعاملت مع الكتاب – إلا من رحم ربي - حسب هواها، فآمنت ببعض الكتاب، وكفرت ببعض!

آمنت بالصلاة والصيام، وتركت إقامة الحق والعدل!

آمنت بأحكام الأسرة، وتركت أحكام الاقتصاد والسياسة!

آمنت باليوم الآخر فكرة ونظرية، لا شعوراً وعملاً!

نقضت الأصول، وانشغلت بالفروع.. فصار كل همها هو إقامة أصغر جزئيات الفروع، ولا تعبأ بالأصول الكلية الكبرى لهذا الدين؛ فنشأت حالة من "التناقض" أو "المسخ" في الفكر والتصور، والأخلاق والشعور، والقيم والموازين..

صارت تبحث عن علاج لأصغر جزئيات من آثار مشكلة، ولا تلتزم الأصل الذي يمنع المشكلات كلها ابتداء.

فوقع الهوى في اتباع الكتاب.. والدوران مع الهوى حيث دار، فنقضت وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"دُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَار"** [المعجم الكبير للطبراني / 172]

ومع اتباع الهوى، وادعاء التزام الكتاب.. تتفسخ أحكامه وتصوراته، وتنهار وحدته الكلية الجامعة؛ فيتم التعامل الجزئي والحرفي مع النصوص منفصلة عن سياقها، وعن المنظومة الكلية للكتاب؛ فيقع في النفوس الإحساس بفشله وعدم قدرته على حل المشكلات! أو أنه بعيد عن مشكلات الواقع المعاصر! رغم أنهم في الأصل يتبعون أهوائهم لا كتابهم.. ومع ذلك يشعرون بالاطمئنان - رغم الانحراف ونقض الميثاق - وأنهم ملتزمون بالكتاب؛ لتخدير النفس عن وخز الضمير، وتعطيل العقل عن التدبر والتفكر؛ فيتم التعايش والتكيف مع "الانحراف".

ولما نقضت الميثاق سلّط الله عليها عدواً من غيرها - عقاباً لها - كما جاء في الحديث الشريف: **"خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ... [منها] وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ"** [سنن ابن ماجة / 4019]

والعلاج - كما تشير الآيات - هو عدم شراء الحياة الدنيا بالآخرة، الأمر الذي يجعل الإنسان - عندما يريد الآخرة - في حالة من التجرد والإخلاص، فإذا اتبع الكتاب، فإنه يتبعه حيث دار الكتاب، لا حيث يمضي هواه.

***

سادس عشر: الاستكبار والتبرير

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّـهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّـهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّـهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّـهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّـهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّـهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّـهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّـهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]

إرسال الرسل، وإنزال الكتب.. رحمة من الله إلى خلقه، بل هي الفضل والرحمة التي هي أحق بالفرح من كل متاع الدنيا، ذلك أن في اتباع الرسول، وإقامة الشرع الذي في الكتاب.. يتحقق للإنسان فلاح الدنيا، والفوز في الآخرة.. وبنو إسرائيل هم أكثر الأمم أنبياء، بل كانت تسوسهم الأنبياء: "**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ**" [صحيح البخاري / 3455]

وآخر رسلهم – من بني إسحاق – هو عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ.. وقد كفروا به، وشنعوا عليه، وهموا بقتله، إلا قلة من المؤمنين!

ولعل هذه الكثرة من الأنبياء والرسل لبني إسرائيل نظراً لهذه الجبلة العصية الملتوية التي تراوغ عند كل تكليف، وتتفلّت من كل أمر، فكانت الأنبياء تلو الأنبياء تُرسل إليهم.. لعلهم يرجعون!

فكيف استقبل بنو إسرائيل هذه النعمة، وهذا الفضل؟

استكبروا: فريقاً كذبوا، وفريقاً قتلوا!

يا الله! ما أشد هذا الكفر.. كفر النعمة بوجود إنسان – رسول أو نبي – يعيش بيننا ثم هو على اتصال بالوحي الإلهي، ويستمد كلامه من النبع الصافي، والنور الدائم، فلا جهل أو هوى أو ضلال أو باطل.. بل هو الأمر الصحيح المباشر، الذي يطمئن القلب أنه مراد الله، وأمره، فلا مجال للشك أو المراوغة أو التفلّت أو التأويل الباطل، طالما القلب لله جَلَّ جَلَالُهُ مستسلماً، ولابتغاء وجهه الكريم قاصداً.

نعمة عظيمة تجمع شتات الأمة، وتُذيب فرقتها، وتؤلف بينها.. فالله أكرمها بالنبي القائد المُعلم القدوة! فأي فضل وكرم أعظم من ذلك؟

ولا يعرف فضل هذه النعمة حق المعرفة.. إلا عندما يتمنى الإنسان – في لحظة من لحظات الحيرة والشتات – أن يكون هناك عودة لنبي الله؛ ليقطع عنا حيرة الأمر، وعذاب الشتات، وفرقة الدين، واختلاف الأراء.

إنها لنعمة عظيمة لا تستشعرها إلا القلوب المؤمنة..

أما قلوب بني إسرائيل الملتوية العصية المنحرفة - التي يُشرّح القرآن الكريم نفسيتها تشريحاً - تكفر النعمة، فتُكذب الرسول! وأنى تُكذبه؟! وهل هي حديثة العهد بالنبوة والرسالة والكتاب؟

كان الأنبياء هم من يسوس أمرهم، وهذا أمر مألوف لهم، فعلى أي أساس يكون التكذيب بالرسول؟!

إن التكذيب بأي رسول من عند الله، يكون سببه هو اصطدام تعاليم الرسول بالأهواء والمناصب والمصالح المادية القائمة لقومه.. ذلك أنه عندما يأتي الرسول، فإنه يأتي لإقامة الحق والعدل وفق مراد الله، لا وفق أهواء قومه..

ومن ثم يُحرك الملأ من قومهم - مثلما كان يصنع فرعون - الدعاية الكاذبة، وإثارة القلاقل، والفتن، واللمز والسخرية والاستهزاء، والشك والافتراءات.. حتى يُكذب الناس رسولهم! ويُشنعون عليه، ويُفسدون عليه دعوته، ويصرفون الناس عنها من كل طريق.

ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد.. حد الدعاية الكاذبة، وتكذيب الرسول، بل وصل الأمر إلى قتل الرسل!

والقتل جناية عظيمة - من أشد حرمات الله - وأما قتل رسول من عند الله فهو أشد وأعظم، وجرأة لم يفكر فيها من قبل إلا الفرعون! وقد ورث يهود هذه الجرأة الخبيثة الخائنة، التي تنتهك أعظم حرمات الله بكل بلادة وقسوة وغلظة. واللفظ القرآني جاء بالفعل المضارع {تقتلون} لاستحضار الجريمة حية في الأذهان؛ ولتبقَ ماثلة في الخيال، فمازالت - رغم تطاول الأزمان - شاخصة، شاهدة على كفرهم وجحودهم. بل صار مسألة "قتل الرسل" خصيصة لبني إسرائيل، يقرعهم بها القرآن في مناسبات شتى، وهم تطاولوا من قبل على الله جَلَّجَلَالُهُ وقالوا: {إن الله فقير ونحن أغنياء}!! وفوق هذا التطاول وإساءة الأدب وسوء التصور، فإنه يكشف عن الغباء والخواء

والقسوة والتنطع، وخراب النفوس، ونفاق القلوب، ووحشة الروح، والاستخفاف بالرسالة، فهان عليهم قتل الرسل.. لعنهم الله!

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّـهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّـهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّـهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران]

ونلحظ أن مجتمع يهود هو مجتمع متفكك، فلو افترضنا اصطدام أصحاب المصالح المادية والرياسة مع دعوة الرسول وهموا بقتله، فأين بقية الأمة اليهودية، وأتباع الرسول الذين يدفعون عنه أذى القلة؟! ولكن يبدو أن نفوس العبيد واحدة، وأنها لا تراعي إلا جناب أصحاب المال، والرياسة.. الذين يخاطبون شهوات العبيد، ورغباتهم الدنسة! ولا ينعدم أن يكون هناك قلة مستضعفة لا تجد حيلة مع انحراف قومهم.

وقتل الرسول هو وصول إلى الدرك الأسفل من الكفر! ولكن نفوس العبيد لا تستعلن الكفر بعزة أو استعلاء.. إنها تريد أن تظل على علاقة ما بـ "الدين"! وتريد أن تشعر أن لها الوعد بـ "الجنة" وهذه حالة عجيبة، لا يفتأ يُفصل القرآن فيها تفصيلاً!

فالكافرون: كانوا يستعلنون كفرهم، ولا يؤمنوا بالله، ولا باليوم الآخر. والمؤمنون: كانوا يستعلنون الإيمان، ويؤمنوا بالله واليوم الآخر، وفي طريق الله ماضون. أما هؤلاء: فإنها يقومون بكل أفعال الكفار، ثم يريدون أن يتصفوا بصفات المؤمنين.. بل ويجعلون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه!! نفوس عجيبة عصية.. اجتمعت عليها الأمراض، فأخرجت هذا "المسخ المشوه"!

والحقيقة إنها نفوس "تستكبر" وهي مازالت تعيش حالة "الذلة والعبودية" هذا هو التفسير الأقرب – فيما يبدو – إنها تستكبر عن الاتباع، وتنتفش نفوسها بهذا الكبر والمعصية، وتتورم ذواتهم بأماني باطلة.. وتميل إلى العصيان، ومع هذا الكبر في جانب، والذلة والقهر في جانب آخر فلا تنهض نفوسهم بالكرامة، والإنسانية، ومن جانب ثالث لا يريدون الشعور بأنهم مرقوا كلياً من دينهم.. فيتجاذبهم: شعور الاستكبار، وحالة الذلة، ورغبة التدين! واجتماع هذه التناقضات والصراع فيما بينها، يحطم النفس الإنسانية!

والسبب يكشفه لنا القرآن في كلمتين: "اتباع الهوى" وإخضاع الشرائع للنزوة المتقلبة، والهوى الطارئ؛ الأمر الذي جعلهم يُكذبون ويقتلون الأنبياء، جعلهم كافرون بالنعمة لأنها ليست على ما تهوى أنفسهم، وإتباع الهوى ظاهرة تبدو كلما انطمست الفطرة وفسدت.

ثم "يبررون" – كما هو دأبهم – تكذيب الرسل وقتلهم بأن "قلوبهم غُلف"! أي: قلوبهم عصية بطبعها لا تقبل الطاعة! ومُغلفة ومحجوبة عن استقبال وإصابة الهدى؛ فلا ينفذ لها من الهدى شيئاً! وهو تبرير عجيب، يهربون فيه من التبعة والمسؤولية على جرائمهم وذنوبهم.. وأنه لا دخل لهم بطبيعة قلوبهم هذه!

وإنها ليست هكذا بطبعها.. بل إن الله خلقها على الفطرة، وعلى الاهتداء إلى الله، ومحبته، ولكن الذي جعلها غُلفاً هو "إحاطتها بالذنوب" وجعل السيئات مكسباً وعملاً، وبيع آيات الله وظيفة ومغنماً.. الذي جعلها غلفاً، هو أنها تعلقت بالذنوب والآثام، وأنها اسودت وأظلمت من كثرة الذنوب، فأطبقت عليها ظلمات بعضها فوق بعض، فلم يعد لها منفذاً للنور، ولا طريقاً للهدى، ولا سماعاً للحق، ولا إبصاراً للطريق، ولا عودة عن الباطل.

وقد وافقوا المشركين في قولهم هذا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: 5]

إن القلب وعاء الإيمان، وحتى يستقبل النور.. عليه أن يتطهر من الوساخات والنجاسات والأمراض؛ حتى يُضيء النور هذا القلب، فيشرق ويستجيب! أما القلوب الصلدة - التي هي أشد قسوة من الحجارة - فلا تنفعها موعظة، ولا يردعها وعيد!

هذه هي الحقيقة التي تهرب منها نفوس العبيد، وتبرر جريمتها بأن الأمر خارج عن إرادتها، وما كانت غلفاً إلا بما كسبت أيديهم؛ فحقت عليهم لعنة الله.

لعن الله هذه القلوب التي تنبذ النور، وتتنكر للرسول، وتقتل الأنبياء.. لعنها بكفرها الذي اقترفته! قلوب لم تُرد الله والدار الآخرة.. إنما متاع الدنيا وزينتها؛ فما آمنت - حق الإيمان - إلا قليلا!

وهذا السياق من الآيات يتحدث عن الماضي.. حتى رسالة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكيفية معاملة بنو إسرائيل للأنبياء والرسل.

والآن.. هم أمام رسول جديد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، المذكور عندهم في التوراة والإنجيل.. والبشارة التي ينتظرها أهل الكتاب.

ولقد كانت مفاجأة عنيفة لهم! فرغم أنهم كذبوا الرسل، وقتلوهم.. كانوا ينتظرون رسول جديد! ولكنهم ينظرون إلى المسألة من باب الحمية والعصبية والعرق، ويقولون: إن نبي سيُبعث قد أظل زمانه، وكانوا يخاطبون الكفار حولهم في المدينة، ويتفاخرون بذلك![1]

فإنهم أبناء الله وأحباؤه – زعموا - وسوف يرسل لهم رسول جديد يُعيد مجد بني إسرائيل، وبالطبع سيكون من نسل إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام!

وهي نظرة قومية عنصرية محلية جاهلية مادية لـ "الدين" و"الرسول" و"الكتاب" ليس لها علاقة بالهدى والرشاد، وابتغاء رضى الله، والدار الآخرة.. نظرة ليس فيها تلمس الهدى، ولا إبصار النور،

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: دولة يهود والملك داود.

ولا الدوران مع الحق حيث دار.. فإنهم بالأمس القريب: اتبعوا أهواءهم، واستكبروا، وكذبوا، وقتلوا، وأظلمت قلوبهم، وكفروا.. كل ذلك والأنبياء كانوا من بني إسحاق والد يعقوب – إسرائيل – عليهم الصلاة والسلام.

ولكن المفاجأة لم تكن على هواهم!

إن النبي الخاتم لم يُرسل منهم! بل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام.. وجاء بما لا يدع لهم هم بالذات أي مجال للشك، فجاءهم بكتاب يُصدق ما معهم من التوراة– من التوحيد وأصول الدين – وجاءهم في الوقت الذي كانوا يتفاخرون به، ويترقبون انتظار خروج رسول فيهم!

كما أن هذا الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جده هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مثلما هو جد كل أنبياءهم من نسل إسحاق.. فلماذا الإعراض؟

والجواب سبقت به الآيات: اتباع الهوى، والاستكبار.

وحتماً.. هذا "الهوى والاستكبار" سوف يؤدي إلى الكفر، مهما كانت الأدلة ساطعة، ولقد كانوا هم الذين يُقدمون الأدلة، ويستبقون بها؛ فلعنة الله على الكافرين.

لقد ظلموا أنفسهم، وباعوها بثمن بخس – من أجل لا شيء – لقد كانوا يطلبون الرياسة والفخر والمصالح، وفي انتظار الرسول الذي سيُعيد هذه الأمجاد.. فلما خرج في غير قومهم.. كفروا بغياً وظلماً وعدواناً، وكفروا وهم يعلمون تمام العلم أنه رسول من عند الله، ومن هذا البغي "التعصب" الشديد لأنفسهم وقومهم، و"الحسد والبغضاء" أن يؤتي الله فضله ورسالته غيرهم، وهذه العزلة والأحقاد تغلي بها القلوب المتعصبة، التي تحسب لنفسها ميزة خاصة، أو مكانة فوق الآخرين.. فتكون مُستكبرة من جانب، وطاردة للهدى من جانب آخر، ومغلقة القلوب – بهذه الأمراض – عن قبول الهداية!

والنبوة والرسالة هي فضل من الله لعباده ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام (124)]. يضعها فيمن يشاء من عباده، فسبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء (23)]. وما على

العباد إلا الإيمان بالله مُنزل الوحي على من يشاء من عباده، وما على العباد إلا اتباع الرسول لا الهوى، والتواضع لا الاستكبار.. والشعور بالفضل والرحمة والفرح للرسالة والرسول، والبشرى لعودة الإنسانية تتصل بالنور الإلهي من جديد، فهذا هو شعور المؤمن الذي يبتغي رضى الله، لا اتباع الهوى.

ومن أجل الكفر السابق لنبي إسرائيل بأنبيائهم، وكفرهم الحالي بالرسول الجديد – محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ – باءوا بغضب على غضب، ولهم عذاب مهين.. جزاء وفاقا على كفرهم من أجل تمني عودة الأمجاد والرياسة والسلطان، لا اتباع الهدى، وابتغاء رضى الله.

ثم نعود إلى التبرير الذي لا يُفارق تلك النفوس العصية الملتوية: من قبل لما كذبوا وقتلوا أنبياءهم – من بني إسحاق والد إسرائيل – قالوا: "قلوبنا غُلف" فماذا سيقولون الآن على كفرهم بما كانوا يُبشرون به وينتظرونه؟!

قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ونكفر بما وراءه!

يا الله.. يا لها من نفوس فتك بها الاستبداد، ومزقتها أمراضه، فجعلت العبيد مسوخاً مشوهه، مستكبرة وهي ذليلة، كافرة وهي متدينة!

يقولون: نؤمن بما أنزل علينا.. نؤمن بما أنزل علينا على لسان رسل بني إسرائيل فقط لا غير! وهل آمنوا حقاً بهم؟ ألم يُكذبونهم ويقاتلونهم اتباعاً للهوى واستكباراً عن الحق؟!

وجاء في آيات سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَـٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

ولنسايرهم في دعواهم هذه {نؤمن بما أنزل علينا} أليس ما أنزل إليكم فيه بشارة بالنبي الأمي، أليس من الإيمان بكتابكم.. الإيمان بهذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؟ أليس ما يقوله هو الحق مصدقاً لما معكم من الكتاب؟!

والمؤمن لا يختار أن يؤمن بشيء من الدين، ويكفر بآخر.. فليس هذا بإيمان إن هي أهواء.. المؤمن يتبع كل ما جاء به الرسول، لأنه وحي الله، وهذا معنى الاستسلام لله رب العالمين.

والعجيب في وسائل "تبرير" كفرهم برسلهم، وبكفرهم بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أن كلا التبريرين متناقضين! فالأول: قلوبنا غلف. والثاني: نؤمن بما أنزل علينا! فإن كانت قلوبهم غلف، فهي لم تؤمن بما أنزل إليهم. وإذا آمنوا بما أنزل إليهم، وجب عليهم الإيمان بهذا الرسول الذي هو مكتوباً عندهم! وهي كلها محاولة نفسية للهرب والتبرير بأي وسيلة.. لكن الحقيقة الكامنة وراء هذه الحيل والتبريرات هو: اتباع الهوى، والاستكبار، وطلب متاع الدنيا.. لا رضى الله والدار الآخرة.

ولكن سياق الآيات هنا لا يتحدث فقط عن إيمانهم الذي هو تكذيب الرسل وقتلهم، والرد على قولهم بـ: "نؤمن بما أنزل علينا فقط" بل يُذكرهم بالجريمة الكبرى، والعار الشنيع.. ولتكشف الآيات عن صورة من صور هذا الإيمان، وهل حقاً أُشربت هذه القلوب الإيمان، أم شيئاً آخر؟!

لقد كان فيهم نبي من أولي العزم من الرسل، حررهم من بطش فرعون.. ولما ذهب يُناجي ربه اتخذوا العجل من بعده، اتخذوا العجل إلهاً! وفيهم نبي الله هارون، ولما أنكر عليهم كادوا أن يقتلوه! فهل هذا هو الإيمان الذي يتحدثون عنه؟! أم هو الظلم والجهل والكفر والعناد وتقليد عبدة الأصنام؟!

ثم أنتم ذهبتم للتوبة مع نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. وأخذ الله عليكم الميثاق هناك، عند جبل الطور.. ورفع الله الجبل فوقكم في معجزة خارقة للعادة، تناسب النفوس التي تعودت أن تحترم القوى المادية الظاهرة فقط، ولا تُلقي بالاً للغيب! وفي هذه الحالة من الرهبة والجبل فوق رؤوسهم – والقوة الإلهية تحرك هذا الكون كيف يشاء الله! – فأخذ الله منكم الميثاق ومِن ضمن ما فيه "اتباع

النبي الأمي" وأمركم الله بأخذه بـ "قوة".. لا هوان فيها، ولا ضعف، ولا خوار، ولا شك، ولا رد.. فالموقف رهيب، والجبل فوقهم، وهم في محل التوبة والإنابة بعد جريمة عبادة العجل، وها هم الآن يتكرم الله جَلَّجَلَالُهُ عليهم بأخذ الميثاق منهم، وأن يستجيبوا لما فيه بكل قوة..

فماذا فعلتم بعد أن عاد الجبل مكانه، ورجعتم؟ ماذا أمركم إيمانكم؟!

تبجحوا بكل فظاظة.. وقولوا: سمعنا وعصينا – كأنهم نسوا جريمة العجل، ونسوا الجبل الذي كانوا فوقهم، والميثاق الذي عقدوه مع الله جَلَّجَلَالُهُ– فكان حب العجل قد ملأ قلوبهم، وتشرب التعلق بـ "العجل" شغاف قلوبهم! فامتلأت كفراً وإعراضاً وعصياناً! فيا له من إيمان.. بل بئس هذا الإيمان!

وتُذكر الآيات بهذه الحالة العجيبة: "**ادعاء الإيمان والتمسك به، وإيتان كل أفعال الكفر الشنيعة**".. لا يرغبون التخلص من وصف الإيمان، ولا يرغبون ترك الكفر حتى ولو كان عبادة العجل! أو تكذيب وقتل الأنبياء! فسبحان الله في هذه النفوس، وما يختلج في صدورها!

فهم في حالة من "الفصام" الذي يدمر الوحدة الإنسانية.. إنهم قالوا بأفواههم: "سمعنا". وقالوا بأفعالهم: عصينا.. هذا الفصام بين القول والفعل، يُخرب على الإنسان عقله وحياته، ويحرمه من الهداية والراشد، ويمزق طاقاته، وفي النهاية يصد عن سبيل الله.

وفي حالتهم هذه.. قالوا: سمعنا الهدى، وكان فعلهم: هو حب العجل.. وليس فقط عبادته، بل حباً ملأ عليهم القلوب، وأُشربوا حبه حد الامتلاء! هذا الإشراب هو بفعل الكفر الذي في النفوس والجحود والاستكبار.

ويمضي القرآن معهم إلى نقطة تالية عجيبة.. يتمثل عجبها في صبر الآيات على تفنيد زعم هذه النفوس، وعلى طولها في بيان حقيقة هذا الإيمان، وعلى القبول المبدئي بدعواهم بالإيمان! وهذه مسألة تُنبهنا لها الآيات في الصبر والأناة في معالجة أمراض الاستبداد، وطول النَفس في سماع الادعاء

مهما كان قبيحاً، والرد عليه الرد العلمي الهادئ لا المتشنج، حتى يتم تفنيد كل الحقائق، وبيان أحوال النفوس.

إن المقطع السابق من الآيات يُفند الإيمان المزعوم لبني إسرائيل بـ :

(اتباع الهوى، الاستكبار، تكذيب الرسل، قتل الأنبياء، القلوب الغُلف التي لا تقبل موعظة، الكفر بما جاء في كتابهم، البغي وبيع آيات الله حمية وجاهلية وقومية لبني جنسهم، اتخاذ العجل وتشرب قلوبهم به!) فبئس هذا الإيمان..

ولكن الآيات تمضي معهم في ادعاء الإيمان هذا، وتضعهم أمام هذا الاختبار:

{قل: إن كانت لكم الدار الآخرة – عند الله – خالصة من دون الناس؛ فتمنوا الموت.. إن كنتم صادقين}.

إنه أصعب اختبار: اختبار الإيمان بالغيب.. الذي لا تقدر عليه نفوس العبيد، نعم تؤمن به نظرياً، لكن لا تستطيع أن تعيش به عملياً! إنه اختبار الشعور بالدار الآخرة، ونفوس العبيد غليظة الشعور، سميكة المشاعر، لا تتجاوز المحسوس من الأشياء..

إنها كفرت ابتداء من أجل متاع الدنيا، وقتلت الأنبياء من أجل الهوى، وباعت آيات الله من أجل ثمن قليل، ونقضت الميثاق من أجل العصبية الجاهلية، واستعلت على الناس بالأماني الباطلة، وعشقت عجلاً تمثل فيه الذهب والمادة والألفة بينهم في حبه! فأنى لهذه القلوب أن تتمنى اليوم الآخر وما عند الله؟!

إنها أصلاً تتمسك بالإيمان – وهي تأتي كل أفعال الكفر – من أجل عدم الشعور بـ "الاغتراب" أو "الانسلاخ والإلحاد في الدين" إنه تريد أن تظل على علاقة ما به، لكنها لا تريد له أن يتحكم في حياتها، أو يردع أهوائها، أو يكسر استكبارها! وهي تعيش فقط وتقتات على الأماني الكاذبة، والأوهام الباطلة.. أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لهم وحدهم! ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّـهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ [المائدة] وليس بين الله وكل أحد غيره قرابة أو نسب، بل علاقة واحدة.. الألوهية الكاملة الخالصة لله وحده بلا شريك، والعبودية المطلقة لكل مخلوق.

والنفوس التي تريد الحياة الدنيا يستحيل أن تتمنى الموت:

{ولن يتمنوه أبدا – بما قدمت أيديهم – والله عليم بالظالمين}

ولقد خاطبتهم الآيات في موضع آخر عند زعمهم أنهم "أولياء الله" بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّـهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة]

فليست لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، بل هي للمتقين الأوابين التوابين المتواضعين لله الحافظين لعهده.. وليسوا هم أولياء لله من دون الناس، إنما أولياء الله من أخلصوا أنفسهم وحياتهم وأعمالهم لله رب العالمين.

إن التبريرات النفسية، والحيل العقلية.. والاستكبار والجحود والعناد والتعالي، كل ذلك لن يُخفي – على الأقل أمام أنفسهم في لحظة تمني الموت – الجرائم التي ارتكبتها أيديهم، والظلم والبغي والكفر الذي وقعوا فيه.

وهم فقط لن يتمنوا الموت أبدا.. بل هم أحرص الناس على هذه الحياة الدنيا، أحرص الناس على حياة.. أي حياة.. حياة العبيد، حياة الذلة، والمسكنة، حياة بهذا التنكير والتحقير! بل يود أحدهم لو يعمر فيها ألف سنة! بل إنهم أحرص على الدنيا من الذين أشركوا وأنكروا البعث والحساب واليوم الآخر! ومقارنتهم هنا بهؤلاء، وتفوقهم عليهم في الكفر، يكشف عن أن الادعاء لن يغني من الحق شيئاً، فتساوى الذي يكفر بالآخرة اعتقادياً – كالمشركين – مع الذي يكفر بالآخرة عملياً كبني إسرائيل.. بل تفوقوا في الكفر.

إنهم يعبدون الحياة الدنيا، ومستمسكون بها غاية التمسك، وأمنيتهم ليست هي الله والدار الآخرة، إنما هي المكوث في هذه الدنيا.. ألف سنة!

هذه هي حقيقة العبيد.. وهذه هي حقيقة إيمانهم، إنها الدنيا المحسوسة الملموسة أمامهم، إنها الزينة، والذهب، والنساء، إنها الرياسة والمصالح، إنها العصبية الجاهلية والاستعلاء بالباطل على الناس، إنها الأماني الكاذبة أنهم أشد الخلق إيماناً بعد كل هذه الجرائم!

أما المؤمن فهو في شوق إلى الله، ويستشعر الدار الآخرة، ويرجو لقاء الله، ويسابق بالخيرات، ويسارع في الطاعات، وهو في حالة من الوجل والخشية من الله، هل قبِل الله عمله الصالح أم لا؟! حساسية للتقوى، وبشرى بالخير.. قلب طاهر منّور بنور الله.. لا يقترف كل أفعال الكفر، ثم يدعي لنفسه الإيمان! بل عند كل ذنب - ولو صغير - يشعر وخز الضمير، ولوم النفس، ويسارع إلى الأوبة، والإنابة، والتوبة إلى الله. وهذا وحده هو الذي يرجو الله والدار الآخرة، وهو الذي يعلم أنه يدخل الجنة برحمة الله وعفوه وفضله، لا بعمله وجهده.. إنما كان عمله الصالح فقط دليلاً على صدق الإيمان، وهذا هو المعنى الحقيقي للخلود، وليس المكوث في الأرض ألف سنة! هذا المعنى الذي يعطي للحياة بعداً لا يقف عند حدود الأرض، إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق الذي لا يعلم مداه إلا الله، وإلا المرتقى السامي الذي يتجه صاعداً إلى جوار الله.

فالإيمان باليوم الآخر أمر هائل يحمل دلالة كبرى في هذا الوجود.. إنه ليس مجرد الاعتقاد به، بل العمل من أجله، وطريقة عرض القرآن لمشاهد اليوم الآخر، تجعل منه هو الحقيقة الفعلية المرئية الآن في طريقة إعجازية بليغة لا يقدر عليها إلا القرآن.. الذي يستحضر مشاهد الآخرة والحساب والجزاء والجنة والنار، ويجعل من حاضر الدنيا.. كأنه انتهى والآن أمام محاسبة ما قدّمته كل نفس في هذه الدنيا الفائتة! فيهزر النفس هزاً عميقاً، ويدخل عليها من كل أقطارها..

إذ أن الإيمان باليوم الآخر على هذه الصورة الربانية، هو الذي يضبط إيقاع الحياة الإنسانية في إطارها الصحيح، وينشر السلام والأمن في حياة البشر، فلا أحد سيفلت من عقاب، ولا أحد

سيضيع منه جزاء، ولا أحد سيفوت عليه شيء، بل إنه يعرض الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة الأبدية ساعة من نهار!

والإيمان باليوم الآخر هو إيمان بالغيب.. لا تقدر عليه إلا النفس التي أسلمت نفسها لله، وترجو لقاء الله، والنفس لا تستطيع أن تدرك معانيه إلا عندما تتحرر من عبوديتها للمادة، وتنحسر المادة في مكانها الصحيح من حياة الإنسان.. لكن طغيان المادة على الروح، واحتلالها مساحة النفس الإنسانية.. لا تترك شيئاً لتلك المعاني، هو الذي يجعل من الإيمان فكرة نظرية لا قيمة لها ولا أثر.. ويكون الإيمان الحقيقي فقط لما هو محسوس، وهو "الحياة الدنيا" فيتمنى أن يُعمر ولو ألف سنة، ولا يشعر بأن هناك حياة أبدية قادمة، ذلك الشعور ينحسر في النفس؛ حتى يصيبها الوهن والضعف والخوار؛ فتموت الروح، ويجف القلب؛ حتى يتحول الإنسان إلى جسد عابد للمادة! وعندها فلا حُرمة لشيء.. لا دين، لا قيم، لا أخلاق، لا إنسانية، لا شعور، لا هدف، لا غاية.. سوى المتاع المادي، واتباع الهوى، وتمني الخلود إلى الأرض.

وتمضي معهم الآيات إلى أمنيتهم الحقيقية بالمكوث في الأرض.. فحتى لو حصل أن عَمّروا في الأرض، لا بد من نهاية ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم (42)]. ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق (8)]. لو مكثوا آلاف السنين في هذه الأرض.. فلا بد من الرُجعى للحساب والجزاء.. والآيات تخبرهم بالجزاء وهو "العذاب" هكذا بدون تفصيل؛ ليكون جامعاً لكافة أنواع العذاب: المهين، الشديد، الأليم، الغليظ، العظيم، الحريق، البئيس، المُقيم!

والله جَلَّجَلَالُهُ بإيمانهم المزعوم بصير.. وبنفوسهم عليم، وبعملهم محيط.

ثم يهربون – في صورة مماثلة لهرب قوم فرعون من القضية الأصلية – بعد الفشل في اختبار تمني الموت، وبعد انكشاف حقيقة إيمانهم المزعوم، يتجهون إلى صورة ثالثة من التبرير بعد الصورتين السابقين: "قلوبنا غلف" و"نؤمن بما أنزل علينا فقط" والآن إلى صورة قبيحة ووقحة، وهي: الاختيار بين الملائكة!

فسألوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ من المَلك الذي ينزل عليك بالوحي؟ فقال: جبريل. فقالوا: إنه عدو لنا.. إنه ينزل بالعذاب والدمار والقتال، لو كان ميكال: الذي ينزل بالرحمة والمطر لاتبعناك!

إنه الجهل المقرون بالوقاحة، فجميع الملائكة ليس لها إرادة مستقلة، أو اختيار في شيء.. إنما هي تنفذ أمر الله بلا سؤال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم (6)]. والله جَلَّجَلَالُهُ هو صاحب الأمر والنهي، وإن رسالة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ إنما نزلت على قلب رسول الله بإذن الله ومشيئته وحده، وتؤكد الآيات مرة أخرى أن هذه الرسالة مُصدقة لما بين يديها من الرسالات قبلها، وهي هدى وبشرى للمؤمنين.. لا للذين يَدعون الإيمان، ويأتون أفعال الكفر! هدى للقلوب المتفتحة للإيمان والتقوى.

وهو – في النهاية – تبرير قبيح منهم، وعودة إلى مسألة "الاختيار" بين الملائكة، مثلما قالوا: "نؤمن بما أنزل علينا، ونكفر بما وراءه" وهو تعنت ومراوغة وتهرب.. يخترعون له أي تبرير، حتى ولو بالاختيار بين الملائكة!

ويكشف التعقيب عن "عداوتهم لجبريل" بالحقيقة المفجعة.. إنها ليست عداوة مع جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بل عداوة مع الله جَلَّجَلَالُهُ.. إنهم يحادون الله بالمعاصي والكفر والآثام، وبالكبر والتبجح والعناد، ولكن لم تأتيهم الجرأة بعد لهذا التصريح، لكن الآيات تكشف عما وراء الصدور.. عداء مع الله، ومن ثم مع ملائكته ورسله، ومع جبريل وميكال.. ولا فرق بينهما، فمن عادى واحداً، فقد عادى الآخر، وليس بجبريل عدوهم، ولا ميكال وليهم.. بل الكل لأمر الله طائع، ولو أراد الله أن يجعل ميكال يقطع دابرهم، لكان أمره بين الكاف والنون.

ولا أدري أي مخلوق – مهما كانت قوته – يجرأ أن يتخذ الخالق عدواً؟! إنه شيء خارج تصور العقل، ولكن مشكلة هؤلاء العبيد هي غلظة الفكر، وسماكة الشعور، وعدم استشعار الإيمان، كل ذلك مقروناً بالأماني الكاذبة.

ويختم التعقيب بـ: حقيقة هذه الإيمان وهو الكفر، وعداء الله للكافرين.. وهذه مهلكة للكافرين لا محالة.

وفي نهاية هذا المقطع من الآيات.. تتحدث عن رسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، مثلما كان البدء بالحديث عن رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، والله أنزل آيات بيّنات واضحات، لا غبش فيها، ولا غموض، ولا لبس.. وما يكفر بها إلا الفاسقون.. الذين انحرفوا عن صراط الله المستقيم، والذين فسقت قلوبهم عن سماع الحق، والذين فسقت نفوسهم عن الهدى، هذا هو ما يمنع من الإيمان بالآيات البيّنات، وليس "التبريرات الواهية" التي يسوقها العبيد.

ومن فسقهم: أنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم.. هكذا كان دأبهم، وها هم اليوم مع الرسالة الجديدة – على نفس المنوال – جاءهم الرسول مصدقاً لما معهم من الكتاب، كانت النتيجة هي نبذ الكتاب وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون، فأي شيء يقف في طريقهم – حتى ولو كتاب الله – ألقوه؛ ومضوا حيث شاءت أهوائهم.

هذه هي الحقيقة، وليست كما زعموا أن جبريل عدوهم.. وليس هذا هو سبب كفرهم، بل السبب هو: الفسوق، ونقض العهد، ونبذ الكتاب وراء ظهورهم.

***

ولكن.. ما الذي جعل النفس تدعي لنفسها هذا الإيمان المزعوم وتصر عليه، وفي نفس الوقت ترتكب أفعال الكفر؟! ولماذا يكون حرصها على الدنيا شديد؟! ولماذا تتجه إلى التبرير بهذه الأساليب الملتوية؟!

لقد طرحت الآيات – أعلاه – منظومة للنفس الإنسانية غاية في التداخل والتراكب، بطريقة قرآنية إعجازية، تحتاج فقط إلى الاستغراق في أعماق الآيات لاكتشاف كنوزها التي لا تنضب، في كل محاولة للرحلة في الأعماق..

لقد تناولت هذه الآيات ستة أبعاد نفسية مترابطة فيما بينها بصورة يؤدي كل منها إلى الآخر، فإذا اكتملت الأبعاد، تكشفت حقيقة هذه النفس أمامنا:

فالبعد الأول: تحدث عن مرض "اتباع الهوى" وبداية الضلال منه، فالنفس المسلمة لله، تتبع "الدليل" الإلهي، لا "الهوى" النفسي.

والبعد الثاني: تحدث عن مرض "الكِبر" وما يفسده في النفس الإنسانية، والذي يحول العبودية لله إلى العبودية للذات، والتعبد للعصبية، والهوى.

والبعد الثالث: هذا المرض "الكِبر" سوف يؤدي إلى مرض "التبرير" وهذا هو الذي تم تسليط الضوء عليه من خلال سياق الآيات، فهو موضوع "التشريح النفسي" وبدا في ثلاث مواطن: (أ) قلوبنا غلف. (ب) نؤمن بما أنزل علينا ونكفر بما وراءه. (ج) جبريل عدونا.

والبعد الرابع: أن مرض "التبرير" سوف يؤدي إلى مرض "البغي" ومن ثم غضب الله عليهم ولعنهم.

والبعد الخامس: أن مرض "البغي".. سيؤدي إلى مرض "نقض العهد" ونبذ كتاب الله وراء ظهورهم.

والبعد السادس: ومن وراء كل ذلك مرض "حب الدنيا"، ونسيان الله، والدار الآخرة.

ونجد أن مرض اتباع الهوى، هو بداية الانحراف، ونرى الصورة النفسية.. كأن الإنسان يسير في هذه الحياة، لا يعرف الطريق، ولا يهتدي السبيل، ويتخبط في التيه، غارق في الظلمات، فيأتيه "دليل إلهي" في صورة الوحي والكتاب والرسل والأنبياء.. فإذا سار الإنسان خلفهم، اهتدى إلى سبيل الرشد، وإلى الصراط المستقيم، والدليل دوماً يكون أمام الإنسان، ويسير في طاعة واستسلام حسب اتجاهاته..

ولكن الإنسان أثناء السير، قد يُشاهد جنة من نخيل وأعناب، فتهوى نفسه إليها، فيقول له الدليل: ليس الآن! امض معنا حيث نسير، وقد يمر على مُلك ومتاع ومال وشهوات، فتهوى نفسه إليها، فيقول له الدليل: ليس هؤلاء، امض معنا حيث نسير، وقد يمر في طريق صعب به أهوال وعذابات، فتهرب نفسه من تبعات الطريق، فيقول له الدليل: امض معنا حيث نسير، ولا يشغلنك متاع ولا عذاب.

ولكن النفس التي لا تقوى على اتباع الدليل بهذا التجرد، تهرب منه.. فلا تصبر على الهوى، ولا تصبر على الصعاب.. فتهرب من الدليل لتغرق في التيه من جديد، ويصبح دليلها في التيه هو "الهوى" حيثما كان الهوى.. كان الطريق؛ فتُضل ضلالاً بعيداً، بعيداً جداً.

ومن ثم تتنكر للدليل سواء أكان الكتاب أو الرسول، وتستكبر عن اتباعه.. لأنه يصطدم بـ "هواها" فتستكبر على كل من يقف في طريق الهوى كائناً من كان؛ فتنتفش، وتتورم..

ونجد أن مرض الكِبر - بعد مرض الهوى - يتربع على قمة منظومة هذه الأمراض، ومنه تخرج بقية الأمراض الأخرى.. وهو مرض إبليس الأول، وهو أخطر الأمراض التي تواجه النفس الإنسانية، فالنفس الكافرة هي ببساطة نفس مُستكبرة.. ولكن - من خلال الآيات هنا - لم تكن تتحدث عن قضية الكفر والإيمان من خلال منهج "الأحكام القضائية"، إنما من خلال منهج "التحليل والتشخيص والعلاج" ووجدنا صبر الآيات، وطول النَفس في تناول دعوى إيمانهم هذه.. لأن الآيات هنا تريد أن تأخذ بعداً آخر، وهو بيان حال النفس الكافرة، وإن كانت ظاهراً متدينة، وإن حتى حكم لها الإسلام بأحكام "أهل الكتاب" وقبِل هذه الدعوى ظاهرياً!

لأن الإسلام يهدف أولاً إلى علاج الباطن، وإلى إيمان النفس على الحقيقة لا على الكذب والادعاء، ووجدنا "حالة التناقض" العجيبة بالإصرار على دعوى الإيمان، وفي نفس الوقت الإصرار على إتيان كل أفعال الكفر! وهذه الصورة المعقدة تحتار فيها القلوب المؤمنة الساذجة التي على الفطرة، ولا

تفهم هذا الالتواء والتعقيد العجيب.. والآيات تُفصل هنا لبيان سُبل المجرمين: حتى لا نقع فيما وقع فيه المجرمون، وحتى لا يستغفلنا هؤلاء المجرمون.

ومع مرض الكِبر، لا بد وأن يأتي مرض التبرير فهو قرينه! والتبريرات التي أشارت إليها الآيات عنهم، كانت تبريرات قبيحة وقحة فندتها الآيات جميعها، وفضحت كذب التبرير وكفر النفس.. وبينت أن الاجتهاد في هذا الطريق.. طريق التبرير لن يُغني من الحق شيئاً، وإن كل ما عليهم هو الاعتراف بالمرض، والاستسلام للعلاج.

ونجد أن هذين المرضين: الكِبر والتبرير يدمران القلب والعقل معاً!

فالكبر: يدمر القلب، ويفسد وظيفته.. ويُورم تكوينه، وينتفش به في صورة ممسوخة، وبالتالي سيعجز القلب المُستكبر عن سماع الآيات، وعن إبصار النور، وعن انشراح الصدر للإيمان، فالصدر مغلق بمرض الكِبر.

والتبرير: يُفسد عمل العقل، فبدلاً أن يتجه العقل إلى تدبر الآيات، والبحث عن الطريق، وتمحيص الحق والباطل بموضوعية وتجرد، ورغبة في اتباع الحق، سيتجه إلى إعمال الذهن وإجهاده في البحث عن "التبرير" المناسب، وإيجاد أقصر طريق لـ "الهرب" من الاعتراف بالمرض.

ومن هذا التبرير يخرج البغي والظلم والعدوان على النفس أولاً، وعلى الآخرين ثانياً.. وإطباق الظلمات على النفس؛ فيؤدي ذلك إلى نقض العهد والميثاق ونبذ كتاب الله وراء الظهور.. وكان سبب كل ذلك: "اتباع الهوى" و"حب الدنيا" وعدم رجاء لقاء الله، واليوم الآخر، لأن النفس عاجزة عن العودة إلى سبيل الرشاد – فهي في ضلال بعيد – وعاجزة عن تجاوز المحسوس من الأشياء، ولا يتجاوز إدراكها عالم البهيمة.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقعت للأسف هذه الأمراض جميعها: (اتباع الهوى – الكبر – التبرير – البغي – نبذ كتاب الله – حب الدنيا).

فطرحت الأمة كتاب الله، واتبعت الأهواء المتقلبة، والموازين الوضعية، "فسُلبت منها الخلافة في الأرض، والأمانة التي ناطها الله بها، وحكموا أهوائهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقا؛ فضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة.. حتى يستجيبوا لله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، ويوفوا بعهد الله معهم، وحتى يأخذوا الكتاب بقوة، ويذكروا ما فيه.. لعلهم يهتدون.

وجاءت الآيات القرآنية، والتحذيرات النبوية في مواطن كثيرة تحذر من هذه الأمراض جميعها:

﴿فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: 135]

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26]

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40، 41]

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206]

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 15]

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ [النساء: 173]

﴿إِنَّ اللّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]

﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **"كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ"، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ، قَالَ: " هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ"** [سنن ابن ماجة / 4216]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **"لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ كِبْرٍ** " فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي جَدِيدًا، وَرَأْسِي دَهِينًا، وَشِرَاكُ نَعْلِي جَدِيدًا، قَالَ: وَذَكَرَ أَشْيَاءَ حَتَّى ذَكَرَ عَلاقَةَ سَوْطِهِ، فَقَالَ: " **ذَاكَ جَمَالٌ، وَاللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَازْدَرَى النَّاسَ** " [المستدرك / 1 : 26]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: **"لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ "، قِيلَ: وَمَا قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ؟ قَالَ: " حُبُّ الدُّنْيَا، سُنَّتُهُمْ سُنَّةُ الْأَعْرَابِ، مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ رِزْقٍ جَعَلُوهُ فِي الْحَيَوَانِ، يَرَوْنَ الْجِهَادَ ضِرَارًا، وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا"** [المطالب العلية / 4493]

وعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ: **"يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"** [سنن أبي داود / 4297]

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ: **"وَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ** " [صحيح البخاري / 3158]

ولكننا - في هذا المقام - سنخص بالذكر مرض التبرير، لالتباس هذا المرض، وصعوبة استكشافه، لأنه يتخفى خلف العقل، ويظهر دليل أو حجة يخترعها العقل ليهرب بالنفس من المواجهة، فيجمع بين المتناقضات! وأضر شيء على العقل الإنساني هو قدرته على "التكييف" بين المتناقضات! لأنه في هذه الحالة سيتحول إلى مجرد آلة لـ "التبرير" لا للتصحيح والتسديد والتقريب، والفهم وعمل الصواب.

وعدم اليقظة إلى هذا المرض، يُوقع كوارث كثيرة في حياة الإنسان، ومسيرة الإسلام.

إن لـ "النفس البشرية" قدرة عجيبة على التهرب من المسؤولية، والالتواء.. والمكابرة عن الاعتراف بالذنب، فتختلق آلاف من المبررات تستطيع معها أن تجعل ساحتها نقية طاهرة، وإن ظروف أخرى قاهرة هي المتسببة في الكوارث.

وهذا هو "منطق إبليس وحجته" فالفرق بين خطيئة آدم، وخطيئة إبليس.. أن آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اعترف بذنبه وسأل ربه المغفرة، وإبليس تَكبر عن الاعتراف بذنبه، وألقى باللوم على ربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: 16] وسأل ربه أن يُمهله إلى يوم الدين!

وكان هذا هو ذنب البشرية الأول، وتجربة الإنسان وإبليس مع الذنب.

الإنسان: اعترف بذنبه، وبمسؤوليته عن هذا الذنب، وباستجابته لغواية إبليس.. ثم أناب ورجع إلى ربه يضع عنده جُرم يديه، وكل ذنوبه، وهو يخجل منها، ويتحسر على التفريط في جنب ربه، ويتقدم إليه بالمناجاة وطلب المغفرة والرحمة والرأفة، فيستجيب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فهو الغفور الرحيم.. يغفر الذنوب، ويعفو عن السيئات، سبحانه هو الرحيم الكريم يُبدل الذنوب حسنات! فيا له من رب كريم.

إبليس: وقع في ذنب "الاستكبار"، لم يلتفت لخطئه ولا لجريمته، بل ظل في هذا الاستكبار مصراً عليه، لم يعترف بذنبه، ولا بخطئه، بل تبجح به.. بل إنه يلقي باللوم والمسؤولية على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واعتبر أنه سبحانه! هو الذي أغواه! فلم يعتذر إبليس ولم يطلب الرحمة، بل طلب الإمهال إلى يوم الدين لينتقم من بني آدم! الذي ظن إبليس أن آدم سبب لعنته، بينما سبب اللعنة هو ما بنفس إبليس من استكبار وعصيان لله سبحانه؛ وكان سينكشف ما بنفس إبليس سواء في حالة رفض السجود لآدم أو غيرها! فاستحق لعنات الله سبحانه ولعنات المؤمنين إلى يوم الدين، ثم هو في النهاية في الجحيم.

فكان الاعتراف بالذنب وتحمّل المسؤولية واعتراف النفس بخطئها وجهلها وظلمها، هو مفرق طريق في حياة البشرية كلها، ونحن فيها – في كل الأزمان – أما اختيارين لا ثالث لهما: إما "سُنة آدم" عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.. الاعتراف وطلب التوبة والالتجاء إلى الله. وإما "سُنة إبليس" اللعين.. التبرير والتكبر وإلقاء التبعة واللوم على آخرين.

ومكمن الخطورة في الفكر التبريري:

- تطهير ساحة النفس وتقديسها، وتبرأتها من الأخطاء.. الأمر الذي يقطع الطريق على سنن الله في التغيير.
- نشوء الشخصية الارتجالية الاتكالية التي تنتظر معجزة من السماء.
- استهلاك الطاقات والأعمار والأموال في الحديث عن مساوئ العدو، والإفراط في الحديث عنها.. والاكتفاء بذلك دون اتخاذ خطوات المعالجة في داخل النفس ومجتمعها!
- العقم الفكري أمام النظر في سنن الله في الكون والمجتمعات والحياة والإنسان.
- التخلّف عن علوم النفس والواقع والمجتمعات، وتَحول الكتاب والوحي إلى مجرد تلاوات عذبة وأمنيات كاذبة! والاكتفاء بذلك!

- التخلف عن طريق الله، وصراطه المستقيم.

- تفاقم المشكلات، وزيادة آثارها وظواهرها دون معرفة مكمن الخلل، وكيفية التصحيح وبداياته.

- تضييع الأوقات والأعمار والدماء والأرواح في طرق خاطئة، ومحاولات فاشلة.

- الفشل في إقامة الدين، وإعلاء كلمة الله، وتحكيم شريعته.

فالإنسان الذي يريد العلاج عليه أن يُعمل عقله ليس في "التبرير" وإنما في البحث عن "العلاج" والهداية، وليس بحاجة إلى "تقديس" النفس أو "تدنيسها"، بل الحاجة إلى الشجاعة في فهمها، وفي مواجهتها، ومن يطلب الهداية بصدق.. فالله هو الهادي لسبيل الرشاد.

***

سابع عشر: تصديق السحر، والإيمان بالخرافات

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّـهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّـهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّـهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة]

تتجلى في هذه الآيات الكريمات طريق الإيمان، وطريق الشيطان، وتُبين طبيعة "استجابة" النفوس الذليلة المستعبدة لنداء كل طريق.

طريق الإيمان: ينادي الإنسان من خلال فطرته، ومن خلال آيات الله في الكتاب المسطور، وفي الكون المنظور؛ ليستجيش بواعث الإيمان في القلوب؛ لتنهض بأمانة الإرادة والتكاليف؛ ولتحقق الخلافة الراشدة في الأرض، فتُعمرها وفق سنن الله، بقلوب مؤمنة ترجو الله واليوم الآخر، ولتدور مع الكتاب الذي فيه الهداية والراشد، والذي يرسم بكل وضوح وبيان معالم الطريق.

طريق الشيطان: ينادي الإنسان من خلال ولعه بالخوارق، والأساطير، والسحر، والخرافات.. يعرف شغف النفوس المفككة، والمُستعبَدة بالسماع إلى الأساطير، وبماديتها التي لا ترى بريقاً للإيمان بالغيب، فتعيش في إدراك البهيمة – أو أدنى – فتستجيب لأي خارقة، أو تبحث عن شيء يرفع عنها التكاليف.. إنه طريق في نهايته الكفر بالله، والإيمان بالأسطورة.. تصديق السحر، وتكذيب الوحي، اعتقاد النفع والضر في غير الله.

فماذا اختارت نفوس العبيد التي جاءها رسول من عند الله؟ لقد جاءها رسول يُصدق ما معها من كتابها، رسول ليس بدعاً من الرسل، وجاء يُبلغ عن الله، أصل الدين، والشريعة، والتوحيد.. الذي جاء به كل رسول، ونزل به كل كتاب.. لقد نبذ العبيد كل ذلك، ألقوه وراء ظهورهم! إلقاء عن قصد وإرادة لا عن غفلة أو نسيان أو شبهة أو جهل، بل هو التخلص من الكتاب.. الذي يرون فيه تقييداً لحريتهم، وما حرية العبيد إلا الرغبة في الفجور والعصيان..

فألقوا كتاب الله وراء ظهورهم، وما جاء الكتاب إلا ليكون "الدليل" الذي يأخذ بيد الإنسان في طريق الحياة ومنعطفاتها، وبغياب الدليل.. يغرق الإنسان في عمق التيه البعيد! فيضل ضلالاً بعيداً.. نبذوا الكتاب كأنهم لا يعلمون.. كأنهم به جاهلون، كأنهم لا يعرفون أنه كتاب الله، وهم يعلمون أنه الكتاب الواجب الاتباع، والهادي إلى سبيل الراشد.

كأنهم تصنعوا لأنفسهم الجهل، والغفلة؛ لخداع أنفسهم، حتى يكون نبذ الكتاب عملية سهلة، ليس فيها وخز للضمير، ولا عودة للتوبة وأخذ الكتاب!

فماذا اتبعوا بعد نبذ الكتاب؟!

اتبعوا الشياطين.. فهما طريقين اثنين إما "سبيل الله"، وإما "سبيل الشيطان"، إن ضل الإنسان عن سبيل الله، فقد وقع في حبائل الشياطين، تتخطفه من كل مكان، وتمزق كيانه النفسي؛ لتغرق به في بحور من الظلمات والوساوس والأساطير والأوهام والأماني الكاذبة والاعتقادات الباطلة، فيقعد الشيطان للإنسان بكل طريق مستقيم، ويَظل من خلال الإيحاء والتأثير والوساوس والظنون يُفسد على الإنسان حياته، ورغم كل ذلك.. إن كيد الشيطان ضعيفا.. لا يملك سوى "تزين الباطل" و"الوساوس والإيحاء" ومجرد الاستعانة الصادقة بالله، وذكره، والقرب منه.. تطرد الشيطان من ملكوت الإيمان وجنته.

أما إن خربت القلوب، وفسدت العقول، وذلت النفوس، فقد أصبحت مرتعاً للشياطين.. والآية الكريمة هنا تحكي عن قصة تصديق السحر، وما تفعله الشياطين فيه!

لقد اتبع العبيد ما كانت تتلوه وتقصه الشياطين عن زمان وملك النبي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد كفرت الشياطين.. سواء شياطين الإنس والجن: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]. ولم يكفر سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد ادعى يهود أن سليمان كان يَعلم السحر، وأن ملكه كان من السحر، وتسخيره للشياطين من خلال السحر، وكل هذه أكاذيب يهود، وخرافات، وسوء أدب معهود منهم عن الأنبياء.. فالنبي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منزه عن مثل هذه الخرافات، ومعصوم من مثل ذلك، وملكه ونبوته هي من فضل الله الخالص عليه..

فبدلاً عن تلاوة آيات الله.. كان يهود تتلو آيات الشيطان!

لقد كان لنبي الله سليمان ملكاً عظيماً.. سخر الله له فيه الشياطين، وكان ملكاً لم يكن لأحد من بعده، فقال سائلاً ربه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص]

فكان له من الشياطين من يبني له، ومن كان يغوص له في البحر يستخرج كنوزه! ومن كان مكبلاً مسجوناً.

والجن عموماً خلق من خلق الله.. ويحمل هو الآخر أمانة الإرادة والتكليف، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات (56)]. والجن مخلوق من النار: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر (27)]. في صورة خارجة عن تصورنا البشري، وعن إدراك طبيعة هذه المخلوقات، وكيف تعيش؟ ولماذا نعجز عن رؤيتها؟ لكن الإيمان بوجودها مسألة بديهية بالنسبة للمؤمن الذي يؤمن بالغيب الذي جاء على لسان الوحي.. فالإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، هو غيب، والجن المذكور في الآيات هو غيب كذلك.. المسلم يؤمن به، حتى ولو كان خارج عن إدراك كنهه وطبيعته.

وهو تصور يجعل الإنسان في حالة من التواضع أمام محدودية علمه، ومستوى إدراكه.. ويجعله في حالة من معرفة قدر نفسه، وفضل الله عليه.

ومن هذا الجن من هو مسلم لله، ومنهم من هو كافر وهؤلاء هم الشياطين.

ولعل تلاوة الشياطين من "علم السحر" على زمان ملك سليمان.. لتفك به أسرها هو المقصود من قوله: {واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان} فهي لم تكن تلاوة على سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو النبي الذي لا يسمح بتلاوة تخالف شريعة الله، ولذلك قال: "ملك سليمان" أي: زمانه ووقته.. وليس "سليمان".. فلربما كانت هذه التلاوة خاصة بينهم لإنجاز أعمالهم أو الهرب من السجن! أو هي تلاوة بعد موت سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على عصاه، وظلت الجن في عملها حتى أكلت دابة الأرض عصاه، وعلمت بوفاته!

فتؤكد الآيات على براءة النبي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هذا الكفر، ومما شنعت عليه يهود في كتبها! إنما الذي كفر هو الشياطين!

والسحر "علم" كأي علم يُحقق نتائجه بناء على أسباب ومُقدمات.. مثل غيره من العلوم! وهو شر.. ولكنه لا يفعل فعله، ولا يُنشأ آثاره، ولا يحقق نتائجه إلا بإذن الله.

أما كيفية تعليمه للناس، وكيفية الاتصال بالجن؟ وهل هو ممكن الحدوث ابتداء؟ وما هو هذا السحر؟ وكيف يعمل؟ هل كان التعليم من خلال الإيحاء والتأثير والمخاطبة؟ هل كان من الحواس والأفكار؟ هل كان في الأشياء والأجسام؟ فهذا ما سكتت عنه الآيات؛ لأن الغرض منها التحذير من طريق الشيطان هذا، وبيان خطورة الانجذاب لبريق خوارق العادات، وتصديق السحر وتكذيب آيات الله..

وعلم السحر هذا ليس هو علم أُنزل من عند الله، أو هو وحي إلهي وعلوم سماوية كما يزعم الدجالون - ليخدعوا به الجهلاء والسفهاء من الناس - أو هو خير ونفع للناس، بل هو شر وفتنة،

والشياطين عموماً لا تُعلّم الإنسانية الخير، بل هي متخصصة في "غوايتها" و"إضلالها" و"صدها عن سبيل الله"!

ثم تشير الآيات إلى قصة غامضة يعرفها يهود – المخاطبين بالآيات – قصة ملَكين أو ملِكين – أو رجلين صالحين – هما "هاروت وماروت" كانا بمدينة بابل.. وكانا فتنة للناس، كمثل غيرها من الابتلاءات والآيات، ويبدو أن السحر كان منتشراً في هذه البلاد، وجاء البلاء أن هذين الملَكين أو الملِكين أُنزل عليهما شيئاً سكتت عنه الآيات ربما هو علم أو إلهام! أو إنهما يعرفان "علم السحر" وما فيه من خوارق وبريق، يحرك النفوس الكافرة إلى الاعتماد عليه وتصديقه واللجوء إليه، واعتقاد النفع والضر فيه من دون الله، بدلاً عن الإيمان بالله، والاعتماد عليه، واللجوء إليه ودعائه، واستفراغ الوسع، وتفويض الأمر كله لله.. فالبلاء أن علم السحر كان حاضراً بين يدي الناس، فماذا سيختارون؟! أطريق الله؟ أم طريق الشيطان؟!

ولكن العبيد اختارت طريق الشيطان.. وزيادة في التأكيد من الملكين، فما يُعلمان من أحد، حتى يُذكروه أنهما مجرد "ابتلاء وفتنة" أرادهما الله لهؤلاء القوم؛ ليختبر بهما إيمانهم – والحياة كلها بلاء لبيان الإيمان وحقيقة العمل – وزيادة أخرى في التأكيد.. يحذر الملكين الناس أن هذا الفعل كفر؛ فيجب ألا يقع فيه أحد.

وهذا ما اتبعته النفوس المقهورة الذليلة المُستعبَدة.. اتبعت ما كانت تتلوه الشيطان على ملك سليمان، و"علم السحر" الذي كان فتنة لأهل بابل، وقد كان اليهود يعيشون بينهم.

وماذا تعلموا في هذا السحر؟

التفرقة بين المرء وزوجه!

هل من خلال التأثير النفسي بين الزوجين؟ هل من خلال الأفكار والهواجس؟ هل من خلال تزيين القبيح، وتقبيح الجميل؟ كيف يعمل هذا السحر؟ كل هذا سكتت عنه الآيات.. لتتجه إلى "الحقيقة الكبرى الكلية" في هذا الوجود كله سواء المنظور للإنسان أو غير المنظور.. إنه الله جَلَّجَلَالُهُ

القوة الوحيدة المتحكمة في هذا الوجود، والذي لا يقع فيه شيء خارج عن إرادته ومشيئته المطلقة من كل قيد، وزمان ومكان، وغيب وشهادة!

فالنفع والضر هو فقط بيد الله.. وما يقع من نفع فإنه يقع بإذن الله، وما يقع من ضر فهو بإذن الله.. والإنسان يتفاعل في عالم الأسباب فقط، لكن الله وحده هو مُسبب الأسباب، وهو الذي يُنشأ جَلَّجَلَالُهُ آثارها، ويحقق نتائجها، فليس هناك "قوانين" ملزمة له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! إنما يتحقق كل سبب بإرادة ومشيئة مستقلة منه في كل مرة..

فاضطراد سنن وقوانين الكون بالنسبة للإنسان؛ فهذا لتستقيم حياته؛ ولتسهل مهمة خلافة الأرض وعمارتها، ولكن هذا الاضطراد والثبات للقوانين لا يجري على الله.. إنما يمضي كل شيء في هذه الحياة بأمر الله، وقدرته، وتدبيره، وقوامته، وبعلمه.. فالنار -مثلاً- تحرق في كل مرة بإذن الله، وهو قادر جَلَّجَلَالُهُ على أن يجعلها برداً وسلاماً..

ومن ضمن ذلك هذا العلم العجيب "علم السحر" إنه بالفعل علم يحقق "أسباب" شريرة، ومُحرّمة.. ولكن وقوع آثار هذه الأسباب، هو أمر كغيره في عالم الشهادة – كقوانين الكيمياء والفيزياء – لا يتحقق أي شيء من هذه الأسباب والقوانين إلا بإذن الله، وإن إتيان أسباب أخرى تمنع هذا السحر، كالاستعانة بالله، وقراءة القرآن، والصلاة... إلخ، هي الأخرى أسباب تحقق نتائجها – من منع السحر وإبطاله – أيضاً بإذن الله.

وعلم السحر ليس كغيره من العلوم النافعة للإنسان.. إنما هو "شر" يضر الإنسان ولا ينفعه، وقد يُجبر فيه على الكفر – وعبادة الشيطان – قبل تعلمه!

ولكن في الآية أمر عجيب! إنها ذكرت كلمة "العلم" الخاص بالسحر أربع مرات: "يُعلمون الناس"، "وما يُعلمان"، "فيتعلمون منهما"، "ويتعلمون ما يضرهم"!

إن الآية تؤكد على أن السحر علم كسائر العلوم! – ولكنه علم لم يدفع البشرية شبراً واحداً للإمام – فهو علم لا يَحل للإنسان أن يأتيه ويعمل به! – بعكس بقية العلوم الواجب على الإنسان تعلمها

لنفع نفسه، والبشرية، ولترقية الحياة، وللخلافة الراشدة على الأرض – فالآية تُحرّم عليه هذا "العلم الضار" – الذي لا ينفعه – العلم الذي يأتي فيه "أمور الكفر" أو "ليستعين فيه بغير الله" أو "يعتقد فيه لغير الله" أو الذي يخرج فيه الإنسان من "عالم الشهادة" – حيث مناط التكليف – إلى "عالم الجن" حيث الشياطين منتظرة من يَكفر ويتبع آيات الشيطان!

والدخول في هذا العلم، ينقل الإنسان من عالم الشهادة، والكفاح، والصبر، والكد، والتعب، وتحقيق الأسباب، وترقية الحياة.. إلى عالم ملئ بالخرافات والأساطير والحقائق المخلوطة بالأكاذيب والكفريات! فيُفسد الحياة، ويُفسد دور الإنسان فيها، ويقطع علاقته وتعلقه بالله جَلَّجَلَالُهُ مُسبب الأسباب سواء في عالم الغيب أو عالم الشهادة.

والآية تُثبت كذلك عجز الإنسان، ومحدودية علمه.. وهناك من يُنكر السحر إنكاراً كلياً! وهذا غير صحيح، إنما هو علم.. كسائر العلوم، ولكنه شر، لا يقع منه إلا الضر.. واتصال بما هو وراء عالم الشهادة، اتصال يقف وراءه شياطين متعطشة لكفر الإنسان وإضلاله..

ومع هذا العلم، هو أيضاً علم صغير محدود – كسائر معارف الإنسان – لا تستطيع الشياطين التي تُعلم هذا العلم النفع والضر لأنفسها، فضلاً عن غيرها، ولا تعلم من الغيب شيئاً، فلو كانت تعلم ما لبثت في العذاب المهين على "ملك سليمان" الذي مات على عصاه، ولم يعرف الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض عصاه! قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ (14)].

وقد تعلم الشياطين أشياء بحكم أنها ترى الإنسان من حيث لا نراها: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف (27)]. وينقلونها فيما بينهم، أو ينقلونها لمن يُعلمونهم من الناس، ولكن كل هذا لا يعتبر غيباً بالمعنى الحقيقي، أو قدرة على النفع والضر بغير إرادة الله ومشيئته المطلقة.

بقي الحديث عما هو المقصود بالسحر؟! أحسب أن المقصود بالسحر، ليس هو خفة اليد، أو الخداع البصري من خلال التقنية، إنما هو "علم" فيه تلاوات للشياطين - فيها الكفر والضر للإنسان - وربما تكون هي أسبق بهذا "العلم الضار" من الإنسان، أو ذات علوم خاصة - وأدوات معرفة - قد تكون طبيعية ومألوفة لهم، وغريبة وعجيبة وساحرة للإنسان!

وقد يكون هو العلوم المتطورة الخارجة عن تصور الإنسان، لضيق أفقه، ومحدودية علمه.. فإذا رآها الإنسان، انبهر بها وسُحرت عينه لرؤيتها - على اعتبار أنها خارقة وفوق طاقة البشر - واعتقد فيها النفع والضر من دون الله، وكفر بالله، واهتزت حقيقة الإيمان لديه، لمجرد مسحة علم كانت جاهلة عنه، وقد تكون هذه العلوم لا يحتاجها الإنسان في خلافته على الأرض، ولا ذات ضرورة في صلاح دينه ودنياه، فيكون الشر من هذا الجانب.. وقد رأينا عندما اقتربت البشرية قليلاً.. قليلاً جداً من "العلم" فإذا بها تكفر بالله، وتتنكر لآياته، بل وتستعلن بكل تبجح بأنها ليست بحاجة إلى "الإله" فقد حل "العلم" محل "الإله"! بل استعلنت بكل وقاحة موت "الإله"!!

ونضرب مثالاً: لو أن إنساناً من القرون الماضية البعيدة - الذي كان وسيلة مواصلاته الوحيدة هي "الخيل والبغال والحمير" - شاهد قطعة من المعدن تطير في الهواء، وتحمل الناس إلى السماء! كالطائرة مثلاً - فقالوا له: إنها سحر وأفعال الأوثان وتأثير الآلهة المزعومة، وقدرة خارقة منها؛ فإنها هي الحق.. فاتبعها وآمن بها ! فإن كان الإنسان بلا إيمان.. سيُصدّقها ويكفر بالله، ويحسب في صنعها النفع والضر من دون الله.. وإن كان الإنسان مؤمناً، فحتى وإن جهل كيفية حدوث هذا الأمر - قطعة معدن تطير وتحمل الناس - فإنه يظل على إيمانه بالله، مُوكلاً الأمر كله لله، والمشيئة والإرادة والقدرة المطلقة والنفع والضر كله لله..

ونقول هذا الكلام.. حتى لو رأينا في زماننا هذا وقوع طفرة علمية لا تدركها عقولنا - كمثل الفجوة بين الخيل والطائرة، وكمثل التطورات الحاصلة في عالم الفيزياء والذرة - ورأينا خوارق

التصورات أمامنا، لا يهتز الإيمان بالله، والإيمان بالغيب، ولا يهتز اعتقادنا في الله وحده لا شريك له من سحر أو علم أو خوارق!

ولكن الآيات تشير إلى مسألة "التفرقة بين المرء وزوجه" أي مسائل نفسية وفكرية وإيحاءات وتحريك الخواطر وخداع الأعصاب والحواس والمشاعر - أي ربما بعيدة عن موضوع الفجوة العلمية التي قد تُتخذ ذريعة لادعاء السحر - وخصتها الآيات بالذكر، ربما في إشارة إلى مجال السحر المقصود.. والعبث بباطن الإنسان وإرادته ونفسيته بصورة غير واضحة للإنسان بالضبط! ونجهل كيفية فعلها، بل ربما يجهلها الساحر نفسه، إنما يصنع بعض التعاويذ، وتتولى الشياطين باقي الأمر.. كلها احتمالات وظنون!

وأياً ما كان السحر، فمهما وجد الإنسان فيه من خوارق أو معجزات، فلا يعتقد فيه بشيء.. إنما الاعتقاد كله في الله، والقدرة كلها لله، ولا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذن الله.. وكما ذكرنا هو مجرد "علم" - كسائر العلوم - يستطيع الإنسان تعلمه، وكشف أسراره، لكنه مُحرم عليه، فهو شر وفتنة وكفر، يضر بالإنسان.. ومن يشتريه فقد خسر الآخرة، وضاع نصيبه منها، وبئس ما يبيع الإنسان به نفسه.. من أجل ضر وشر، قد يقع فيه من أجل مال أو شهرة أو شهوة؛ وهذا هو الجهل الحقيقي أن يُضيع الإنسان آخرته بهذا الشر والكفر، وليس هو الجهل بالسحر!

***

ونقف قليلاً عند دلالة قوله تعالى: {ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه}.. إن الأسرة هي وحدة بناء المجتمع، وإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، وقوي بنيانه، وتحسنت علاقاته، وحسمت فيه مادة الشر، وقمعت فيه الفتنة، فلكل إنسان في المجتمع محضن أسري يعود إليه؛ ليجد فيه الدفء والراحة والسكينة والطمأنينة والود والرحمة.. وهذه الحالة تجعل الشياطين في حالة من البطالة عن العمل! وعن غواية الإنسان.

أما إن تفسخت الأسرة، وتفرق الزوجين؛ تهدم المجتمع، وانتشر فيه الغل والحسد والبغضاء، وفشت فيه الرذيلة، وتقطعت فيه أواصر المحبة والرحم والجوار، وفسد فيه الرجل والمرأة، وضاع فيه الأبناء.. وعم الخراب القلوب، وفسدت فيه النفوس.. فأصبحت مرتعاً للشياطين.. فلا تكف فيه عن العمل وإنتاج الشر من كل طريق.

ولهذا ربما يكون مجال عمل السحر محصوراً في مجال "التأثير النفسي والإيحاء والأفكار وتحريك الخواطر" فقط! ومجرد الاعتصام بالله والتوكل عليه، واللجوء إليه؛ يُحبط أثره، ومقابلة "علم السحر" بـ "علم القرآن"؛ يُحبط عمل السحر.

وتختتم الآيات – في هذا المقطع – بما أشارت إليه في بدايتها.. إن الإيمان بالله والتقوى هو الخير وهو الفلاح، الإيمان الحقيقي الذي يستشعر وجود الله، وآثار نعمته وفضله، والتقوى التي تحرك القلوب لـ "الوجل" من الله، وخوفه ورجائه، ومحبته، وترى في نفسها، وفي الكون من حولها آيات بيّنات أعظم من أي سحر، وأجمل من أي صُنع، فهي صنع الله الذي أتقن كل شيء.. وفوق كل هذا إنه إيمان وتقوى.. يُنشأ في القلب الرضى والسكينة والطمأنينة، لا كالإيمان بالسحر والأساطير الذي يُنشأ في القلب الخوف والفزع والترقب والحيرة، وعبادة المخلوقات من دون الله.

وفي النهاية الإيمان بالله له جزاء هو الجنة في الآخرة، والخير في الدنيا، والإيمان بغير الله – سواء الإيمان بالسحر أو غيره – له عقاب هو النار في الآخرة، والشر في الدنيا.

وتختتم الآية هنا بـ {لو كانوا يعلمون} مثل الآية السابقة التي تحدثت عن السحر، فاختتمت أيضاً بـ {لو كانوا يعلمون} كأنها تقول: إن العلم الحقيقي النافع، هو العلم الذي يحصل به النجاة والخير والفلاح في الدنيا، وينال به الجنة في الآخرة.. وهذا ما يجب أن يشغل بال الإنسان ويتعلمه.

ونسجل هنا ملاحظة أن أغلب التفاسير الأثرية طافحة بخرافات وأساطير حول تفسير هذه الآية، بل ورُفعت بعض الأحاديث للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عنها!! وإن هي إلا إسرائيليات – مأخوذ بعضها عن أساطير إغريقية يونانية! – يغلب عليها طابع الخرافة، والاستحالة، والحكاية الطويلة،

وسرد الأسطورة، وغرابتها، ونهايتها، وعدم وجود الغاية والنفع للمستمع لها.. مما يترفع عنه قول الأنبياء والرسل، ووحي الله إليهم.

***

ولكن.. ما الذي يجعل النفس تؤمن بهذا السحر، وتصدق الأساطير؟

إن النفس الإنسانية لديها "جوعة غيبية".. لديها مكان لـ "الإيمان بالغيب"، وعندما لا تستشعر وجود الله، والاتصال بعالم الغيب – من خلال الصلاة والعبادة والذكر – تظل هذه الجوعة تلح على الإنسان ليملأها.. فلا تجد مثل السحر بديلاً، والسحر يأتي مصحوباً بالخرافات والأساطير والأكاذيب والأوهام، مما يجعل العبيد تتلذذ بسماع الأسطورة، وتطرب لحكاية الخرافات، وتُصدق السحر.. وتؤمن به، وتتفاعل معه! وتخاف منه، وتحذر من صانعه!

ويجعلها تجري وراء كل أسطورة، وتُسلّم لكل خرافة!

كما تجد في السحر هروباً من التكليف، والتفكير، والعمل، والسعي.. ورغم أن السحرة يُكلّفون العبيد بأشياء وخرافات.. إلا أن العبيد لا تجد ثقلاً لتكاليف السحرة وخرافاتهم، وتأتمر بأمرهم! وتتبع طريقهم بكل دقة! بينما التكليف الإلهي بالإخلاص والإيمان والعبادة لله وحده لا شريك له، لا تجد له استجابة وعمل!

والسحر كذلك يُعطي العقل إجازة، ويترك النفس لـ "التلذذ" بالأعاجيب والأساطير! وإن نفوس العبيد لا تطيق سماع "فكرة مجردة" أو "علم نافع" أو "قصة مفيدة".. وتتثاقل أسماعها عن مثل ذلك، أما الأسطورة والخرافة فتُقبل عليها، وتجد فيها الأنس.. لأن العلم النافع لا بد وأن يغير ما بالإنسان، أو يدفع الإنسان لعمل مفيد، وهذا ما لا يريده العبيد، إنما يريدون تصور الحياة على صورة خرافية، يتحقق فيها كل شيء من خلال عصا سحرية أو تعويذة شيطانية! لا تُكلفهم شيئاً.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع الإيمان بالسحر، وتصديق الأساطير.. بل وانتشرت "مهنة" السحر! بل وصدّق بعض المسلمين حكايات وأكاذيب يهود عن النبي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجرت جموع من الأمة خلف السحرة والمشعوذين! فصارت سوقاً رائجة.. يُعلن عن أصحابها في وسائل الإعلام المختلفة!

وقد جاءت التوجيهات النبوية حازمة قاطعة في هذا القضية، وعدم الانزلاق لها، والتحذير من تصديق السحرة أو إتيانهم أو الاستعانة بهم.

ولم يتوقف انتشار هذا المرض على غير المتعلمين أو الجهلاء والبسطاء من الناس.. بل انتشر حتى بين المتعلمين وأصحاب الشهادات الجامعية! وصار تفكير الإنسان يتجه إن أصابه الضر إلى "فعل السحر"!

وإن تأخر زواج فتاة، أو طُلقت امرأة.. فليس هذا إلا سحراً فعله الأعادي! يجب فكه، وإحباطه!

وأصبحت الأمراض النفسية والعصبية هي الأخرى سحراً يجب فيه إخراج الجن وضربهم!

فصارت الأمة تُقدس الخرافة، وتحترم الأكاذيب.. ونبذت كتاب الله، واتبعت الدجالين!

صورة مؤلمة تكشف عن مدى انحدار الأمة علماً وعملاً، وروحاً وفكراً!

وأصبحت أكثر الكتب رواجاً هي الكتب التي تتحدث عن السحر! وصار الدجاجلة يتصنعون الورع والتقوى والعلاج بالقرآن! ولا يتقاضون مبالغ نقدية، ولكن لا مانع من الهدايا العينية! ثم الابتزاز شيئاً فشيئاً؛ فأصبح الأمر مهنة وصنعة وحرفة وطريقة! والناس تهيم على وجوهها تطارد الأسطورة، وتصدق الخرافة..

ولا تدري أنها ليست بحاجة لشيء سوى رفع أكف الضراعة والخشية والوجل والحب لله.. تسأله مما شاءت، وتستعيذ به مما تخاف، وتستفرغ الوسع في عالم الأسباب ما استطاعت! هكذا بكل بساطة، فهذا هو مجال عملها، ولا شيء سوى ذلك، وهذه هي الحرية التي أرادها الله للإنسان..

لكن نفوس العبيد لا تطيق هذا التجرد الغيبي، والجهد الواقعي، إنما تريد شيئاً مادياً ملموساً.. تريد الأبخرة والتمائم، تريد المشعوذ والدجال، بل حتى تريد واسطة بينها وبين الله في دعائه وطلب عونه ورجائه!

مرض يجعل أي أمة تُصاب به في ذيل الأمم.. فلا يمكن أن يتحقق معه أي ريادة أو سيادة.

ولا يمكن لأمة أخرجها الله لتحمل رسالته الأخيرة؛ ولتُعلم الناس الخير.. ولتكون هي الشاهدة والمُعلمة، أن تكون مريضة بهذا المرض، الذي يُعطل عمل العقل، ويحبط الجهد الإنساني، ويبعد بالإنسان عن الله!

ولِتُؤَهل هذه الأمة للسيادة والريادة.. لا بد وأن تكون قوية الإيمان بالله، شديدة العزم على تحقيق سنن الله، محطمة للخرافات والأساطير، أقوى بالله من كل كيد وسحر ووهم، أقوى عقلاً، وأثبت نفساً، وأصدق إيماناً بالله جَلَّجَلَالُهُ.

***

ثامن عشر: النكوص عن الجهاد، والافتتان بالملك

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة]

هذا هو الدرس الأخير - في سورة البقرة - الذي يتحدث عن "أمراض الاستبداد"، من خلال التحليل للشخصية المُستعبَدة - شخصية بني إسرائيل - ولقد زخرت هذه السورة الكريمة بدروس عظيمة وبليغة في تحليل هذه الأمراض الخطيرة التي تصيب النفس الإنسانية، وتحولها إلى صورة معقدة لا هي مؤمنة ولا هي كافرة ولا هي منافقة.. إنما خليط متناقض من كل ذلك! في أحوال عجيبة غريبة يطرحها القرآن بأسلوبه الفريد؛ لتكون نوراً للأمة المسلمة في طريقها.

ومن الأمراض التي طرحتها هذه السورة الكريمة عن بني إسرائيل:

[تلبيس الحق بالباطل، الدناءة والذلة، التشدد والتعنت، قسوة القلوب، تحريف الكتاب والتمني الكاذب، نقض الميثاق والتناقض، اتباع الهوى.. والتبجح والمراوغة والتبرير والاستكبار، حب الدنيا، نبذ الكتاب واتباع السحر وتصديق الأكاذيب]

والآن، إلى أخطر قضية تواجه أمة إنها قضية "الجهاد والمُلك".. ويعرضها القرآن – في أول سورة نزلت بالمدينة – في سياق حث المؤمنين على الجهاد بالنفس والمال، ولعل هذه المناسبة الأولى لذلك؛ لتستعد الأمة لتضطلع بمسؤوليتها ودورها الذي أخرجها الله من أجله، ويعرض قصة انحراف بني إسرائيل، وكيفية تعاملها مع الجهاد، وهي بهذه الأمراض.

وتبدأ الآيات بطلب بني إسرائيل من نبيهم أن يُعَين – أو يختار – لهم ملِكاً ليقاتلوا معه "في سبيل الله"، والنبي يدرك نفسية بني إسرائيل، وهل هي حقاً صادقة في طلبها هذا! لأنها بالفعل تعاني من أمراض خطيرة تستلزم أولاً العلاج قبل الجهاد، فالأمراض المذكورة في سورة البقرة فقط غاية في الخطورة، فتلبيس الحق بالباطل "إفساد للعقل"، والدناءة والذلة والتشدد والتعنت والقسوة "إفساد للقلب"، والتحريف ونقض الميثاق واتباع الهوى "إفساد للنفس"، والتمني الكاذب والمراوغة "إفساد للروح"، وحب الدنيا ونبذ الكتاب واتباع السحر والاستكبار والتبرير وتصديق الأكاذيب "إفساد لإنسانية الإنسان".. فهل يمكن أن تجاهد النفس "في سبيل الله" وهي بهذه الأمراض؟!

ولهذا تشكك النبي الكريم في نواياهم، وسألهم: "هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا"؟!

فأجابوا: {وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟}

ماذا بقي لنا بعد ذلك، فقد ذهبت الديار والأموال والأبناء.. فلم يعد هناك ما نبكي عليه، فليس أمامنا إلا القتال! والقتال في سبيل الله يجب أن يكون حاضراً من الناحية النفسية والشعورية والفكرية والذهنية عند المسلم، ولا حرج من القتال بسبب الإخراج من الديار والأموال والأبناء، ولكن لا بد من استحضار معنى "في سبيل الله" واستحضار نصرة "دين الله" حتى ولو كان هذا

الجهاد هو دفع الضر الذي ألم بالإنسان.. وإن القتال ابتداء من أجل حفظ أغلى وأعز وأكرم ما يملك الإنسان وهو دينه وإسلامه لله رب العالمين.. فهو اللحم والدم للنفس الإنسانية.

والنفس المسلمة لا تستطيع حقاً الانتصار في معاركها إلا بأن يتجلى هذا الشعور كلياً؛ حتى يَتملّك الإنسان إنه "في سبيل الله" فهو ليس كقتال الجاهلية من أجل عرض من الدنيا أو حمية لجنس أو أرض أو وطن أو قوم أو مجرد انتقام ورد اعتبار أو انتصار للذات.. إنما هو من أجل الله، والإخلاص لله هو القوة الكامنة في نفوس المسلمين، والتي تدفعهم للتميز بهذا السلاح على كل عدو، وهذا هو المحرك الرئيس للنصر والتمكين.

فماذا كانت النتيجة ورد الفعل بعدما كُتب عليهم القتال، وهم بهذه النفسية؟

لما كُتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا!

هذه هي النتيجة الطبيعية المتسقة مع الشخصية المُستعبَدة التي طلبت بنفسها القتال، وسألت نبيها "القتال في سبيل الله" كما ادعت، فإذا بها تنقض العهد، وتنكص عن التكليف، فستكون أحرص على حياة، وعند المواجهة الحقيقية الخالية من التمني، وتحمل تكاليف المعركة، وضريبة الصراع، واستحقاقات النصر.. عند هذه المواجهة ستهرب النفس المستعبَدة، وتتولى على أدبارها.. هاربة، فإن خسرت الديار والأبناء، فلا داعي لخسارة النفس!

والنفس المستعبَدة تشعر برغبة عميقة في البقاء في هذه الحياة، وتكون أحرص على الحياة والبقاء.. رغم شعور الذلة والمسكنة الذي يلاحقها، وتشعر أنها لم تأخذ فرصتها في الحياة بعد، وإن حياتها قصيرة مهما طالت؛ وذلك لأن "شعورها الروحي" منعدم.. والصورة المادية هي الحاضرة دوماً، والتصور المادي للأشياء يجعل الحياة قصيرة، ضيقة، محدودة، ويجعل الإنسان شديد التمسك بها، كبير الحرص عليها!

بعكس النفس الحرة.. التي يمتلأ شعورها بامتداد الحياة في الدنيا والآخرة، وتشعر بنعمة الوجود والاتصال بالغيب، فلا تهاب الموت، ولا تخاف المواجهة، ولا تحرص على حياة، وترى أنها تسير في

قدر الله، إلى الله، وهي في انتظار ذلك اللقاء، وتشعر بالسعادة وهي تكافح وتسير على هذا الطريق، فإذا كان الجهاد، فهو خير ما تريد، فلا تتولى عنه، ولا تهرب منه.. وهذه النفس هي وحدها المؤهلة للجهاد.

وقليلة هي النفوس المؤهلة لهذا الجهاد العظيم، ولكن لم ينعدم وجودهم رغم أمراض بني إسرائيل، ويُسجل القرآن وجودهم.. فهو يطرح القضية الأصلية والسمة العامة البارزة ويتجه إليها بالعرض والتفصيل، ويشير في النهاية إلى بقايا الخير الموجود، فلا هو يلغي وجود "القلة" التي على الخير.. ولا هو يتخذ من وجود هذه القلة صورة لـ "التعميم" على كل بني إسرائيل، فيلتبس الأمر على الإنسان، وهذه مدرسة القرآن تُعلم الإنسان طريقة النظر المنضبط والتحليل وصدق الرصد، والتعامل مع النتائج دون هوى أو تبرير أو تهويل أو تعميم.. حتى يستقيم المعنى والفهم لديه.

وتختتم الآية بقوله: {والله عليم بالظالمين} عليم بالظالمين، عليم بما في صدورهم، وعليم بنواياهم، وعليم بأفعالهم.. وما ظلمهم الله.. ولكن أنفسهم كانوا يظلمون، وما ظلموا الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة (57)]. ظلموا أنفسهم هنا بالتولي عن الجهاد في سبيل الله.

قضية يطرحها القرآن إجمالاً في آية واحدة، سكت فيها عمن هم الملأ من بني إسرائيل، وأين كانوا، ومتى كانوا، ومن هو ذاك النبي الذي سألوه؟ ليتجه إلى "الموضوع الرئيس" الذي فيه العظة والعبرة للأمة المسلمة، فالقرآن لا يحكي "قصة تاريخية بتسلسلها الزماني المكاني" إنما يتجه إلى "العبرة" التي يجب أن ينتبه إليها الإنسان.

***

ثم تعرض الآية التالية قضية من أهم وأخطر القضايا وهي "قضية المُلك":

{وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملِكا}

لقد كان هذا طلبهم أن يبعث الله لهم مَلِكاً ليقاتلوا معه.. واستجاب الله لطلبهم، رغم أحوال هذه النفوس الظالمة وعلم الله ببواطنها، ولكن رحمة منه وفضلا.. وهذا الفضل لا بد للنفس المسلمة أن تقابله بالشكر والعرفان والامتنان، وشعور العجز عن الشكر لله، وشعور القرب والمحبة والاستسلام لله.

فماذا كان رد فعلهم؟

التمرد والتبجح والاعتراض: {قالوا: أنى يكون له المُلك علينا، ونحن أحق بالمُلك منه، ولم يؤت سعة من المال؟!}

وهذه سمة بارزة في العبيد.. التمرد والتطاول وسوء الأدب، وقد فعلوها من قبل في قصة "عبادة العجل"، و"ذبح البقرة"، وها هم الآن يعترضون على استجابة الله لطلبهم، فبدلاً عن الحمد والشكر لله.. كان الاعتراض على المَلِك الذي بعثه الله إليهم!

ولقد كان اعتراض العبيد عليه سريعاً عنيفاً؛ لأنه مَس صميم ما ينشغف به قلب العبيد.. إنه "المُلك"، ويتساءلون في تنطع: أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه؟!

لقد كان العبيد يريدون أن يستجيب الله لهم حسب أهوائهم، وفق رؤيتهم وتصورهم.. ويبدو أنهم كانوا يريدون شخصاً محدداً في طبقة من يملك المال منهم، أو ذي الحسب والنسب، أو من نسل الملوك فيهم! - فقد تعودوا الخضوع للفراعنة والأغنياء - ولما جاء مخالفاً لتوقعاتهم.. اعترضوا وأساءوا الأدب، مثلما فعلوا مع النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ عندما ردوا دعوته؛ لأنه لم يأت من بني إسحاق، وإنما جاء من بني إسماعيل!

واعتبروا من يملك المال، ونسل الملوك هم أحق بالمُلك، وأهل للقيادة.. وهكذا هو تصور العبيد! أما تصور الأحرار الذي يُوضحه القرآن.. إنه لا المال ولا النسب ولا النسل ولا الدماء الملكية! هي ما يقرر الحكم والسلطان، إنما هو "العلم والحكمة".

وجاء رد النبي لهم – وهو ليس بحاجة إلى رد، فأمر الله واجب النفاذ والاتباع – بأن هذا المِلِك فيه من الصفات التي تؤهله للقيادة: {إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم}.

لقد اصطفاه الله عليكم، وهو منكم.. ليس بغريب عليكم، ومن اصطفاه الله.. فليس لأحد أن يُقدم بين يدي الله، ولا يقترح على الله، ولا يعترض على قضاء الله.. ومجرد هذا الاصطفاء ليس بحاجة بعده إلى بيان، بل هو الاستسلام التام لأمر الله، ولكن زيادة في الرحمة والحكمة؛ يُبين الله الصفات التي أهلته بعد الاصطفاء وهي "زيادة العلم والجسم" ومجرد الاصطفاء من الله، هو كرم وفضل عميم.. وصفاء في النفس، وإخلاص في القلب.. عَلِمه الله في قلب "طالوت" ومع هذا الطهر والإخلاص جاء "العلم"، والعلم نور من الله يهدي به الإنسان، وهو الذي يؤهل للقيادة وليس المال.. وهو الذي يقلل الأخطاء، ويحصر التضحيات، ويُنور الطريق؛ ليصل إليه بأمان، والعلم يجلب العلماء، ويصطفى الأخيار.. والمال يجلب السفهاء، ويختار الدهماء والمنتفعين.

وأما الزيادة في الجسم، فلعل المقصود منها "القوة" والشجاعة والإقدام، وقوة الفكر والاستعداد الفطري والتأهل المناسب لـ "القتال" وهذه الصفات ضرورية للقائد الحربي؛ حتى يبث في نفوس الجنود القدوة، ويشعر الجند بقوة القائد وبأسه.. وهو أمر معروف في الجيوش، وطريقة اختيار القادة، وأهمية البنية الجسمية، التي توحي في النفس شعور القوة والبأس والشدة اللازمة للمواجهة والقتال.

وهكذا اجتمع في طالوت صفات القيادة: (الاصطفاء "وفيه الطهر النفسي والإخلاص القلبي"، العلم، الشخصية القيادية ذات البنية القوية).

وبعد هذا البيان، لا بد من التأكيد على مشيئة الله المطلقة، وإرادته الحرة.. وسواء أدرك الإنسان الحكمة أو لم يدركها، ما عليه إلا الاستسلام لأمر الله، فالله يؤتي مُلكه من يشاء، ويصطفي من يشاء، والله واسع عليم.. واسع الملك والعطاء والرحمة والإكرام، وعليم بالحكمة والعدل والتدبير

لمن يأتي هذا الملك، ومشيئة الله هذه ليس معناها أن المُلوك التي تحكم بالظلم والعدوان إنما هي تحكم بقوة إلهية خارقة، وإنها مشيئة الله التي لا ترد! وإن محاولة مقاومة ظلمهم هي مقاومة للإرادة والمشيئة الإلهية، كما صوّرت الكتب الوثنية والنصرانية قديماً، وحديثاً تصور بعض المسلمين نفس هذا التصور! إن إتيان الله المُلك من يشاء، إنما يجري بالحق والعدل والسنن الإلهية، والمقصود: أن المُلك بيد الله، يؤتيه من يشاء، فلا يخاف المسلم من بطش الظالمين، ولا يخضع للفراعنة والطواغيت، فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين..

فالمقصد من الآية: ليس هو الركون والاستكانة للظالمين، إنما هو العكس.. مقاومة وجهاد الظالمين، فهو مُلك الله ابتداء، والله يُورثه عباده الصالحين: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء (105)]..

ولكن رحمة من الله الحليم الودود الكريم، ذو الكرم والجود والإحسان.. لا يترك هؤلاء العبيد لمثل هذا التجرد الكريم الذي لا تقدر عليه سوى نفوس الكرماء الأتقياء الأنقياء، فيبدو أنها لم تقنع بأسباب اصطفاء طالوت، وتستسلم للمقاييس المادية فقط: "النسب والمال"؛ فجعل الله لهم آية، وهذا كرم ما بعده كرم، فبعد كرم الاستجابة.. يجعل لهم معجزة خارقة، فيها تذكير برسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتخاطب إحساسهم المادي.. وفيها "السكينة"!

{وقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم، وبقية مما ترك آل موسى، وآل هارون.. تحمله الملائكة! إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين}.

لقد عندنا هنا إلى الصورة المادية التي يحتاجها هؤلاء، علهم يستجيبون، فبعد بيان سبب الاصطفاء من " السمو والعلم والقيادة".. جعل لهم بعد ذلك آية لهذا المُلك خارقة! فكانت تابوت تحمله الملائكة فيه: "السكينة، وبقية من آثار آل موسى، وآل هارون".. وقيل: إن بني إسرائيل سُلبوا مقدساتهم – بعد تسلط عدوهم عليهم – وكان في التابوت الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور؛ فجاءت الملائكة تحملها إليهم!

وهذه الصورة فيها من الايحاءات الكثير:

فيها الجود والكرم والحلم من الله على هؤلاء العبيد التي لا تشعر معاني "الاصطفاء والعلم".

وفيها الرحمة والصبر عليهم.. فكان التابوت يحوي السكينة، والسكينة شيء معنوي في القلب، يُنزله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على القلب فيأمن بعد الخوف، ويسكن بعد الجزع، ويهدأ بعد القلق.. وهو شعور يسري في القلب فيشعر بالطمأنينة والأنس والرضى، وهو وحده من أعظم نعم الله على الإنسان، وذكره هنا في معرض "القتال في سبيل الله" ضرورة هامة للجند الذين قد يتخطفهم الفزع أو خوف العدو أو الإرجاف منه.

فهذه "السكينة" ضرورة لثبات القلوب عند المواجهة، وعدم التولي يوم الزحف، ولهذا كان التوجيه القرآني عند لقاء العدو، كثرة ذكر الله.. فسبحان الذي بذكر عظمته وفضله ووده وحنانه تسكن وتطمئن القلوب.

وفي التابوت آثار من آل موسى وهارون.. لعلها بعض متعلقاتهم أو أشياءهم؛ ليتذكروا عهد موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وليتذكروا ما حصل في هذه الفترة، من معجزات وآيات، وموقف بني إسرائيل حينها، ورؤية هذه الآثار يستجيش في النفس المشاعر الكامنة، وتحرك العقل ليتذكر هذه الفترة، وبالفعل عند تكلس القلب، يحتاج بعض الصور المادية التي تهز فيه الشعور وتحرك فيه التأمل والفكر، فتساعده على التذكرة.

وهكذا أتم الله فضله عليهم: فقد استجاب لهم وبعث لهم ملِكاً، وبيّن لهم سبب الاصطفاء، وزادهم بآية ومعجزة للتأكيد على ملكه، ولم تكن مجرد معجزة خارقة فحسب بل كان فيها "السكينة" و"تحريك المشاعر نحو تاريخ أنبياءهم موسى وهارون".. وحملت الملائكة هذا التابوت! فإذا كانوا مؤمنين حقاً، فما عليهم إلا الاستجابة، وإن أعرضوا.. فما أولئك بالمؤمنين.

والآن إلى ساحة المعركة بقيادة طالوت، بعدما أعد جيشه من الذين لم يتولوا عن الجهاد، ولم ينكصوا عهدهم مع نبيهم من أول الطريق، وبدأ الاستعداد للمواجهة.. وكان أول استعداد

للمواجهة هو "ابتلاء" مستوى إيمانهم، وقدرتهم على الاستجابة، ومدى صبرهم على تكاليف المعركة وصمودهم، ومدى قوة إرادتهم:

{ولما فصل طالوت بالجنود، قال: إن الله مبتليكم بنهر}

ولعل "علم" طالوت بحال أمته وما ألفته من الذل والهوان، ونظرته الثاقبة فيهم وفي نفوسهم.. جعل لهم هذا "الابتلاء"؛ ليتم التمحيص، ويختبر الطاعة والولاء، والاقتناع برئاسته، وليبقَ فقط المؤمنين الصادقين.. إنه ليس بحاجة إلى "حشو" الجيش بالمرجفين.. إنما هو بحاجة إلى الصادقين الذين حقاً "يقاتلون في سبيل الله".

وهي نظرة قائد مؤمن حقاً.. إنه يريد تصفية جيشه من شوائب وإرجاف العبيد، ولا يريد الذهاب بهم.. ثم عند المواجهة يُربكون الجيش، ويهربون، ويكشفون ظهره، فينهزم بهم.

فكان الابتلاء أنهم سيمرون على نهر غير مسموح لهم بالشرب منه: {فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده}.. فمن شرب وامتلأ لا يبالي فلا يلحق به وليس منه، ومن شرب غرفة بيده يبلل ريقه فهو معه، ومسموح له بالانضمام لجيشه..

وهو ابتلاء لقياس مستوى الصدق والتحمل والقدرة على الانضباط، والاستجابة والطاعة والصبر والجلد، وليس المقصد منه إهانتهم أو تحقيرهم أو تعذيبهم أو حرمانهم.. فماذا كانت نتيجة هذا الابتلاء؟

{فشربوا منه إلا قليلاً منهم}

فبعد كل هذا الكرم العميم من الله، وبعد الآية المعجزة، وبعد البيان الشافي، وبعد السير بالجيش للقاء العدو الذي أخرجهم من الديار والأبناء.. عند أول ابتلاء لـ "التمحيص" و"الصبر على الفتنة" كانت النتيجة سقوطهم إلا قليلا.. ولا أهمية للقتال بهذه النوعية الضعيفة، فلن يتحقق بهم النصر ولو كانوا كثرة، فالقلة المؤمنة الصادقة خير من الكثرة الكاذبة الساقطة.

ومضى القائد – صاحب العلم – بالقلة التي نجحت في الابتلاء فقط، وذهب العبيد الساقطون إلى التيه البعيد:

{فلما جاوزه [أي: النهر] هو والذين آمنوا معه} أرعبهم جيش العدو وعتاده وعدته {قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} وهذا الشعور.. شعور الخوف من العدو، هو شعور فطري طبيعي، ولكن لا يجب أن يَتملّك الإنسان، ويخيفه، فالذي قال: "لا طاقة لنا" – كما يبدو – هم من الفئة التي نجحت في الابتلاء.. ولا يجب اعتبار هذا الخوف دليلاً على انحرافهم، ولكنه دليل على أنهم بحاجة إلى مزيد من التثبيت واليقين.. وإشارة إلى أنهم في هذه المواجهة لا يُفضل أن يكونوا في مقدمة الجيش، وإنما في الوسط أو الصفوف الخلفية، حتى لا يجزعون.

وكان هناك نوع آخر من هذه الفئة.. وهو النوع النادر، الذي يستعد للقاء الله، لا لقاء العدو: {قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين}

إنه شعور معية الله، وإن النصر من عنده، وإنه مع استفراغ الوسع والجهد، لا علينا سوى "الصبر" ولا يهزنا كثرة العدو، ولا عتاده، وعدته.. فإنما نقاتل من أجل الله، في سبيل الله، فكم من فئة قليلة مؤمنة، غلبت فئة كثيرة كافرة.. وإن النصر مع الصبر، ولا يتأتى الصبر إلا مع الإيمان، والتحرر من الخوف، والتجرد والاستسلام لله، فالله هو الذي يُدبر الأمر، ويُثبت الأقدام.. فكان الدعاء الخالص لله: {ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين} أفرغ علينا صبراً يملأ كياننا، فلا نجزع، ولا نتراجع، ولا نخاف، كأن الصبر نسمات نازلة من السماء على القلوب لتسكن، وتثبت، وتقوى..

"وثبت أقدامنا"، "وانصرنا على القوم الكافرين"، فنحن المؤمنين بك المخلصين لك.

فكانت النتيجة:

{فهزموهم بإذن الله}

الله هو الذي تولى برعايته المؤمنين، وهو الذي استجاب لهم، وهو الذي بإذنه وقدرته تحقق النصر لهم، وهكذا يجب أن ينسب المؤمن النصر لله، والفضل له، فلولا أن أفرغ الله عليهم صبراً، وثبت أقدامهم.. ما استطاعوا شيئاً، فله الحمد والفضل أولاً وآخراً..

فتحقق النصر لقلة من قلة.. قلة هي التي زحفت ولم تتول عن الجهاد، وقلة من هذه القلة هي التي صمدت في ابتلاء النهر: {فلما كُتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا} {فشربوا منه إلا قليلا}!

وفي المعركة برز الأتقياء الأنقياء.. فكان نبي الله داوود، الذي قتل جالوت القائد الكافر الظالم:

{وقتل داوود جالوت وآتاه الله المُلك والحكمة وعلمه مما يشاء} وفي الآية بيان سبب الاصطفاء للمُلك أيضاً - وهي نفس أسباب اصطفاء طالوت - وهي "الحكمة والعلم".

ويُختتم الدرس ببيان الحكمة العامة من هذه المواجهة، وهذا الجهاد والقتال.. إنه ليس من أجل الأمجاد والاستعلاء في الأرض والغنائم، إنما هو التدافع والصراع بين الحق والباطل الذي لا مفر منه في هذه الحياة:

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين}.

لو تُرك الباطل والفساد دون "دفع" و"مواجهة" لفسدت الأرض.. ولكن الله من فضله على العالمين، قيض من عباده المؤمنين الصادقين من يتصدى ويقف لهذا الباطل، ويدفع شره، ويقمع فساده، ويردع قومه، ويحسم فتنته، والآية توضح ضرورة مواجهة الفساد في الأرض.. هذا الفساد لا يقبل التعايش، ولا التوافق، فهو يواجه ويحارب مباشرة — وبدون إنذار — أي دعوة للحق، وعلى أهل الحق والعدل إعداد العدة للمواجهة الحتمية مع هذا الفساد، هذه سُنة في حياة البشر، يحاول بعض الفسدة من أصحاب مدراس علم النفس المنحرفة إلغائها؛ وإيجاد الأعذار والتبريرات للمنحرفين والفاسدين والقتلة والمجرمين ومنقلبي الفطرة! ويحاول بعد المتتكثين من المسلمين الخضوع للفساد والمفسدين بحجة حقن الدماء، والتعايش؛ فتغرق الحياة بدماء الأبرياء، وينتشر الفساد في الأرض..

ومن رحمة الله بعباده هذا التدافع، أن يُدفع الشر بالخير، والظلم بالعدل، والباطل بالحق، والفساد بالإصلاح.. وإلا فسدت الأرض كلها، وهذا من يجب أن يكون في حس المسلم.. إنه في حالة دائمة من "التدافع" والمقاومة على كل المستويات، ولا يستسلم أبداً للباطل وأهله، فهو إما في مرحلة "الاستعداد والإعداد" أو في مرحلة "التدافع والمواجهة".

والباطل دوماً هو من يبدأ بالعدوان.. ولا يطيق أن يرى للحق أي وجود – ولو معنوي – أمامه، ويحشد كل قوة للقضاء على الحق، ولا يستطيع أن يقبل الحق ليعيش ولو مسالماً منزوياً بعيداً!! إذن، لا بد من المواجهة، ولا بد من التدافع.. دونما اعتبار لانتفاش الباطل، ولا بهرجته، ولا زينته، فالحق يحمل أصالة في ذاته، وقوة في ذاته، وجمالاً لا يحتاج إلى أباطيل الباطل، فكان التدافع سُنة لا بد منها لبقاء الحق على ظهر الحياة؛ ولهذا كان "الجهاد في سبيل الله".

وفي نهاية الدرس.. إنها آيات الله جَلَّجَلَالُهُ تُتلى على نبينا، وإنها للحق الخالص المطلق المبين: {تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق، وإنك لمن المرسلين}

فيا له من فضل ونعمة ومنة وعطاء وحب ورعاية من جناب الله العلي العظيم الجليل أن يتولانا برعايته؛ فيتلوا علينا من هذه الدروس والعبر، ومن تاريخ الأمم السابقة؛ لتتعظ هذه الأمة المسلمة، ولتذكر نعمة تلاوة الآيات، ونعمة إرسال الرسول الخاتم، والذي يُعلّمه الله جَلَّجَلَالُهُ تاريخ الرسالات قبله؛ لتكون زاداً للأمة المسلمة، ومعلماً على الطريق.

وهكذا تعرضت الآيات الكريمات لموضوعات: (الجهاد، المُلك، رد فعل العبيد تجاه الجهاد، نظرة المؤمن للقوة المادية بعد استفراغ الوسع، سنة التدافع بين الحق والباطل) كل هذا في ست آيات! وهذا هو إعجاز القرآن الكريم في معانيه ودروسه وعبره.

***

وفي الآيات ارتباط بين الجهاد والمُلك.. وذكر المُلك في معرض الحديث عن الجهاد له دلالة خطيرة، نتوقف عندها لمزيد من التفصيل.

لقد وقفت "شهوة المُلك" حائلاً أمام هؤلاء العبيد للاستجابة لكرم الله لهم..

فما هي طبيعة هذه الشهوة، وما هي خطورة حظ النفس من "الرياسة والسلطان"، ولماذا تؤدي إلى الانحراف عن صراط الله المستقيم؟!

أقوى رغبة في الإنسان على الإطلاق هي: الخلود والتملك (أن يكون له من الملك ما يشاء) ومن هنا أدرك إبليس اللعين ثغرة الضعف البشري على الإطلاق، فلما وسوس لأبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليعصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120] رغم أن الله جَلَّ جَلَالُهُ قال له: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة (35)]. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه (118)]. ولم يقل الله جَلَّ جَلَالُهُ له أنه سيحرمه من المُلك أو الخلود، ولكن وساوس الشيطان، وإدراكه لثغرة النفس الإنسانية أوقعت آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المعصية، فكان هذا هو ابتلاء "الإرادة والصبر على الامتناع والفتنة"، والإنسانية كلها تدور في هذا الابتلاء الذي ابتلي به أبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول مرة..

ولما نزل آدم الأرض.. ضاعت فكرة الخلود على الأرض بالموت، فذبح الموت "شهوة الخلود"، وأصبح الخلود في الآخرة فقط بعد أن يتميز الناس: فريق في الجنة، وفريق في السعير. وبقيت "رغبة التملك" مع الإنسان طوال رحلته على الأرض.. لا تتوقف عند حد! وهي: أساس الضعف البشري كله، ومن أجل المُلك تُرتكب كل الآثام والموبقات، وفي النهاية لن يملك الإنسان شيئاً، فالملك كله لله، وكله راجع إلى الله في أوله، وفي منتهاه.. والإنسان بينهما مُمْتحن ومُبتلى!

وإن الملك الحقيقي لابد وأن يرتبط بشكل أساسي بالخلود، وإلا فلا ملك! وانتفاء الخلود في الدنيا يجعل من كل ملك فيها.. مجرد صورة ظاهرية مؤقتة. فإذا استقر الملك – في الدنيا – فسيفنى الإنسان ذاته، ويبقى الملك لله جَلَّ جَلَالُهُ وحده بلا شريك.

يُولد الإنسان ولديه هذه الرغبة الفطرية، تجدها حتى في الطفل الرضيع، وهو يتعلق بأشياء ليس لها قيمة، ويحسبها خالصة له، ويكون لديه شهوة الحصول على الأشياء، ورغبة التملك فيها لدى الغير!

كغيرته الشديدة من الطفل القادم بعده، وحرصه على الرضاعة وإبعاد الرضيع الجديد ولو كان هو قد فطم! وربما كانت الحكمة الإلهية من تكوين الإنسان على هذه الصورة أن تستمر الحياة، ويتفاعل الإنسان معها، ولا يبقى قعيداً لا حركة فيه ولا حياة..

يأتي التوجيه التربوي الأسري - ومنذ اللحظات الأولى - من عمر الطفل ليراقب نزعات الطفل وتوجهاته.. فيعمل على تهذيب رغبة التملك لتبقى في إطارها الصحيح، الذي يؤدي به الإنسان خلافته على الأرض، فيعمل التوجيه الأسري والتربوي على تخفيف تمحور الطفل حول ذاته، ومحاولة الخروج التدريجي من الدوران حول الذات، ومن ضبط شهوة التملك التي لا تنتهي عند حد! ويأتي ذلك من عدم الاستجابة لكل رغبات الطفل في الحصول على الأشياء، ومن دعوته لمشاركة إخوته فيما يملك، ودفعه إلى بذل الهدايا والعطايا من الأشياء التي تخصه، ودفعه كذلك لأن يعطي من ماله "مصروفه" للفقراء، وأن يعطهم بنفسه عن طيب خاطر، وأن يُدفع الطفل لمشاركة الأطفال حوله في الألعاب والأعمال الجماعية، والمشاركات التطوعية.. التي - مع الوقت - تخفف من حدة البقاء داخل الذات، والاكتفاء بالذات، وعدم رؤية شيء غير الذات!

وإذا كان الأمر كذلك منذ الطفولة، فإن الأمر يشتد في الصبا والشباب.. وكذلك يقوى معه التوجيه التعليمي والتربوي، نحو دور الإنسان على الأرض، ومعنى الرسالة، وكيفية قيام الإنسان بها.. الأمر الذي مع التربية الصحيحة يُخرج "الإنسان الرسالي" الذي يكون بالفعل:

- قد خرج من ذاته، إلى العالم من حوله.
- أن تكون نفسه اتسعت لرؤية الحياة من كافة أبعادها.
- أن يكون لديه القدرة على احتواء الآخرين، والكون من حوله.
- أن يعمل للرسالة لا ينتظر منها حظاً مادياً أو معنوياً.. لا شيء سوى رضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعند الوصول إلى هذه النقطة تكون التربية قد أدت مهمتها بنجاح، وضبطت سلوك الإنسان، وطاقاته، ومشاعره، في الاتجاه الصحيح.

ويكفي أن نعرف أن بقاء الدوران حول الذات.. جعل إبليس اللعين - وهو في حضرة المقام العلوي الإلهي في ملكوت الله الواسع - لا ينظر إلى "الأمر الإلهي" بل نظر إلى "ذاته" وخيريته عن المأمور له بالسجود.. آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وبها استحق اللعن إلى يوم الدين، والخلود في جهنم!

ولما تغيب التربية الصحيحة من هذا المنظور والتصور.. ويكون التوجيه الأسري والتربوي والنظم التعليمية لا تنتبه لذلك، بل ترسخ "شهوة التملك" التي ترسخ الالتصاق بالذات، والتمحور حولها.. يتضاعف التأثير السلبي لشهوة هي بالأصل أقوى رغبة في الإنسان، وترسيخها بدلاً عن تهذيبها يُعقد شخصية الإنسان بصورة يصعب أو يطول علاجها.. فيخرج إلى الحياة "الإنسان الذاتي" الذي:

- التصق بذاته، وأصبحت هي محور حياته ووجوده.
- ضاقت عليه نفسه، ولم يعد هناك مساحة للأخرين إلا في إطار حب التملك.
- لا ينظر للأخرين إلا في إطار المصلحة، وما يخدم ذاته.. سواء أشياء مادية أو معنوية.
- يبحث عن حظه المادي والمعنوي الآني، في كل حركة، وسلوك.
- يُقيّم "الحق" من منظور الذات، وما ينفعها ويضرها: فما ينفعها - وبصورة ظاهرية محدودة - هو الحق، وما يضرها - وبصورة ظاهرية محدودة - هو الباطل!
- القدرة على "التبرير" اللامحدود واللامقطوع للذات.
- وأخيراً: يصبح غير مؤهل لحمل "الرسالة" لأن الرسالة تتطلب التمحور والدوران حولها.

ومن هنا يبدو أن نشأة التعصب تبدأ من مرحلة مبكرة من عمر الإنسان، وقبل التعرف على "الأفكار والأيدولوجيات المختلفة" وأن التعصب يبدأ أولاً: بحب التملك ثم الالتصاق بالذات ثم

ينشأ الإنسان المتعصب لذاته. ويبدو كذلك أن كل من لم يترب "التربية الرسالية" التي تهذب شهوة التملك، وتوجه الإنسان نحو الرسالة.. إنسان معرض للانزلاق إلى "التعصب"، ويكون غياب التربية الرسالية دالاً على أن محيط البيئة الاجتماعية ما هو إلا ساحات من التعصب الذاتي، وساحات من التنافر، والتحاسد، والتباغض..

وينشأ "الحسد والبغضاء" كنتيجة طبيعة لجنوح "شهوة التملك" فالناس ستظل في تفاوت فيما تملك، ومن لا يملك سيحسد من يملك، وينشأ التنافر، والحروب بين الذوات المختلفة..

تبدأ الحرب بالحسد وتنتهي بالقتل، ولم يكن غريباً كذلك أن يكون ذنب البشرية التالي سببه "الحسد" الذي أدى لقتل الأخ لأخيه! – ولذلك قيل: الحسد أول جريمة ظهرت في الأرض – بعد أن وقع ذنبها الأول بسبب التملك! ولم يكن غريباً كذلك أن يكون من أكبر ذنوب البشرية بعدها.. رفض الهداية حال معاينة الهلاك هو: "الكِبر"! وسببه "التعصب للذات" عندما رفض الابن يد أبيه الرسول، وهي ممدودة له بالنجاة.. بينما هو يقول: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43] ويا للعجب! إنها لحظة الهلاك، ومازال يُكابر.. وهكذا تنتفخ الذات وتنتفش وتتورم حتى تُهلك صاحبها!

إذن، الأمر ليس بهين، ولا بسيط.. ومروراً بالمجازر الوحشية، والحروب المدمرة في تاريخ البشرية.. سنجد "التملك والتعصب والحسد والكبْر" أحد أهم البواعث والدوافع النفسية التي تؤدي لهذا الدمار الهائل!

وهكذا نجد التعارض الشديد بين طلب "المُلك والرياسة والسلطان"، وبين "الجهاد في سبيل الله"، فهما سبيلان لا يلتقيان أبدا، ومن الحكمة البالغة أن يستعرض القرآن الكريم هذه الآيات بهذا النسق والترتيب، في أثناء حث الأمة المسلمة في بداية طريقها على الجهاد بالنفس والمال، وسيتبين لنا – بعد ذلك – ما سيحدث عندما يتضخم طلب المُلك في نفوس البعض، وكيف يضطرب طريق الجهاد في سبيل الله بسبب هذه الشهوة.

وفي الأمة المسلمة:

جاءت مقاصد الشريعة بالنسبة **(للإنسان)** هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والعِرض، والمال.

وجاءت مقاصد الشريعة بالنسبة **(للمجتمع)** هي: المساواة بين الناس، إبطال العادات الجاهلية والطبقية والقبلية والقومية، وإشاعة روح الأخوة، والتماسك الاجتماعي كالجسد الواحد، والحيوية والفاعلية الاجتماعية، والحفاظ على حرية الإنسان وكرامته.

وجاءت مقاصد الشريعة بالنسبة **(للدولة)** هي: إقامة الحق والعدل الرباني، وتحقيق الشورى، والتحاكم إلى الشرع، وإعداد القوة، وتحقيق الحكم الراشد.

وجاءت مقاصد الشريعة بالنسبة **(للرسالة)** هي: حمل رسالة الله إلى العالمين، وتحقيق الحرية لكل الناس، والجهاد في سبيل الله – لتحطيم قوى الباطل التي تحارب الرسالة، وتعتدي عليها، وتُفسد في الأرض –، والسيادة العالمية للإسلام.

فالأمة المسلمة منذ أخرجها الله للناس هي أمة مجاهدة.. أو هي في حالة من الجهاد الدائم، فهي إما تدفع هجوم العدو عليها، وهذا أمر لا يحتاج إلى كبير بيان.. سوى القول بأن رد هذا الهجوم "جهاد الدفع" لا بد وأن يكون حاضراً فيه معنى "القتال في سبيل الله" كغاية أولى أولية، قبل أن يكون حمية أو انتقام أو رد اعتبار أو ثأر.. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام (162)].

وأما الجهاد من أجل حمل الرسالة أو ما يُسمى "جهاد الطلب" – أي طلب العدو – فقد ثار حوله لغط شديد – بفعل التأثر بالفكر الغربي! والتشويش على الإسلام بأنه انتشر بحد السيف، ونقول: إن هذا الجهاد ضرورة واقعية لا مفر منها لأسباب:

الأول: إن الصراع بين الحق والباطل لا بد وأن يحدث فيه هذا الصدام، وإن الباطل هو من يبدأ بالعدوان، ولن يطيق أن يقبل بالحق أو يتعايش معه، فيكون الحق في حالة استنفار دائم، وقمع لقوى الباطل وسيطرة عليها، واستباق وطلب لها، وكذلك في حالة دائمة لإعداد القوة المناسبة لإرهاب

العدو، وعدونا يفعل ذلك ويسميه بـ"الحرب الاستباقية"، والتاريخ القديم والمعاصر خير شاهد على ذلك.

الثاني: إن "سنة التدافع" بين الحق والباطل قائمة إلى يوم الدين.. والمقصود ليس هو المفهوم الغربي لـ "صراع الحضارات" أو "الصراع على الموارد" فالجهاد يستهدف الخير للبشرية، وتحقيق الحق والعدل الرباني لها.. وليس له علاقة بمفهوم "الاحتلال أو الاستعمار" وقهر الشعوب، وسرقة ثرواتها، وإبادة رجالها، وإفساد حكمها، وتخريب حضارتها.. مثلما فعل "الاحتلال الغربي" – مع الهنود الحمر، والسكان الأصليين، وفي تدافعه مع المسلمين كذلك – قديماً، وحديثاً مثلما يفعل مع الأمة المسلمة والشعوب المقهورة.

الثالث: إن الأصل في هذا الجهاد هو البدء أولاً بالدعوة والبيان بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، فالجهاد لم يُفرض لعين القتال، بل للدعوة إلى الإسلام، والتمكين للدعوة، ثم بعد البيان "لا إكراه في الدين".

الرابع: إن من صميم مقاصد الشريعة الإسلامية هو تحقيق الحرية للناس، وفك الآصار والأغلال التي عليها، وبيان رسالة الله إليهم، وهو ليس مجرد بيان نظري، يؤمن فيه البعض على تخوف وفتنة وعذاب من أهل الباطل، بل إنه يحطم القوى التي تقف في وجه دعوة الإسلام، وتعتدي على أهله، وتبغي الفساد في الأرض، ومتى استسلمت هذه القوى، فالإسلام يرفع يده عنها، ويطلق الناس كرماء أحرار في اختيار الدين والعقيدة التي يشاؤون.

الخامس: إن الإسلام رسالة عالمية، يجب أن يكون له القوة والسيادة على الأرض، ولا يتحقق ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله، ويجب أن يكون هو الحمى والحَكم والشاهد على البشرية، بما يحمله من رسالة، وبما يحققه من عدل، وبما يحكم به من شرع الله الذي جاء للناس كلهم.

السادس: إن جهاد الطلب يستهدف بالأساس إزالة القوة المحاربة المعتدية التي تقف في وجه الدعوة، تمنع إظهار دين الله.. أو القوة التي تفتن المسلمين عن دينهم في أي مكان كانوا، أو تعتدي

عليهم، ولا يتعرض للمسالمين غير المحاربين أثناء هذا الجهاد، فإنما شُرّع الجهاد من أجل إقامة الحق والعدل لكل الناس، وحماية المسلمين، والمسالمين.. وليس مشروعية القتال فيه إلا للعدوان والإفساد في الأرض.

فالإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه، لأنه دين الحرية، ويريد للناس أن تدخل فيه وهي مُدركة لرسالته ومنهجه، وما يُحدثه من تحول في القلوب والعقول والأرواح.. عندما تعرف النفس ربها حق المعرفة، وتدرك ألوهيته وربوبيته حق الإدراك، حتى إذا أسلمت.. أسلمت نفسها كاملة لله.. أسلمت روحها وقلبها.. أسلمت جوارحها وحياتها كلها لله، فلم تَعد بعدُ تريد شيئاً في هذه الحياة سوى رضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وابتغاء مرضاته وغفرانه.. ثم تنطلق بعد هذا الإسلام تحقق الخلافة الربانية على الأرض بمنهج الله، وتُعمّر الأرض تحت شريعة الله، وهي لا تنتظر أي عِوض في تلك الحياة القصيرة الفانية، إنما تنتظر الجزاء في الآخرة.. عندما تلقى ربها، وتفرح بلقائه.

ومتى تركت الأمة الجهاد في سبيل الله ذلت، ومتى ركنت إلى الحياة الدنيا أُهينت، وتكالب العدو عليها، وجاءت الآيات والتحذيرات النبوية في هذا الجانب كثيرة:

قال جَلَّجَلَالُهُ: {﴿لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88]

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: 10، 11]

وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّه بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 39]

وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة (216)]

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ"** [المعجم الأوسط للطبراني / 3839]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **" إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"** [سنن أبي داود / 3462]

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا "، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: " أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ "، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: " حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ "** [مسند أحمد / 21890]

وعَنْ عُمَرَ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ قَبْضٌ مِنَ النَّاسِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ؟ فَقَالَ: **"الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى تَأْتِيَهُ دَعْوَةُ اللَّهِ وَهُوَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ وَآخِذٌ بِعِنَانِهِ "**، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: **"وَامْرُؤٌ بِنَاحِيَةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ "**، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: **" الْمُشْرِكُ "**، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: **" إِمَامٌ جَائِرٌ يَجُورُ عَنِ الْحَقِّ، وَقَدْ مُكِّنَ لَهُ "** [مسند أبي دواود/36]

وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا، فَقَالَ: **" مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"** [صحيح البخاري/123]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"لا أَجْرَ لَهُ"**. فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ، قَالَ: فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قَالَ: "**لا أَجْرَ لَهُ**". فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ: رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قَالَ: "**لا أَجْرَ لَهُ**" [صحيح ابن حبان/4637، (الحكم على المتن: صحيح لغيره)]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: أَرَأَيْت رَجُلا غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ: **لا شَيْءَ لَهُ**، فَأَعَادَهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِوَسَلَّمَ: **لا شَيْءَ لَهُ**، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**" [السنن الكبرى للنسائي/4331، (الحكم على المتن: حسن)]

فهذا الجهاد يستهدف ابتداء الذين يقاتلوننا في الدين، ويخرجوننا من ديارنا، ويظاهرون علينا الأعداء، ومع غير هذه الفئات فهو يدعو إلى "البر والقسط" مع الناس.. كل الناس، فهو رسالة سلام عالمية ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]

وهو كذلك لا يتوقف عند مرحلة الدفع - كما سبق البيان - ولا ينكمش على نفسه، ويقبع في أرضه.. إنما يحمل رسالة خير ورحمة وحق وعدل لكل الإنسانية، ويجب تبليغ هذه الرسالة لكل إنسان على وجه الأرض، وهو يدعو إليها بالحجة والبيان والدليل والبرهان، فإن وقفت قوة في وجه هذه الدعوة، تمنع من نشرها، ومن تعريف الناس بها، وتعتدي على المؤمنين والمسالمين، وتريد نشر الفساد في الأرض، والعلو فيها بغير الحق.. فهذا هو الشر المستطير.. فهي رسالة أثقل من ملء الأرض ذهباً، وعندها لا بد من الجهاد لمواجهة هذه القوة التي تقف في وجه الحق، وبعد الانتصار عليها - بإذن الله - أيضاً لا إكراه في الدين، وللناس حرية ما تعتقد.. لكن يجب أن يظل طريق الدعوة إلى الله مفتوح، ورسالته مرفوعة، ومحفوظة، وآمنة.. فالجهاد في سبيل الله، ليس من أجل

متاع الدنيا، ولا اغتصاب الثروات، ولا احتلال الأرض، ولا إبادة الناس، ولا إذلالهم. والمسلم لا يجاهد من أجل متاع، أو فيء، أو غنيمة.. بل يجاهد – فقط لا غير – لتكون كلمة الله هي العليا.. وهي كلمة الحق والعدل.[1]

هذا باختصار هو التصور الإسلامي عن الجهاد، وسنُسهب في هذا الموضوع – قليلاً – لأهميته:

في عهد الخلافة الراشدة كان هذا التصور مستقياً في نفوس الخلفاء والمسلمين.. وكان الجهاد مجرداً لوجه الله الكريم، ليس من أجل زيادة رقعة أرض، أو طلب الغنيمة، أو الشرف.. بل كما قال ربعي بن عامر عندما سأله عظيم الفرس: "مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ". [تاريخ الطبري/ج3، ص 260]

ثم بدأت فتنة المُلك والرياسة والسلطان – في المرحلة الأخيرة من الخلافة الراشدة – ولقد كان عجباً وإعجازاً أن يكون توجيه القرآن المدني – في البدايات الأولى – لـ "الحث على الجهاد بالمال والنفس" أن يأتي مقروناً بقصة بني إسرائيل مع الجهاد، وطلبها لـ "المُلك والسلطان"..

لقد قضت فتنة المُلك على "الخلافة الراشدة" وأُعمل السيف في المسلمين بسببها، واُغتصب فيها حق الأمة في الشورى، وضاع فيها حقها في الرقابة والمحاسبة على "سياسة المال والحكم" وفقدت – بالتدريج –فاعليتها، وانفصل فيها السلطان عن الكتاب، فوقعت الفتنة والخلاف بين المسلمين!

فكان "المُلك العضوض" الذي يعض على الحكم والسلطان، ولا يتنازل عنه إلا ببحور من الدماء! أو بهجوم عدو خارجي يستبيح كل شيء!

وجاءت إشارات نبوية تُشير وتحذر من وقوع ذلك:

---

(1) راجع – إن شئت – بحث: عقيدتنا الجهادية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٓآلِهِوَسَلَّمَ: "**إِنَّ هَلَاكَ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ سُفَهَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ**" [صحيح البخاري/ 3359، مسند أحمد/7672]

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٓآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: "**أَوَّلُ مَنْ يُبَدِّلُ سُنَّتِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ**" [مصنف ابن أبي الشيبة/ 36888]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٓآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: "**أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ** "، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: " **أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي** " [مسند أحمد / 14032]

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٓآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**" [مسند أحمد / 21655]

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٓآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: " **خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً فِي الدِّينِ فَلا تَأْخُذُوهُ، وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ، يَمْنَعُكُمُ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ، أَلا إِنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ** "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: "**كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ** " [المعجم الكبير للطبراني / 172]

ومع ذلك بقي للأمة عموماً – في هذه الفترة - وحدتها السياسية، وقوتها الذاتية، وهويتها المستقيمة السليمة، وسهولة عودتها للراشد عندما تغير ما بأنفسها.

وقفزة فوق هذا الواقع التاريخي إلى واقعنا المعاصر وواقع الجهاد الحالي:

فبعد سقوط الدولة العثمانية - وانهيار الوحدة السياسية للمسلمين - وتكالب الاحتلال الغربي والصهيوني والشيوعي (أهل الكتاب والمشركين) على الأمة من كل جانب؛ بعد تفشي عوامل التحلل والتفسخ والمرض الداخلي، واجهت الأمة أصعب مراحلها وهي "الملك الجبري والطواغيت" المُلك المجبور بقوى أعداء الأمة التاريخيين، والطواغيت التي نبذت كتاب الله وراء ظهورها، وتحاكمت إلى الباطل والفساد والظلم..

احتارت الأمة أي الطرق تسلك: هل هو طريق الدعوة أم طريق التربية أم طريق السياسة أم طريق الجهاد؟ وجربت كل شيء، ولكنها لم تنجح بعد في الفكاك من إطباق العدو عليها، ومن هذا الاحتلال الذي يحيط بها من كل جانب..

ولقد كانت أمراض الأمة الداخلية، هي العدو الحقيقي - مهما بلغت سطوة وقوة العدو الخارجي - لأن الأمة ضيعت طوال المائة عام - منذ سقوط الخلافة - فرصاً تاريخية كانت تؤهلها للعودة كما كانت للسيادة من جديد.

وكانت أمراض العقول والقلوب بداخلنا هي أعدى أعداء الأمة، ومنها "أمراض الاستبداد"، ولهذا كتبت هذا الكتاب عله يكون - بإذن الله - خطوة على طريق العلاج والفلاح.

وفشلت الأمة في توحيد إطارها الفكري والنظري والعملي، وتفرقت شيعاً وأحزاباً؛ يلعن بعضها بعضاً، ويُكفر بعضها بعضاً، والبأس بينها شديد، في حين توحد العدو عليها، وضربها العدو عن قوس واحدة.. أياً كان الاتجاه الفكري والحركي سواء أكان مداهناً أو مواجهاً.. مسالماً أو مقاتلاً!

فانطلق اتجاه يطلب التغيير وسيادة الأمة من خلال الدعوة والسياسة، فكان له بدايات طيبة، وتأثيرات حسنة، والأمة - على ما فيها من أمراض فتاكة - تنفعل وتستجيب؛ فعاطفتها الدينية بفضل الله لا تموت، وتبقى جذوتها في القلوب وإن غشاها الرماد.. ثم بدأ الانحراف يدب بتولية من لا يملك "العلم والحكمة"، ومن يجهل حقيقة الصراع، وطبيعة المعركة، وأصل القضية، فتحول

الأمر من تغيير الواقع، إلى المشاركة فيه، والإسهام في حماية "الملك الجبري والطواغيت"؛ فتحول الأمر إلى طاحونة كبيرة تطحن الشباب والطاقات والأعمار والأجيال والثروات من أجل لا شيء، وفي النهاية الهزيمة والبوار!

وانطلق اتجاه آخر يطلب التغيير وسيادة الأمة من خلال الجهاد والقتال، فوصل إلى مرحلة الذروة والاقتراب من الهدف، وأخرج نماذج إيمانية تُذكرنا بجيل الصحابة! وقبل الخطوة الأخيرة يتم الانقلاب عليهم من قوى الباطل المتربصة، والذين كانوا في غفلة عنها.. بل وصل الأمر – في بعض المراحل التاريخية – إلى الحكم والإمارة، ولكن سرعان ما تهاوت، وسرعان من تم توظيف وجودهم – من قِبل العدو – لفترة معينة ولمصلحة للعدو.. ثم القضاء عليهم! فقد غلب على هذا الاتجاه فقدان "الفقه السياسي الإسلامي" وفقدان كيفية القدرة على الإدارة والتنظيم والحكم، وانتشر فيه "الغلو والتكفير" وما انتشر هذا المرض في مسيرة الجهاد إلا وفشل!

كما أن هذا الاتجاه لا يُبين للأمة كيفية الحكم الراشد، بل إنه يُقدس "الفقه السياسي للملك العضوض" ويؤصل للاستبداد، فتتوجس الأمة منهم.. وغاب في هذا الاتجاه عقلية "رجل الدولة"، وحضرت العقلية "الحزبية المتعصبة"، والجهل المطبق بالواقع السياسي، وغلبة العاطفة، وحِدة الطباع، واعتقاد الحق المطلق، والرعونة وعدم إدراك العواقب، والاعتداد بالذات، والتطرف في الرأي، والإرهاب الفكري، وإدمان منهج "الإدانة والحكم" دون منهج "التحليل والتشخيص والعلاج"... إلخ.

فتكون بداية مسيرة الجهاد عظيمة كريمة كلها تضحيات وإخلاص، ثم تنتهي بالقتال والصراع على "الملك والرياسة والسلطان"، وفقدت الأمة فرصاً عظيمة بسبب "الفرقة، والعجز عن إدارة الاختلاف، وعدم التسامح"، وبسبب "الصراع على المُلك"، وتظاهروا – كما فعلت يهود – بالعدو على أنفسهم، وأخرج بعضهم بعضاً من دياره، وقتل بعضهم بعضاً.

كما وُجدت عقلية على استعداد تام لهدم كافة الفرص، وتحطيم كافة المشروعات.. من أجل الخلاف على فتوى فقهية! ومستعدة للتضحية بكل شيء من أجل الانتصار لخلاف فقهي!! معتبرة إياه قضية عقيدة وإيمان و"حق مطلق" لا تنازل عنه طرفة عين، وحضرت عقلية تختزل الأمة كلها في "حزب"، وتختزل الحزب في شخص القائد.. وتعيش في عالم من الأوهام، ويرى العقلاء هلاكها بتصرفاتها هذه، بينما هي تظن في نفسها أنها على بُعد خطوات من النصر.

إن الجهاد قبل علاج أمراض الاستبداد، ينذر بكارثة في نهاية مسيرة الجهاد، وفي نفس الوقت الجهاد الحق يعالج أمراض الاستبداد.

إن الجهاد في وجود فتنة المُلك، ينذر بالقاتل عليه عند النصر.

ولهذا جاء القرآن الكريم يحذر من فتنة المُلك، في معرض الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وفتنة المُلك والرياسة هي آخر ما يخرج من قلوب الصالحين:

عن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ** " [مسند أحمد/ 15367] وفي رواية أخرى: " "**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ رَاعِيهَا، أَحَدُهُمَا فِي أَوَّلِهَا، وَالآخَرُ فِي آخِرِهَا أَشَدَّ فِيهَا فَسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْغِنَى** " [شعب الإيمان للبيهقي/ 10273] والشرف: يعني الرئاسة والجاه والسلطان.

فيجب عند التغيير أو الجهاد أو أي عمل يستهدف صلاح هذه الأمة، وسيادة هذا الدين أن يكون صاحبه طاهر القلب نقي النفس من كل خط من ملك أو رياسة أو سلطان، وإنه لشهوة خفية أحياناً – وبارزة أحياناً أخرى – تأتي للإنسان لتقول له: "إنك الأصلح" ومن أفضل منك؟! وتغذي فيه الشعور بالذات، حتى تنتفش الشهوة، ومتى انتفشت هذه الشهوة.. يتحول الإنسان إلى "وحش مسعور" يمكن له أن يقتل أهله وبنيه وإخوته من أجل المُلك، ويُسوغ له التحالف مع العدو لقتل المسلمين، ويبرر له قتل المسلمين بـ "حيل فقهية" – حتى يخدع الجماهير أو لا يشعر بوخز الضمير! – فهو الأمير الشرعي الذي يعني الخروج عليه، خروج على سلطان الإسلام ودولته!

ونقرر أن "الجهاد في سبيل الله" هو سُنة "الوجود الإسلامي" وهو شرط تحرير الأمة وسيادتها من جديد.. وهذا الجهاد لا يصح أن يغيب فيه الدعوة والتربية والسياسة الحكيمة الشرعية، ولا يصح فيه أبداً توجيه السلاح لـ "الأمة" مهما بلغت الخلافات، ويجب أن يتم فيه وأد أي نبتة من "غلو أو شطط في التكفير" لأنه لن يكون خلافاً نظرياً بل بحوراً من الدماء تحطم كوادر الأمة؛ وتُرجعها عشرات السنين للوراء، وتحطم كافة مشروعاتها الحالية، وربما المستقبلية، وتحطم صورة الجهاد وقدرته على التغيير، وتُعجل بالاستسلام للطواغيت والمحتلين..

هذا غير تحويل مسار الجهاد إلى:

- الاستدراج السياسي لخداع المسلمين،
- أو الاختراق؛ لقتل الكوادر العاقلة والحكيمة وتصعيد السفهاء والجهلاء وأصحاب المصالح الخاصة،
- أو تصعيد أشخاص للقيادة تم اختراقهم أمنياً أو فكرياً،
- أو تحويل مسار الجهاد إلى معارك صغيرة جانبية.. وما أكثرها!
- أو تشويه صورة الجهاد، وتوظيف المسار الجهادي لخدمة مصالح العدو - أو العمل من خلال خطة العدو -،
- أو توسيع دائرة الصراع خارج نطاق القدرات المتاحة،
- أو صناعة بديل مزيف يُقاوم صورياً، يسعى للاستسلام ونشر الاستضعاف؛ ليُربك مسيرة الجهاد الحقيقي؛ فيتم الاختراق الأمني والفكري،
- أو سهولة إثارة الفتنة والقتال بين المكونات المختلفة فكرياً وعلمياً وفقهياً،
- أو تحويل المعركة ضد الأمة ذاتها بذريعة الردة، وهوس التكفير!
- أو العزلة عن الأمة وسوادها الأعظم،

- أو العزلة عن المخلصين من علمائها وأهل الرأي والفكر فيها،
- أو جعل الخلافات الفقهية والسياسية ميداناً للمفاصلة والتفرق،
- أو وجود فجوات كبيرة في العلم والقيادة بين القيادات والكوادر أو بين القيادات والجند،
- أو ينهار العمل أو ينحرف لموت القائد أو المؤسس،
- أو الظن بأن المرحلة الواقعية هي "نهاية التاريخ" و"أشراط الساعة"! والنصر سيتحقق تباعاً بطريقة سحرية غامضة الأسباب،
- أو الجهل بأساليب استخبارات العدو في الاختراق والعمل، أو عدم مقابلة العدو بوسائل المواجهة المكافئة لأدواته... إلخ.

ويجب الانتباه إلى الفرق بين "الحماسة" الزائدة للكثرة، وبين "الصبر على الابتلاء" الذي لا يصمد له إلا القلة.. حتى لا تُصدم القيادة في "مستوى الاستجابة"، فتكون من الوعي والإدراك بطبيعة النفوس، وما لديها حقاً من قوة ورجال، وتخطط على هذا الأساس، مع حسن التوكل على الله، وطلب القوة والنصر منه وحده.

ويجب أن يتولى فيه القيادة فقط "أهل العلم والحكمة" كما بيّن القرآن الكريم، وأهل العلم والحكمة ليسوا هم من يحفظ كتب التراث والسلف فحسب، بل إن أهل العلم والحكمة المقصود به: أصحاب العلم المناسب لطبيعة المواجهة، ومستوى التحديات.. وهو علم متنوع يحضر فيه: العلم العسكري، والسياسي، والفقهي، والشرعي، والاجتماعي، والنفسي، والتاريخي، والسنني، والتقني، والفكري، والسلوكي، والتخطيطي، والإبداعي، والثقافي، والإعلامي، والإداري... إلخ.

فالأمر ليس لـ "السفهاء ولا للدراويش ولا مدعي العلم ولا لحاصري العلم في بعض كتب التراث"، فإن تولية هؤلاء في مثل هذه الأمور، جعلهم كذلك طاحونة كبيرة تطحن الدماء وخيرة الشباب والثروات والأموال والفرص من أجل لا شيء، وفي النهاية الهزيمة والبوار!

ونقرر كذلك إن العقلية النمطية في الجهاد، وغياب القدرة على التخطيط المستقبلي، وغياب روح النقد والتصحيح، وغياب روح الإدارة والتنظيم، وغياب المشروعات والقدرة على إدراتها، وحضور التعصب والحمية الجاهلية.. جعل مسيرة الجهاد متعسرة، وبطيئة، وقليلة التأثير والانتاج.. وحضر في العقلية النمطية الجهادية "المسدس والدبابة" وغاب "العلم والمعرفة"!

وإننا نعاني من فجوة كبيرة أمام الغرب في المعرفة، والغرب متفوق علينا ليس فقط في العلوم التقنية بل حتى في العلوم الفكرية، والنفسية، والسياسية، والاجتماعية، والتخطيطية، والتنظيمية، والإدارية، والمعلوماتية.. الأمر الذي لا يشغل بالنا ابتداء، فضلاً على المنافسة والتفوق فيه!

ولكننا نجد كذلك ثغرات كثيرة في بنية النظام الدولي – المحتل لنا –، ونجد كذلك طاقات إبداعية في الأمة، تتفوق – رغم التخلف والفقر – على نظيرتها في الغرب، ويكاد لا ينقصنا شيء.. فالمال والرجال والشباب والطاقات موجودة، ولكن نعجز عن خطاب الأمة، ونعجز عن فهم الأمة، ونعجز عن التأدب معها، ونعجز عن الصبر عليها، ونعجز عن إدارة الموارد، ونعجز عن التكامل بين هذه الطاقات، ونعجز عن الاستمرار، ونعجز عن التخطيط لمراحل بعيدة، ونحطم بسفهنا وجهلنا كل هذه النِعم، وكل تلك الفرص.

وما أن نملك شيئاً من القوة والبأس إلا وخرجنا نتوعد العالم – المتربص بنا أصلاً – ونهدد البشرية بالويل والعذاب، فتجتمع علينا الخصوم، وتحشد لنا؛ حتى تحطم قدراتنا، والجيل الذي صنع هذه القوة، وترجعنا إلى نقطة الصفر من جديد! ولم نملك بعد "الصبر الاستراتيجي" في تنفيذ الخطط، ولا نملك "فن" التفكير لخمسين سنة – مثلاً – والقدرة على إنهاء كيان لا يمكن هدمه، ولا يمكن اختراقه فكرياً أو أمنياً، ولا نستطيع الصبر على الجهاد دون الظهور أو استعلان السيطرة على بعض الأراضي؛ ومن ثم انكشاف جميع الخطط أمام العدو الحاقد المتربص، وجعلنا هدفاً ثابتاً محدداً له؛ يُلاقي عليه قوة ساحقة.

حضرت العقلية النمطية "المسدس والدبابة"، وغابت العقلية التي تُنشأ وتتبنى أجيالاً وشباباً يبحث في كيفية "اختراق بنية النظام الدولي"، والبحث عن البدائل والوسائل المكافئة لقوة العدو.. من خلال:

- أمن المعلومات والاختراق والحرب الإلكترونية.
- تطوير العلوم الفيزيائية، وغيرها.
- تطوير بعض الأسلحة النوعية المناسبة لمواجهة العدو وحماية الأمة.
- التبني التقني لبعض المشروعات وكيفية الحفاظ عليها.
- بناء القوة الإعلامية المؤثرة.
- الحرب الفكرية، والاقتصادية.
- استغلال الأزمات العالمية وصناعتها والتأثير فيها سلباً وإيجاباً لصالح الأمة، واغتنام الفرص الربانية.
- التجسس، ومكافحة التجسس المضاد.
- العمليات النوعية.
- بناء كيان اقتصادي لا يمكن كشفه أو السطو عليه.
- الحرب الاقتصادية، وحرب الأسواق.
- اختراق الأنظمة السياسية وصناعة القرار فيها، والكشف عن مواطن الضعف والقوة، واللحظة المناسبة والفارقة للتغيير.
- التشبع الفكري والإعلامي بالأفكار الصحيحة دون الظهور علناً.

- الحرب الفكرية، وتوظيف الأقلام والكُتاب لخدمة المشروعات دون ارتباطها تنظيمياً بأي جهة.

- إقامة خزانات التفكير، ومراكز التحليل والرصد والعصف الفكري. وتوظيف كافة طاقات الأمة مهما كان الخلاف.

- توظيف كافة الفرص المتاحة.

- تقليل مادة الشر في الأمة وعدم اليأس من دعوتها.

- عدم الظهور إلا في اللحظة الفارقة المناسبة... إلخ.

وإن هذه الطاقات بالفعل موجودة، بل وتهاجر إلى الغرب لتكون له ثروة وعضداً! ونحن لا نعبأ بها، ولا نعرف كيف نوظفها.. ونستعجل الشهادة والحور العين! بأفعال وتصرفات هوجاء عشوائية غير مدروسة؛ يتخذها العدو ذريعة للفتك والقتل، وفرصة لكشف الخطط وتحطيم الكوادر!

***

وهكذا نجد في هذه الآيات – وهذا الدرس – معاني عظيمة ودروس بليغة:

- فالجهاد سُنة الحياة، والوجود الإسلامي.. ولا مفر منه، والتدافع بين الحق والباطل قائم إلى يوم القيامة.
- فتنة المُلك تحطم ثمرة الجهاد.
- العلم والحكمة هما شرط القيادة والإمامة.
- علاج أمراض الاستبداد ضرورة قبل الجهاد.
- الجهاد فقط في "سبيل الله" وابتغاء وجه الله الكريم، بلا انتظار جزاء مادي، أو شكور معنوي، بل جهاد خالص تام ليس فيه خط نفس، ولا متاع، ولا رياسة، ولا ملك.. ومع هذا التجرد والإخلاص، لا يُترك الحكم للسفهاء أو أصحاب المصالح الشخصية، بل لا

يحكم ولا يُقود إلا أهل "العلم والحكمة" بالمفهوم الشامل والمتكامل للعلم الذي يقلل الأخطاء والتضحيات إلى أقصى درجة، ويصل إلى بر الأمان والتمكين.

وإذا تم النجاح في ابتلاء الجهاد، وتم التمكين، تأتي فتنة المُلك.. وهي فتنة يتلبس بها أفراد، وتُبتلى بها أمماً وشعوباً – ربما لمئات السنين – ويجب الانتباه في هذه الفتنة إلى عدة أمور:

الأول: إنها أقوى شهوة في الإنسان، وأكبر نقطة ضعف فيه، وإبليس اللعين – أول محلل نفسي للإنسان – أدرك هذا الضعف، ومنه دخل إلى أبينا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبذنبه خرج من الجنة، والإنسان منذ نزوله على الأرض، يتعرض لنفس فتنة آدم في الجنة، ويجب أن يكون هذا المعنى حاضراً من حيث الخطورة في أذهاننا.

الثاني: إن هذه الفتنة عندما يسقط فيها بعض أفراد، ويستبدون بأمة، فإن الأمة تكون في حالة من البلاء المستمر، وفي حالة من المعاناة بأمراض الاستبداد التي تتفرخ يوماً بعد يوم، وجيلاً بعد جيل.

الثالث: إن القضاء على هذه الفتنة – فتنة الاستبداد بالملك – يحدث فيها مجازر، وتحتار العقول في علاجها، فالسكوت عليها موت وعذاب، والمواجهة دون حكمة وقوة وخطة.. تعني بحوراً من الدماء والتضحيات.

الرابع: تفرّق الأمة بين مُشرعن للاستبداد والقهر والذل والبطش من أجل حماية شبق وشهوة المُلك لفرد وأسرته! وبين مُكفر للأمة لسكوتها على ذلك، وشعور القهر لابد وأن يُخرج صوراً شاذة من "الاستسلام الذليل"، ومن "التمرد العنيف" المعادي للأمة والمجتمع، وبين التخبط في التيه، وبين المداهنة.. وكلها صوراً تُحير أي أمة في طريق تحررها.

الخامس: وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ لفتنة المال والرياسة – جناحي الملك – بأنهما ذئبان جائعان انطلاقا في غنم بلا حماية! فهذه الفتنة هي وحش يفتك بأي أمة، ويجب ترويض هذا الوحش وكبح جماحه، وربط لجامه، وإخضاعه للرقابة والمحاسبة، وعدم جعل كل السلطات في يده.

وقديماً فتنة المُلك هذه جعلت بعضاً من "طلقاء مكة" يستبيحون مدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والبيت الحرام، ويقتلون أبناء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ويحطمون الخلافة الراشدة، ويقتلون الصحابة.. كل ذلك من أجل "المُلك"، وحديثاً جعلت هذه الفتنة "الرعاع السفهاء" يقتلون إخوانهم وأبناء عمومتهم، ويُبيدون شعوبهم، ويجعلون من أنفسهم أحذية لـ "المحتل المعتدي" ويسلّمون له الدين، والمال، والعِرض، والشرف، والوطن.. كل ذلك من أجل "المُلك".

وفتنة بهذه الخطورة يجب أن تكون مواجهتها منذ بدايتها حاسمة قاطعة.. بل الصحيح هو وأد أي وسيلة أو فكرة أو منهج يحاول إخراجها بأي صورة من الصور! وهنا تبرز أهمية وجود "الفقه السياسي الإسلامي الراشدي الصحيح" - الذي يحمي منظومة الحكم من فتنة المُلك، ويحقق الشفافية والمحاسبة والرقابة والفصل بين السلطات، وتحقيق الشورى... إلخ - وهذا الفقه يكاد لا يكون لنا فيه سلف، لأن البداية المبكرة لـ "الملك العضوض" ثم "الملك الجبري والطواغيت" وأدت مثل انتشار هذا الفقه وشيوعه.. وللعودة إلى "منهاج النبوة" وإلى "سبيل الرشاد" لا بد من وجود هذا الفقه الذي يحمي الأمة من فتنة المُلك هذه، والتي منها يخرج الدمار والأمراض التي تُهلك أي أمة نفسياً وعقلياً وروحياً وعلمياً.. كما رأينا في حال بني إسرائيل، وفي حال تاريخ هذه الأمة وحاضرها!

***

وقبل أن نغادر سورة البقرة، نتوقف عند أنواع النفوس التي وردت فيها إجمالاً:

أولاً: النفس التقية المؤمنة:

قال تعالى: ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

وبالمتقين المؤمنين افتتحت هذه السورة الكريمة، والتقوى شعور في القلب بمعية الله، وبخشية الله، وبرقابة الله، وبمراعاة جناب الله، وبحب الله، وبرجاء الله، وبالتسابق في الخيرات إلى الله، وبالإخلاص لله، وبالاستسلام لله جَلَّجَلَالُهُ، ولذلك فهم: يؤمنون بالغيب كله.. يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، يؤمنون بالله.. فهم في حالة دائمة من التقوى والشعور به، فالتقوى تؤدي إلى حقيقة الإيمان بالغيب الذي يرفع من كرامة الإنسان، وإدراك الإنسان، واهتمامات الإنسان، ويضبط مسار حياته.. ويجعل للإنسان قيمة أكبر من وجوده المادي المحدود. وهم يقيمون الصلاة.. هم في حالة من الاتصال الدائم بالله لا ينقطع، فهي غذاء القلب، ونسمات الروح، لا يطيق الإنسان الانقطاع عنها، حالة من الإقامة الدائمة لها؛ لتحمي الإنسان من تخطف الشياطين له؛ ولتحفظه من الضياع في تيه الحياة، إقامة شعورية ومعنوية وروحية وجسدية؛ لتكون هي محطة الانطلاق في خلافة الإنسان على الأرض، ومع الصلاة "الإنفاق" هكذا دون تحديد، إنه إنفاق من فكر أو مال أو صحة أو جهد أو حتى ابتسامة، إنفاق من أجل الله، ابتغاء مرضاة الله، إنفاق يتحرر فيه الإنسان من ذاته، ويتحرر فيه من المادة والتصاقه بها؛ لتزكو النفس، ويتطهر القلب.

وهم يؤمنون بهذا الكتاب فلا ريب فيه، ويؤمنون بما أُنزل من قبله.. فهو دين واحد، ورسالة ممتدة في شعب الزمان، يحملها موكب الأنبياء الكرام.. وهم على يقين بـ "اليوم الآخر" وهم يؤمنون بالغيب عموماً، لكن هذا الإبراز لـ "اليوم الآخر" يؤكد على "اليقين الجزام" والعمل الحثيث" و"الشوق الدائم" لهذا اليوم، والإعداد له.

وهؤلاء المتقون: المؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما زرقهم الله، ويؤمنون بالدين كله، ويوقنون بالآخرة.. هؤلاء على هدى من ربهم، وفي نور الله يسيرون، وبهديه مقتدون، وأولئك هم المفلحون.

هذه هي النفس المؤمنة التقية النقية.. الصافية المستقيمة.

***

ثانياً: النفس الكافرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّـهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

هذه هي النفس الكافرة المُعرضة التي لا تقبل موعظة، ولا تستمع إلى نذير، فهي لا تؤمن، ولا تريد الإيمان، وتتبجح بكفرها، وتصر عليه، وتعبد ما هي عليه، فهي مستمسكة به.. وبهذا الاستكبار والظلم والإعراض، ختم الله على قلوبهم - بما قدّمت أيديهم - وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة.. فكل أجهزة الاستقبال النفسي والروحي من: "قلب يعقل، وسمع يستقبل، وبصر يرى" مختوم عليها، وعليها غشاوة فلا تستقبل هدى، ولا تستجيب لإيمان، ولا تعقل الآيات.. فهي في ظلمات بعضها فوق بعض.. وهي لعهد الله ناقضة، ولما أمر الله به أن يُوصل قاطعة، وللفساد في الأرض صانعة، وهي على سُنة إبليس الذي استكبر وعاند، وأولئك لهم عذاب عظيم.

وهذه هي النفس الكافرة المُستكبرة المعرضة.. المظلمة الجامدة.

***

ثالثاً: النفس المنافقة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّـهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّـهُ مَرَضًا ۖ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّـهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّـهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّـهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

وهذه النفس تناولتها الآيات بمزيد من التفصيل، مقارنة بالأحوال الواضحة للنفس المؤمنة، والنفس الكافرة.. فهذه النفس فيها من الخفاء والالتواء ما يتطلب مزيداً من البيان:

فهي نفس تتقلب بين الإيمان والكفر، ويلتبس الناظر إليها أهي مؤمنة حقاً أم كافرة؟ فالنفس المؤمنة إيمانها ظاهر للحياة، معروف على الوجه، يظهر بين قسمات الروح، كأنها ريح طيبة، والنفس الكافرة متبجحة بكفرها، مستعلية بالباطل، لا يحتار أحد في معرفة حالها.. أما النفس المنافقة فهي تحير العقول، وتفسد المجتمع، وتفرّق الناس.. وتستعلي عليهم! وتظن في نفسها الذكاء والدهاء والقدرة على خداع البسطاء!

إنها تدعي الإيمان، وتمارس أفعال الكفر، فيحتار المسلم: أيقبل منها دعوى الإيمان؟ أم ينظر فقط إلى أفعال الكفر؟ وهذه النفس الخبيثة لا تصلح أن تكون لبنة في بنيان المجتمع الذي يشد بعضه بعضاً، بل هي عنصر إفساد وخراب.. فالذي خبث لا يخرج إلا نكدا.

إنها تجيد الادعاء بالإيمان، بل وتؤكد مثل المؤمنين على إيمانها باليوم الآخر، ولكنها ليست بمؤمنة.. فالإيمان باليوم الآخر لا بد وأن يكون إيماناً عملياً لا مجرد ادعاء نظرياً.. إيماناً فيه الشعور بالشوق إلى

الله، وبالوجل والخشية من الله، إيماناً يرتقي بالإنسان في هذه الحياة، ومن لم يشعر هذه المعاني فليس بمؤمن باليوم الآخر حقيقة الإيمان..

إنها مجرد دعوى لخداع الله والذين آمنوا! ولكن هؤلاء السفهاء إنما يخدعون أنفسهم، ويمكرون بأنفسهم، ويُهلكون أنفسهم، فهم الخاسرون من هذا الخداع والنفاق، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليم بأحوالهم، وما كان وما سيكون منهم، فلا يخدعه أحد جَلَّجَلَالُهُ، ويتفضل الله أن يجعل معيته – في هذه الآية – مع المؤمنين فيضمهم إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويأخذهم في كنفه.. وما يُوجه إليهم من مكر وخداع يُعتبر موجهاً إليه جَلَّجَلَالُهُ، وهذا تفضل عظيم من الله العظيم، والمؤمن كذلك لا ينخدع بهؤلاء المنافقين، فهو يتذوق معاني الإيمان، وبها يكشف زيف ادعاء هؤلاء.

وسبب هذا الادعاء وعدم الإيمان الخالص أو الكفر الخالص، هو "مرض القلوب" وفسادها فلا هي تستطيع أن تستقبل نور الإيمان لما فيها من أمراض ونجاسات، ولا هي قادرة على استعلان الكفر لما فيها من جبن وخسة ودناءة وخوف وتذبذب.. ولأنها لم ترجو الطهر والسمو، ولأنها تخادع وتُفسد؛ فزادها الله مرضاً فوق مرضها، فمن لم يعالج مرض قلبه، زادت عليه الأمراض، وهؤلاء المنافقون لهم عذاب أليم بما كذبوا على الله، وبما يخدعون به الناس، وبما يُفسدون به في الحياة، وبما يعتدون فيه على الإيمان بنفاقهم!

ولكن لكبرهم وعنادهم يتصورن أن فسادهم صلاحاً.. ويبررون لأنفسهم أفعال السوء والكذب، والاستعلاء على الناس، فالموازين مختلة في أيديهم، فلا إيمان ولا إخلاص ولا تجرد.. ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم. ومع الكبر والعناد والتبرير تتخدر النفس عن رؤية فسادها، أو المضي في طريق صلاحها.. فلا تشعر شيئاً، ولا تعلم شيئاً فلا تعرف أنها هي السفيهة، المنحرفة.

وفي محاولة دعوتهم للفلاح.. وفي محاولة التوفيق بين دعوى الإيمان، وبين العمل الحقيقي المستلزم لهذا الإيمان، وفي محاولة دعوتهم إلى "الإيمان الحقيقي" الذي يتوافق فيه القول والعمل، والباطن

والظاهر، والعقيدة والسلوك.. في محاولة دعوتهم إلى الإيمان كما آمن الناس بصدق، قالوا في استعلاء: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! استحقروا المؤمنين، وردوا الحق! ولكنهم هم السفهاء.. ولكن لا يشعرون، فهم في حالة من الخدر أنهم الأذكى والأعقل والأفهم، فهم يمسكون العصا من المنتصف! فإذا كان الجو العام يتطلب إيماناً فنحن مع أهل الإيمان، وإن كان يتطلب النفاق والكفر والظلم والعدوان فنحن أهل الكفر والعدوان.. ولن نخسر الإيمان!

وبهذا يحاولون خداع المؤمنين.. إذا لقوا الذين آمنوا، قالوا آمنا.. فما أسهل الكلام، وما أيسر الادعاء، وإذا خلوا إلى إخوانهم من شياطين الإنس، قالوا: إنا معكم.. إنما نحن مستهزئون بإيمان المؤمنين، وبما يكلفهم من مشقة وكد وعمل! إننا نستطيع أن نخدعهم بكل سهولة، أليست هي كلمة باللسان؟! فما أيسرها!

وهذا هو الجبن واللؤم والخسة، لا تقوى نفوسهم لا على الإيمان ولا على الكفر.. فما أحقرهم؟ يقولون آمنا: اتقاء مواجهة المؤمنين. ويقولون: كفرنا.. سيراً مع الكافرين وتوافقاً معهم، فيجدون فيهم سنداً وأنساً!

ولكن الحقيقة التي لا يدركها المنافقون.. أن الله هو الذي يستهزأ بهم، ويكشف أحوالهم، ويرد دعوتهم الكاذبة، والله يمدهم في هذا الطغيان والظلم – بكفرهم – فهو ظلمات عليهم، والكفر على أنفسهم، ويجعلهم في حالة من "التذبذب والتردد والحيرة والتمزق" فلا يستقيم لهم شعور، ولا يهنأ لهم بال.. وما أرعبه من تهديد وعذاب وحيرة وألم.

وهؤلاء هم أغبى الناس وأحقرهم.. لقد باعوا الهدى الذي بين أيديهم والمبذول لهم، والذي يجري ظاهراً على ألسنتهم.. باعوه بالضلالة والخداع والحيرة والعذاب، فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين..

ويضرب الله مثلاً لأحوال تلك النفس المنافقة: إنها كمثل رجل أشعل ناراً ليرى بها ما حوله.. فإذا النار قد انطفئت، وغاص في الظلام، فهو لا يبصر.. وهذا المثل البديع يصور الإيمان أنه نور.. وهو

بالفعل نور من الله يهدي به الله من اتبع "رضوانه" سبل السلام.. وهذا النور كان مبذولاً للمنافقين، فلم ينتفعوا به، وانطفأ بما في قلوبهم من أمراض، وبما فيها من كذب.. فذهب الله بهذا النور عنهم، فغرقوا في ظلمات التيه والكفر البعيد..

وهذه الظلمات أصمت آذانهم، وعقدت ألسنتهم، وأعمت أبصارهم.. فطمست على كل أجهزة الاستقبال النفسية والفطرية للإيمان، فيكاد لا يوجد رجعة من هذا التيه والكفر.

ويضرب الله فيهم مثلاً آخر – أو حالاً آخر من أحوالهم – لمزيد من البيان:

ويرسم المشهد الآتي: مطر شديد نازل من السماء تصحبه عواصف الرعد المطيرة، بما فيها من ظلمة، وبرق، ورعد.. يخاف الناس من صواعقه ذات الصوت الشديد الرعيد.. والناس تضع أصابعها في آذانها خوف الموت من شدة الصوت، وهول الموقف.. وهو رد فعل لا ينقذهم حقيقة من الموت، ولكنه استجابة للخوف! وفي هذه الحالة من الخوف والاضطراب، إذا أضاء لهم نور البرق الطريق، مشوا فيه.. وإذا أظلم عليهم وقفوا حائرين، أين يذهبون.. وهم فزعون؟

ولعل المقصود من المطر هو الخير النازل من الإيمان والهدى الذي يُنبت الإيمان والتقوى في القلوب، وهذا المطر يأتي مصحوباً بالزواجر وآيات الوعيد والتهديد لمن يُكذب ويستكبر ويُعرض.. والمنافقون يصمون آذانهم عن سماعها، حتى لا تقلب عليهم تصوراتهم أو تكشف حقيقتهم أو تضعهم أمام صورة نفوسهم الخبيثة.. والنفس المنافقة لا تريد رؤية حالها بصورة فيها إحساس بالانتقاص، أو المكاشفة.. وتخاف من ذلك خوفها من الموت.

ويرسم المشهد طريقة استجابة النفس المنافقة.. فهي في هذه الظلمات، قد تستجيب للنور تارة، وتمضي خطوات على الطريق، ولكنها سرعان ما تحتار وتضطرب وتقف متذبذبة في منتصف الطريق إذا انقطع عنهم النور لأي سبب، فهي بحاجة إلى مؤثر دائم لا ينقطع.. لا لأنها تجهل الطريق، ولكن لأنها غير مبتورة الصلة بطريق الكافرين! فإن ضاع مؤثر الإيمان.. وغاب تأثيره لا تمضي هي في طريق الإيمان، بل تشعر بالحنين إلى الكفر! وتستجيب لمؤثرات الكافرين.. مشهد يرسم أحوال

النفس المنافقة المتأرجحة بين حالها عند لقاء المؤمنين، ولقاء الكافرين.. بين ما يطلبونه من هدى ونور، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام..

والمشهد يصور هذا القلق والحيرة والاضطراب وعدم اليقين والتذبذب.. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، حركة من التيه والأرجحة والتمزق، والله محيط بهم، عليم بأحوالهم، وهو جَلَّجَلَالُهُ أحق بالاستسلام التام والإيمان الجازم به.. فهو على كل شيء قدير.

وهذه هي النفس المنافقة.. المضطربة المتذبذبة القلقة الحائرة المتمزقة.

***

رابعاً: النفس المقهورة المُستعبَدة.. نفسية بني إسرائيل:

وهذه التي تناولتها السورة بالشرح المطول، والبيان المعجز البديع؛ ليتوقف عندها الإنسان يتأمل أحوالها، وتقلباتها، ومهاربها، والتواءها العجيب، وتعقيدها الغريب، فهي تجمع انحرافات كثيرة متنوعة، يضطرب الناظر إليها في تحديد ماهيتها، وموقفه منها، وسبق الوقوف – في هذه السورة – على ما رصدناه من أمراض وصور لهذه النفس منها: [تلبيس الحق بالباطل، الدناءة والذلة، التشدد والتعنت، قسوة القلوب، تحريف الكتاب والتمني الكاذب، نقض الميثاق والتناقض، والاستهزاء والفسوق، اتباع الهوى.. والتبجح والمراوغة والتبرير والاستكبار، حب الدنيا، نبذ الكتاب واتباع السحر وتصديق الأكاذيب، النكوص عن الجهاد، والافتتان بالمُلك].

والقرآن الكريم يستعرض تلك "الآيات" في الأنفس؛ لتكون زاداً للإنسان، ونوراً وضياء يهتدي به في الظلمات، وشفاء لما قد يصيب الصدور من هذه الأمراض.. لذا كان القرآن فرحة للمؤمنين، ورحمة للعالمين.

***

تاسع عشر: اتباع المتشابه

قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّـهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران]

كانت سورة البقرة تواجه أهل الكتاب من اليهود بأمراضهم، وأحوالهم، ومواقفهم.. والآن سورة آل عمران تواجه أهل الكتاب من المسيحيين بأمراضهم، والقرآن الكريم يقص على الأمة المسلمة من أحوال اليهود والنصارى، لأنها ستسلك مسلكهم، وستجمع بين أمراض كلا الفريقين من اليهود والنصارى، وستتبعهم حذو النعل بالنعل! كما أخبرنا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولقد كان السبب الرئيسي في أحوال نفوس يهود، هو ما ألفته نفوسهم من "استبداد" و"ذلة" و"خضوع" لفرعون.. فوقع لهم ما تحدثت عنه الآيات الطوال من أحوال مستعصية، ونفوس ملتوية، وقلوب ناشزة عن الحق، متبعة كل سبيل غيره!

فما الذي حدث مع النصارى؟

بداية نقول: إن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُرسل لبني إسرائيل خاصة.. ففعلوا معه مثلما فعلوا من الأنبياء والرسل قبله، وما آمن معه إلا قليل، بل هَموا - لعنهم الله - بقتله، لكن الله أنجاه منهم - وكان لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حواريين - وكانت رسالته تتمحور حول تصحيح الانحراف الذي حصل في تعاليم رسالة موسى بفعل بني إسرائيل، والتخفيف عليهم مما حُرم عليهم في شريعة موسى مع البقاء عليها هي الشريعة الحاكمة، وترتكز رسالة عيسى على: التوحيد، والروحانية النقية الرقيقة التي تعالج قسوة ووحشة قلوب بني إسرائيل، وتُخفف من تنطعهم وغلوهم وتزمتهم، وهم منحرفون

عن الدين ابتداء.. لكن الانحراف مع ادعاء التدين لا بد وأن يُنشأ في القلوب القاسية – عن ذكر الله حق الذكر – ذلك الغلو والتنطع والإساءة للدين، والصد عن سبيل الله..

تعرض أتباع عيسى – الحواريين – مثلما تعرض له أتباع كل رسالة من محاربة واضطهاد وتعذيب على يد الوثنيين الرومان، ووشاية يهود بهم.. فقد صار أتباع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن آمنوا به وأتبعوا رسالته.. خصوم وأعداء ينافسون يهود التي تريد الاستئثار بالدين لها وحدها.. وهي عن تعاليمه الحقة معرضة!

ثم حدث تحول تاريخي من أخطر ما يكون لرسالة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تمثلت في تحول قسطنطين امبراطور الرمان إلى المسيحية، وكان هذا التحول سياسياً من أجل توحيد مملكته التي بدأت تنقسم بفعل انتشار المسيحية في أوساط العامة.. لما وجدوا فيها من ملاذ يغذي جوعة الروح، ويلطف قسوة المادة..

ولكن هذا التحول كان ظاهرياً فقط.. فالذي تحول هو المسيحية وليس قسطنطين.. تحولت المسيحية إلى الوثنية، وإلى خليط من الفلسفة والمادية والأساطير مخلوطة بتعاليم المسيح! ثم جاءت المجامع المقدسة التي شرعت في إنشاء ديانة جديدة كل الجد عما جاء به المسيح! واخترعت "الأقانيم" و"التثليث" و"نسب البنوة إلى الله" و"نسبة الألوهية إلى عيسى" فاختلفوا فيما بينهم اختلافاً كثيراً.. مازال قائماً حتى اليوم![1]

فمن أين نشأت أمراض النصارى؟

هناك اختلاف بين أمراض أهل الكتاب من اليهود، وأهل الكتاب من النصارى.. وسنجد ماذا حدث عندما تم "التحالف الغير مقدس" بين الديانة المسيحية والوثنية الرومانية.. وهذا – فيما أرى – هو ما سيكون بؤرة أمراض النصارى.

(1) راجع – إن شئت – كتاب: قانون الإيمان المسيحي – دراسة نقدية.

إذن، فما علاقة ذلك بموضوع الكتاب "أمراض الاستبداد"؟

الحقيقة إن الاستبداد في حالة النصارى تم بطريقة معاكسة لطريقة اليهود، فاليهود من بني إسرائيل عاشوا أذلاء مضطهدين تحت الوثنية الفرعونية محاربة لهم، تسومهم سوء العذاب.. ثم بدأت رحلة التحرير لهم، وما قصه القرآن الكريم علينا من أحوالهم، ونفوسهم.

أما الاستبداد في حالة النصارى فتم عن طريق الامبراطور ورجال الكنيسة أنفسهم.. واحتكارهم لـ "الدين" المُحرّف الذي تم تعميمه – فيما بعد – وخلق رمز "الصليب" الذي به تم إبادة شعوب، وسفك دمائها باسم "التبشير بالمسيح"! وتم طرد واضطهد وإعدام من يتكلم بالدين الصحيح الذي جاء به المسيح، وحرق كل كتاب يتكلم بذلك، كما فعلت "المجامع المقدسة" التي اختلقت هذه الديانة!

هذا الاستبداد والتحالف بين الامبراطور والكنيسة.. خلق لدى الشعب المسيحي أحد صور الاستبداد، بل حالة من أشد أحواله، فلقد كان استبداد "الجسد" على يد الامبراطور، واستبداد "الروح" على يد الكنيسة؛ وجعلوا الحكُام ورجال الدين أصحاب "الحق الإلهي المقدس"؛ ووقعت المهازل التي تحدث عنها التاريخ، ولا مجال لذكرها هنا.

***

تفتتح سورة آل عمران – ومناسبة نزول الآيات الأولى منها.. قدوم وفد من النصارى إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ – بمرض من أخطر الأمراض، كفيل وحده بانحراف الإنسان عن سبيل الله.. إنه "الانحراف عن الكتاب" عن طريق: اتباع المتشابه منه، بطريق "التأويل الباطل".

يقول الله تعالى لنبيه: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب}.. الله جَلَّ جَلَالُهُ هو الذي أنزل هذا الكتاب – القرآن الكريم – وكذلك كل كتاب جاء به رسول من عند الله، وفي هذا الكتاب "آيات محكمات" واضحات يفهم مدلولاتها كل إنسان، ولا تحتاج إلى تأويل ولا جدال، فهي آيات جاءت لتخاطب الفطرة وتسمو بالإنسان، وفيها ما يوافق الفطرة.. فهو دين

الله، وهذه فطرة الله التي خلق الناس عليها، فلا تبديل لخلق الله، ولا تحوير لدين الله.. فالآيات تُذكر، وتؤكد، وتبارك ما هو مركوز في فطرة الإنسان من الحق والخير والعدل..

وهذه الآيات المحكمات {هن أم الكتاب} أي: الأصول والقواعد، والجذور والمباني، والروح والفكر.. ظاهرة بيّنة واضحة لكل من رآها أو سمعها.

وهو دين سهل لا لبس فيه ولا غموض ولا غبش ولا أسرار باطنية ولا طبقة مقدسة ولا وساطة كهنوتية.. دين لا يصطدم بالعقل السليم، ولا الفطرة السوية.. آياته سهلة مُحكمة لا مجال للتلاعب بها، وهذه هي آيات التوحيد والإيمان وأصول الشريعة والأخلاق.

وفي هذا الكتاب أيضاً: {وأُخر متشابهات} وهذه آيات قد تشتبه بعض معانيها على الإنسان.. فلا يفهمها لأول وهلة، أو قد يختلط معناها في ذهنه، لجهل أو قلة علم.. أو هي من الغيبيات التي لا سبيل لإدراك كنهها، وفي كل الأحوال ما على الإنسان إلا أن يرد هذا الذي اشتبه عليه إلى المُحكم الذي لا جدال فيه، وكل متشابه من آيات لن تضل أمة بالجهل به، طالما اتبعت المُحكم من آيات الله.

وهذا المتشابه قد لا يشتبه على العلماء والعارفين.. بل يتلونه حق تلاوته، ويعرفون مدلوله حق المعرفة، ولكن لأن كل الناس ليسوا علماء، والدين جاء لكل الناس، وهو دين سهل قريب، فما يشتبه على الإنسان ذي القلب السليم.. فإنه يرده إلى المُحكم الواضح.

وأما الذين في قلوبهم زيغ، فلهم شأن آخر هو موضوع الآيات الكريمات: {فأما الذين في قلوبهم زيغ.. فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله}.

الذين في قلوبهم زيغ عن اتباع الهدى، وابتغاء رضوان الله.. لا بد وأن يضلوا سواء باتباع المتشابه أو بغيره من تبريرات، وهم يبتغون من وراء ذلك "الفتنة" وصرف "المحكم" من الآيات عن حقيقتها البيّنة الواضحة، عن طريق هذا الذي "اشتبه" عليهم؛ فيضربون كتاب الله ببعضه البعض، ويُنزلون كلام الله الحق على مقررات عقلية باطلة لديهم!

ونجد أن القضية ليست هي في آيات اشتبهت عليهم.. كلا! القضية ابتداء في قلوب "زائغة" عن الحق، هاربة منه.. ونجد البلاغة القرآنية في هذا الوصف الدقيق "زائغ" كأنه قلب كان يسير على الصراط المستقيم، لكنه يجتهد في "اكتشاف" و"اختراع" مهارب وسُبل أخرى يزيغ منها عن هدى الله، وسبيله، وصراطه المستقيم!

وهي قلوب تريد الفتنة في الدين، وتحريف الدين، وتأويل أصوله، والتلاعب بشرعه، والعبث بعقيدته؛ لتوافق أهواء ومصالح ذوي المال والسلطان.

{وما يعلم تأويله إلا الله} الله جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يعلم مدلول آياته.. فعلم الله شامل واسع محيط لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو القائل سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]

وهو جَلَّجَلَالُهُ العليم بكلامه ما المحكم، وما الذي يشتبه على الإنسان لمحدودية علمه وإدراكه، وتقيده بالزمان والمكان؟

وما قد يشتبه على الإنسان في مسألة في جيل.. قد تكون واضحة سهلة عندما يرتقي فكره، وما يتصوره الإنسان من أمور توحي بها الآيات، فيدركها إدراكاً صغيراً محدوداً – مثل آيات الله في الخلق والكون – يكون في جيل آخر أكثر إدراكاً كلما توسعت وسائل المعرفة..

لكن في النهاية كل هذه الآيات لا يعلمها حق العلم إلا الله، فهو الخالق المدبر الحكيم العليم.. الحي القيوم.

وقد يفتح الله على بعض خلقه من "الراسخون في العلم"؛ فيُنور قلوبهم بالعلم والمعرفة، فيدركون تأويل الآيات، وفهمها على النحو الصحيح الذي لا يضرب المُحكم من الآيات.. بل يوافقه، ويؤكد عليه، ولا يكون ذلك إلا لـ "الراسخون"، كأن العلم بناء من نور ضارب بجذوره الراسخة في

القلوب التي تبتغي الهدى، لا الزيغ، القلوب التي ترجو السلامة لا الفتنة، القلوب التي تريد الحق لا الباطل.

وهذا الرسوخ يضع الآيات في موضعها الصحيح، ويعيش الآيات المعايشة الصحيحة، ويفهم بالإدراك الصحيح للآيات موضع الحكمة، والغاية؛ فيكون هذا البناء النوراني متنوع المعرفة، متشعب الإدراك، مستوعب الفهم.. وليس هو كالقلوب الزائغة التي تخطف آية من كتاب الله، وتجري تتبع المتشابه منها، زيغاً عن الحق، وانفلاتاً منه.

{والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا} والراسخون في العلم إن فشلوا في إدراك معنى ما من آيات الله – في جيل من الأجيال – أوكلوا أمرهم إلى الله، وقالوا بقلوب صادقة مطمئنة: {آمنا به.. كل من عند ربنا} طالما من عند الله فنحن له مستسلمون، مؤمنون، وما قد يشتبه علينا.. سنجد – إن شاء الله – كفاية تامة في المُحكم من الآيات، ولعل الله قد جعلها آية لمن يأتي بعدنا من أجيال، وما تتطور به وسائل الإنسان من معرفة، أو هي من أمور الغيبيات التي لا سبيل للعقل فهمها، ولا هي كذلك من وظيفته أو في مجال خلافته على الأرض، وهي إشارة لعلم الله الواسع المحيط، فيكون حالهم – في النهاية والبداية – هو: الاستسلام لله رب العالمين، والقبول لكل ما جاء من عنده، والطاعة الخالصة لوجهه الكريم، والاتباع الدقيق الذي لا زيغ فيه ولا فتنة.

{وما يتذكر إلا أولوا الألباب} الذكرى لما هو مركوز في فطرة الإنسان من إيمان، وفي خلق الكون من آيات.. هو لأصحاب العقول والألباب.. الممتلئة قلوبهم ودواخلهم بالإيمان، فهو لب النفس المستسلمة لله التي تدعو هذا الدعاء:

{ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب}

إن القضية ليست في وجود المتشابه – أو ما قد يشتبه على الإنسان من آيات – إنما هو في "زيغ القلوب" عن هدى الله.. فتتبع الهوى الذي يعمي عن رؤية الحق، وإن ظهر الحق "تستكبر" عن اتباعه!

هذا هو ما يجب أن يشغل بال الإنسان.. هل قلبه حقاً يبتغي الهدى؟ أم يزيغ عنه تحت شبهات التأويل الباطل والمتشابه؟ وهذه القلوب هي بين يدي الله جَلَّجَلَالُهُ.. إن كانت تبتغي مرضاته ورضوانه، هداها إلى صراط الله المستقيم، وإن كانت تبتغي الزيغ والفتنة، أضلها الله.

والقلوب التي تريد الهداية والرشاد ترفع أكف الضراعة لله تقول: {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا} فقد تحصل الهداية للإنسان مرة، لكن يزيغ القلب بعدها، فالإنسان في حاجة دائمة – لا تنقطع – إلى هداية الله، فالمسلم يردد صباح مساء {اهدنا الصراط المستقيم}.. ومع الهداية {هب لنا من لدنك رحمة} فأنت الإله الرحمن الرحيم الودود الكريم، هب لنا من رحمتك رحمة لقلوبنا فلا تزيغ عن الحق، ولا تستثقل طريق الهداية، فأنت الوهاب.. تهب بلا عدد، وتعطي بلا انقطاع، وترزق بغير حساب.

وبالهداية والرحمة لا يضل الإنسان ولا يشقى، ولا يزيغ قلبه طالما أخلصه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

***

ولقد حاول النصارى "اتباع المتشابه" من كتبهم، وكذلك من القرآن الكريم في إثبات ألوهية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو إثبات بنوته إلى الله! في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء (171)]. ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91] ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12]

فما هي الكلمة التي ألقاها الله؟ وكيف خُلق عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من غير أب؟ وما هي الروح التي نفخها الله؟ ... إلخ من الآيات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، فقضية الخلق وسر الحياة، وقضية الأمر الإلهي والإرادة الإلهية "كن فيكون"، والروح.. كلها غيبيات لا مجال للعقل البشري إدراكها أو فهمها، وكل ما ضربت به الفلسفة من متاهات لم تصل لشيء، ولم تهتد سبيلا.. بل اعتقد النصارى ما قال به فلاسفة الإغريق وغيرهم عن العقل الكلي، والروح، واعتبر النصارى أن الله خلق كل

الأشياء المرئية والغير مرئية "بواسطة" عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!! مستمسكة بالمتشابه، زيغاً عن الحق، ضاربة الذكر عن الحق السهل الواضح البسيط..

فتركت المحكم من الآيات: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

***

ولكن.. لماذا تزيغ القلوب عن الحق؟

تزيغ القلوب عن الحق، وعن صراط الله المستقيم عندما تقدم "عصبيتها الجاهلية" و"الحمية" و"المصالح المادية" على هداية الله، فتزيغ هي بنفسها عن الهداية ذاهبة إلى المصالح المادية والهوى والمال والسلطان.. أو ذاهبة إلى إرواء الحقد والحسد والغل والبغضاء على غيرها! وفي طريق الزيغ إذا وقع شيء من وخز الضمير، فقد تُخدر نفسها باعتبار أن هذا الزيغ هو من أجل "نصرة الحق" وأنها مضطرة لفعل ذلك!

فتجمع بين "الهوى" و"الكبر" وهما مهلكة للنفس الإنسانية.. فالهوى سيعمي الإنسان عن إبصار الحق، والهداية، وعن رؤية الخير في الاستقامة على طريق الحق مهما كانت الصعاب، فيهوى الإنسان الزيغ؛ فيَضل ويُضل عن سبيل الله.. وأما الكِبر فإنه عند ظهور الحق، وبيان الحجة، سيستكبر عن الإذعان له، والاعتراف به، فيمضي حيث يأخذه هواه.. في عمق التيه البعيد، والضلال الشديد.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقعت فيما وقع فيه النصارى من "اتباع المتشابه" من آيات الله، ومن أحاديث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وصارت تضرب كتاب الله ببعضه البعض، وأعملت سيوف التأويل الباطل للمُحكم، والنسخ للآيات، وادعاء الإجماع فيما لا إجماع فيه... إلخ!

ووقع التحالف الملعون بين الحُكام والعلماء.. مثلما وقع بين النصارى من تحالف بين الإمبراطور والكنيسة.. واستبد الحكام بالجسد، واستبد العلماء بالروح، وصارت وظيفة الدين هي خدمة عروش الطغاة.

وحاولوا التأويل الباطل للآيات المحكمات في: الحكم بما أنزل الله، وفي الشورى والعدل، وفي حمل رسالة الله.. فتم تأويل أصول التوحيد والشريعة إلى متشابه لا أقول من كتاب الله، ولكن إلى متشابه من أقوال فقيه أو شيخ هنا أو هناك.. فصاروا "أئمة مضلين".

وقد حذر منهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حتى جعلهم أشد ما يخافه على أمته فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: " **إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ** " [سنن الدرامي/ 211]

والأئمة: هم من يؤمون الناس في "الحكم والسياسة"، ومن يؤمنهم في "الدين والروح"، فهم: الأمراء والعلماء.

وصار العلماء يُعبِدون الناس لا لوجه الله الكريم، إنما لسلطان الطاغية وتبرير أفعاله مهما بلغ الجُرم والظلم – مثلما فعل رجال الكنيسة إبان عصور أوروبا المظلمة – بل استهانوا بحرمة الدماء المعصومة؛ فجرت دماء المسلمين أنهاراً!

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْثُرَ لَهُمُ الْمَالُ، فَيَتَحَاسَدُوا، وَيَقْتَتِلُوا، وَيُفْتَحُ لَهُمُ الْقُرْآنُ، فَيَقْرَؤُهُ الْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُنَافِقُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ }، وَالنَّاسُ فِي الْقُرْآنِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ يَقْرَؤُهُ بِلِسَانِهِ وَلا يَصُوغُ الْحَنْجَرَةَ، فَهُوَ عَلَيْهِ إِصْرٌ، وَعَذَابٌ، وَرَجُلٌ يَقْرَؤُهُ فَخْرًا وَرِيَاءً، لِيَأْكُلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْءٌ، وَرَجُلٌ يَأْخُذُهُ بِسَكِينَةٍ، فَهُوَ لَهُ حُجَّةٌ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ عز وجل**" [مسند الشاميين للطبراني / 1115].

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **" إِنَّ فِي أُمَّتِي قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَنْثُرُونَهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ "** [المطالب العلية لابن حجر / 3514، تاريخ الكبير للبخاري / 5801] نثر الدقل: أي يرمون بكلماته من غير روية وتأمل كما يرمى الدَّقَل -بفتحتين- وهو رديء التمر.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ }، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **" فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ "** [صحيح البخاري / 4547] وفي رواية أخرى: **" فَإِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ، فَهُمْ الَّذِينَ عَنَى اللَّهُ عزوجل فَاحْذَرُوهُمْ "**.

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ **"لا تُجَادِلُوا بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِجِدَالِهِمْ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لَيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَكِنْ نَزَلَ لَيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا كَانَ مِنْ مُحْكَمِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ مُتَشَابِهِهِ فَآمِنُوا بِهِ "** [بغية الباحث / 734].

وفي رواية: **" يَا قَوْمُ لا تُجَادِلُوا، فَإِنَّمَا هَلَكَتِ الأُمَمُ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، جَادِلُوا الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا وَلَكِنَّهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ حَلالٍ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ حَرَامٍ فَدَعُوهُ وَانْتَهُوا عَنْهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهٍ فَآمِنُوا بِهِ "**.

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَوْمًا يَتَمَارُونَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: **" إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلا يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، مَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ "** [المدخل إلى السنن الكبرى/790].

وفي رواية أخرى: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: جَلَسْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا مَا جَلَسْتُ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَغْبَطَ عِنْدِي، قَالَ: فَخَرَجَ مِنْ وَرَاءِ حُجْرَاتِهِ قَوْمٌ

يُجَادِلُونَ بِالْقُرْآنِ، قَالَ: فَخَرَجَ مُحْمَرَّةٌ وَجْنَتَاهُ كَأَنَّمَا يَقْطِرَانِ دَمًا، فَقَالَ: "**يَا قَوْمِ، لا تُجَادِلُوا بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا ضَلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِجِدَالِهِمْ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَكِنْ نَزَلَ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا كَانَ مِنْ مُحْكَمِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ مُتَشَابِهِهِ فَآمِنُوا بِهِ** " [إتحاف الخيرة/ 7961].

***

ووقعت الأمة في اتباع المتشابه من آيات الله في صفاته وذاته، وصار يُكفر بعضها بعضاً، ويلعن بعضها بعضاً.. وغرقت مثلما غرق فيه النصارى من الحديث عن "طبيعة المسيح"! وراحت الأمة تضرب في ضروب التيه في الحديث عن "صفات الله" وصار يُمتحن المرء فيها - في عصر من العصور - ومازالت الأمة تلوك هذا العبث، وصارت "العقيدة الإسلامية" و"الرسالة السماوية" هي هل تُثبت لله جَلَّجَلَالُهُ اليد والوجه والقدم؟! أما تتأولها؟!... إلخ من أشياء غريبة جملة وتفصيلاً عن كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.. وعن سهولة ويسر هذا الدين!

ولكن لما سلكت الأمة سبيل النصارى - وما اتبعته من فلسفة الإغريق واليونان - صار الدين طلاسم لا تُفهم، وأقوال جدلية كلامية معقدة.. حتى صارت العقيدة هي "علم الكلام"، وتفرقت الأمة باتباع المتشابه.. ولم يصلوا إلى شيء، ولم يهتدوا سبيلاً، فكذلك جادلت الأمة في ذات الله، وهو شديد المِحال! وأُريقت الدماء وأُزهقت الأرواح باسم العقيدة الصحيحة، وباسم الحق المطلق، وباسم اتباع السلف، وباسم محاربة أهل البدع، وباسم الطائفة المنصورة!

وصار التفرق واللمز والتكفير والتفسيق والتبديع هو السائد، وضاعت القضية الأصلية.. قضية القرآن السهل الواضح القريب.. قضية الألوهية والربوبية والقوامة لله رب العالمين.. وأنه {ليس كمثله شيء}، ولا نعلم له سَميا، وهذا هو المحكم الواجب الاتباع بلا جدال، وكل تصور عن ذات الله فهو باطل، وانتهت القضية بآية واحدة، وبقي الإيمان بالله حق الإيمان، والاهتداء بهداه، وشعور معنى أسماءه وصفاته الشعور الذي يسمو بالإنسان، ويرجو به القرب من الرحمن، الشعور الذي

يُسكب في القلب الرضى والإيمان، والسلوك الذي يرتقي بالإنسان، فيجعله ربانياً، والحب الإلهي الخالص الذي يغشى القلب فلا يرضى بمحبوب سواه، ولا يريد ذكراً إلا إياه جَلَّجَلَالُهُ.[1]

***

واتبعت الأمة المتشابه من آيات الله، فاتخذت طائفة من "آيات الوعيد" وغيرها سبيلاً لتكفير الأمة، واستباحة دمائها وأموالها، حتى صارت حرباً على الأمة لا على أعداء الملة والدين، وصار قتالها للأمة مُقدم على قتال المحاربين الأعداء باسم "الردة"!

فصارت معاول هدم للأمة، والإسلام.. وأحدثت كوارث تاريخية، ومازالت هذه الطائفة موجودة في الأمة، تظهر كلما لاحت لها فرصة في طريق التحرر من ربقة الاستبداد أو من هيمنة واحتلال الأعداء التاريخين، تخرج لا لتحارب هؤلاء.. إنما تخرج لتقاتل الأمة، وتسعى لتكفيرها، بتأويل الآيات، أو بخطف كلمة من هنا أو هناك.

واتبعت الأمة المتشابه من آيات الله، فاتخذت طائفة من "آيات الرحمة والعفو" سبيلاً لحماية الظالمين، والمستبدين، وتبرير أفعالهم، وحماية الفاسقين والمجرمين، فصارت حامي حمى الاستبداد.. والأعداء من ورائه في عصرنا هذا.

وصارت هذه الطائفة معاول هدم للأمة والإسلام.. وهي طائفة شائعة في الأمة، يرحب بها الفسدة والظالمين، فهي وسادة الأمان لهم، التي تحميهم من غضبة الإسلام، وثورته على الظلم والطغيان.. وتظهر وتكبر هذه الفئة كلما لاح للأمة فرصة للتحرر أو الثورة على الظالمين، والسعي لتطهير الأمة منهم، تخرج لتُعبد الناس للظلم، ولتشرعن للفساد والاستبداد، باسم الله، وباسم كتابه ورسوله.. والله ورسوله وكتابه منهم براء.

***

(1) راجع – إن شئت – بحث: ألغام في الفكر الإسلامي.

واتبعت الأمة المتشابه من الآيات، والقراءة الأحادية الحرفية الضيقة للنصوص.. ففشي فيها عقيدة الجبر السياسية: حيث التسليم للباطل والظلم، والإعانة عليه، وتصديق دجله، واعتقاد الطغاة والمجرمين جبر قدري لا دافع له! ولا حاجة لتغيير الواقع لأنه إرادة الله! تعويلاً على المتشابه من الآيات، أو على الإيمان بآية دون أخرى، أو على فهم حرفي، أو فهم حسب الأهواء.. فانتشر في الأمة السلبية، والركون للظلم، بل والترحيب بالمحتل المعتدي، وانتشر فيها الهم والحزن والضيق والأسى! وأخرى جعلت من الأولياء واسطة بينهم وبين الله! وصرفت من صور العبادة لغير الله! وعاشت في حالة من "الهروب الروحي" و"الدروشة الواقعية"!!

وخرج للأمة صغار سفهاء رويبضة.. يخطف آية من هنا، وآية من هناك، وقول من كتاب، وكلمة من شيخ.. ليُؤلف في النهاية ما يهوى ويزيغ به عن الصراط المستقيم باسم الدين! ولا رسوخ في العلم، ولا صبر على التعلم، ولا فقه في الدين، يقرؤون كتاب الله، ويجهلون العلم به، ويضربون كتاب الله ببعضه البعض، ويضربون المحكم من كتاب الله بالمتشابه منه، ويضربون كلام العلماء بكتاب الله، ويُقدمون كلامهم على كلام الله، ويستمسكون بالآثار الواهية، والفهم الحرفي المتنطع لها، وحنطوا عقولهم عن فهم الكتاب، وقراءة واقعهم، وطائفة أخرى تحتقر العلم والأئمة والعلماء، وتريد أن تفهم على حسب ما تهوى، ويفرضون إدراكهم على الحقائق، فلا يسمحون لها بالوجود إلا على الصورة التي أدركوها... إلخ من ضروب شتى، وسُبل متفرقة مزقت الأمة، وأوحشت قلوبها، وأضاعت وحدتها.. ولا سبيل للعودة إلا بـ "الهداية" والرحمة": ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

***

عشرون: التفرق والبغي

قال تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّـهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران]

ومع اتباع المتشابه، وترك المحكم كان ولا بد أن يقع الاختلاف والتفرق في الدين..

لقد اختلف اليهود والنصارى كل فيما بينهم، ثم بين كل طائفة منهم، بعدما ما جاءهم العلم! أليس يُفترض أن يكون "العلم" وسيلة للوحدة، ومعياراً للحكم، وطريقاً للهدى.. كيف يتفرقون بعد ما جاءهم العلم؟!

إن العلم لا يؤدي دوره – والمقصود هنا علم الكتاب – إلا إذا أقبلت عليه القلوب تبتغي رضوان الله، وتتبع سبيله.. ولا يؤدي إلى الوحدة إلا في القلوب الطاهرة النقية التقية الصادقة، عند إذ تتحقق الوحدة والتألف والتجانس، ولكنهم جعلوا الكتاب وسيلة للمناورات السياسية، والاختلافات المذهبية.

وقد أخذ الله الميثاق على أهل كل كتاب أن يُبينونه للناس ولا يكتمونه، ولا يشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يفرحون بما أتوا دون التزام الحق الذي فيه، فمجرد إنزال الكتاب عليهم بلا طاعة واتباع وعمل هو حجة عليهم، لا لهم.. ولن يُحمدوا على شيء لم يفعلوه، ولن يكونوا بنجاة من العذاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران]

ولكن الذي حصل في حالة اليهود والنصارى – وفيما بعد الأمة المسلمة – أنهم جعلوا من الكتاب – الذي جاء لهدايتهم – وسيلة لـ "البغي" فيما بينهم! جعلوا الكتاب وسيلة للاعتداء على بعضهم البعض، فالذي أحدث التفرق والاختلاف هو "البغي" وليس "العلم".

وتنوعت الآيات الكريمات التي تتحدث عن الاختلاف بسبب البغي، واتخاذ العلم والكتاب وسيلة لبث بذور التفرق بين الأمة الواحدة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: 14]

والله جَلَّجَلَالُهُ دعا المؤمنين، وأوصاهم أن يُقيموا الدين، ولا يتفرقوا فيه! فالتفرق في الدين مهلكة لأي أمة، و"ابتغاء الفتنة، والبغي" هما بذور الشقاق والنفاق في أي أمة.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]

إنها وصية الله من لدن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وصية لأولي العزم من الرسل: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

آية من خمس كلمات منهج حياة لكل الرسل، ولكل البشرية.. وسبحان الله! هذا هو إعجاز القرآن، وأسلوبه!

ولكننا نبذنا وصية الله، وتفرقنا في الدين باسم الدين! تفرقنا فيه بعد ما جاءنا العلم.. لم نفترق فيه لنقص العلم أو الجهل! تفرقنا فيه بسبب الغي والظلم: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 14]

والبغي والظلم صوره كثيرة:

- بغي النفس على نفسها بحقدها وحسدها وغلوها وإفراطها وتفريطها.
- بغي النفس على الآخرين، بانتقاص حقوقهم الأخوية والإيمانية والدنيوية.
- بغي النفس على أمتها، بتقصيرها في القيام بدورها تجاه أمتها.
- بغي النفس على دينها، بتقصيرها في إقامة الدين والشرع.
- بغي النفس على مجتمعها بتركه بلا علاج لأمراض الاستبداد والقهر والفساد.
- بغي النفس على رسالتها بتخليها عن حمل رسالة النجاة، وإنقاذ البشرية.
- بغي النفس بتركها الآخرة والركون إلى الحياة الدنيا.
- بغي النفس بالتلاعب بدين الله، للانتصار في المناورات السياسية، وخلق مذاهب تُرضي الطغاة البغاة.

صور شتى للبغي والظلم الواقع لا بسبب نقص العلم، وإنما بسبب ظلم الإنسان لنفسه ولمجتمعه ولأمته ولدينه ولرسالته.

وهكذا وقع الافتراق والاختلاف في الدين، وهكذا تفتت العقيدة الواحدة إلى أفكار متناثرة.. وأحزاب متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون!

***

ولكن.. ما الذي يجعل النفس المستعبَدة، تتفرق في الدين، وتُعمل سيف البغي على أنفسها؟

يُفترض في الدين المنُزّل أن يوحد أهله.. فهو دين الفطرة، وهو متوافق تماماً مع أحوال النفس السوية، ولكن في حالة النفس المستعبَدة والمقهورة، تكون هناك عقليات ذات موازين مختلة، ونفوس ضيقة منغلقة، فهي تتعامل مع رسالة الدين بتنطع، وغلو، وانتقائية.. والنفوس المقهورة تفقد وحدتها الذاتية، وتتفتت تحت القهر، ومن ثم تتعامل مع الرسالة بنفس حالتها النفسية، فقد تتمسك بأهون وأبسط الأمور، وتسحق وتنتهك أكبر أصول الرسالة، فقد تستحل قتل الأنبياء، وتتورع عن قتل بعوضة! قد تستحل أمماً وشعوباً، وتستمسك بإطلاق اللحية!

والرسالة الإسلامية.. رسالة ربانية إنسانية عامة، حتى يحملها الإنسان.. لا بد وأن تكون نفسه فيها من السعة والوحدة والرحمة والود والخير والحب لكل إنسان، نفس تستمسك بمعالي الأمور، وتبتغي إصلاح ذات البين، وغلق كل منفذ ينزغ منه الشيطان؛ ليولد الحقد والحسد والبغضاء بين الناس..

والنفس المقهورة المنغلقة على ذاتها، لا تستطيع أن تدرك هذه المعاني، وتتعامل وتنظر للرسالة من خلال تفتتها النفسي؛ فتستمسك ببعض القشور وتتعصب لها، وتعادي من يخالفها، ومن هنا تنشأ العداوة والبغضاء.. الأمر الذي يؤدي حتماً للبغي والتقاتل والعدوان.

وتفشل هذه النفس في قدرتها على إدارة الاختلافات، ونزع عوامل الفرقة.. فيصبح كل خلاف هو مادة للبغي والظلم.. وقد خاب من حمل ظلماً.[1]

***

(1) راجع – إن شئت – فصل "الفشل في إدارة الخلاف" من كتاب انحرافات في الحركة الإسلامية .

وفي الأمة المسلمة:

وقع الاختلاف بصورة أسيفة مؤلمة.. في بدايات مبكرة منذ أحداث "الملك العضوض"، وصراع بني أمية على المُلك، والتشيع لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والتشيع لنبي أمية.. وصار الغلو الشديد فيهم علامة بارزة في هذا التاريخ من الأمة، ووقع البغي ووقعت الفتنة.. وكان الحق مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان بنو أمية "الفئة الباغية" المعتدية؛ التي اغتصبت شورى الأمة، وأعملت السيف فيها، وسنت فيها أسوأ سُنة في سياسة الحكم والمال.. وهي: "المُلك العضوض" مازالت الأمة تتجرع ويلاتها منذ يومها حتى الآن! وخرج الخوارج يُكفرون علياً كرّم الله وجهه، وبني أمية! ثم توالت الفرق تلو الفرق، يلعن بعضها بعضاً، ويُكفر بعضها بعضاً.. حتى تفرّقت الأمة شيعاً وأحزاباً حتى كان ذلك من أشد العذاب على الأمة.. علها ترجع وتتوب: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]

ومن تعدد الفرق، واعتقاد الحق المطلق في كل رأي.. تنشأ العداوة البغيضة، والحقد المشتعل، والحسد المستعر؛ فتُستحل الدماء، ويُستسهل فيها القتل.. ليس دفاعاً عن الحق.. كلا، بل دفاعاً عن الرأي وانتصاراً للذات!

ومجرد الإعانة على قتل مسلم، ولو بشطر كلمة.. تُخرجه من رحمة الله التي وسعت كل شيء! فقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**" [سنن ابن ماجة/2612]

وأما عندما يصل الأمر إلى أن يُقتل المؤمن عمداً.. فهذه هي الحالة التي تُوجب له الوعيد الشديد، ويحل بها غضب الله جَلَّ جَلَالُهُ، وعذابه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: 93]

وكشف القرآن الكريم عن السبب الحقيقي لهذا الصراع والاختلاف، إنه يقيناً ليس بسبب الرسالة، ولا العلم، ولا الدفاع عن الحق! بل بسبب "البغي والظلم" الذي أحد أشكاله "الانتصار للذات، والتعصب لها" فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[الجاثية: 17]

ولا عجب عندما يسارع هؤلاء جميعاً ليستقووا بعدو الملة كلها؛ لينصر فريقاً على فريق، ومن هنا أدرك عدو الملة، ثغرة أكبر من آلاف الجيوش!!

إنه يعادي الجميع، ويرغب في قتل الجميع، وفي هدم الملة كلها على أهلها.. ولكن ماذا يحدث لو "استغل" حالة "العداء" هذه في "ضرب" المختلفين ببعضهم، وأن يأكل بعضهم بعضا.. فينتهوا جميعاً في النهاية في حرب تدمير ذاتي للملة كلها، دون أن يطلق رصاصة واحدة أو تنزل من جنوده قطرة دم؟!

وبالفعل استخدم العدو هذه الثغرة، ودخل منها.. فأيد هذا مرة، وأعان هذا مرة، وسمح لهذا بالمرور مرة، ووقف لهذا مرة، ووجد في الأمر سيطرة، وقوة.. فقرر إنشاء أجهزة متخصصة لعملية "حرب التدمير الذاتية" وأجهزة للمراقبة والاستطلاع، وأجهزة للرصد والتوجيه والإعلام، وأجهزة لتزكية الخلافات وتوسيع رقعتها.. كلها خدمة لهذه الحرب التي لا تكلفه سوى التأييد مرة لفريق، والعداء مرة لفريق! لدرجة أنه في لحظات الخطر على عدو الملة الواحدة، والخروج عن "الاستراتيجية" التي يرسمها.. هو الذي يأتي للصلح بين المتخاصمين من أبناء الملة الواحدة!

وصارت قضية الحق المطلق إشكالية من أكبر الإشكاليات في التاريخ الإسلامي.. كل فرقة، وكل جماعة تدعي "الحق المطلق" المبين، وهي وحدها – لا شريك لها – "الطائفة المنصورة" ولها وحدها الجنة الموعودة!

وأدى اعتقاد الحق المطلق في الأراء الفقهية والسياسية إلى:

(1) **إفساد العقل**: فعندما يعتقد العقل الحق المطلق في الأراء والاجتهادات، فإنه يتوقف عن عمله في: النقد والتحليل، والرصد والتفكير، والتسديد والتقريب، والتصحيح والتقويم؛ وبالتالي يفقد مهمته، ولياقته، وقدراته، وتضمر عضلة العقل، وإذا فشي هذا المرض في أمة، تتحول إلى "أمة من المغفلين".

(2) **تدنيس النفس**: اعتقاد الحق المطلق في الرأي، يجعل النفس ملتصقة بهذا الحق، وأي محاولة للمساس به ولو فقط لـ "النصح" - فضلا عن النقد والتحليل وبيان الخطأ - يجعل النفس تنتفض لـ "تدافع" عن هذا الحق - وفي الباطن تدافع عن ذاتها - وتسحق في طريقها كل من يعترض أو ينتقد.. ولا تتصور إلا: الخيانة أو العمالة أو الانحراف أو الشك أو الظن القبيح، وعندما يحدث الاصطدام بآخر يعتقد حق مطلق مختلف، تنشأ حالة شديدة من العداوة والبغضاء.. تجعل أصحابها يُفضلون قتال بعضهم البعض، على قتال عدوهم الأصلي! وهذه العداوة والبغضاء لا تحلق الشعر إنما تحلق الدين.

(3) **الوثنية الكهنوتية**: وهي تنشأ من خلال تقديس الأراء، وأصحابها.. ومعاملة كلامهم معاملة "نصوص الوحي" والأوثان تجذب إليها الرعاع، ومرضى القلوب، ويضربون بكل رأي مخالف عرض الحائط، فهم يعتبرون نظر العقل إلى الأقوال عيب ونقيصة يجب على صاحبها الإسراع بالتوبة منها.. وهم يصنعون حالة من الاحتقان الدائم، والتفرقة حتى على أتفه الأسباب.. وهذه الأوثان تُنشأ حالة من "الود" فيما بين الأتباع، وحالة من "الحقد" فيما بين المخالفين، مهما كانت درجة الاختلاف بسيطة.. فتتسع الفجوة، وتتباعد القلوب بين جسد الأمة الواحد.

(4) **تدني الأخلاق**: عندما يطعن أحد في رأي يعتقده صاحبه حقاً مطلقاً، فإن صاحبه ينبري ليدافع عن هذا الحق، معتقداً أنه يُقدّم خدمة جليلة له، وأنه يدور مع الحق، وأن غيره إنما هو مأجور أو فاسق أو عميل أو منافق أو مُتخفي أو جبان! وبالتالي "يستبيح" عرضه - وربما دمه! - فيسبه بكل

نقيصة، ويتهمه بكل جريمة، ولا يظن به إلا السوء! فليس له كرامة ولا عِرض.. فتضيع المروءة، وتتسافل النفوس؛ مما يجعل البأس بين الأمة الواحدة شديد، والتنفير فيما بينها عنيف.. بينما لا يُوجد حق على وجه الأرض يحتاج إلى تدني الأخلاق للدفاع عنه!

وهذا الحال من فساد العقل والنفس والأخلاق، لا يحتاج صاحبه إلى البحث عن "الدليل أو الحجة" بقدر ما يحتاج إلى "تربية" من جديد، و"علاج" لهذه الأمراض؛ حتى يكون ابتداء لبنة صالحة في جسد هذه الأمة، التي يُفترض لها أن تحمل رسالة الله إلى العالمين.. فلا تقوم الأمم إلا عند شعور أفرادها أنهم جسد واحد، يحترم بعضه بعضاً، ويُقوي بعضه بعضاً، ويحفظ بعضه بعضاً.

ومع اعتقاد الحق المطلق، كان ولا بد أن يخرج رديفه وهو "التكفير" على أتفه الأشياء.. التكفير بأشكاله وألوانه وتعدد طرقه، فمن التكفير السياسي إلى التكفير النفسي إلى التكفير بالافتراض، أما أشهرها - سيما في موضوع التفرق في الدين - التكفير بالمآل: أي بما يُحتمل أن يؤول به الأقوال من كفر.. حتى صرنا نسمع مساخر وفضائح - كفضائح الكنيسة في عصورها الوسطى - ثم يُكفرون من ينكرها، وهذه المهازل أساءت للدين وللأمة، باسم الدين ذاته!! فصار البأس بين الأمة شديد، وصار يأكل بعضها البعض، ويتنكر بعضها لبعض.

وتبدأ رحلة الحق المطلق من الهوى وتنتهي عند الفرقة والتقاتل.. تبدأ من "نقولات" من كتب هنا وهناك، ثم اعتقاد الحق المطلق فيها، ثم تفسير كل شيء في الحياة من خلالها - حتى العلوم التجريبية!- ثم التعسف الشديد والتنطع المقيت في التناول والمناقشة، ثم النظر من زاوية واحدة "نظرة شديدة الأحادية"، إما القبول المطلق أو الرفض المطلق.. إما القبول الكلي ولو كان فيه أباطيل، أو الرفض الكلي.. ولو كان فيه حقائق، ثم "النقل الانتقائي" لما يوافق الهوى، والانتصار للرأي، ورد وتسفيه كل قول مخالف، ثم الفهم الحرفي الساذج، ثم تحطيم أي عقبة فكرية أو علمية أو شرعية تقف في الطريق، ثم الهجوم العنيف الشديد على المخالف، ثم تكفير المخالف أو تبديعه أو تفسيقه، ثم العجز عن القدرة على التراجع عن الرأي إذا تبين الخطأ، والاستكبار عن الاعتراف به،

ثم التعمية على الجماهير، فتغيب القضايا الجادة، وتغرق الأمة في سفاسف الأمور وتفصيلات لا نهاية لها، ثم تحويل أبسط خلاف أو وجهة نظر إلى قضية عقيدة، وإيمان وكفر.. ومن ثم ممارسة "الإرهاب الفكري" وإجبار الجميع على التماهي والذوبان الكامل، فلا سماحة في المناقشة والتفكير مما يؤدي إلى "الاستبداد الفكري" و"العبودية الفكرية".. التي على استعداد لتدمير الأمة كلها، وتحطيم كل شيء من أجل الانتصار لرأي أو فتوى.. على اعتبار أنه الدين الحق الذي لا حياد عنه! فحضرت "السذاجة العاطفية" بدلاً عن "العقل والحكمة"!

ومن ثم معالجة الواقع والفكر والتاريخ والحاضر والمستقبل من خلال منهج "الإدانة والحكم" لا "التحليل والتشخيص والعلاج"، فيتحول نظر العقل إلى كل ما حوله إلى أحكام (مرتد – فاسق – مبتدع) مما يدمر العقل، ويفقده القدرة على الفهم والتدبر، فتتوحش قلوب الأمة على بعضها البعض، ويحول ذلك دون وحدتها وإحياءها من جديد، بل يقع الفجور الشديد في الخصومة، والعداوة والبغضاء التي تدمر الأمة ذاتياً، فضلاً عن امتهان كرامتها الإنسانية، وفشلها في حمل رسالة الله إلى العالمين.

ومع التتبع التاريخي للأمة المسلمة نجد أنه عند كل خلاف تخرج سلسلة من الفرق أو الجماعات، فعند قتال بنو أمية على المُلك، والغرق في فتنته، والبغي على الأمة فيه.. خرجت فرقاً متعددة، وكان ذلك من أحد الأمور التي قسمت الأمة، وفشل العقلاء في احتوائها! فذاقت الأمة الويلات بسببها، وصارت سُنة لمن بعدهم! بل وشرعن بعضها البغي والظلم! الذي جاء الإسلام ليحطمه من جذوره وقواعده.. وغاب "العدل والإنصاف" وحضر "الغلو والتظالم".

ومع الخلاف على مسألة الحكم، ومعالجة الظلم والتعاطي معه، خرجت فرقاً أخرى.. بين خارج بسيفه على المسلمين، وبين مختبأ في صومعته، وبين مستسلم لصاحب السيف، وكل يحسب نفسه صاحب الحق المطلق، وكل معه الدليل الشرعي!!

ومع الخلاف في مسائل الصفات والجدال في ذات الله، خرجت فرقاً متعددة.. وأراء شتى، تمزق الدين، وتُضيع روحه ومعانيه، وكل ينتصر لرأيه معتقداً الصواب التام الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومع الخلاف في مسائل القضاء والقدر، خرجت فرقاً متعددة، تتقلب في قضايا وأهواء شتى.

ومع الخلاف في مسائل الإيمان والكفر، خرجت فرقاً متعددة، يُبدع ويُكفر كل منها الآخر.

ومع الخلاف في الفقه، خرجت مذاهب شتى.. يُشنع بعضها على بعض.

ومع تدوين الحديث في مراحل متأخرة نسبياً عن المدارس الفقهية.. بدأ الصراع بين أهل الفقه، وأهل الحديث.

ومع هجوم الفكر المادي العلماني على الأمة بفعل المحتل، وبفعل الانبهار به، تفرقت الأمة، فكل يستحسن فكرة، ويقاتل في سبيلها!

وهكذا أصبحت الأمة كأنها رحم كبير، يُولد فرقاً وأحزاباً وجماعات وشيَعياً.. فذاق بعضها بأس بعض!

لقد كان هناك جزء من "حق" مع كل فرقة، ووجاهة فكرية لهم، ولكن لما اعتبروه أنه وحده "الحق المطلق" لا ينقصه شيء.. ودونه الباطل، ومخالفه هو العدو المبتدع أو الفاسق أو المرتد.. تركت عدوها الأصلي المتربص بها، وأعملت السيف فيما بينها، فحدثت الفتن الكبرى، ولم يحضر الإنصاف والعدل والصدق والإخلاص الذي يشير إلى "الحق" الموجود – عند كل جماعة – في شجاعة وبسالة.. ويُبين "الباطل والغلو" من جانب آخر، ويؤلف القلوب، ويحقن الدماء، بل حدث العكس..

إذا فشل سلاح تكفير المخالف، اخترعوا سلاحاً آخر لقتله، فخرجت فتاوى "قتل المبتدع"! وإن فشلت اخرجوا سلاح الطغيان وهو "القتل سياسة"!

ولا أتصور لمسلم أن يقول عن نفسه أنه هو وحده "الطائفة المنصورة" التي على الحق وحدها.. فالإسلام يربي أبناءه على "الوجل والخشية" من الله، وهم يأتون الطاعات – فضلاً عن المعاصي – فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60]

وفي سؤال عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن هذه الآية الكريمة: قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: "**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**" [سنن ابن ماجة / 3175]

ونجد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وزير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والرجل الثاني في دولة الإسلام النبوية، والخليفة الراشد المبشر بالجنة.. يسأل – حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وهو خائف: " أَنْشُدُكَ اللهَ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللهِ، يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا" [واللفظ بمعناه في مصنف ابن أبي شيبة / 38386]

نعم هكذا هو شعور المسلم، يرجو من الله أن يكون على الحق، ويجتهد في اتباعه، وينفتح قلبه لسماع الهدى أينما كان، وعند من كان.. ليس في الإسلام حزبية ولا عصبية ولا حمية جاهلية.. إنما هو الهدى، والدوران مع الكتاب حيث دار.

وشعور المسلم وهو يمضي في طريق ما يحسبه الحق.. فإنه يرجو أن يكون على صواب من الله، وإخلاص لله، فلا يدخل تحت جماعة يتعصب لها، ثم يضجع ويقول بكل وقاحة: الباقي كله في النار! فنحن الطائفة المنصورة!

فسبحان الله! ما هذا بخلق الإسلام ولا تعاليمه، فالإسلام لا بد وأن يُنشأ في القلب حالة من "الوجل والخشية" لله، والحذر والترقب في السير في طريق الهداية، خشية أن يضل عن سبيل الله..

وهذا الوجل هو ما يحطم "وثن الكبر" في النفس الإنسانية.. فالأحاديث النبوية جاءت تحذر من هذا الوثن الخطير:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** "، **قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**" [صحيح مسلم/ 92]

والكبر كما جاء في التعريف النبوي: "بطر الحق، وغمط الناس" هذا الكبر يحطم الحق الذي عند البعض – ولو جزء من حق – وينكره، ويستكبر عنه.. ومن ثم ازدراء وانتقاص واحتقار أصحابه، والاعتداء عليهم.

وهكذا نرى الأمراض سلسلة متصلة، يُسلّم بعضها لبعض، ومن مرض إلى ما هو أخطر منه: فاتباع المتشابه، إلى الفتنة والبغي، إلى التفرق والاختلاف، إلى ادعاء الحق المطلق، إلى الكبر والاعتداء على الناس بغير وجه حق.

وكلها أمراض تصد عن سبيل الله.. مثلما فعل أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران] فجاء الأمر بالاعتصام بحبل الله جميعاً وعدم الفرقة:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران]

فما أعظمها من آيات، وما أوضحه من سبيل.

***

حادي وعشرون: عبادة الطاغوت، ونُصرة الكافرين

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۝٤٤ وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ نَصِيرًا ۝٤٥ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّـهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّـهِ مَفْعُولًا ۝٤٧ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّـهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّـهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّـهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۝٥٢ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء]

تأخذنا سورة النساء في جولة جميلة، عميقة، تطوف بنا في عالم الواقع، وفي أغوار النفس الإنسانية؛ لترسم لنا معالم الطريق، وتُفصل – على طريقة القرآن البلاغية الإعجازية – جملة من الأحكام والتنظيمات للأمة المسلمة، وفي أثناء بيان الأحكام والتعاليم، تُبين لنا موقف من قبلنا من أهل الكتاب وسبب إعراضهم عن الهدى، وابتغاء الضلالة، فالقرآن لا يرسم لنا معالم الهُدى وسبيل الرشاد فحسب، بل يُبين كذلك طريق الضلال؛ ليحذره الإنسان، فكان القرآن الكريم هو البرهان والنور المبين.. كما جاء في خاتمة السورة مخاطباً الناس كلهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

وافُتتحت السورة الكريمة بدعوة الناس كلهم إلى تقوى الله، فهو خالقهم، ثم بيّنت جملة من الآداب والأحكام في: حقوق اليتامى، وحقوق النساء، وأحكام الزواج، وحقوق الميراث وأحكامه، وأحكام الأسرة، والمحرمات، والحدود، وبعضاً من قواعد الأخلاق والمعاملات، وبيان حقيقة الإيمان بالتحاكم إلى كتاب الله لا إلى الطاغوت، التحاكم إلى الحق لا إلى القوة الباطلة.. وموقف المنافقين من شرع الله ومن والجهاد في سبيله، والدعوة إلى القيام لله جَلَّجَلَالُهُ بالعدل والحق.

وهذا هو دين الله.. جاء ليحكم حياة الناس، وجاء ليُعرّف الناس الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والحق والباطل، والإيمان والكفر، والهداية والضلال، إذن فهو ليس عقيدة مجردة في الضمير فحسب، بل نظام حياة، يجب طاعة الله فيه فيما أمر، والتحاكم إليه فيما شرع، والإيمان بالكتاب كله، فالأمر ليس أهواء شخصية، ولا الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض.. بل التزام كل ما جاء من عند الله سواء فيما يخص العقائد والتصورات أو العبادات والشعائر أو التشريع ونظم الحياة، ولا فصل بينهم.

وهذه هي القاعدة الأصيلة الأصلية التي تقوم عليها الأحكام والحدود والتشريعات والأخلاق والتوجيهات والتصورات والقوانين.. قاعدة الاستسلام المطلق لـ "دين الله وكتابه" والإيمان والطاعة والقبول لكل ما جاء من عند الله.. وهذا هو الإيمان، فإذا ما ترسخ هذا الإيمان، جاءت التفصيلات التي تنظم حياة الأمة المسلمة كما تحدثت عنها السورة الكريمة.

ويقع الشرك والكفر عند التولي عن كتاب الله، والرغبة عنه لغيره، والإرادة والرضى بالتحاكم إلى ما هو دونه.. ثم ادعاء الإيمان تضليلاً وتخديراً للنفس وللآخرين! وتحدثت السورة الكريمة عن موقف "أهل الكتاب" و"أهل النفاق" من هذه القضية! إذ أنهم يدعون الإيمان، ولكنهم يُعرضون عن كتاب الله والتحاكم إليه.. الفعل الذي وصمه القرآن بالكفر.

ومن الحكمة البالغة أن تستعرض السورة الكريمة الأحكام والتشريعات، ثم تُبين لنا – أثناء السياق – نموذجاً من الذين أتوا الكتاب من قبلنا، كيف كان موقفهم من "شرع الله" وماذا صنعوا به؟ لتحذر الأمة المسلمة أن تقع فيما وقعوا فيه.. وتشرح السورة لنا من خلال النماذج العملية الواقعية صور الانحراف وعدم الإيمان، فتحدثت عن جملة متنوعة من مواقف أهل الكتاب منها ما هو جديد، ومنها ما هو على سبيل التذكرة والإشارة.. مثل: (الضلال والإضلال عن سبيل الله، تحريف الكلم عن مواضعه، العصيان والطعن في الدين، الغرور وعبادة الذات وتقديس وتنزيه ساحتها، الإيمان بالطاغوت.. وما يُعبد من دون الله، نصرة أهل الكفر والشرك، الحسد على الهداية والاستقامة، التمني الكاذب، الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، نقض الميثاق، الكذب والافتراء وقتل الرسل، أكل الربا، غلو النصارى في عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ).

كما تحدثت عن فئة المنافقين، وبيان تقاربهم مع موقف الكافرين من أهل الكتاب.. مثل: (إرادة التحاكم إلى الطاغوت.. والرغبة فيه، الإعراض عن كتاب الله والتحاكم إليه مع الصد عنه، خبث الطوية، والكذب، وادعاء الإحسان والتوفيق، الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، القتال في سبيل الطاغوت، الحرص على الحياة، تحريف الكلم، الرغبة في إضلال المؤمنين، اتخاذ الكافرين أولياء، الاستهزاء بآيات الله، اتخاذ موقف وسط بين الإيمان والكفر.. وتحديد الموقف عندما ينتصر أحدهما، الرياء والتكاسل عن العبادة، والخشية من نظرة الناس وكلامهم أشد من خشية الله، التذبذب بين الإيمان والكفر.. والتمزق النفسي).

والآن.. إلى بيان الآيات وموضوعها "عبادة بالطاغوت":

تتحدث الآيات عن موقف يهود من الكتاب الذي أنزله الله لهم هداية، فإذا بهم يشترون به ثمناً قليلاً، فباعوا الهداية، واشتروا الضلالة.. وهو تصوير يُبين حالة النفس الإنسانية المنحرفة التي تذهب بنفسها لتُضل نفسها عن قصد وعلم! وتنفق من أجل "الضلالة" وتنبذ "الهدى" كأن النفس

تشتري السموم، والخبائث، وتعرض عن الطيبات والمنافع، وتحسب أن هذا هو الصواب! وذلك من خراب النفس، وغواية الشيطان، وتزينه للباطل في القلوب المظلمة الصلدة.

وهذه النفس لا تطيق أن تجد آخرين يستجيبون للهداية، ويُعرضون عن الضلالة، ويريدون الرشاد.. فالنفوس المؤمنة مجرد وجودها واختيارها الصحيح، يكشف أمام النفوس الخربة المنحرفة حقيقة انحرافها، وضلالها! وهذه النفوس المظلمة لا تريد أن ترى النور فهو يفضحها، وفي نفس الوقت لا تقوى على الاعتراف بالكفر، إنما تريد أن تظل تدعي الإيمان! فهي لا تحتمل عار الكفر.. إنما تريد أن تمارس الكفر وتدعي الإيمان.

فإذا جاء أهل الإيمان الحقيقي، كشفوا تلقائياً كذب ادعاء النفوس الخربة المظلمة، فإيمانهم مجرد ادعاء يستر خلفه حقيقة كفرهم، ولهذا كله يريدون لأهل الإيمان أن يَضلوا مثلهم؛ حتى لا تُوجد نماذج واقعية تفضحهم، وتكشف خبث طويتهم!

والله جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يَعلم أعداء المؤمنين، ويتفضل سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بكشفهم للمؤمنين، فهو وليهم.. وهو ناصرهم، وهو الحمى والركن الركين الذي يتلجأ إليه المؤمنين، وهو القوة الوحيدة المتحكمة في هذا الوجود، وبه جَلَّجَلَالُهُ يقوم كل شيء، وهو سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قائم على كل شيء، فهو الحي القيوم، فكفى به ولياً، وكفى به نصيراً.

ثم تُفصل الآيات طرفاً من طريقة الإضلال عن سبيل الرشاد، وحال يهود وهم يبذلون غاية جهدهم في غواية المؤمنين.. فها هو فريق منهم يُحرّف الكلم عن مواضعه، فلكل آية من آيات الله مواضع وقواعد تنزل عليها؛ لتؤدي حكمها وغايتها، فإذا بيهود تحرّف الكلم عن مواضعه؛ لتَضل وتُضل عن سبيل الله، فهي لا تقوى على الكفر والاستعلان به.. فتلجأ إلى هذه الحيلة، بـ "التحريف"! وعند سماع آيات الله فإنها تتبجح بـ "العصيان" وتصر عليه بعد السماع! وهي نفوس عصية ملتوية كئيبة مظلمة صلبة متنطعة لا تبتغي الهداية، ولا تريد الرشاد.. بل تتبجح على الرسل، وتتطاول عليهم! وتحاول سبهم بطريقة ملتوية حقيرة تكشف عن نفوس صغيرة وضيعة.. نفوس

أضيق من سَم الخياط، لا تتسع إلا للباطل والضلال، وتضيق بالحق والخير، فتطعن في الدين بهذا الأسلوب المنحط، ثم في النهاية تحسب نفسها من الذكاء والفطنة في خداعها للمؤمنين!

ولو أنهم أطاعوا، وقالوا خيراً، واستمعوا في أدب، وبحث عن الحق والحقيقة.. لكان خيراً لهم وأقوم لنفوسهم الذليلة المُستعبَدة! ولكن لما رغبوا عن الهدى، وبذلوا جهدهم وقوتهم في شراء الضلالة، ولما سخروا من الرسالة ومن الرسول، ولما طعنوا في الدين، ولما حرّفوا كلام الله وتجرؤوا على كتابه؛ لعنهم الله بكفرهم؛ فلا يؤمنون إلا قليلا..

فطردهم الله من رحمته، وفضله، وتركهم لأنفسهم وكفرهم فلم ينالوا خيراً بحالهم هذا، حتى يؤمنوا بما أنزل الله، ويستسلموا له، وهو إيمان يتوافق مع صحيح كتابهم، ومصدقاً له.. وهذه فرصة عظيمة وفضل عميم ورحمة واسعة من الله.. الإيمان بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر، وهو ليس بدعاً من الرسل.. فمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ جاء بما جاء به كل رسول من عند الله، فليُعجلوا الإيمان بالله من قبل أن يأتيهم العذاب، واللعنة، وقبل أن يختم الله على أبصارهم وأسماعهم، وقبل أن يضلوا عن الطريق، ويرتدوا على أدبارهم خاسرين تائهين حائرين؛ فتتفرق بهم السبل عن سبيل الله.. أو يلعنهم الله كما لعن أصحاب السبت من الذين حرّفوا كلام الله، وتحايلوا على آياته، فمسخ الله أرواحهم - أو أجسادهم - في صورة حيوانية منحطة، كنفوس الخنازير التي لا تقع إلا على القاذورات، أو القردة التي تهيم تتقافز من مكان إلى مكان لا تهتدي سبيلاً، ولا تعرف طريقاً.

وهذا التهديد الرعيب إن أراده الله فما له من دافع، وكان قدراً مقدوراً، وأمراً مفعولا.. فلا راد له، فهو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وهذا الإله المطلق القدرة والكمال والجلال أولى بالوجل والخشية منه، واللجوء إليه، والتوكل عليه، والتعلق به.. لا بأوهام النفوس الذليلة وأهواءها الدنيئة، وهذا الإله أولى بالاستجابة له، لا الاستجابة لغواية الشيطان.

وباب التوبة مفتوح، والوعد بالمغفرة قائم، ولكن الله لا يقبل أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن مات على الشرك فقد افترى إثماً عظيماً يُوجب لصحابه النار، ولن ينفعه شيء من دون

الله، وليس له قرابة عند الله، ولن يُحابيه الله لأنه أرسل له رسول وأنزل له كتاب، ولن تُفلح الأماني الكاذبة الباطلة، ولن تَصدق تزكية النفس لنفسها، فالله وحده هو الذي يزكيها ويطهرها ويرفعها، وستُجزى كل نفس بما تسعى، وليس للإنسان إلا ما سعى، والله هو الذي سيضع الميزان، فلا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة - لا شرك فيها ولا رياء - يضاعفها ويؤتي من لدنه أجراً عظيماً.. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتُحذر الآيات النفوس الذليلة الحقيرة المقهورة من تقديس ذاتها، أو عبوديتها لنفسها، أو تطهير وتنزيه ساحتها.. فالنفوس الحقيرة ستشعر بالنقص والفراغ والذلة، الأمر الذي معه لا تستطيع "الشجاعة" في مواجهة الذات، و"القوة" في الاعتراف بالخطأ، و"الرغبة" في العلاج، و"الصبر" على السمو والتزكية بلا رغبة في الاستعلاء والكبر! ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم (32)].

هذه النفوس الحقيرة ستحاول - وما أكثر حيل النفس - إلى الظهور بمظهر مزيف، وتستعلي وتستكبر وهي حقيرة فارغة ضيقة، وهذا التصرف سيقطع عليها سبيل الهداية، فلا هداية لنفس لا تعترف بالخطأ، ولا هداية لمُتكبر، ومن يريد التزكية والسمو والرفعة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يزكي، ويطهر النفوس، فهو الملجأ الوحيد، وعند اللجوء إليه تكون الرغبة في التزكية والسمو من أجل وجهه الكريم وحده، فالله لا يغفر الشرك - ومن ضمن الشرك الرياء - والتحذير السابق في آية: {إن الله لا يغفر أن يُشرك به} يشير إلى شيء من هذا المعنى.

إن رغبة النفس في السمو وشعور التزكية عميق، وهي ربما تفعل ذلك بصورة تلقائية مما يُسمى "الاعتداد بالذات" أو "الثقة الزائدة بالنفس" ويجب أن تتجه هذه الطاقة وهذه الرغبة نحو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتكون التزكية من عند الله، ومن أجل الله، وابتغاء مرضاة الله.. وهي تزكية ليست للاستعلاء على الناس، ولا للتميز عن الخلق، ولا للاستكبار عليهم، إنما تزكية لتسمو الروح وتتطهر لتتصل بالله، ولتلجأ إلى الله، ولتأنس بالله، ولتتعلق بالله.. وفي هذه الحالة سيصغر أمامها الخلق

كله، والكون كله، فهي في رحاب الملكوت الإلهي! مستغنية بالله عن كل شيء، وعندما تكون في هذه الحالة من الغنى.. سينظر إليها الناس حتماً بعين الإعجاب والتقدير والثناء، وهو أمر لا يشغل بال الروح ابتداء، فلا يشغلها ثناء ومديح أو قدح وإعراض، فهي مستغنية بالله عن كل غيره..

ومشيئة الله المطلقة لمن يُزكيه الله.. هي - بإذنه - لأولئك الذين يريدون الله، ويبتغون وجهه الكريم، وليس في قلوبهم مثقال ذرة من كبر؛ فهي إذن ليست للذين قالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه} وليست هي للذين قالوا: {لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات} وليست هي للذين يتمنون على الله الأماني الكاذبة الباطلة.. فمن يعمل سوءا يجز به، ولن يظلم الله أحداً مقدار خيط رفيع أو نقرة صغيرة أو مثقال ذرة: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء] وليست هي للذين يفترون على الله الكذب، ويُضلون عن سبيل الله، ويشترون الضلالة، ويبيعون الهدى بثمن قليل - وكل الأثمان قليلة - وليست هي للذين يُحرّفون الكلم عن مواضعه، ويكذبون على الله فكفى بذلك إثماً مبيناً؛ يُدنس النفس، ويُفسد القلب، ويهوي بالروح إلى أسفل سافلين، إلى صورة ممسوخة كالقردة والخنازير أو أضل!

وهكذا رأينا الذين أُتوا نصيباً من الكتاب: [يشترون الضلالة، يرغبون في إضلال غيرهم، يحرفون الكلم، يتطاولون على الرسالة والرسول، يطعنون في الدين، يشركون بالله، يزكون أنفسهم على ما فيها من إثم وضلال]!

***

ثم تأخذنا الآيات إلى رحلة أخرى، ورؤية جديدة أيضاً في الذين أُتوا نصيباً من الكتاب: {ألم تر إلى الذين أُتوا نصيباً من الكتاب} ذكرت مرتين: الأولى - كما سبق البيان - يشترون الضلالة، ويُحرفون الكلم... إلخ. والثانية: وهي النتيجة والطريق الذي ينتهون إليه وهو: "الإيمان بالجبت

والطاغوت"، وينصرون المشركين على المؤمنين، ويحسدونهم على هداية الله لهم، وفضله عليهم! وهذا هو الضلال البعيد الذي لا عودة منه!

لقد أعطاهم الله الكتاب الذي فيه النور والهداية والبرهان، ولكنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، وطعنوا في الدين، فصاروا حرباً على كتابهم، وطمسوا نوره، وحرّفوا معانيه.. فكان لا بد لهم من إيمان جديد وهو: الإيمان بـ "الجبت والطاغوت". والجبت: هو كل ما يُعبد من دون الله من أصنام وأوثان أو تصورات وأفكار. والطاغوت: مشتقة من تجاوز الحد والطغيان.. فالطاغوت قد يكون أحكام وتشريعات باطلة يتحاكمون إليها من دون الله، فتكون هي "طاغوت" يُعبد من دون الله، ويتجاوزون به حدود الله، ويطغون به على مراد الله، ويمارسون "الطغيان" على خلق الله، وتعبيدهم للبشر من دون الله، وقد يكون "مفاهيم وأفكار وتصورات" يجعلونها بديلاً عن الاعتقاد الصحيح في الله والكون والإنسان والحياة، فتكون هذه المفاهيم والنظريات "طاغوت" يُعبد من دون الله، ويتجاوزون به الإيمان بالله حق الإيمان، ويطغون على الناس بفرض هذه النظريات الوضعية بالقوة وبسلطة الدولة؛ فيُعبِدون الناس لغير دين الله وشرعه، وقد يكون الطاغوت "شخص أو نظام" يفرض نفسه بالقوة على الناس، ويُطاع في معصية الله، فيمارس "الطغيان" على الناس، ويستعبدهم، ويذلهم، ويفرض عليهم ما حرّم الله، أو يُحرم ما حلل الله؛ فيمارس الشخص أو النظام "الربوبية" على خلق الله.. والطاغوت بالجملة: هو من يمارس "القوة القاهرة" لصرف صورة من صور العبادة لغير الله سواء في الأفكار والتصورات أو النظم والحكم أو التشريعات أو التحليل والتحريم من دون الله أو صرف العبادة والشعائر لغير الله، فالطاغوت: هو عبادة القوة الباطلة، والاستسلام لها، والدوران مع صاحب القوة الظالمة حيث دار.

ويبدو مناسبة الآيات أنها تقصد "الحكم والتشريع" والطغيان به على الخلق سواء بممارسة الربوبية بفرضه بالقوة على الناس، ومعاكسة ورفض تشريع الله جَلَّجَلَالُهُ وهدايته.

فنجد الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالاثنين معاً: الجبت: الذي يُعبد من دون الله باختيار الناس ورغبتهم. والطاغوت: الذي يُعبد من دون الله بقهر الناس وإذلالهم والطغيان عليهم. وهذا محض الكفر بالكتاب، ومحض الجرأة على الله.. ولكن النفوس الذليلة التي اشترت الضلالة، وحرّفت الكلِم من قبل لا بد وأن تنتهي لهذا الطريق، فأصبحوا يقاتلون في سبيل الطاغوت.. أما الذين آمنوا فيقاتلون في سبيل الله، وهذا مفرق الطريق بين الإيمان والكفر.

وها هي قد آمنت بالجبت والطاغوت، لتنصر المشركين وتؤيد كفرهم، ولتقول للمشركين من قريش: أنتم أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصحبه، عناداً وكفراً وصداً عن سبيل الله، واستباحة لكل شيء من أجل إضلال المؤمنين؛ حتى يكونوا في الكفر سواء، وأولئك الذين لعنهم الله – وحقت عليهم اللعنة عدلاً وجزاء وفاقا – ومن يلعن الله، فلن تجد له نصيراً.

وما سر هذا الكفر؟! أهم يملكون رحمة الله؟! أم لهم نصيب من مُلك الله؟! لماذا يتخذون هذا الموقف المعاند للرسالة والرسول وقد جاء مصدقاً لما معهم؟! بل لماذا قتلوا الرسل والأنبياء من بني إسرائيل من قبل؟!

إنها الذلة والدناءة والصغار واللعنة.. ولو كانوا يملكون نصيباً من المُلك لبخلوا به، ولن يعطوا للناس مقدار نقرة في ظهر النَّواة! لن يعطوا هداية ولا رحمة ولا عطاء ولا خير، فهي نفوس شديدة الشح والضيق والانغلاق.. نفوس أكلها "الحسد" الذي يغلي في الصدور، الحسد الذي يذهب بالعقل فيجعله يؤمن بالجبت والطاغوت، ويكفر بالله، نكاية في أهل الإيمان، الحسد الذي يجعل صاحبه يبيع كل شيء من أجل إرواء هذا الوحش الذي يحطم النفس ويمزقها، ويشقى بها، فلا تسعد، ولا تهنأ مهما كان لديها.

وها هم قد حسدوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن جاءت البشارة فيه، وجاءت من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام.. وآل إبراهيم آتاهم الله الكتاب والحكمة والمُلك العظيم، فماذا فعل بنو

إسرائيل لما جاءتهم الأنبياء من نسل إسحاق والد يعقوب "إسرائيل"؟! منهم من آمن به – وقليل ما هم – ومنهم من صد عنه، وكفى بجهنم سعيرا.

رحلة عميقة في أغوار النفس الإنسانية، تكشف لنا أحوال الذين أُتوا نصيباً من الكتاب.. ماذا يمكن أن يحدث لهم إن انحرفوا عن الكتاب؟ ماذا يمكن أن يحدث إذا حل "الحسد" محل "الرحمة والبلاغ وحمل الرسالة" والرغبة في هداية الناس ابتغاء مرضاة الله؟ رحلة كانت بدايتها "الضلال" ونهايتها الكفر بالله، والإيمان بالطاغوت.. واللاحق بأهل الأصنام والأوثان ونصرتهم على المؤمنين! ثم في النهاية الحسد الذي يشقى بالإنسان فلا يسعد أبداً، ثم الجزاء الأخروي.. جهنم، وكفى بها سعيرا.

***

ولكن.. لماذا تؤمن النفس بالطاغوت، وتكفر بالله؟

يأتي الإيمان بالطاغوت لعبودية النفس لـ "المادة" والمحسوس من الأشياء، وعدم قدرتها على الإيمان بـ "الغيب"، وهذا ما يحدث للنفوس الوضيعة.. المُستعبَدة المُستذلة لغير الله، إذ يحدث لها حالة من الضيق والوحشة التي لا تتسع لرؤية أي شيء وراء عالم المادة، ومن ثم سيؤدي ذلك حتماً إلى "الكفر العملي" حتى وإن ظلت تدعي لنفسها "الإيمان الحق"! فهذه إحدى "الحيل النفسية" لتدفع عن نفسها التهم الموجه إليها..

فهي تمارس الكفر في أوضح صوره، ثم تريد الشعور بالتزكية والسمو – ولو بالكذب وخداع النفس والآخرين – ذلك أن الكفر يورث مزيداً من الضيق والوحشة، الأمر الذي تحتاج معه النفس إلى شعور الطهر والقداسة! وتشتعل نيران الحسد عندما ترى أهل الإيمان الحق، وهم ماضون في طريقهم لا يلتفتون للناس، ولا يزكون أنفسهم، ولا يشغلهم أحد إلا الله، يحسدونهم على هذا الغنى، وراحة البال، وصدق العزم، وبشاشة الإيمان، فيتجهون إليهم بالحرب، والطعن فيهم، وفي

دينهم، وفي أخلاقهم، ويُصدرون كل حقد صدورهم ووحشتها إلى المؤمنين.. علهم يتخلصون من هذه القاذورات بقذفها على غيرهم!

إن الإيمان بالله فيه: الاستسلام المطلق لله، وفيه الحق والعدل، وولاية المؤمنين، وانتظار الجزاء الأخروي، والزهد فيما عند الناس، وسلامة الصدر، ورغبة الخير لكل الناس.

والإيمان بالطاغوت فيه: الشرك والرياء، وفيه الطغيان والظلم، وولاية المشركين والكافرين، والشح والبخل، واستعجال الغنيمة في الدنيا، وأكل أموال الناس بالباطل، والاستعلاء عليهم، والحقد والحسد والبغضاء، والرغبة في إضلال الناس، وعبادة قوى الباطل.. ونفاقها والدوران معها حيث دارت.

ومن ثم.. فإن الشرك والرياء، والإعراض عن كتاب الله، وعن الاستسلام المطلق له؛ لا بد وأن يؤدي في النهاية إلى الإيمان بـ "الطاغوت"، والدخول في هذه المنطقة المظلمة من "الطاغوتية" لا بد وأن يورث التظالم والتحاسد والبغي، ولا بد أن يؤدي إلى مزيد من الكفر والجحود والإعراض، والانزلاق إلى عمق التيه البعيد، والضلال المبين.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقعت الأمة المسلمة فيما وقع فيه يهود من الإيمان بالطاغوت، ومظاهرة المشركين على المسلمين! وكانت بداية ذلك مبكرة في تاريخ الأمة، فللإيمان بالطاغوت أشكال وصور مختلفة بحكم امتداد هذه الأمة العالمية، وكما لاحظنا في الأمراض السابقة أن القرآن الكريم كان يحكي عن أحوال بني إسرائيل، ويترك قصتها عبرة للأمة المسلمة.. حتى وإن كان حالها – وقت سماع الآيات ونزولها – بعيداً عن خصال بني إسرائيل، ولكن القرآن العظيم يتركها زاداً وشفاء للأجيال القادمة من الأمة، التي ستواجه نفس أمراض بني إسرائيل..

ولكن في هذا المرض "عبادة الطاغوت" ومنه: "الإعراض عن التحاكم إلى كتاب الله وما أنزله من شرع" وجدنا الآيات تقص علينا من نبأ يهود، ثم هذه المرة تُسجل وقوع المرض في الأمة المسلمة، في هذه البداية المبكرة، ويتوقف طويلاً عند المرض، وعند المريض.. للتأكيد على خطورة ذلك، وسَمى القرآن المرض بـ "النفاق" وسمى الذين في قلوبهم مرض بـ "المنافقين" وجمعهم مع الكافرين!

فجاء موضوع هذه الآيات يدور في ثلاثة محاور:

الأول: أحول يهود وإيمانهم بالطاغوت.

الثاني: تكرار نفس الموقف مع المنافقين، وجمع أفعالهم جميعاً في مصير واحد - بعيداً عن المسميات والشارات - في جهنم جميعاً.

الثالث: مواجهة الطاغوت - أياً كان - بالجهاد في سبيل الله، فهو علاج المرض، وعليه يجب مواجهة كل مرض بما يكافئه من وسائل.. السيف بالسيف، والحجة بالحجة، والبيان بالبيان.

فقال تعالى - بعد بيان أحوال يهود وإيمانهم بالطاغوت - في المنافقين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّـهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّـهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّـهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّـهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّـهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]

فعبدة الطاغوت: أولئك الذين (يخضعون، ويتبعون، ويؤمنون) بطغيان (القوة الباطلة، والسلطان الظالم، والقهر، والمال) الذين ينسحقون أمام الضغط المادي ويستسلمون له، ويستعذبون الذل، والضعف، والهوان.. فيبيعون أنفسهم، ودينهم، وكرامتهم.. وحياتهم من أجل حياة الطاغوت!

هؤلاء - وإن زعموا التوحيد - فهم مشركون بالله، موحدون للطاغوت.. مؤمنون بالقوة المادية القاهرة الظاهرة، يدورون معها حيث دارت، ويتغيرون معها حيث تغيرت.. الحلال ما أحله الطاغوت، والحرام ما حرّمه الطاغوت، والدين ما شرّع الطاغوت.. وإذا مات هذا الطاغوت، وجاء غيره منقلباً على من سبقه، جاعلاً حلال من سبقه حراماً.. وحرامه حلالاً، خضع العبيد، ورضوا، واتبعوا، وصفقوا، وإن شئت لعنوا مَن كانوا يعبدونه مِن قبل! إنهم دجاجلة لكل طاغوت!

واليهود كانوا مضرب المثل في عبادة الطاغوت - رغم زعمهم التوحيد - ولما استمرأوا الذل، واستعذبوا القهر، قلّدوا الفراعنة والطواغيت، ولم يتبعوا الأنبياء والمرسلين.. ومن الأمة المسلمة من اتبع سنن اليهود، فعبدوا القوة الطاغية، والقهر المادي.. ولم يتبعوا الحق، اتبعوا من يرهبهم ويرعبهم، وصار كل همهم ليس كيفية الخلاص من هذا الاستبداد والطغيان، وليس كيفية التحرر من العبودية المذلة، وليس معرفة قيمة الحرية التي وهبها الله للإنسان - كل الإنسان - بل صار كل همهم هو البحث عن موطن قدم تحت حذاء الطاغوت، وكيفية السلامة من بطشه، حتى ولو كان ثمن هذه السلامة دينهم، وكرامتهم، وحريتهم، وحياتهم! وأحسب أن هؤلاء ليسوا بمنافقين! بل مخلصون في عبادة الطغيان والقهر.. وإن ذهب الطغيان لطاغوت آخر تحولوا نحوه بكل إخلاص! ضلوا ضلالاً بعيداً.. بعدما غابت عقولهم، وانتكست فطرتهم.

والذين يعبدون الله وحده.. أولئك الربانيون (القائمون بكتاب ربهم) يشهدون لله وحده بالقسط، ويقومون بالحق.. ويشهدون بالحق، ويقومون بالقسط.. أصحاب عقول راشدة، وفِطر سوية.. أولئك الذين لا يدورون مع السلطان الظالم حيث دار، إنما "يدورون مع الكتاب حيث دار"

ومع الحق عند من كان.. لا يخضون لذل المستبدين والطواغيت، ويتبعون كتاب ربهم، ويؤمنون برسالة دينهم، يبلّغون رسالة الله، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله.

ومن أشكال الإيمان بالطاغوت: (طاغوتية الفكر، طاغوتية الحكم، طاغوتية التشريع، طاغوتية الأفكار والنظريات، طاغوتية المادة).

طاغوتية الفكر: أدى ظهور الفرق والاختلاف والتفرق في الدين، إلى اعتقاد "الحق المطلق" ورمي كل فرقة الأخرى بـ "الزندقة والكفر" أو "التبديع والتفسيق"، ولا مجال لإعمال العقل والفكر لنزع فتيل التفرق الظالم، فلا بد من "التماهي الكلي" و"الذوبان الكامل" في معتقد كل فرقة وإن كان فيه باطل.. وتم فهم "الطائفة المنصورة" على أساس أنها جماعة خاصة من الناس تَثبت هكذا بمجرد "الادعاء" وعليه يجب الدخول فيها دون نقد أو مناقشة، ولم يتم فهمها على أساس "صحة ما تحمله من أفكار وأعمال توافق الكتاب وتدور معه حيث دار".. وتؤدي – في النهاية – إلى: استقامة الإنسان، وصلاح المجتمع، والحق والعدل في سياسة الحكم والمال.

وعليه، تم لكل فرقة عملية "التخليق الذاتي" للحق المطلق، وتخليق كل معاني الخير لأنفسهم، وكل صور الشر لغيرهم، ومن هنا نشأت "طاغوتية الفكر" الذي وللأسف كان يدعو لقتل المخالف باسم "الابتداع في الدين"، والذي كان يمارس "إرهاباً فكرياً" على كل من يحاول الفهم أو النقد أو المناقشة، وهذا الإرهاب لم يحفظ حتى جناب العلماء والأئمة الكبار، فكل من يعترض أو يقف أو ينصح أمام "طواغيت الفكر" فهو مبتدع أو فاسق أو يُتوقف في كفره أو كافر ! وهذا الأمر هو الذي يؤدي إلى تزكية النفس وعبودية الذات التي أشارت إليها الآيات أعلاه.

وأدى ذلك إلى الانحراف في فهم الكتاب والسنة.. وأصبحت آيات الله تُنسخ لا أقول بأحاديث آحاد.. بل بأقوال الرجال! وأما السنة فأي حديث يصطدم مع عملية "التخليق الذاتي للحق المطلق" فيتم تمزيقه، والبحث عن أي طريقة لتضعيفه، وبطبيعة الحال فلن يكون من الصعوبة بمكان أن يُرد كلام الأئمة الكبار في أي مسألة، بل إنه حتى عندما يعتمد البعض شيخاً يجعله هو قطب الدين

ومحوره، إذا وجد له كلاماً يصطدم مع تم تخليقه من "حق المطلق" فإنه يتصور أن كلام الشيخ "مدسوس عليه"! ولا يُنسب إليه.. فأي عقبة تقف في طريق التخليق الذاتي للحق المطلق.. يتم نسفها تماماً!

فجاءت التوجيهات النبوية في مواجهة هذا الطاغوت بـ : ("الدوران مع الكتاب حيث دار"، و"عدم تزكية النفس وتقديسها"، و"عدم الكبر برد الحق الذي عند الناس، وعدم انتقاصهم وازدرائهم").

والفكر لا ينمو إلا في بيئة من الحرية والتسامح والصدق في الوصول إلى الحق، والتجرد الخالص لله جَلَّجَلَالُهُ.. وعندما يتم سجن عقول الأمة في سجون "طواغيت الفكر" فقد أصبحت أمة من السفهاء، تُقدم عقولها قرابين لهذه الأوثان.

وهذا الأمر أدى إلى "رسوخ" الملك العضوض في الأمة، وسلّمها بكل سهولة ويسر إلى "الملك الجبري والطواغيت" وسجن اهتماماتها وحياتها في التفاهات وسفاسف الأمور.

ومن جانب آخر تم ممارسة الإرهاب الفكري من خلال "كهنة السلاطين" في تعبيد الأمة للطغاة – ظلمة كانوا أو خونة! – وقطع الطريق على وعي الأمة وفاعليتها، وأسرها، وسجنها، وحاصرها باسم الدين والفتوى تارة، وتحت وقع الإرهاب المادي تارة، فسُجنت الأمة بـ "الإرهاب الفكري المعنوي" و"الإرهاب المادي الطاغوتي"! وفُتحت لها أبواب الفسوق والفجور، وأُغلق عليها الانشغال بقضاياها المصيرية، وعودة ريادتها، ووحدتها، وحمل الرسالة، باسم الابتعاد عن "فتنة السياسة" فتم التأصيل لـ "العلمانية" باسم الدين! ومن ثم تحويل الأمة إلى قطيع يرعى من أجل "الطعام والتكاثر"!

طاغوتية الحكم: بدأ "الملك العضوض" بالانحراف عن شرع الله في سياسة الحكم والمال، فتم اغتصاب شورى الأمة، وقتل فاعليتها، واستباحة دمائها، وإرهابها بالسيف، وفي سياسة المال: تم الاستئثار بالمال، وتَمَلّك الحاكم وأسرته ومنظومته الأمة والثروة، وأصبح الحاكم بعد أن كان مجرد

موظف يعمل لدى الأمة، ويقوم فيها بالكتاب والسنة.. خلافة عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، أصبحت الأمة مجرد قطيع يُغدق عليه الحاكم متى شاء، ويمنعه متى شاء! في صورة مقلوبة للدين والشرع!

وأصبح مصير الأمة كلها – وهي تحمل أمانة رسالة الله إلى العالمين – مُعلق بتقوى الحكام وخشيته من الله، ويأتي كيفما اتفق، لا بإرادة الأمة، ولا ببحثها عن الأصلح والأتقى!

وتُرك للأمة بقية الشرع من أحكام العبادات، وبعض المعاملات.. ولكن بعيداً عن أي شيء يؤثر في "سياسة الحكم والمال" التي اغتصبها الحاكم ومنظومته، وحاد فيها عن الشرع.

وفي ذلك جاءت التوجيهات النبوية تقول: "... **أَلا إِنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ** "، **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ:** " **كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ** " [المعجم الكبير للطبراني / 172]

ولما جاء الملك الجبري والطواغيت: كانت الصورة أشد وأشنع وأفجع.. فصار هذا المُلك والحكم يتحكم فيه العدو علناً أو من وراء ستار.. مجرد "أنظمة وظيفية للمحتل"، وأُعمل الظلم في كل شيء، والمنهجية الصارمة في قهر وإذلال الأمة، حتى أصبحت في ذيل الأمم، وحتى فتكت بها أمراض الاستبداد، وممارسة السحق الرهيب عليها كلما حاولت النهوض والقيام، وصار الفساد والظلم والطغيان مكونات أساسية وطبيعية ومألوفة في هذا الحكم، وصار ذلك عرفاً لا يتنكر له الناس، بل صار الفساد والطغيان كالماء والهواء! يتنفس الناس الفساد في هذه الأنظمة في كل مجال ومكان.

طاغوتية التشريع الباطل الظالم: وبدأ – كما ذكرنا – بالانحراف عن الشرع في سياسة الحكم والمال، وانتهى إلى نبذ الشرع بالكلية، وتحريم ما حلل الله، وتحليل ما حرم الله، وبيع آيات الله بثمن قليل،

واستيراد قوانين أخرى بديلة عن شرع الله وكتابه، وإن بقيت في بعض أنظمة الحكم أحكام الميراث والزواج، وحتى هذه لم تسلم، فأصبحت أحكام الميراث تمييزاً للرجل، وأحكام الزواج اضطهاداً للمرأة! وهكذا يُقال علناً بكل تبجح في بلاد الإسلام.

وأصبحت هذه القوانين الجائرة تُفرض بسلطة الدولة، فيمارسون "الربوبية" على خلق الله، ومحاولة تعبيد الناس لغير الله!

طاغوتية الأفكار والنظريات: فأصبحت النظريات الوضعية الغربية من: مادية وجودية وإلحادية... إلخ تُفرض فرضاً على أبناء المسلمين سواء في الجامعات أو في الإعلام أو في صياغة أشكال وصور الحكم، وأصبحت هي "العلم الصحيح" و"التقدم الحضاري" الذي يجب أن ينبني عليه المستقبل، ومحاصرة التصور الإسلامي، ومحاربته، والطغيان على أهله، وعلى مناهجه.

طاغوتية المادة: وتأتي هذه نتيجة لطغيان الحكم والتشريع والفكر، فيتحول الصراع على المادة، ومن أجل المادة هو محور حياة الناس، وهو الشيء الوحيد المعتبر في فكرهم، وسلوكهم.. وتم صياغة الحياة ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية، لتجعل من المادة إلهاً، تُسحق عنده كرامة الإنسان، وتحوله إلى آلة لتضاعف الإنتاج!

وكل طاغوت وطاغوتية لا بد وأن يصحب معه الظلم والفساد والطغيان، الذي يُوقع البأس الشديد بين الأمة، ويُورثها الحقد والحسد والبغضاء الذي يحلق الدين، ويؤدي إلى التفرق بغياً وعدواناً.. ولا بد وأن يأتي ومعه "ولاية الكافرين" ومظاهرتهم على المسلمين.. كما جاء في الحديث الشريف: "**وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**" [سنن ابن ماجة / 4019]

ووقعت ولاية الكافرين في الأمة في مرحلة "الملك العضوض" – في بعض الفترات – وفي مرحلة "الملك الجبري والطواغيت" في كافة الفترات، بل أصبح أعداء الأمة التاريخيين هم الحكام الأصليين والفعليين!!

وكانت تأتي ولاية الكافرين طمعاً في الحفاظ على المُلك، وقمع المسلمين.. والصراع بين المُلوك!! أما في عصرنا الحالي، فلم تعد الولاية بالمعنى السابق، إنما الحاكم نفسه مجرد جندي يُقدم فروض الولاء والطاعة لسيده المحتل! وإذا غضب عليه أو انتهت مهمته استبدله بغيره، والأمة تغط في نومها العميق، أو تعاني من أمراضها التي تفتك بها!

والفرق بين الملك العضوض والحكم الجبري:

بدأ الملك العضوض على يد بني أمية، عن طريق الاستبداد بالمال والحكم لهم – دون بقية الأمة! – وبهذا نقضوا عُرى الإسلام في جانب الحكم، وبدّلوا سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في جانب الخلافة والقيادة، وتبعهم على هذه السنة القبيحة من جاء بعدهم.. حتى نهاية الدولة العثمانية، وقد كان صلاح الملوك يأتي كيفما اتفق – دون مشورة الأمة واختيارها – وقد كان يأتي من حسن التربية وتقوى الله، أو في اللحظات الحرجة التي تمر بها الأمة – كغزو التتار والصليبيين – ولكن رغم الانحراف في جانب الحكم والمال.. لم يكن ملوك "الحكم العضوض" في حرب مع الإسلام ذاته، ولم يكونوا في عداء مع الأمة المسلمة.. لقد فتنهم الملك وحب السلطة والمال، ولكنهم في ذات الوقت كانوا جزءاً من هذه الأمة، يُدافعون عنها، ويَدفعون عنها الأخطار الخارجية، ولهم سيادة وقوة.. فـ "الصراع الفاسد الباطل" كان داخلياً على الأحقية بالملك والسلطان.. و"الصراع الصحيح الحق" كان خارجياً لدفع العدوان عن الأمة المسلمة، ونشر رسالة الإسلام، وإن أصابها دخن بفعل "فتنة الملك".. ولم يحصل تآمراً على الأمة المسلمة – إلا في حالات نادرة من ملوك الطوائف – ومن حصل منه التآمر كان مصيره القتل، واللعنة.. ولهذا استمر تواجد الأمة المسلمة بحضارتها العريقة رغم فقدان "الخلافة الراشدة".

أما في الحكم الجبري: وبعد سقوط الدولة العثمانية كآخر مظاهر "الملك العضوض" تمت السيطرة على "العالم الإسلامي" أو كما كان يسميه الاحتلال الغربي حينها "الرجل المريض"، ونجحت الحملات الصليبية أخيراً في تفتيت ووراثة العالم الإسلامي والسيطرة على القرار السياسي

والاقتصادي والثقافي فيه، ومنع أي محاولة لعودة هذا التكتل العملاق من جديد. وتم تقسيم العالم الإسلامي عبر اتفاقيات قامت بها بريطانيا وفرنسا وروسيا.. لإضعافه، وإحلال "الدولة القومية" بديلاً عن "الخلافة الإسلامية" وجاءت من ورائهم أمريكا لترث الإمبراطورية البريطانية، ولتحمل مشروع جديد لتقسيم العالم الإسلامي ليكون أشد ضعفاً، وأبعد عن القوة والاتحاد.

وأصبحت "مؤهلات الحاكم" – سواء أكان ملكاً أو رئيساً – في الدول القومية – تحت "الحكم الجبري الأمريكي والأوروبي" – أن يكون خائناً للإسلام، محارباً له.. وأن يبيع أمته، ومقدراتها، وثرواتها، وأن يحافظ على مصالح أسياده وأولياء أموره.. ويصبح ك "الكلب المسعور" تجاه دينه وأمته، ومن يحاول الاستقلال والسيادة، ومن يحاول الدفاع عن الإسلام، ومن يحاول الحفاظ على مقدرات الأمة وثرواتها، بل ومن يُظهر قليلاً من المروءة والوفاء والصلاح.. يكون مصيره العزل أو القتل أو الانقلاب، ثم يسترون هذه الخيانة للدين والأمة بمسابقات القرآن الكريم، والاحتفال بليلة القدر، وبالمولد النبوي الشريف... إلخ؛ ليظهر الخونة أنهم حماة الدين والوطن!

والواجب – شرعاً وحضارة وتاريخاً – على الأمة أن تحشد أبناءها وعلماءها لمعركة التحرير من هذا الاستبداد والطغيان؛ لتعود ليس مرة أخرى إلى "الملك العضوض" ولكن إلى "الخلافة الراشدة".. الخلافة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِ وَسَلَّمَ في قيادة أمته على كتاب ربها، وسنة نبيها التي فيها الحكم بالحق والعدل، والشورى والحرية.. وعلى الأمة أن تقطع الطريق على "دجاجلة الحكم الجبري" الذين يعبدون الطاغوت من دون الله، ويُركِعون الأمة للخونة والأعداء بزعم وأد الفتنة.. ألا في الفتنة سقطوا.

وعلى الأمة أن تدرك أنه لن تقوم لها قائمة، ولن يكون لها أي وجود حضاري إلا بأن تتحرر من هذا "الحكم الجبري" وبأن تقوم لله بالحق، وتشهد بالقسط، وتمضي على صراط الله المستقيم.

***

والعروة الوثقى لهذا الدين التي لا انفصام لها ولا انحلال.. هي: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256] وقوله: "يكفر، يؤمن" يفيد استمرار حالة الكفر بالطاغوت في كل صوره، والإيمان المتجدد بالله في كل معانيه.

وعلى المسلم جهاد ومقاومة الطاغوت بـ "اليد واللسان والقلب":

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَن رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ**" [صحيح مسلم/52]

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**أُعِيذُكَ بِاللَّهِ يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ أُمَرَاءَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ فَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ**" [جامع الترمذي / 614]

والقرآن الكريم يُفصل لنا في الآيات الطوال حال أهل الكتاب لما ضلوا عن كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى؛ فانتهى حالهم إلى "عبادة الطاغوت"؛ لتحذر الأمة مثل هذه المصير الأليم الذي يؤدي إلى عذاب السعير..

وطريق العودة مفتوح، والكتاب نوره مبين، وهو البرهان العظيم.. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء].

***

ثاني وعشرون: أكل الربا والسحت

قال تعالى:

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء]

وقال تعالى في آيات المائدة: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62، 63]

الربا: هو إقراض المال بغرض الزيادة، وتحويل المال ذاته إلى سلعة، تُقرض إلى المحتاج إلى وقت محدد على أن يردها مضاف إليها زيادة - ويُسمى فقهياً "ربا النسيئة" أو "ربا الجاهلية" - ولا يدخل في عملية الإقراض المخاطرة والنماء والربح والخسارة.. فهو ليس كالتجارة والبيع والشراء، فقال تعالى عن الذين يأكلون الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275]

والسحت: هو المال الحرام عموماً.. المأخوذ بغير وجه حق، ومنه الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، وبالتحايل والغش والخداع، وبتجارة الشهوات، والاحتكار، والفساد... إلخ، وهو يسحت - يستأصل - الدين، ويقتل المروءة.

والربا والسحت من أشد المحرمات في دين الله، وهو مُحرم في كل شريعة ربانية، وقد حرّمه الله على بني إسرائيل، فلم ينتهوا عنه.. بل أخذوا الربا، وأكلوا السحت، بل سارعوا في الإثم والعدوان.

ولم يقم العلماء منهم بنهيهم عن هذا المنكر الشنيع، والذنب العظيم، فتمادوا فيه، فلبئس ما كانوا يصنعون.

والربا يُفسد النظام الاقتصادي للمجتمع، ويحطم مقومات الأخلاق فيه، ويحول المجتمع إلى سادة وعبيد.. سادة تُقرض المال، وعبيد تضرب في الأرض لتسديد فوائد القرض.. فضلا عن القرض ذاته.

والصحيح هو التجارة التي فيها مشاركة المال والجهد، وإدارة عجلة العمل، وسعي الإنسان، وفيها الحركة والنماء، والمشاركة في الربح والخسارة، والمنافسة الشريفة التي تدفع إلى مزيد من التقدم والإنتاج، والسعي وعمارة الأرض، وتحمل المخاطر، وتحمل الأعباء، وتشغيل الأيدي.. فتتكون منظومة اقتصادية قائمة بالفعل على أصول مالية حقيقية، تقدم في النهاية إنتاجاً ينفع الناس، ويتشارك فيه الناس بالعمل والجهد والربح والمسؤولية، وفيه تنتظم الحركة الاقتصادية ودوران رأس المال دورة سليمة صحيحة، ينطلق فيها العقل البشري ليُبدع في مجالات الحياة، وفي إنمائها، وفيما ينفع الناس.

أما في الربا: فإن الذي يُقرض المال، لا يخاطر بشيء.. وعلى المقترض تسديد القرض في وقت محدد مع "الزيادة" التي هي عين الربا، وبالتالي يلهث المقترض لتسديد القرض في الوقت المحدد، وغالباً لا يستطيع، وغالباً ما يسعى ليس في تسديد القرض ذاته، بل في تسديد "فوائد" القرض، فتزداد تباعاً أموال الذي يُقرض المال، وتقل فرصة المقترض في تحقيق الربح إلا بأكل السحت والحرام، وبأكل أموال الناس بالباطل، فتنشأ منظومة اقتصادية متوحشة، ينعدم فيها الصدق والأمانة، تأكل من أخلاق الناس وحياتهم، وتفسد دورة رأس المال، فتتحول – في النهاية – ثروات البشرية في يد حفنة حقيرة قليلة من البشر، تملك مصائر الناس وأقواتهم في كل مكان!

وقد وجد يهود في الربا مغنماً، وعملاً سهلاً.. كل ما عليهم هو إقراض المال، وترك الناس تعمل لهم؛ ليجنوا هم في النهاية الربا أضعافاً مضاعفة، حتى تكدست لديهم الأموال والذهب، فصارت هي معبودهم وإلٰههم.

ولا بد وأن يصحب الربا أكل السحت وأكل أموال الناس بالباطل من خلال فرض نظم اقتصادية ونظم ضريبية، تسلب ما في جيوب الناس.. فيضطر الناس لأخذ الرشوة، وشيوع الفساد... إلخ، فتتحول الحياة إلى غابة بشرية لا ترتقي حتى إلى حياة الوحوش البرية التي لا تفترس إلا وهي جائعة، بينما يفترس البشر بعضهم بعضاً دون حاجة!

وتطور الأمر مع يهود بصورة خطيرة، ووجدوا قوة وسطوة رأس المال، وقدرته على إسقاط الدول والحكومات عند تراكم الديون، وحدوث التضخم المالي، وانهيار العملات.. فدخلوا هذا المجال بقوة، حتى صاروا هم سادته وحاملين لواءه في العالم؛ فأُنشأت البنوك على هذا الأساس الربوي، وصارت المنتجات الاقتصادية من: بورصة، وأسواق مالية، وسك عملات، وتجارة دولية، وبنوك عالمية، وشركات عابرة للقارات، وبنوك رقابية.. كلها تدور في "دورة الربا" وصار كد البشرية وعرقهم وثرواتهم يرجع في النهاية إلى المقرضين، وأباطرة المال، وعلى رأسهم يهود..

وهو نظام كما قال تعالى عنه: {لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المَس} فهو نظام اقتصادي قائم على "التقلب والاهتزاز والصرع والحركة المضطربة الغير متوقعة"، ومن يتابع جنون البورصة، وأسواق الأسهم، وأسعار العملات، ومن يعيش الفجوات الاقتصادية وآثار التضخم، والربح المجنون، والخسارة الماحقة.. يفهم المقصد من كلمة "المس الربوي".

وصارت "السيطرة الاقتصادية" على الدول والحكومات تتم بصورة ممنهجة، حتى أصبحت كافة دول العالم مديونة، وتقترض لكي تستمر وتعيش، ولنا أن نتخيل أن تصبح الدول وشعوبها أجيرة عند صاحب المال، هو الذي يتحكم في مناهج تعليمها، وثقافتها، وهويتها، بل يحدد لها ما تأكل وما

تلبس، وكيف تفكر، وماذا تشتري؟! فصار احتلالاً اقتصادياً أشد وطأة من الاحتلال العسكري المباشر.

وعندما تفسد دورة رأس المال، تفسد بالتبع منظومة الأخلاق - ولا يصمد إلا الأفذاذ - فتُباع الضمائر والأعراض بثمن بخس، ويضيع دين الناس، فالمال شريان حياة، وإن فسد ماءه فسدت حياة الإنسان، وفي وجود الربا.. والسعي في الزيادة وسرعة السداد والكسب.. تنتعش التجارة الحرام، فتحدث فجوة هائلة بين شعوب تغرق في الترف والنعيم، وتملك ثروات البشر، وبين شعوب تموت جوعاً لا تجد حتى فضلات الشعوب المترفة.. وحتى حياة الشعوب المترفة، هي تحت رحمة القلة التي تُقرض المال، والتي لا تكف عن العبث بالأسواق العالمية، وتحكمها في الأسعار، بما يضمن تحقيق أرباحها الخاصة، حتى ولو هلكت وأفسلت دولاً وأمماً بأكملها.

***

ولكن.. لماذا تقع النفس في أكل الربا والسحت؟

عند قلة - أو انعدام الإيمان - يقل إحساس الإنسان بالغيب واليوم الآخر، ويقل لديه إحساسه بخطورة الجريمة التي يقع فيها، ويُقدم عليها سيما عندما لا يُوجد من ينهى عن هذا الأثم العظيم.. والنفس المقهورة والمستعبَدة تكون عابدة للسلطة المادية، والسطوة المالية، فهي تجد فيها القوة والبأس، ويكون المال - لا الإيمان - هو القادر على ملء الفراغ الداخلي في النفس المُستعبَدة.. ورغم ذلك تظل جائعة فارغة مهما حصلّت من أموال!

فتتجه إلى نهبه من أي طريق، ولا طريق أسهل من الربا، واستغلال حاجة الناس واضطرارهم، فيجدون في المال سيادة لهم تسمح للنفس بممارسة دور "الفرعون".. ذلك الوحش الجائع داخل النفس المستعبَدة للظلم والقهر.

وإذا كانت مازالت على علاقة ما بدينها، فإنها لن تُعدم وسيلة إلى "التحايل"، و"تحريف الكلِم عن مواضعه"؛ حتى تمارس الحرام وتأكل السحت، وهي مطمئنة من وخز الضمير، ولوم النفس في لحظات الصدق والمكاشفة.

كما أن قاعدة الأخلاق التي تنبثق عن الإيمان، تكون بالفعل في حالة من الانهيار والتفسخ.. فلا إيمان حقيقي ابتداء، فضلاً عن أن تقوم عليه قاعدة من الأخلاق تمنع أكل الحرام وأخذ الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل.. بل تنشأ "أخلاق الحاجة" و"أخلاق التجارة" و"أخلاق التسويق" فتصبح الأخلاق ذاتها سلعة لترويج أكل السحت والربا بطريقة ناعمة لطيفة!

***

وفي الأمة المسلمة:

جاء التحذيرات القرآنية من تحريم الربا أشد ما تكون، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّه وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 278، 279]

فقد جعل الإسلام شيوع الربا والتعامل به، أمر يستدعي إعلان حرب بأمر من الله ورسوله.. ذلك أن الربا لا يُفسد النظام الاقتصادي فحسب، بل يُفسد المجتمع، والأخلاق، والسياسة، ويقوض مبادئ ورسالة الإسلام، الأمر الذي يستدعي الحرب الشاملة للقضاء عليه.. وإرجاع النظام الاقتصادي الإسلامي إلى صورته الصحيحة الربانية.

وهو من السبع الموبقات.. فجاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ"** [صحيح مسلم / 11: 26]

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَجُلًا يَسْبَحُ فِي نَهَرٍ وَيُلْقَمُ الْحِجَارَةَ، فَسَأَلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ لِي: آكِلُ الرِّبَا** " [مسند أحمد / 27701، صحيح البخاري /2085]

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ"** [مسند أحمد/ 14032]

ولقد ظلت الدولة الإسلامية حتى سقوط الدولة العثمانية.. قادرة على التحكم في نظامها الاقتصادي، وقادرة على منع أي ممارسات مخالفة، ذلك لأنها كانت صاحبة سيادة وقرار، بغض النظر عن الانحرافات التي حصلت في سياسة المال والحكم، واستئثار البعض – بغير وجه حق – بجزء من الأموال، أو شيوع الظلم وفرض الضرائب – بغير وجه حق – في فترة من فترات هذا التاريخ، إلا أن الأمر والإصلاح كان تحت سيادة الدولة الإسلامية الغنية بالثروات والمتحكمة بحكم مواقعها الجغرافية في التجارة الدولية.. والمتحكمة في سك عملاتها – وضبط قيمتها الحقيقية – من الذهب والفضة.

وبعد الهجمة الصليبية على العالم الإسلامي، وسقوط الخلافة، وانهيار الوحدة السياسية للمسلمين، ووقوع الشتات، وقيام الدولة القومية العلمانية نظاماً بديلاً عن الخلافة.. حدث احتلال اقتصادي خبيث لجميع بلدان المسلمين – بل وكافة بلدان العالم – من الدول الكبرى.

وأصبح اقتصاد الدول الإسلامية من: مشروعات قومية، وسك للعملات، وتحديد قيمتها، وارتباطها بغيرها، والتجارة الدولية، وأسواق البورصات والأسواق المالية، والثروات المحلية.. كلها تحت رحمة يهود وأعوانهم.. وتحت رقابة البنك الدولي، وصندوق النقد.

وأصبح رأس المال العالمي وثروات البشرية كلها تدور في "دورة ربوية" لا فكاك منها، مهما أدعى البعض "إسلامية" بعض تعاملات البنوك! لأن القضية الأصلية أن الدول الإسلامية نفسها تحت احتلال اقتصادي، وآخر عسكري، وتحت الهيمنة الكاملة، فهي لا تملك قرارها، فضلاً عن أن تملك

بعض فروع البنوك المحلية والأجنبية مثل ذلك.. وجاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: " **لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا آكِلُ الرِّبَا فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ** " [سنن ابن ماجة / 2278]

والقضية ليست هي في مجرد تحديد الفائدة أو تقليلها أو حتى انعدامها – فالبنوك الغربية عندما تريد تصحيح نكباتها الاقتصادية تجعل معدل الفائدة عند الصفر – إنما الأمر في "منظومة اقتصادية كاملة" يجب أن تجتث جذور الربا من المجتمع، وتتحرر من دورته العالمية، وتسترد الثروات، وتملك القرار السياسي والاقتصادي.. فإذا كانت هي لا تملك "قرار الفتاوى الدينية"، ولا حتى "تقرير مناهج الأطفال في الروضة"، ولا تملك غذائها أو الاحتياطي منه لأكثر من ستة أشهر أو سنة، وهي تحت الاحتلال المباشر والغير مباشر، فيصبح الحديث عن تعاملات إسلامية محاولة لخداع البسطاء وأصحاب العاطفة الدينية، لأخذ ما في جيوبهم!

وأصبحت أغنى البلدان الإسلامية – وكل البلاد الإسلامية غنية – تغرق في الديون التي تتجاوز أضعاف إنتاجها القومي كله! ويعيش كثير من شعوبها تحت خط الفقر! وأصبح الطغاة وبعض أتباعهم وأقاربهم يملكون ما يقرب من (90٪) من اقتصاد الدولة كلها وثرواتها!

والشعوب المقهورة بالطغاة من جانب، وبالفقر من جانب آخر.. يتجه الكثير من أبنائها إلى أكل السحت، ومن ثم انتشار الفساد والرشوة، حتى أصبحت أحد مكونات الحياة، وصورة طبيعية مألوفة للتعامل! ولا يتم إنجاز شيء إلا بها.. فأكل المسلمون – إلا من رحم ربي – الربا والسحت، ولم يجدوا من ينهاهم عنه – إلا قليلا – تماماً مثلما فعل يهود.. حذو النعل بالنعل!

وعندما ينتشر الربا بهذه الصورة المتوحشة حتى يسود وجه الأرض! ترتفع قيمة المادة فوق الإنسان، فيصبح الإنسان أقل قيمة، فتجري دماء الناس أنهاراً في حروب متوحشة.. من أجل لا شيء – ولقد رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ آكلي الربا غارقون في أنهار من الدماء لا يخرجون منها، عقاباً لهم – ويصبح الإنسان مجرد آلة للحرب والمتاع، فتُهدر قيمة الإنسان، ويُستعبد من كل طريق، وبكل صورة.. بل يسعى الإنسان المقهور ذاته إلى من يستعبده، ويقف في الصف – بل ويتقاتل

أحياناً مع غيره من العبيد – ليبحث عمن يركبه، ويقهره، ويذله! فيُباع الشرف والعِرض والدين والكرامة من أجل دراهم معدودة.. ولهذا كان الإذن بحرب من الله ورسوله على هذه الغابة البشرية المتوحشة؛ لردها إلى "عالم الإنسانية"، وتحطيم فراعنة المال، وفراعنة الحكم، وقطع دابر المستعبدين للبشر، والمصاصين لدمائهم، وأقواتهم.

***

ثالث وعشرون: الغلو في الدين

قال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّـهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّـهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّـهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّـهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّـهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة النساء]

الغلو: هو تجاوز الحد، والتشدد، والإفراط، والمبالغة، والتعصب.. وهو حالة نفسية وفكرية مناقضة لفكرة "التوازن" التي يأتي بها الدين الصحيح، وتُبين الآيات هنا موقفاً لأهل الكتاب – من النصارى – يُمثل التعصب والغلو والإفراط، كما بيّنت السورة في آيات سابقة موقف يهود في التفريط وقتل الأنبياء!

إن الدين الصحيح الذي جاء من عند الله، لا يدعو أتباعه إلى غلو وإفراط أو تهاون وتفريط.. ولا يُفرحه تشدد أتباعه، بل إن الدين الذي جاء من عند الله.. جاء لـ "تستقيم" به الحياة، وليكون هو "الصراط المستقيم" الذي لا يميل إلى "تشدد وغلو" أو إلى "تفلّت وتفريط" وجاء التعبير القرآني الدقيق عنه: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام (153)]. فالإفراط سبيل غير صراط الله المستقيم، وكذلك التفريط.

وإن الدين الذي جاء من عند الله، لم يأت ليشقى به الإنسان، أو ليقسو ويتشدد به على نفسه أو غيره.. إنما جاء لصلاح الإنسان، وهدايته.. وليكون رحمة ونوراً لمن حوله.

ومن جميل أسلوب القرآن وهو يدعو غيره إلى صحيح الدين.. أن يخاطبهم بما يستجيش في نفوسهم حقائق الإيمان، فهو يناديهم بقوله: {يا أهل الكتاب} وهم قد حرّفوا الكتاب، واشتروا به ثمناً قليلاً.. ومع ذلك يُبقى لهم وصفهم "أهل الكتاب" ويناديهم به ليُذكرهم بعهدهم الأول، ويذكرهم بـ "دينهم" رغم أن اعتقادهم هذا ليس هو "الدين" الذي جاء به عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكن لما كان الأمر أمر دعوة وبيان.. يخاطبهم القرآن بهذا الأسلوب القريب الحبيب الذي يضع أمامهم الحقائق بتجرد ووضوح وجلاء، لتكون – لمن يريد الهداية – نوراً مبيناً، وبرهاناً ساطعاً، وهكذا يتنوع الأسلوب القرآني حسب المناسبة والموضوع الذي يخاطب به كل جماعة حسب كل مناسبة.

وقبل الحديث عن موضوع الآيات وهو الغلو في الدين، نشير إلى موقف يهود وتفريطهم في دينهم كما بيّنت الآيات السابقة لهذه الآيات، يقول تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة النساء]

عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد بُعث إليهم خاصة، ولم يُبعث للناس عامة – كما زعم النصارى – وجاءهم وقد صار الدين لديهم حرفة ومهنة وتجارة – إلا قليلا – وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، والشتات في الأرض... إلخ من الأحوال التي تحدثت عنها الآيات في سور سابقة..

جاء عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والدين مجرد طقوس ومظاهر فارغة.. لا تُنشأ في القلب إيماناً، ولا في الروح سمواً، ولا في النفس إشراقاً، بل هو التحايل على النصوص، وتحريف الكلم عن مواضعه، والتنطع

في إقامة الدين، وتوظيفه بما يحقق أغراضهم.. جاء عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والقلوب قاسية صلدة لا تنبض بالإيمان ولا تعيش رضاه وبشاشته، فجاء ليُعالج هذا الجانب من "الفساد الروحي والقلبي لبني إسرائيل"..

فاستقبله بنو إسرائيل - كما استقبلوا كل رسول ونبي قبله - بالإعراض والتكذيب.. وكانت البداية مع رد المعجزة الإلهية في خلق عيسى من غير أب، فاتهموا - لعنهم الله - مريم عليها السلام - التي اصطفاها الله على نساء العالمين - اتهموها بالزنا، فكذّبوا المعجزة، واتهموا الطاهرة المُطهرة البتول عليها السلام!

وبهذا الاتهام الشنيع، والبهتان العظيم.. سيكون بالطبع اتهام المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وتكذيبه، ورد دعوته والسخرية والتهكم من رسالته، فقد قطع يهود على أنفسهم الهدى من أول لحظة، حتى قبل أن يسمعوا الرسالة..

ولقد ادعى يهود أنهم قتلوا المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - من خلال ما فعلوه من الوشاية به إلى الملوك الرومان، وظاهروا العدو على إخوانهم - وأنه قد صُلب، ولكن الذي صُلب هو شخص آخر شبيه للمسيح في الهيئة، وهذا الأمر قد أحدث خللاً كبيراً في العقيدة المسيحية حتى عبدوا الصليب!! والله يُخبرنا بالحقيقة {ما قتلوه يقيناً} بل رفعه الله إليه.. ولم يُمكِن يهود منه.

فهذا هو جانب التفريط: التكذيب، والاتهام بالباطل والبهتان، والسعي في قتل الرسل وتكذيب دعوتهم بالكلية.. حقداً وحسداً، ورداً للحق، وتجارة بالدين.

وأما جانب الغلو والإفراط - وهو موضوع هذه الآيات - فهو في غلو النصارى في المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فعلى الجانب الآخر من انحرافات النفس الإنسانية تجاه الدين الحق، والصراط المستقيم، تقول النصارى على المسيح غير الحق، وأحدثوا الغلو والبدع في دينهم بما لم يُبينه الله، أو يُخبرهم به المسيح، فقالوا عنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه ثالث ثلاثة.. فتشير الآيات إلى فساد اعتقادهم في فكرة "التثليث" و"الأقانيم"، ويحاول النصارى تكذيب هذا الشرك بقولهم بـ "الوحدانية"! ويسمونه "ثالوث

التوحيد"!! و"توحيد الثالوث"!! فيعتقدون أن الله - تعالى عما يقولون علواً كبيرا - هو وحدة جامعة لثلاثة أقانيم (الآب، الابن، الروح القدس).. وكل أقنوم قائم بذاته، ثم هم في النهاية وحدة واحدة... إلخ من ترّهات الفلسفة والوثنية التي أُدخلت على عقيدة التوحيد التي جاء بها المسيح، وهي أن الله وحده لا شريك له في ذاته ولا صفاته، وكل غيره مخلوق وعبد لله.. بما في ذلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً.. وعقيدة التوحيد هي العقيدة التي جاء بها كل رسول من عند الله.

والآيات هنا تشير إلى عقيدة التثليث عندهم، وأشارت آيات أخرى في سورة المائدة قولهم أنه هو الله، وآيات أخرى أنه ابن الله... إلخ من الاعتقادات المختلفة والمضطربة - المأخوذة عن الوثنية المصرية والهندية وغيرهما – فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة].

ويدعوهم القرآن إلى الانتهاء عن هذا الإفك العظيم، والتقول على الله غير الحق، فالله إله واحد لا شريك له.. وقد ادعوا عن المسيح أنه ابن الله.. والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ غنى عن الولد والصاحبة، وغني عن كل مخلوق، فهو جَلَّجَلَالُهُ الحي القيوم، فهو الذي به يقوم كل شيء، وهو القائم على كل شيء، وهذه التصورات الهابطة عن الله جَلَّجَلَالُهُ تكشف عن خطورة إدخال الفلسفات والأهواء البشرية والوثنيات في رسالة الأنبياء، ولقد أفسد الرومان – بمعاونة رجال الدين النصارى.. الذي اعتقدوا أن مصلحتهم مع الإمبراطور - عقيدة أهل التوحيد من المسيحية، وأعملوه الإرهاب الوحشي في كل من تكلم بصحيح العقيدة، فأُعتمدت فقط نسخة المجامع المقدسة التي اخترعت الثالوث ونسبة البنوة إلى الله!

وترد الآيات أهل الكتاب إلى التصور الصحيح عن الله، أنه جَلَّجَلَالُهُ له ملك السماوات والأرض.. لا شريك له في ملكه، وهو الوكيل على كل شيء، فهو الخالق، الرازق، المالك، الواهب،

لا شريك له في ملكه وسلطانه، وغني عن كل شيء، وفقير إليه كل شيء.. والمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبد الله ورسوله، وكلمته – التي هي الإرادة والمشيئة المطلقة في الخلق والتقدير "كن.. فيكون" – ألقاها إلى مريم، فوُلد عيسى من غير أب – والمعجزة في خلق آدم من تراب أعظم – وروح منه – تلك النفحة التي صار بها إنساناً – وهذا ما جاء به المسيح الذي لا يستكبر أن يكون عبداً لله، فهذا هو المقام الصحيح بين الخالق والمخلوق، وكذلك الملائكة المقربون – بما فيهم الروح القدس – لن يستكبروا أن يكونوا عباداً لله، ومن يستكبر فإن الله جَلَّ جَلَالُهُ هو مالك يوم الدين، والجميع سيقف بين يديه عبداً مخلوقاً.. وسيحاسبهم، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات: فيوفيهم أجورهم، مع الزيادة والفضل. وأما الذين استكبروا واستنكفوا وامتنعوا وأعرضوا.. ولم يقبلوا حقيقة التوحيد الناصعة البسيطة: لهم العذاب الأليم، ولن يجدوا من دون الله ولياً ولا نصيراً.. ولن يجدوا لله ابناً، ولا ثالوثاً، ولا غيره من الخرافات والأساطير.

فنجد في هذا الجانب من الإفراط: تأليه المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ووصفه بصفات الألوهية، وادعاء أنه ابن الله، وعبادته مع الله أو من دونه، وفي نفس الوقت الاستكبار عن اعتقاد صحيح الدين، والامتناع عن القبول بالقول الحق، والتمادي في الغلو.

وهكذا نجد طرفي النقيض من صراط الله المستقيم: طرف كَذّب وهَم بقتل الرسول (فغضب الله عليهم) وعلى الجانب الآخر طرف عَبَد الرسول، وادعى أنه ابن الله (فضلوا عن سبيل الله).. والصراط المستقيم هو توقير الرسول، واتباعه، وطاعته، ونصرته.. وهو في النهاية عبد لله، ومخلوق من مخلوقات الله، اصطفاه الله للرسالة والوحي؛ ليُبلغ عن الله.. وليُذكر الناس بعهدهم مع الله، وليهدي به – من يشاء الله – إليه صراطاً مستقيماً.

وختاماً.. يتوجه النداء إلى الإنسانية كلها.. بأن هذا القرآن هو البرهان الدامغ لمن يبحث عن الحقيقة وسط التيه، وهو النور الذي نبصر به في بحور الظلمات، ونفرّق به بين الحق والباطل.. فهو الحق، وهو البرهان، وهو الهداية، وهو الرحمة، وهو الرسالة الأخيرة.. وهذا هو طريق الإيمان بالله

وحده، ومن يؤمن بالله، ويعتصم به، فله الرحمة والفضل - في الدنيا والآخرة - والهداية إلى الله على صراط الله المستقيم.. في كل خطوة يخطوها المؤمن.. فيا له من فضل ورحمة وعطاء!

***

ولكن.. لماذا يقع الغلو في النفس الإنسانية؟

يمكن القول إن الغلو حالة نفسية عامة، قد تقع في الدين، وقد تقع في غيره.. فيتناول الإنسان حياته وعلاقاته وسلوكه بصورة من "الغلو" والتشدد، قد تصل به إلى الوساوس والهلاوس والشك! والاضطراب الفكري والروحي.. ومعاداة الناس، واتخاذ موقف عنيف تجاههم.. اعتقاداً منه أنهم قد انحرفوا، وضلوا! فيقع شكلاً من الازدراء لهم، ورد الحق الذي معهم، أو عدم التعامل معهم بالحسنى! فينشأ نوعاً من "الكبر" و"الاستكبار" بدلاً عن "التواضع والأدب"، مصاحباً له حالة من "الاغتراب" عن المجتمع والمحيط الإنساني!

وقد يُوقع "الاغتراب" - إن حدث - تأزماً لحالة الغلو، ومزيداً منها في صورة قد تدفع الإنسان إلى محاربة المجتمع بدلاً عن محاربة العدو المتربص!

وقد ينشأ الغلو كرد فعل عكسي على "التفريط والتهاون"، ومحاولة للهروب العنيف والشديد من حالة التفريط هذه، باتخاذ الطريق المعاكس لها إلى منتهاه، فينتهي الغلو إلى التفريط في الحق!

وقد نجد غلواً في التمسك بالحق، وقد نجد غلواً في التفلت منه.. وكل منهما خطأ، وكل منهما يؤدي إلى الانحراف عن الصراط المستقيم، ولا فضل لأحدهما عن الآخر، فالغلو - في أي شيء - لا بد وأن يُفسد على الإنسان حياته، واعتقاده، وسلوكه.

وكما أن المتهاون المُتفلّت قد "يتكاسل أو يستكبر" عن اتباع الحق، فكذلك الذي يغلو في دينه.. فإنه كذلك "يستكبر" عن اتباع الحق - رغم إفراطه في التمسك به - ويرد اليسر الذي في الدين، ويقسو على نفسه ومن حوله.. فيصد عن سبيل الله!

فنجد خطورة الغلو تتمثل في تسلسل أمراضه، فتبدأ بـ: الغلو ثم الاستكبار ثم الاغتراب والوحشة ثم المعاداة ثم المحاربة.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع الغلو في عصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ – في العهد المدني – ولكنه لم يقع في شخص نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد رد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بعض محاولات أصحابه الغلو في إطراءه فقال: "**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**" [صحيح البخاري / 3445]

وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عن الغلو في الدين عموماً، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضًا قَطَعَ، وَلا ظَهْرًا أَبْقَى**" [السنن الكبرى للبيهقي / 3: 18]

وعنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**لا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِتَشْدِيدِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**" [التاريخ الكبير للبخاري / 4984]

وعنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ**" ([السنن الكبرى للبيهقي/ 10: 208] موضع إرسال، ورُوي بإسناد صحيح في مسند زيد/ 1: 342])

وعَنِ الْقَاسِمِ بن محمد، عَنْ عَائِشَةَ، قَالا: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا أَصْوَاتٌ كَدَوِيِّ النَّحْلِ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: "**إِنَّ الإِسْلامَ يَشِيعُ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غُلُوٍّ وَبِدْعَةٍ فَأُولَئِكَ أَهْلُ النَّارِ**" [المعجم الكبير للطبراني/10776]

وعنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**" [صحيح ابن حبان/ 3871]

ومن المظاهر التي وقع فيها الغلو في الدين.. جاء أثر يتحدث عن شاب كان يصلي في المسجد ويطيل الصلاة بصورة ملفتة، وقد عجب الصحابة من طول صلاته وعبادته.. وقد حسب في نفسه أنه "أفضلهم وأكثرهم عبادة" فوقع له "الغلو المصحوب بـ "الكبر"، فالكبر على الناس، والاستكبار عن الأخذ بالحق – وإن خالف هوى المغالي – هو مهلكة للنفس الإنسانية، وإن كثرت عبادتها، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ فِينَا شَابٌّ ذُو عِبَادَةٍ وَزُهْدٍ وَاجْتِهَادٍ، قَالَ: فَسَمَّيْنَاهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، وَوَصَفْنَاهُ بِصِفَتِهِ، فَلَمْ يَعْرِفْهُ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ، فَقُلْنَا لِرَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: هُوَ هَذَا، فَقَالَ: "**إِنِّي لَأَرَى عَلَى وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ** "، فَجَاءَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: " **أَجَعَلْتَ فِي نَفْسِكَ [أَقُلْتَ فِي نَفْسِكَ] أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ خَيْرًا مِنْكَ؟** "، قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، ثُمَّ وَلَّى، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَخَطَّ خَطًّا بِرِجْلِهِ، ثُمَّ صَفَّ كَعْبَيْهِ فَقَامَ يُصَلِّي... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّ هَذَا أَوَّلُ قَرْنٍ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي**" [مسند أبي يعلى / 3668، المطالب العلية لابن حجر / 4441، دلائل النبوة للبيهقي / 6: 287]

فنجد في نفسية هذا الشاب:

– أنه رأى نفسه أفضل القوم، حتى أفضل من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ! وربما اعتقد قلة عبادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مقارنة بنفسه، أو ربما اعتقد أنه أفضل القوم بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ!

– تكلّفه وهو يقف إلى الصلاة، ومبالغته في العبادة.

– الروح السوداء الشيطانية المستكبرة.. التي رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على وجه الشاب.

وكانت هذه أول بدعة وخروج عن الدين.

وهذا التقديس للذات، وعبادتها، واستكبارها عن الحق، كفيل وحده بإخراج الإنسان من الدين كله، ومعاداته لأهل الإسلام.. والعجيب في هذه الحالة أن حولت العبادة لله إلى مادة تُغذي حالة الكبر!

وهناك حادثة أخرى وقعت تكشف عن هذا المرض:

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبِضُ مِنْهَا، يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ – وفي لفظ آخر "اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ"– قَالَ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: «**مَعَاذَ اللهِ، أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**» [صحيح مسلم/ 1063]

فهذا شخص لا يرى قدر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ ويرفض قسمته، ويقول له: "اعدل، فإنك لم تعدل"! هذا ليس تجاوزاً للأدب، هذه حالة من "الكبر" الذي أخرج "الغل" و"الحسد" فكشف "الخبث" الذي في القلب، وهي حالة شبيهة بحالة إبليس اللعين في حضرة المقام العلوي الإلهي وهو يقول: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12] فجاءه الجواب: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13]

فخروج إبليس من الجنة بسبب الكبر، وخروج "الغلاة" من الإسلام بسبب "الكبر" أيضاً.. – كما جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ في الحديث السابق عن الشاب: "إِنِّي لَأَرَى عَلَى وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ" – وهذا المرض "الكبر" الذي يخرج "الحسد والغل" إنما هو انعكاس لحقيقة الخبث الموجود في القلب.. واقتضت حكمة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يُخرج هذا الخبث – الذي ربما يخفى على الإنسان نفسه! – ليرى الإنسان حقيقة نفسه، وحقيقة ما بداخله: ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: 37] ثم يحاسبه الله جَلَّجَلَالُهُ لا على سابق علمه فيه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، بل على ما قدمت يداه! وذلك من رحمة الله وعدله.

ثم وقع بعد وفاة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ مراحل مختلفة من الغلو شابهت النصارى في ادعاء الألوهية للمسيح – وسبحان الله حتى هذه لم تسلم منها الأمة المسلمة – فادعى قوم الألوهية في علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ – فجاء في الأثر: "قِيلَ لِعَلِيٍّ إِنَّ هُنَا قَوْمًا عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَدَّعُونَ أَنَّكَ رَبُّهُمْ فَدَعَاهُمْ فَقَالَ لَهُمْ وَيْلَكُمْ مَا تَقُولُونَ قَالُوا أَنْتَ رَبُّنَا وَخَالِقُنَا وَرَازِقُنَا فَقَالَ وَيْلَكُمْ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلُكُمْ آكُلُ الطَّعَامَ كَمَا تَأْكُلُونَ وَأَشْرَبُ كَمَا تَشْرَبُونَ إِنْ أَطَعْتُ اللَّهَ أَثَابَنِي إِنْ شَاءَ وَإِنْ عَصَيْتُهُ خَشِيتُ أَنْ يُعَذِّبَنِي فَاتَّقُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا فَأَبَوْا..." [فتح الباري لابن حجر، ج12، ص 270]

وجاء في الأثر عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: يَا عَلِيُّ إِنَّ فِيكَ مِنْ عِيسَى مَثَلا، أَحَبَّهُ النَّصَارَى حَتَّى أَفْرَطُوا (في حبّه)، وأبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، فكان علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُولُ: "يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ". [أنساب الأشراف ج 2، ص 121].

ومع الغلو والاستكبار.. يأتي معاداة المجتمع المسلم، وتكفيره، وقتاله بدلاً عن قتال العدو؛ فأشعل الغلاة الفتنة والفرقة بين المسلمين، وتَسموا بـ "الخوارج".

فخرجوا على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي هو من أفضل أهل زمانه.. بزعمهم إقامة الشرع والعدل، فاعترضوا على حكمه، ورفضوه.. بحجة قولهم: "إن الحكم إلا لله"! ولعل "الخوارج" هم أول من استخدموا "الدين" كحيلة هروبية، تستر عنهم خبث طويتهم، والأمراض التي تفتك بقلوبهم!

ثم يأتي تكفير المسلمين وقتالهم كحالة تعبيرية خفية عن الكبر.. إن في محاولة الخوارج ستر مرض إبليس اللعين "الكبر" وما ينتج عنه.. يتجهون إلى إثبات أن نفوسهم طاهرة نقية بكثرة العبادة وقراءة القرآن والذكر...إلخ، ثم يحسبون في أنفسهم قدراً ومكانة وطهراً لا يقاربه مثلهم! ويكأنهم "استخدموا" العبادة ليس لطلب "رضى الله".. بل "رضى أنفسهم"! واستكبارهم على الخلق بكثرة عبادتهم! فيروا في أنفسهم خير مثال، ربما أفضل من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ! وأفضل من الخلفاء الراشدين! ثم أفضل من كل المسلمين! أو هم وحدهم جماعة المسلمين!

وإن الأصل في العبادة في التصور الإسلامي هو:

- إن الغاية من العبادة ليست هي "تقديس الذات"، بل "تقديس الله جَلَّجَلَالُهُ".
- إن الله لا تنفعه طاعة عبد، ولا تضره معصيته.. ولو اجتمع الإنس والجن كلهم على طاعته أو معصيته.
- إن الله يفرح بتوبة عبده، وهو يعلم أنه يُخطأ.. فتأتي التوبة والاستغفار الدائم كوقود لحياة قلب المؤمن.
- إن الله يرد طاعة العبد "المُستكبر بها" سواء أمام "نفسه" أو أمام الآخرين، والتي يعتد بها، ويشعر معها أنه لا يضاهيه أحد في الطاعة ولا في المكانة!
- إن الأصل في كل عبادة لله هو إتيانها والقلب في حالة من "الوجل" والخوف والترقب هل قبِلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من عبده أم ردها في وجهه؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60]

ومراحل حالات الغلو تبدأ بـ:

- التشدد والتنطع والتعصب.
- ثم التعالي عن الناس، وازدرائهم، والاستكبار عليهم بالعبادة والدين، سواء كحالة نفسية أو سلوكية.
- ثم حالة الانفصال عن الأمة المسلمة، وشعور الاغتراب، ومعاداة الجميع.
- ثم محاربة الأمة المسلمة، كونها مخالفة لأهل الغلو.. وفيها استحلال الدماء، وهذه أفظع وأشد الحالات، وهي التي وقع فيها الخوارج.

وقد يقف الإنسان عند المرحلة الأولى وهي "الغلو والتشدد"، ولا يتجاوزها للمرحلة التالية وهي "الاستكبار"، وقد رغب قوم التشدد في الدين فجاء في الحديث الشريف: عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: **"أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"** [صحيح البخاري/ 4700]

وهؤلاء الثلاثة – الذين جاءوا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ – كانوا يريدون "القسوة" و"الشدة" و"الترهبن" و"الغلو" على أنفسهم؛ ليثبتوا لله صدق نيتهم، وصدق حبهم لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فجاءهم الإسلام بالرفق والتوازن والعبادة التي ليس فيها شدة ولا قسوة على النفس ولا ترهبن.. وهي سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ، وهي العبادة التي يحبها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فمن رحمة الله بعبده المؤمن جعل كل حياته عبادة، فالنوم للمؤمن عبادة، والزواج صدقة، والصوم والفطر عبادة.. في صورة كلية شاملة، يُعبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]

والمنهج الإسلامي هو: "التوازن" لا غلو، ولا تفريط.. وبمجرد العمل بوصية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓالِهِۦوَسَلَّمَ: **"دُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَار"** [المعجم الكبير للطبراني/ 172] يحصل التوازن المطلوب للإنسان؛ فلا غلو سيقع، ولا تفريط سيحدث، ولعل من اللطيف في هذا الحديث هو: بيان أن الحياة حركة مستمرة، والكتاب محور ثابت.. هو بوصلة الإنسان في الحركة، فإذا تحركت الحياة – وهي في حركة دائبة – ينظر إلى مؤشر الكتاب ويدور معه وفي اتجاهه، وعليه فالإنسان لا يقعد عند محطة من محطات الحياة، فعينه وقلبه مع الكتاب أينما اتجه فهو معه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] الصراط الخارج من الكتاب والمؤشر الصادر منه تجاه حركة الحياة الصحيحة! ولهذا يحتاج الإنسان هداية الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كل لحظة.. ولهذا يكرر الإنسان هذا الدعاء سبعة عشر مرة في اليوم غير صلاة النافلة.

على إنه من الخطأ الكبير أن يُنسب الغلو وحده إلى "الخوارج" وينحصر الحديث عنهم، لا سيما وهناك بعض الشك في كثرة الأحاديث التي رُفعت للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ عنهم، ولعل قد وضعها الوضَّاعون لأغراض سياسية، فالخوارج كانوا يعترضون على ظلم ملوك بني أمية، وبني العباس.. وهو اعتراض له وجاهة وفي محله، وإنكار لمنكر عظيم وقع فيه الملوك، لكنهم واجهوا المنكر بمنكر أشد منه أو مثله.. فالثبات عنهم، والجريمة التي ارتكبوها هي "استحلال دماء المسلمين وأموالهم" تديناً لله! وقد رموا الأمة بالشرك والردة وتلذذوا بتكفيرها، وهذا لا شك محض الباطل والغلو، والانحراف عن سبيل الله..

فالغلو وقع من الخوارج، ووقع من غيرهم من طوائف المسلمين، فهناك الغلو في آل البيت، والغلو في الصحابة، والغلو في بني أمية، والغلو في مسائل الفقه، والغلو في الحديث في ذات الله والجدل التاريخي حولها، والغلو في الملوك والانتصار للظالمين، والغلو في العلماء والأئمة والصالحين... إلخ، فمن الخطأ والاختزال حصر موضوع الغلو في الدين في طائفة الخوارج، فهو حالة نفسية عامة.[1]

وجاء الأمر الإلهي للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ومن معه بالاستقامة بلا طغيان، والاعتدال بلا تفريط: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ [هود: 112، 113]

***

(1) راجع – إن شئت – بحث: "الفئة الباغية" (ص 66، السلوك النفسي للغلاة).

رابع وعشرون: الإعراض عن المواجهة، والتولي عن حمل الرسالة

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّـهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّـهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة المائدة]

تستعرض هذه الآيات الحلقة الأخيرة من قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه.. ولقد خاض هذا النبي الكريم معركة طويلة مع الفرعونية، ليجد - بعد الانتصار فيها بفضل الله - معركة أشد وأصعب مع آثار الفرعونية والاستبدادية في نفوس بني إسرائيل، تلك الأمراض التي تحدثت عنها الآيات الطوال.

وهذه الآيات تدعو بني إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ويُذكرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعمة الله عليهم، فقد جعل فيهم أنبياء، وجعلهم يملكون أمرهم وحريتهم، وفضّلهم وأعطاهم ما لم يعط أحداً من العالمين - حينها - ونعم الله لا تعد ولا تحصى، وليس نعمة أعظم من أن يكون بينهم نبي من أولي العزم من الرسل؛ يُبلغهم كلمة الله، ووحيه، وينقل خطاهم، ويضعهم على الطريق.. دون كبير جهد من تفكير وبحث منهم، فالأمر الإلهي المباشر حاضر بينهم، فجمع

الله لهم النبوة والرسالة مع التحرر من فرعون – بعد الذلة والعذاب تحت سلطانه – فأصبحوا يملكون قرارهم واستقلالهم.. فأي نعمة أعظم من النبوة والحرية.

ولكن نفوس بني إسرائيل لا تشعر هذه النعمة، ولا تشعر غيرها.. بل تتسافل وتتطاول وتجبن – كما هي عادة العبيد المناكيد – التي لا تريد أن ترتقي، ولا تريد أن تكبر.. إنما يَكبر في صدورها صورة الفرعون، وأخلاق الفرعون! الذي انطبع في نفوسهم بطول فترة الاستبداد.

والنبي الكريم يدعو بني إسرائيل – بعد الخروج من مصر – ونجاتهم من فرعون وجنده.. بعد أن أهلكه الله لهم بمعجزة إلهية خالصة، لم يكن لنبي إسرائيل فيها أدنى جهد، بل ظنوا أنهم قد هلكوا عندما اقتربوا من البحر! ولكن الله العظيم الكريم، يعفو ويصفح، ويتناولهم بالعفو تلو العفو، والمغفرة تلو المغفرة.. علهم يرجعون! ولكنهم ظنوا أن حِلم الله عليهم أنه خاصية ومحاباة لهم، فزعموا – كما سبق البيان – أنهم أبناء الله وأحباؤه، فبدلاً عن الشكر والعرفان كان الكفر والطغيان..

والنبي الكريم يدعوهم إلى دخول أرض جديدة.. ووطن جديد، مُقدس، مُطهر، مُبارك.. كتبه الله لهم، وفي هذا تشريف عظيم، لو أنهم يشعرون.

ويحذرهم نبيهم من الارتداد عن هذا الطريق، والهرب من التكاليف، ويدعوهم إلى العزم على المضي فيه.. فهو يعرف طبيعتهم المتشككة، والمتفككة.. وفي الارتداد عما كتبه الله لهم لا شك الخسران المبين.

قالوا: {إن فيها قوماً جبارين} وهل هؤلاء يُعجزون الله جَلَّجَلَالُهُ؟! وهل بمواجهة هؤلاء الجبارين ستكون هلكتهم؟! كيف؟! والله هو الذي يدعوهم، وقد كتب لهم الأرض المقدسة.

ولو أنهم قالوا: على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين القوم الظالمين.. لانتصروا وكان خيراً لهم وأقوم، وماذا يريدون أكثر من أن يكون بينهم نبي من أولي العزم من الرسل، وكتابة الله لهم هذه

الأرض؟! إنه بمجرد ذلك لهو النصر المبين، والفوز العظيم.. ولكن تأبى النفوس المقهورة الذليلة إلا كفورا وإعراضاً وجحوداً!

لا مجال لنبض الإيمان في القلوب، ولا مساحة للتفكير في العقول.. قلوب قاسية صلدة، وعقول منغلقة ضيقة! بل قطعوا على أنفسهم طريق الخير، فقالوا: {إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها} ولو أنهم قالوا: إن فيها قوماً جبارين.. فادعوا الله لنا أن ييسر أمرنا، وأن يُعيننا.. ليَسر الله لهم، وأكرمهم، ولكن العبيد لا تريد بذل الجهد، فالنفوس مترهلة عن كل شيء يدعوها إلى الاستقامة، واتباع الحق.. ولا نية ابتداء لقتال عدوهم، وجهاده، ويبدو أنهم كانوا ينتظرون معجزة خارقة تحقق لهم النصر، وتفتح لهم الأبواب.. حتى يدخلوها دون كبير عناء أو جهد منهم!

ولكن لا تخلو جماعتهم من خير، فتشير الآيات إلى رجلين، أنعم الله عليهما.. ولعل نعمة الله هنا، هي نعمة الإيمان الحق بالله، ونعمة العقل وحسن النظر.. ولقد نالوا هذه النعمة لأنهم "يخافون" يخافون جناب الله الكريم لا المخلوقين الجبارين.. يخافون سخط الله وعذابه، لا بأس القوم الجبارين، ويدعو الرجلان قومهما إلى طريق النصر: {ادخلوا عليهم الباب} ادخلوا على قلب رجل واحد، باسم الله، وعلى وعد الله، وفي حسن ظن بالله، وفي توكل على الله.. اقتحموا، وقلوبكم ساجدة لله.. تطلب العفو والمغفرة، لا تُبدل كلام الله، ولا تطلب التكبر والتجبر والعلو في الأرض بغير الحق، وفي ذلك الغلبة والتمكين لكم في الأرض بإذن الله.

ولكن العبيد قطعت على نفسها الخير تماماً فقالت: {لن ندخلها أبداً} وهنا تبرز العبودية المادية للظواهر، وأثرها في نفوس العبيد..

فالذي يؤثر فيهم هو الصورة المادية الحاضرة أمامهم، وكل غيب مهما كان أثره الواقعي المادي.. فهو ضعيف التأثير في قلوبهم، فإنهم في حالة من الهلع والخوف والجبن من البشر، ولا يشعرون قدرة الله، وقوة الله، ومشيئة الله.. لا يشعرونها إلا عندما تقع، وعندما تنتهي المعجزة، تزول آثارها

سريعاً، فيعودون كما كانوا، فالله جَلَّجَلَالُهُ أهلك لهم فرعون.. أيكون هؤلاء الجبابرة أشد من الفرعون؟ تختفي هذه البديهيات، وتحضر صورة الهلع من الجبابرة المخلوقين.

فيردون دعوة النبي الكريم، ودعوة الرجلين الصالحين من قومهما.. فقالوا في المرة الأولى: {لن ندخلها حتى يخرجوا منها} وفي الثانية: {لن ندخلها أبداً} هكذا بصورة قاطعة لا تقبل الجدل أو العودة أو تكرار الدعوة أو الأمل في استجابة!

ولا يتوقف أمر العبيد عن هذا الحد.. بل يتطاولون على الله جبار السماوات والأرض، مالك كل شيء، فقالوا: {اذهب أنت وربك فقاتلا إن ها هنا قاعدون} لينتهي بهذا القول مستقبل بني إسرائيل المعاصر حينها، ولتكون هذه خاتمة الاستبداد وأمراضه:

- رفض دعوة النبي الكريم والمصلحين معه.
- رد فرصة تمكين الله لهم في الأرض.
- التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ، وعلى النبي الكريم.
- الخوف من المخلوقين عوضاً عن الخالق، ومراعاة جناب الجبارين، دون الله العلي الكريم.

هكذا كان المشهد الأخير لهم: {اذهب أنت وربك} كأنه ليس ربهم كذلك.. وكأن ربهم هذا عدوهم، وكأنهم على غير صلة به، وهذه هي الحقيقة، إنهم مقطوعوا الصلة بالله، مهما ادعوا الإيمان، لا يشعرون نبض الإيمان في قلوبهم، وأنى للقلوب القاسية أن تشعر؟! وتطاولهم القبيح يوحي كذلك بسوء الظن، وسوء المعتقد، وخبث الطوية أن موسى وربه لن يقدروا على القوم الجبارين، فيهربون من المواجهة! فيا لفطنة وذكاء العبيد! عقول مطموسة لا تفقه شيئاً ثم تدعي النباهة وحسن الاختيار! فردوا الإحسان والتشريف في: {التي كتب الله لكم} بالإساءة والعصيان والتطاول في: {اذهب أنت وربك}!

وفي هذه اللحظة الفارقة، التي تُعلن انتهاء مستقبل هذا الجيل من بني إسرائيل.. يتوجه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى ربه – وهو سبحانه أعلم بحاله – يبث شكواه ويلجأ إليه، ويقول: {ربي إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين}.. لقد أدى النبي دوره، وبلّغ رسالته، وصبر على قومه، وتناولهم بالحسنى.. حتى بلغ الأمر "مرحلته الأخيرة" فسأل موسى ربه أن يُفرق بينه وبين القوم الفاسقين..

ولقد شهد موسى على قومه بالفسق.. فقد فسدوا وانحرفوا، لا يبتغون صلاحاً ولا فلاحاً بل تكبراً وعناداً..

فيجئ العقاب الإلهي لهم.. جزاء وفاقا على ما اقترفته أيديهم من جرائم.. لقد كتب الله عليهم التيه في الأرض، يهيمون على وجوههم لا يدرون أي طريق يسلكون، فتقطعت بهم السبل، بعد أن قطعوا هم سبيل الله المبذول إليهم على يد نبيهم الكريم، فردوا وعد الله لهم بالنصر؛ لينتهي هذا الجيل الذي انطبع الاستبداد فيه؛ ولتتطهر الجينات الوراثية – ولو قليلاً – من أخلاق الاستبداد، ونفسيته، وأخلاقه..

كُتب عليهم التيه في الأرض أربعين سنة.. لقد انقطع الرجاء في صلاح وعلاج هذه النفوس الذليلة المقهورة، لقد أكلت أمراض الاستبداد كيانهم وقلوبهم وعقولهم وأرواحهم، فكان إعلان الوفاة على أبواب الأرض المقدسة، وهم يقولون: {اذهب أنت وربك} ومثل هؤلاء لا يحزن عليهم أحد، ولا يبكيهم أحد، ولا يتحسر عليهم أحد، فإنهم قوم فاسقون.. أصبحوا كمثل قوم فرعون، الذي وصمهم القرآن بهذا الوصف الشنيع "الفسق" وهو: الانحراف عن الطريق، وخراب النفوس والعقول والأرواح، التي فسقت، وفسدت، وانحرفت.. ورضيت بهذا، فانتهى حال بني إسرائيل، إلى حال قوم فرعون، وإذا كان فرعون استخف بقومه لأنهم كانوا قوماً فاسقين.. فقد استخف الشيطان ببني إسرائيل لأنهم فسقوا عن أمر ربهم، ولأن نفوسهم الخربة أصبحت مرتعاً للشياطين،

تُزين لهم الباطل، وتمكر بهم، وتوسوس لهم، فوقعوا بفساد قصدهم في غواية الشيطان، وبينهم نبي الرحمن!

ولقد شهد عليهم نبيهم بـ "القوم الفاسقين"، وشهد الله عليهم كذلك أنهم "القوم الفاسقين" فذُكرت مرتين في آيتين متتاليتين! وحال الفاسقين كما بيّنه القرآن الكريم هو:

- التكبر في الأرض بغير الحق.
- تكذيب الآيات، والجهل بحقيقتها ودلالاتها.
- الإعراض عن سبيل الرشد.
- اختيار سبيل الغي والضلالة..

وهكذا فعل بنو إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف].

وحال الفاسقين كذلك هو:

- نقض الميثاق.
- تمزيق النسيج الاجتماعي.
- الفساد في الأرض..

وهكذا فعل بنو إسرائيل، قال تعالى: ﴿ ... وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّـهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّـهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة]

وحال الفاسقين كذلك هو: التولي عن الجهاد في سبيل الله، وحمل الرسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]

وحال الفاسقين كذلك هو: خشية الناس أشد من خشية الله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة]

وحال الفاسقين كذلك هو: إيذاء الرسول، والزيغ عن اتباع طريق الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف]

وحال الفاسقين كذلك: هو الإعراض عن التوبة لله، وعدم الشعور بعظم جرمهم، والصد عن سبيل الله، والاستكبار عن اتباع الهدى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون]

وحال الفاسقين كذلك: هو الاستهزاء، وتبديل القول، والرعونة في الاستجابة.. فيقول تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة]

وأول الفاسقين.. الذي فسق عن أمر ربه، واستكبر بغير الحق هو إبليس اللعين: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]

ومن يفسق هذا الفسق، لن يستطيع الإيمان - جزاءً وفاقا - بما كسبت يداه: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 33]

وجزاءوه في الآخرة: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[السجدة: 20]

وهكذا فعل بنو إسرائيل كل دلائل الفسق.. فكان لا بد من انتهاء هذا الجيل، والخروج إلى الصحراء؛ لينشأ جيل جديد، جيل لا يعرف أمراض القهر والذل والمهانة والاستعباد والطغيان.. يعيش في جو الصحراء الواسع، البعيد عن "نظم الاستبداد"، ويستمر التيه طوال هذه السنوات؛ لتنقطع الصلة بالجيل القديم المريض؛ وليطبع جو الصحراء في نفوس الجيل الجديد الحرية والانطلاقة، والزهد والرضى، وسعة التأمل، والعزة، وسعة الصدور، والصبر، والقوة، والشجاعة، والبسالة، والإقدام، وصدق الإيمان؛ لتكون تنشأة مخالفة تماماً للجيل السابق لهم، وليكون "التيه" رحمة من الله الرحمن الرحيم للأجيال التالية؛ لتخوض هي المعركة، وتدخل الأرض المقدسة، وتبدأ رحلة جديدة من البلاء والابتلاء، وليمحص الله المؤمنين، ويمحق الكافرين، ولم يكتب الله عليهم عذاب "الاستئصال" لأنه سيخرج منهم من "يجاهد".. عندما يخرج الجيل الحر المعُافى من الذل والمهانة.

وهذه النفوس التي تخشى الناس، وتتولى عن الجهاد، وعن تحمل تكاليف التمكين، والاستخلاف في الأرض بمنهج الله.. لا يمكنها أن تخلف الأنبياء، ولا أن تحمل الرسالة، ولا أن تكون النماذج الربانية الصحيحة التي تترجم الرسالة إلى واقع حياة! بل هي تصد - بفسوقها - عن سبيل الله.. وتحسب حساباتها بصورة مادية ضيقة: كم ستكسب من المال؟ وكم ستخسر؟ وسيكون العبيد - لا شك - أحرص الناس على حياة ! فكان لهم "التيه" في الأرض.

***

ولكن.. لماذا يخشى العبيد المواجهة، ويتملّكهم الخوف؟

الشجاعة والخوف، والمواجهة والارتداد.. كلها في الأصل أحوال نفسية داخلية، تعبر عن حقيقة المُسلّمات العقلية المستقرة في الإنسان، وفي حالة التعرض للقهر والذل المستمر، ودون استعداد لمواجهة هذا القهر والاستبداد، ودفع الظلم.. وفي نفس الوقت انتظار معجزة إلهية، تُنقذ "القطيع البشري" بطريقة سحرية غامضة الأسباب، أو بصورة خيالية حالمة يأتي فيها: "القائد المُلهم" أو "المهدي المنتظر" أو "البطل الخارق" وعندما لا يحدث هذا، تحدث حالة من خيبة الرجاء، والارتداد النفسي الداخلي، وسوء الظن بالله، وانخفاض الشعور الإيماني الحقيقي، وبقاء الأسماء والشعارات فقط!

ويتكون عوضاً عن الإيمان بالله.. الإيمان بـ "القوة الظاهرة" والتعلق بالمظاهر المادية، فيكون الخوف من الناس أشد من الخوف من الله.. بعد وقوع سوء الظن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبعد عدم وقوع المعجزة المنتظرة؛ فيتحول رصيد الإيمان إلى "الجبابرة" وإلى قوتهم، فتكون الخشية منهم، والرجاء عندهم؛ فتتكون في نفوس العبيد حالة من "الربوبية الداخلية" تجاه الجبابرة والفراعنة!

وبطول القهر، وبطول الاستبداد – وهو بالفعل يَطول لأن العبيد تنتظر معجزة لن تأتي لتنقذهم مما هم فيه – تتحول "الربوبية للفراعنة" في نفوس العبيد إلى حقيقة يقينية.. تجعلهم على يقين من عدم المواجهة، فليس هناك مساحة لـ "التردد" في اتخاذ الموقف، أو مراجعة الاختيار، أو الاستجابة لداعية.. ولو كان هو رسول الله!

وبذلك يتملّكهم الخوف الشديد.. رغم أن أعدادهم قد تكون بالملايين، ويُمثلون قوة في حد ذاتها! لكن الربوبية النفسية تجاه الفراعنة، تجعلهم في حالة من "الوجل والخشية والخوف التعبدي التلقائي" تجاه الفراعنة.. بل – في الحالات الشديدة – يتحول الخوف إلى "تبتل وحب" للجبابرة والفراعنة، في محاولة لرفع "مرارة" العبودية، و"ذل" القهر عن النفوس!

وعبيد بهذا الحال، لا يقاتلون من أجل حريتهم! لأنهم ليسوا أسرى الخارج فحسب، بل أسرى للداخل.. فأرواحهم ترسف في الأغلال، وعقولهم مكبلة بالقيود، وقلوبهم غلف عن الفهم، بل إنها تقاتل مع الجبابرة من يريد تحريرها، خوفاً وطمعاً!

وعلى جانب آخر، فرغم هذه الحالة من الذلة والقهر والاستعباد.. فإن العبيد يتوجهون بـ "السخرية" من الأحرار المؤمنين، المتحررين من عبودية الفراعنة والجبابرة! والذين يحطمون هذه الأوثان المزعومة، فيرى العبيد في هذا الفعل جنون، ومهلكة عظيمة.. هكذا تصورهم! فمدى عقولهم لا يتجاوز سياط الجلاد، وسقف أرواحهم لا يتجاوز سقف قصر الفرعون!

وعبيد بهذه الصورة لا تستطيع حمل أي رسالة فضلاً عن أن تكون رسالة من عند الله.. وفي النهاية يكون مصيرهم الاستبدال.

***

وفي الأمة المسلمة:

قَدّم الجيل الأول – الذي رباه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ – أروع الأمثلة في صدق الإيمان، واتباع الرسول.. فعندما حانت لحظات المواجهة الأولى – في غزوة بدر – لم يقل جيل الصحابة: {إن هاهنا قاعدون} وإنما قالوا: "وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ}، وَلَكِنْ نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ يَسَارِكَ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ" [مسند أحمد / 3690]

ولما وقع الاستبداد في هذه الأمة، وصار الحكم ملكاً ظالماً وجبابرة.. وسلكت الأمة ما سلكته يهود.. حَلّ بها نفس ما وقع لنبي إسرائيل، فسنن الله لن تتخلف، ولن تحابي أحداً.

أعرضت الأمة – في مجموعها – عن المواجهة، وعن دفع الظلم والطغيان.. وكلما قامت فئة تدفع، وجدت نفسها وحيدة في الميدان! وترى – وهي تريد تحرير الأمة – أن الطواغيت والفراعنة يتخذون من الأمة نفسها مطية – من جند وعسكر – ليقاتلوا الأحرار!

وتفنى الفئة المؤمنة – وتغرق الأمة في التيه البعيد – ويخرج غيرها فلا ينقطع منادي الإيمان وتحرير الإنسان.

لكن حالة "الفسوق" الحاصلة في الأمة، تحول دون السماع، فضلاً عن الاستجابة.

ومن حالات الفسوق:

- التكبر في الأرض بغير الحق.
- تكذيب الآيات، والجهل بحقيقتها ودلالاتها.
- الإعراض عن سبيل الرشد.
- اختيار سبيل الغي والضلالة.
- نقض الميثاق.
- تمزيق النسيج الاجتماعي.
- الفساد في الأرض.
- التولي عن الجهاد في سبيل الله، وحمل الرسالة.
- الاستهزاء، وتبديل القول.
- الرعونة في الاستجابة.

وغرقت الأمة في التيه البعيد، وطالت فترة التيه.. ونسأل الله العلي القدير أن يخرج الجيل الجديد مقطوع الصلة بأمراض الاستبداد، وبعقلية الاستبداد، ولقد وقفت الأمة على الأرض المقدسة.. وهي بيت المقدس، وعددها يتجاوز المليار والنصف مليار، لا تجد حيلة ولا تستطيع سبيلاً أمام بضع ملايين من يهود، وتقول للمؤمنين بلسان الحال والمقال مثلما قال بنو إسرائيل: {اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون}!

ووقفت نفس الموقف أمام أعوان يهود وإخوانهم من الطغاة والجبابرة والفراعنة والطواغيت.. تتجلى الخشية منهم في قلوب الأمة أشد من خشية الله! وفي الوقت ذاته تتطاول وتهزأ بالفئة المؤمنة المجاهدة!

ومن مظاهر التيه:

نجد الأمة تتخطفها المذاهب الوضعية الغربية.. وأضاعت كتابها الذي فيه ذكرها، فانحسر ذكرها بين العالمين، اللّهم إلا في نسبة قضايا الفساد، والانحطاط، والتخلف، والحروب! ولو اتبعت كتاب ربها لصدق وعد الله لها برفع ذكرها، ومكانتها، وريادتها بين العالمين كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء (10)]

وتمزقت الأمة شيعاً وأحزاباً.. تحسب أنها على شيء! فاختلت رؤيتها للحياة، وضاع منها سبيل الرشد، وسلك الكثير من أبنائها سبل الغي!

وغرقت الأمة في التيه عندما ذلت أعناقها لكهنة الفراعنة والجبابرة، وهم يتلاعبون بآيات الله، ويتبعون المتشابه منه، ويحرفون الكِلم عن مواضعه.

وغرقت الأمة في التيه وهي تُسلّم مستقبلها وثرواتها وأبناءها للجبابرة؛ ليبيعوا الأمة كلها في سوق النخاسة الدولية، من أجل الحفاظ على عروشهم.

وغرقت الأمة في التيه، عندما تلاعب بها مجموعة من المنتفعين والمنافقين والمنحرفين باسم "الدين" وباسم "الحرية" ورحوا يخلطوا خلطاً مضطرباً شنيعاً بين المنهج والتصور الإسلامي، والمنهج والتصور العلماني الجاهلي، ليقدّموا للأمة "توليفة" تحاول "استرضاء" الجميع، فلم يرض أحد، وأنفقت الأمة من دمائها وأرواحها وشبابها وثرواتها الكثير والكثير في سبيل الغي هذا، ولم تزداد إلا غرقاً في التيه البعيد.

وغرقت الأمة في التيه، وهي عاجزة عن التعامل الصحيح مع كتاب ربها، وسنة نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وصارت تتخبط في أقوال الرجال، وتغرق في الركام الكثير الذي يحاصر

الكتاب؛ فيتحول الكتاب إلى مجرد تراتيل وتمائم لا مدلول حقيقي لها في القلوب والعقول والأرواح، فصارت تردد ما لا تفهم، ولا تعلم.. فأضاعت حبل النجاة، فغرقت في التيه.

وغرقت الأمة في التيه، وهي تبحث عن سبيل الخروج مما هي فيه.. بينما هي تعمل من خلال خطة العدو، وبإذن العدو، وبإشراف العدو، وبثقافة وفكر العدو، وباختراق العدو.. ثم في النهاية تيه جديد.

وغرقت الأمة في التيه، وهي تقدم أبناءها ليتعلموا تحت أعين المحتل، وتنفق الأمة ثرواتها من أجل أن يكون أبناءها من روضة الأطفال حتى أعلى المستويات الجامعية تكوينهم العقلي والنفسي والروحي يسير على خطى الحضارة الغربية العلمانية! فلا تخرج هذه الثمرة إلا نكدا، حتى العقول المبدعة في المجالات التطبيقية العملية، لم تنتفع منها الأمة بشيء، بل تذهب إلى الغرب.. لتكون له عضداً ودماء جديدة!

وغرقت الأمة في التيه، وهي عاجزة عن محاولات الاستقلال، حتى في غذائها، فأصبحت - رغم غناها، وموقعها الجغرافي، وثرواتها - تستورد كل شيء، وتستهلك كل شيء! فأصحبت أسيرة حتى في أبسط الأشياء.. هذا فضلاً عن استقلالها في غير الغذاء من تصنيع وتقنية وفكر وحضارة... إلخ.

وغرقت الأمة في التيه، وهي تذهب تتسول حقوقها من عدوها، ومن خلال مؤسساته الدولية المتحكمة في البشر، وتحسب أنه سيُنصفها، وتنتظر منه نظرة الرضى! والعطف على حالها، وتبث الشكوى بين يديه.. بينما هو الجاني المجرم، وتنتظر الأمة وتنتظر.. وتؤمن حتى درجة الإحسان واليقين! أن عدوها سوف يأتي لها بحقوقها، فلا يكون إلا التيه.

وغرقت الأمة في التيه، وهي ترد الفرص والمنح الربانية التي تأتيها - رحمة من الله وفضلاً - للعودة من جديد، وتأتيها لحظات فارقة - في كل جيل - لتخرج من عذاباتها، ولتعود من جديد، فتتعامل بكل رعونة، وسفه، وسخرية، واستهزاء، وتطاول؛ فتعود لـ "التيه" من جديد.

وغرقت الأمة في التيه، عندما تكرر أخطاء أسلافها بصورة تامة دقيقة، وتسير في نفس ما سار فيه الأسلاف، فلا ترى المنح الربانية، ولا تدرك الفرص السانحة، ولا اللحظات الفارقة.. ولا تريد أن تتعلم، ولا أن تصبر على التعلم، بل تريد تكرار الأخطاء، وأخذ الأمور بحمية وعصبية جاهلية، وبقفز فوق سنن الله؛ فتتكرر نفس النتيجة.. التيه!

وبطبيعة هذا التيه.. لن تكون هذه الأمة – التي أخرجها الله للناس؛ لتحمل رسالته، وتقيم شرعه، وتحقق حقه وعدله – قادرة على حمل الرسالة، فحالها ليس حال "الأمة الرسالية"، بل "أمة التيه"!

وقد طال التيه.. وازداد بعداً، ومازلنا نتخبط في طريق إخراج "الجيل الجديد" من رحم "أمة التيه" ومازالت المحاولات مستمرة، ومازال الأمل قائماً، ووعد الله حقاً.. والجيل قادم – بإذن الله – وعلى قدر الجهد، وعلى قدر اتخاذ طريق العلاج الصحيح، وعلى مستوى النجاح في علاج الاستبداد وأمراضه.. سيكون بزوغ الفجر الجديد، والجيل الجديد الذي يحمل مشعل الرسالة، ويمضي في طريق الرسل، على صراط الله المستقيم.. جهاداً في سبيله، وابتغاء رضوانه.

***

خامس وعشرون: التَسمّع للكذب وتصديقه

قال تعالى:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ... ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]

التَسمّع للكذب ليس هو الكذب. إنما هو: الإنصات للكذبة، وتصديقهم، وترويج مقولاتهم، والتلذذ بسماع كذبهم.. فلفظ "سمّاعون" يوحي بالاجتماع على سماع الكذب والطرب له! والتشجيع عليه.. وهي حالة "حب الكاذبين" لأنهم يُعبِرون عن مكنون صدور المستمعين من "النفاق والكذب الداخلي".

وبالطبع من يتسمّع للكذب بهذه الطريقة، سيكون موقفه من سماع الصدق هو التكذيب له، فيكون حالهم: سماعون للكذب، مُعرضون عن الصدق، غير منتبهين له، ولا عابئين به، ولا راغبين فيه، ولا باحثين عنه.

ومعناه أيضاً: إذا وُجد المصلحون بينهم، فإنهم يُقبِلون على الكذبة الدجالون، ويدافعون عنهم، ويؤمنون بهم، بل ويتعصبون لهم! بينما إذا تكلم المصلحون بالصدق أعرضوا عنهم، وحاربوهم، واتهموهم بالكذب!

وهي حالة انقلاب موازين، وتفسخ أخلاق، وخبث طوية، وفساد فطرة.. والله يكتب عليهم الضلالة بهذه الذنوب التي لا يتبون منها، ولا يرجعون عنها.

و"الاستماع" قضية كبرى من قضايا الإيمان.. فإن أجهزة الاستقبال الفطرية والنفسية داخل الإنسان، عندما تكون مهيئة لسماع الحق، ومستعدة للاستجابة له، وباحثة عن الصدق والخير، فإن أجهزة الاستماع، وأجهزة الاستقبال تكون في حالة متحفزة وجاهزة لهذا الحق.. فإذا وفقها الله لسماع الحق – وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوفق كل من يبحث عنه بصدق – فإنها تتلقى سماع الحق بشوق، ولهفة، وحب، ووجل، كأنها ملكت الدنيا.. فإن سماع الإيمان، وسكونه داخل أجهزة الاستقبال

النفسية يكون بمثابة "التكامل النفسي الروحي" الذي يشعر معه الإنسان بالرضى والسكينة والغنى والبشاشة والرحمة.. ومن هنا ينبت الإيمان، وتترعرع شجرته الطيبة، وثماره الجميلة التي تراها الأعين، وتلمسها الأيدي، وتلحظ آثارها العقول.

وعندما تكون أجهزة الاستقبال الفطرية والنفسية في الإنسان.. عطبة أو مُعطلة أو خربة، لا تبحث عن حق، وغير مستعدة للاستجابة له، ولو فُتحت لها أبواب السماء، إنما هي متقوقعة داخل ذاتها المظلمة، لا يُحركها إلا "عبودية الذات"، فإن أجهزة الاستماع والاستقبال، تكون في حالة "نافرة" عن سماع الحق، إنما متحفزة لسماع "الكذب" والاستجابة له، وسرعة تصديقه، والتعصب له، وسرعة الإيمان به!! والمفاصلة والمقاتلة على هذا الكذب.. فتكون النفس داخلياً في حالة من التناقض والتناقص والخيانة والكذب.. فيشعر الإنسان داخلياً بالوحشة – وإن كان بين آلاف الأحباب – ويشعر بالسخط – وإن ملك الدنيا – ويشعر بالقسوة والغلظة – حتى على نفسه – ومن هنا ينبت الكفر، وتترعرع شجرته الخبيثة في الأرض البوار، ولا يُخرج إلا نكدا!

والقرآن العظيم يُلخص هذه الحالة كلها في كلمتين: {سمّاعون للكذب}.

ومع التسمع لهذا الكذب.. يكون أكل السحت.. وأخذ الرشوة، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل، فيكون الكذب هو البناء الداخلي للنفس الخبيثة، ويكون "السحت" – المال الحرام المقطوع البركة – هو بناء الجسد الخبيث.

وهكذا فعل يهود.. تسمعوا للكذب، وروجوا له، وأكلوا السحت.. واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً! وحرّفوا الكلِم عن مواضعه، وجعلوا من دين الله سلعة، ومن الإيمان تجارة للدنيا، فضلوا وأضلوا عن سبيل الله كثيراً.

***

ولكن.. لماذا تتَسمّع النفس وتستجيب للكذب؟

إن النفس الطيبة لا تستجيب للكذب ولا تصدقه، حتى ولو لم تملك "الدليل المادي القاطع" على الكذب، لكن شعورها الداخلي ينفر بطبيعته من الكذب، وتستشعر أجهزة النفس الداخلية والرادارات الخاصة بها.. الكذب، وتنفر منه، وتشعر بالحذر والقلق والحيطة تجاهه، وهذه من علامات الإيمان التي يشعرها المؤمن.

وأما النفس الخبيثة: فإنها تجد في الكذب مادة حياة، وتسلية، وترد الدليل المادي القاطع على الكذب، فينقلب عندها الحق باطلاً، والباطل حقاً، فنجد أن أجهزة الاستقبال الداخلية تم برمجتها فقط على استقبال "الكذب" والتفاعل معه، والفرح به.

وعندما تصاب النفس بـ "أمراض الاستبداد" و"الذل والقهر والخوف المستمر من البشر" فإنها تألف الكذب، والتملق، والمراوغة.. ويصبح هو خصلة "الحكماء العقلاء" في ظنهم! ومع طول ممارسة الكذب والخداع.. يصبح لدى النفس "القابلية" لتصديق الكذب، وتكذيب الصدق!

وإن أعظم كذب هو الكذب على النفس.. وخداعها، وتضليلها عن طريق الإنسان ذاته! وما أعجب أن يَضل الإنسان نفسه بنفسه! والصدق مع النفس يحتاج إلى "مواجهة وشجاعة" – الأمر الذي ينفر منه العبيد – و"اعتراف وصراحة".. وإن الصدق مع النفس هو بداية طريق نجاة، فطالما ظل الخداع النفسي، والمراوغة معها، وتبرأة ساحتها، فمتى تستجيب النفس للحق؟! ومتى تتغير؟!

وحتى يستطيع الإنسان الصدق مع نفسه، عليه:

أن يعرف تلك التي سيصدقها.. يعرف نفسه، يُدرك حاجاته، يستكشف مشاعره، يفجر طاقته، يعقد معها عقد الحب، ويأخذ مع نفسه الميثاق الغليظ ألا يظلمها، ولا تستجيب لدواعي الشر فيها، ولا يفتح قلبه للشيطان، ولا يُعرض عن داعي الرحمن، وإن فعل.. تاب وأناب.. ورجع يعانقها ويألفها ويحبها من جديد.

وحتى يصل الإنسان إلى هذا الانسجام والتوافق، عليه أن ينظر إلى نفسه كما هي، بلا قيود فكرية، ولا تقاليد جامدة، ولا مقارنة ظالمة مع أحد.. يَتَّعرف إليها كما هي.. في لحظات السمو، وفي أوقات الغفلة. ويستكشف مواطن الضعف والخلل، ويَتّعرف إلى مواطن الجمال والقوة.. ثم يمتلك من الحرية والشجاعة ما يكفي للاعتراف بما فيها من ضعف، وأيضاً ما تملكه من قوة.. فيعرف كيف يعالج الضعف والخلل، وكيف يستثمر مواطن القوة فيها.

عندها.. يحدث التآلف المطلوب، والإحساس الحقيقي بها.. وعندها نطلب أن "نصدقها" بعد أن عرفناها، لا نخجل من حاجاتها ومكنوناتها.. لا نتوارى منها، ولا نهرب بعيداً عنها، ولا نضعها في قالب مزيف، ولا نلبسها ثوباً غير ثوبها! فنلبي دواعي الخير فيها وننميها، ونكبح جوامح الشر فيها ونمنعها.

ولو اضطر الإنسان – في لحظة ما – أن يكذب على كل الدنيا، ليس له أن يكذب عليها هي.. لأنه ليس هناك مساحة لوجود مادة الكذب في نفس تريد أن تكون ذات فاعلية في الحياة، وتريد أن تستقيم على صراط الله المستقيم.

لذا، كان احترام النفس، وتقديرها.. وصورتها أمامنا، مُقدم على نظرة الآخرين، واحترامهم، وتقديرهم.. وهذه من علامات الصدق مع النفس.

وعندما نصل إلى هذه المحبة مع النفس.. وترى منا هذا الحب وذاك التقدير.. تبدأ فاعليتها وحركاتها وقوتها في الظهور، وتبحث عن إثبات ذاتها في هذا الوجود.. بعد أن شعرت وجودها هي؛ فتكون الخلافة الصحيحة، والحرية الحقيقية.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع لها ما حذر منه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأخبر عنه: **"سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ"** [سنن ابن ماجة/ 4036]

وصار قطاع كبير من الأمة – إلا من رحم ربي – يتسمّعون للكذب، ويُروجون له، ويتلذذون به! ويتعصبون له. وعلى الجانب الآخر، يُحارب المصلحون، ويُلفق لهم التهم الباطلة؛ حتى يُعرض الناس عن سماعهم.. فصارت الكلمة لأهل الدجل والكذب، لا لأهل الإيمان والصدق.

وفي عصرنا هذا أصبح الكذب "صناعة عالمية" بل "حرب كونية" عالمية عابرة للقارات – في عصر الاتصالات والفضائيات والإنترنت – بل وصارت له جامعات وكليات؛ لتُعلم كيفية "صناعة الكذب" و"اغتصاب العقول" و"تدمير الحقائق" و"التلاعب بالوقائع والأحداث" حتى صارت "الحرب الإعلامية" أشد وحشية وشراسة وكلفة من الحروب العسكرية المباشرة!

وصار تأثيرها على الشعوب أشد فتكاً من أقوى الآلات العسكرية.. وأصبح "العقل الإنساني" عموماً أسيراً لشاشة التلفاز التي يتحكم في أغلبها عالمياً يهود – السمّاعون للكذب – والصانعون له والمروجون له.

وأصبح الإنسان كذلك غارقاً في فيضان هائل عنيف – لا يتوقف لحظة – من المعلومات الصادقة والكاذبة، والتي لها أصل صادق، ووجه كاذب، أو لها وجه صادق وأصل كاذب... إلخ، ولا يتحمّل عقل الإنسان هذه الكمية الهائلة من المعلومات.. فبالتالي يتوقف عن "الاستيعاب" ومن ثم "العمل"؛ فيتجه إلى "الراحة والمتعة" في فيضان آخر من الأفلام والمسلسلات والبرامج وهو فيضان لا يتوقف.. وهو يروج للدجل والكذب ولكن بصورة أكثر تعقيداً واحترافية ودقة، وأعمق تأثيراً.. إذ الإنسان في هذه الحالة لا يتلق معلومات جامدة في قالب إخباري أو تعليمي.. إنما يتلقى التوجيه والتأثير ومادة الكذب، من خلال المتعة والكوميديا والحبكة الدرامية، وقصة الحب، ومن خلال

وسامة وشهامة ونبل بطل المسلسل، وجمال ورقة وعذوبة رفيقته؛ فيكون الكذب وصناعة أدواته أحد أهم وسائل إضلال البشرية عن سبيل الله، وأحد أهم الوسائل في قلب الحقائق، وتحويل الصِدّيق القديس إلى وغد مخادع، وتحويل الشيطان الدجال إلى أحد أولياء الله الصالحين!!

ولا عاصم في هذا العالم من صناعة الكذب، والتضليل، وخداع البشرية.. إلا الله جَلَّجَلَالُهُ، ثم صدق النفس، وطهارة ساحتها الداخلية، وجهوزيتها النفسية لسماع الحق والاستجابة له، ولاستشراف الخير والبحث عنه.. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23]

فما على الإنسان إلا "إرادة الخير" عن قصد وطلب وإرادة ورغبة في البحث عن الصدق، وسبيل الخير، والصراط المستقيم، وحينها سيُسمع الله الإنسان، ولو كانت الدنيا كلها تعيش على الكذب وتتنفسه.. هذا وعد الله.. أن يُسمع القلوب التي فيها الخير، والسماع هنا ليس هو مجرد "إنصات الأذن" وتلقي "معلومة باردة" إنما هو "الاستجابة" وتفاعل النفس الداخلي مع "الحقيقة الحارة المتلقاه" التي تنزل برداً وسكينة ولذة على النفس الظامئة للحق، المتعطشة للخير.

وأما النفس الخبيثة التي لا تريد الحق والصدق ولا تبحث عنه، وليس لها من الخير نصيب.. فلو سمعت بالأذن آلاف الحقائق والمواعظ لأعرضت، ونأت بجانبها.. بل لو فُتحت لها أبواب السماء ما صدّقت شيئاً، والوصف القرآني لمثل هذه الحالة جاء في آيات كثيرة:

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23]

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر :14، 15]

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 132]

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: 7]

﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33]

وكل ذلك بسبب "إرادة الشر" في النفس، وعبادة الذات، وتكذيب الحق، ورؤية المغنم في الكفر والكذب، عندما يُزين الشيطان للإنسان الباطل، ويعمل على غوايته.. عندما يجد "الثغرات والفجوات" النفسية التي تترك إرادة الشر تسبح في داخل الإنسان، بل تتحكم فيها، ولا منع لها.. وهنا يأتي دور الشيطان لتوسيع تلك الثغرات، وتغذية إرادة الشر.. بالحجج الباطلة، والأكاذيب الملتوية؛ حتى يُضل الإنسان الضلال البعيد الذي لا رجعة منه، ولا يقظة بعده للضمير، ولا عودة منه للصراط المستقيم.

لذا، فعلى المصلحون عدم الملل من إعراض البعض عن سماع الخير، والاستجابة له.. بل عليهم تحسس أجهزة الاستقبال النفسية لدى الذين يخدعهم الكذب - عن غير قصد - ويعملون على إصلاح الأعطاب الداخلية بحلم وأناة ورفق ولين ورحمة وصدق ووضوح وشفافية، وعدم انتظار جزاء أو شكورا أو حتى رؤية ثمرة الإصلاح، والصبر والكفاح في تثبيت الحق، وإنشاء عالم الصدق، وتحمل كلفته وضريبته.. واليقين في وعد الله، إنه لا يُخلف وعده جَلَّجَلَالُهُ.

***

سادس وعشرون: التلاعب بشرع الله، والإعراض عنه

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ

اللَّـهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّـهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة]

في المرض السابق "التسمع للكذب وتصديقه" الوارد في قوله تعالى: {سمّاعون للكذب} – والتي وردت مرتين – في هذا الدرس من السورة، فضّلت اقتطاع هذا الجزء من الآيات لمناقشته بصورة منفردة، لما وجدت أنه مرض مستقل بذاته، والآن سنناقش – بإذن الله – في هذا المرض – "التلاعب بشرع الله والإعراض عنه" – ضمن سياق هذا الدرس كاملاً، ولنرى ماذا فعل يهود بدينهم؟ وكيف سلكت الأمة المسلمة نفس مسلكهم؟!

ومناسبة نزول هذه الآيات – كما جاء في بعض الروايات – أن قوم من اليهود ارتكبوا جرائم – تختلف الروايات في تحديدها – وهي من جرائم الحدود والقصاص، وكانوا يريدون تبديل أحكام الله فيها، فلم يكونوا في مبدأ الأمر يقيمونها على أصحاب المكانة والنفوذ، ثم حدث التهاون مع الجميع فيما بعد.

فجاءت الآيات مخاطبة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بعدم الحزن عليهم – وعلى من يسارع في الكفر – بالإعراض عن شرع الله، والتلاعب والاستهزاء والاستهتار به.. وجعله عرضة للأهواء والأطماع، والمصالح الشخصية! هؤلاء الذين يقولون: آمنا بأفواههم، وترددها ألسنتهم، ولكن قلوبهم لم تؤمن، ولم تستسلم لله.. فدين الله: هو إسلام القلب لله، وهؤلاء هم المنافقون على عهد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ – وفي كل جيل – يقولون آمنا بألسنتهم، وقلوبهم لم تُسلم لله.. بل تضمر الشر، والكفر!

وتجمع الآيات المنافقين مع اليهود – وهي لافتة خطيرة ومهمة – فتواسي الآيات الرسول الكريم بأن لا يحزن على هؤلاء ولا على هؤلاء من اليهود السماعون للكذب، والمصدقون له، والمؤمنون به.. السماعون لمن يُحرف كلام الله من بعد مواضعه، وكلام الله له مواضع، ومناسبات، وأحكام.. فها

هم "من بعد" مواضعها واستقرارها وعمل المؤمنون بها، ها هم بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، يُحرفون كلام الله، عن عمد وقصد لا عن جهل أو حسن نية!

وها هم يأتون للرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليحكم بينهم، وهم قد حكموا لأنفسهم قبل أن يأتوه !! قالوا: لو قال ما نحب ونريد أخذنا به، وها قد قاله رسول! وإن قال غير ما نهوى ونشتهي رددنا عليه قوله، وحذرنا منه! تصور لا ينم إلا عن نفوس منحرفة، تدور مع الهوى والمصلحة حيث دارت، لا تتبع الهدى، ولا تهدي سبيلاً، لم تؤمن قلوبها!

هؤلاء هم الغارقون في "الفتنة" قد فتنوا أنفسهم، حين جعلهم الهوى يتلاعبون بدين الله وشرعه وأحكامه، فعبدوا ذواتهم وسلطانهم ومكانتهم وأموالهم من دون الله! فحقت عليهم الفتنة – بما قدّمت أيديهم – ولن يملك لهم رسول الله شيئاً.. فأولئك لم يرد الله أن يطهر قلوبهم! فهذه القلوب لم ترع جناب الله، ولم تُسلم قلوبها لله، بل اتخذت من دينه بضاعة للكسب والمكانة والرياسة على الناس.. هذه القلوب لم تنبض بحب الله، ولا خشيته، ولا رجاءه، فحق عليها الطرد من جنة الإيمان، لتعش في عالم النجسات والأضغان والأحقاد والعداوة والبغضاء والإثم والبغي.

والقلب هو وعاء الإيمان، ومستقبِل لنور الله.. وهو بحاجة دائمة إلى "الطهر" و"النقاء" و"الشفافية"؛ ليكون مؤهلاً لتلقي النور الذي يكشف ظلمات النفس، ويزكيها، ويسمو بها.. والله – نور السماوات والأرض – هو الذي يطهر القلوب، ويملأها بالإيمان والرضى.

وأما هؤلاء الذين لم يطهر الله قلوبهم، لهم في الدنيا خزي، ومذلة، وسخط، وشقاء، وضنك.. وفي الآخرة: لهم عذاب عظيم.

هؤلاء اليهود هم سماعون للكذب أكّالون للسحت، والمال الحرام.. من الفتاوى الباطلة، وفتاوى أهل المال والسلطان، والرشوة في الدين وغيره.. إن جاءوك لمحاولة التلاعب بشرع الله، واستخلاص فتاوى حسب مقاسهم، ومصالحهم، فإن شئت حكمت بينهم، أو أعرضت عنهم.. وفي الإعراض عن مثل هؤلاء لا ضرر منه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ولا على دعوته، ولا

على بلاغ رسالته، ولا على شخصه الكريم، فالله عاصمه من الناس.. وإن جاء هؤلاء فليحكم لهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ بالقسط فالله يحب المقسطين.. فالحكم بالقسط هو على هذا الإطلاق، ساقط عنه أي اعتبارات أو عداوات أو اختلافات.. الحكم بالقسط هو مراد الله من كل حكم، لا تتداخل فيه أهواء الخصوم، ولا مكانتهم، ولا سابق عداوتهم، ولا يتداخل فيه الأحكام المسبقة – التي كان يريد يهود استخلاصها من رسول الله – بل تجرد كلي كامل لله وحده لا شريك له، تجرد قائم على الإخلاص التام لله، وعلى القسط الذي يزن موقف كل خصم بدقة وحكمة دون اعتبار لفرق المكانة بين الناس، والعدل الذي يوفي كل صاحب حق حقه، وفق مراد الله، وشرعه.

وتكشف الآيات عن محاولتهم تحكيم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓ آلِهِۦوَسَلَّمَ؛ للهرب من حكم كتابهم "التوراة" وهي فيها حكم الله.. وكيف يُحكمون رسول الله، ثم يتولون من بعد ذلك؟! وكيف يجهلون الحكم، وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك؟! وكيف يتولون من بعد ذلك وقد جاء حكم رسول الله مطابقاً لما عندهم من التوراة؟! فجاءوا بنية تحريف الكلِم من بعد مواضعه! وشرع ربهم لهم واضح، قاطع.. لكنهم تولوا عنه، وما أولئك بالمؤمنين، فينفي الله جَلَّجَلَالُهُ عنهم الإيمان بعد هذا الإعراض، وبعد هذه النية في التفلّت من أحكام الله، وعدم الرضى بها.. واتباع أهوائهم.

لقد أنزل الله كتبه هدى ونوراً للناس.. وليحكم بها الناس في حياتهم، ولتستقيم بها تصوراتهم، وليتَعبدون بها ربهم.. "عقيدة" تُنشأ التصور الصحيح عن الوجود، و"شريعة" تحكم واقع الحياة، و"شعائر" تربط القلوب بالله.. فقد أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن.. من أجل ذلك، وإعراض أي أحد عما أنزل الله فهو من الكفر، والظلم، والفسق، والجاهلية.

لقد أنزل الله التوراة ليُحكم بها بين أهل الكتاب، لكن يهود بعدما طال عليهم الأمد، وتحول الدين إلى تجارة وسلعة؛ اشتروا فيها بآيات الله ثمناً قليلاً لقاء التحريف أو السكوت – وكل الأثمان قليلة – وأصبحوا يخشون أصحاب المال والسلطان، وأهواء الجماهير.. بدلاً عن خشية الله، وتقواه، ولهذا

فمن لم يحكم منهم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.. وقد خصت الآية هنا عدم الحكم بغير ما أنزل الله بـ "الكفر" حيث سياق الآية يتحدث عن نبذ شرع الله مراعاة لأهواء أصحاب المال والرياسة والكبراء والطغاة، ولخشية الناس - وأصحاب السلطان - بدلاً عن خشية الله، فغيروا حكم الله، مراعاة للسلطان الذي "يُشرع" للناس بما لم يأذن به الله، ومراعاة لأصحاب "المصالح المادية"، الذي يريدون "أكل السحت والمال الحرام" والحرية في سرقة الضعفاء، ومراعاة "أهواء الجماهير" التي تريد الانحلال والانفلات وعبادة الشهوات.. وهؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله.. فأولئك هم الكافرون.

ثم جاءت الآية التالية توضح أحكام القصاص، وأنه لا فرق بين شريف ووضيع، ولا غني ولا فقير، ولا صاحب حسب وجاه ونسب، وبين من ليس له من ذلك شيئاً.. جاءت الأحكام لتساوي بين الجميع، وهذه هي الضمانة الأولى الأولية لتحقيق العدل، وأمن المجتمع، وسلامة بنيته.. وعدم تحقيق هذا العدل يقابله الظلم، فخصت الآيات من لم يحقق القسط والعدل في الأحكام بـ "الظلم".. {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}.

وتشير الآية التالية إلى رسالة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه جاء إلى بني إسرائيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة وأنها هي الشريعة، وما جاء في الإنجيل هو كذلك هدى ونوراً ومصدقاً لما سبق من شريعة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي جاءت بجرعة روحية لتعالج قسوة القلوب، وجفاف النفوس، فجاءت متممة لشريعة أخيه موسى - عليهما السلام - وليحكم بها أهلها، فهي خاصة لهم - وليست رسالة عامة لكل البشر - وكل دين جاء من عند الله.. جاء عقيدة وشريعة وشعيرة.

وخصت الآية هنا من لم يحكم بما أنزل الله بالفسوق.. والفسق هو فساد القلب، وانحرافه عن الصراط المستقيم، والضلال عن طريق الهدى! وقد وقع ذلك بالفعل للنصارى عندما أفسدوا عقيدتهم، وفسقوا عن أمر ربهم، ووقعت العداوة والبغضاء بينهم وبين يهود، وبينهم وبين أنفسهم؛

فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فجاءت الآية: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون}..

وقد جاء في آيات أخرى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 68]

وهكذا نجد التأكيد الشديد، والمبالغة التامة في تأكيد قضية الحكم بما أنزل الله؛ لتحذر الأمة المسلمة أن تسلك ما سلكه "أهل الكتاب" قبلها، وما فعلوه بشرع ربهم، فجاءت الآيات الثلاثة تقول:

{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} الذين نبذوا شرع الله، واستقبحوه، وفضلوا غيره من تشريعات البشر عليه، من أجل الهوى أو من أجل السلطان والمال وأصحاب المصالح، وبدّلوا شرع الله، واتبعوا أهواء الناس.

{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} الذين يُفرقون بين الناس في أحكام الله، ولا يعدلون.. فللشريف والغني حكم، وللوضيع والفقير حكم.. فإن كان غنياً عفو عنه، وإن كان فقيراً أقاموا عليه حكم الله! وأولئك هم الظالمون.

{ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} الذين فسقوا عن أمر ربهم، وضلوا الطريق، وفسدت عقيدتهم، وفطرتهم، ولم يعودوا بعد أهلاً لمعرفة حكم الله، ولا التحاكم إليه، فاستمسكوا بالباطل، وضلوا عن سواء السبيل.

فكانت قضية الحكم بما أنزل الله قائمة على العدل الخالص، والقسط التام.. لا كفر فيها بتبديل حكم الله وشرعه، وتفضيل أهواء البشر عليه، ولا ظلم فيها بعدم العدل بين الناس، ولا فسق فيها بالضلال عن سبيل الله، أو الجهل بأحكامه ومراده..

قضية تُمثل أصلاً من أصول الإيمان، ومادة إقامة الحق والعدل بين الناس، وماء الحياة لوجود الأمة المسلمة لله، والسالكة طريق الهدى والنور والاستقامة.

ثم تتجه الآيات الكريمات - بعد عرض قضية أهل الكتاب مع أحكام الله - إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والأمة المسلمة من ورائه؛ لتُبين مكانة كتاب الأمة المسلمة، والغاية من إنزاله لهم، فقد جاء هذا الكتاب مصدقاً لرسالة موسى وعيسى عليهما السلام، ومصدقاً للتوراة والإنجيل، وهو "المهيمن" والحاكم عليهما ، وهو المرجع النهائي، وهو كذلك الكتاب الواجب الاتباع للناس كافة، والرسالة الأخيرة لكل البشرية، والشريعة الناسخة لما قبلها، وعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يحكم بهذا الكتاب، ولا يتبع أهواء الذين لا يعلمون، ولا يستجيب لرغبة أولئك الذين يريدون الفتنة بالانحراف عن "بعض" ما أنزله الله - بدعوى الاعتبارات والظروف - فلا تساهل في أمر الشريعة ولو في جزء يسير منها.. مهما كانت الادعاءات والدعوات كـ "وحدة الصفوف" ولن يكون الناس أمة واحدة، فهم مختلفون.. ولا يمكن التضحية بشيء من الشريعة في مقابل شيء لن يحدث، فلن تأتلف قلوب المؤمنين المستسلمين لشرع الله جملة وتفصيلاً، مع قلوب المنافقين.. الذين لا يرغبون في هذا الشرع بعضه أو كله، وقد جعل الله لكل منهم طريقاً ومنهاجا، وهم في ابتلاء.. الواجب فيه اتباع الكتاب وإخلاص القلوب لله، والتسابق إلى مرضاة الله، والتسابق في الخيرات، والله محيط عليم بأحوالنا، وما يختلج في صدورنا، وإليه المرجع والمنتهى والحكم بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون.

وتُعيد الآيات الأمر للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بـ :

- الحكم بما أنزل الله.
- عدم اتباع أهواء أهل الكتاب والمنافقين.
- الحذر من أن يحاولوا أن يفتنوا رسول الله عن "بعض" ما أنزله الله.

وإن تولي هؤلاء – المنافقون وأهل الكتاب – عن حكم الله، فإنما هو لفساد قلوبهم، ولضياع إيمانهم.. وسيصيبهم الله بذنوبهم، وإن أكثر الناس لفاسقون عن أمر الله، وعن اتباع الهدى والنور والقسط والعدل، بل اتبعوا الهوى والشهوة وحظوظ النفس، وظلم الآخرين.

هؤلاء يريدون "حكم الجاهلية" التي يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.. الجاهلية التي تُراعي أصحاب الرياسة والمصالح والسلطان، والتي تظلم الضعيف، وتحابي الغني، والتي تتبدل فيها الأحكام حسب الأهواء، حكم الجاهلية الذي يهش له المنافقون، ويفرحون به، ويرغبون في التحاكم إليه.. ويتركون الحق والعدل الرباني الخالص، الذي به تستقيم الحياة، ويأمن المجتمع، وتقوم الحياة الطيبة، وتتساءل الآيات: من أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ حقاً من أحسن من الله حكماً.. ولن يشعر معنى الآيات وجوابها إلا الذين يوقنون بالله، وبرسله، وبكتبه، وباليوم الآخر، الذين يوقنون بعدل الله، وبحكمته، وبرحمته، وبشرعه، ولكن المنافقين لا يعلمون!

ونلحظ في الآيات التي توجهت للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ – والأمة المسلمة من ورائه – في قضية الحكم بما أنزل الله:

- التأكيد على الحكم بما أنزل الله فذُكرت مرتين في سياق واحد: {فاحكم بينهم بما أنزل الله} {وأن احكم بينهم بما أنزل الله}.

- التأكيد على عدم اتباع أهواء أحد في قضية الحكم، فاتباع الأهواء هو خرم للعدل الرباني، وانتقاص للقسط، وخروج عن الشرع، فذُكرت مرتين في سياق واحد: {ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} و {ولا تتبع أهواءهم}.

- الحذر من فتنة المضلين عن شرع الله، ولو كان فقط ترك "بعض" ما أنزله الله، فأهل الفتن والأهواء سيحاولون إضلال الأمة فقط عن "بعض" شرع الله، بدعوى الملابسات والظروف، أو تأليف قلوب المختلفين! أو تجميعاً للصفوف بالتساهل في شيء من أمر الشريعة؛ والإضلال عن البعض مُدخل للكفر والظلم والفسق والجاهلية، يجب أن تحذر منه

الأمة المسلمة.. وفي الآية توكيد للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وهو من هو - فما بالنا بالأمة من بعده؟! وتوحي الآيات بأن التحذير لها، والسياق عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مبالغة في الحذر.

وهكذا نجد هذا التوكيد، والتحذير، والتكرار في سياق واحد في قضية واحدة هي "الحكم بما أنزل الله" حتى لا يبق في القلوب شك فيها، أو يتصور البعض أنه يمكن الخروج عن بعض أجزاء منها، فضلاً عن الخروج منها بالكلية.. وتوكيد الآيات بهذه الصورة، يُوحي بالإشارة إلى طبيعة النفوس تجاه هذه القضية، وأن الانحراف عن الحق والعدل والشرع.. واتباع الأهواء والمصالح الذاتية مما يختلج في الصدور، ومما يتولى فيه كثير من الناس عن الكتاب.. فجاءت هذه الآيات على هذا النسق، وبهذا السياق؛ لتحسم القضية كلها، ولتؤكد على أهميتها، على مستوى الإيمان.. فهي قضية إيمان ابتداء، وعلى مستوى الحضارة ومستقبل الأمم.. فهي قضية وجود.

***

ولكن.. لماذا تُعرض النفوس عن شرع الله، وتبتغي غيره؟

حتى نستطيع الإجابة على هذا السؤال، يجب أن نعقد المقارنة بين: "منظومة العدالة الربانية" و"منظومة الظلم الفرعونية"..

تقوم منظومة العدالة الربانية على: (1) التشريع: وهو من عند الله الحكم العدل الرحيم، الذي له الخلق والأمر. (2) العدل: وهو تحقيق العدل الرباني بلا محاباة وبلا تفرقة بين الناس. (3) القضاء: وهو تحقيق الاستقامة والاعتدال في القضاء بين الناس، وصلاح القاضي، والمحكمة، والحكم، وطريقة تنفيذه.. بمعنى: الإحسان والقسط في كل شيء.

تقوم منظومة الظلم الفرعونية على: (1) التشريع: وهو تشريع الفرعون حسب هواه {ما أُريكم إلا ما أرى}. (2) الظلم: التفرقة بين الناس ومحاباة بعضهم على بعض.. والتفرقة بين السادة والعبيد، وطبقة النبلاء والأشراف، وطبقة الرعاع والفقراء. (3) القضاء: بالفسوق والجور والفجور، وفساد

القاضي، وهزلية المحكمة، والحكم، وتسلط أصحاب النفوذ والمال والقوة على القضاء، وجعله مجرد صورة مسرحية، وتمثيلية سخيفة.

بطبيعة هذا الحال، وتلقائياً تتجه النفوس السوية، المستقيمة الفطرة، الصادقة الإيمان إلى "منظومة العدالة الربانية" فما أحسن منها حكماً؟ وما أشد منها عدلاً؟ تتجه إليها لأنها: قضية إيمان ابتداء. ولأنها منظومة عدل خالص لوجه الله الكريم، ولأنها منظومة قضاء مستقيم.. لا يتأثر بشيء سوى أمر الله، ورضى الله.. ابتغاء مرضاة الله. منظومة جعلت – عندما قامت أول مرة – أصحاب الملل والأديان الأخرى، تريد التحاكم إليها، والقضاء عندها، لما وجدت فيه من العدل الخالص من الهوى، والمتجرد من المصلحة.. منظومة جعلت أقواماً يدخلون في دين الله أفواجاً من أجل هذا العدل الرباني الذي تشعره الفطرة السوية، وتلمس معانيه القلوب، دون الحاجة إلى كثير كلام، أو طول بيان.

ولكن ليس كل النفوس سوية، ولا مستقيمة الفطرة، ولا صادقة الإيمان.. هناك نفوس مُستعبَدة، عشقت الفرعون وشاركته شعور "الخوف والحب والرجاء" فجعلته رباً من دون الله! هناك نفوس قاسية صلدة طال عليها الأمد فنست كتابها وشرع ربها، فقست قلوبها، وفسقت عن أمر ربها.. وهذه النوعية من النفوس سوف تتجه تلقائياً وبطبيعة الحال إلى "منظومة الظلم الفرعونية"؛ لأنهم سيجدوا فيها ما يبحثون عنه من: تجارة بالدين والأحكام، ومن الجور والظلم على الناس، ومن المحاباة وتقديم أصحاب الجاه والمال، وسحق الفقراء والضعفاء من الناس! سيتغير التشريع حسب الهوى والمزاج، وسيتغير الحكم حسب مكانة صاحب الرياسة والمال، وسيكون القضاء والمحكمة طوع أمر الفرعون.. بل سيكون الفرعون هو المُشرع، والقاضي، والمنفذ! وفيه ستقام سوق الفتاوى الباطلة، وبيع آيات الله بثمن قليل، بل بيع صكوك الغفران، وبيع الجنة، ومنح القدسية، واللعنة.. سوق للتجارة، ومن يملك المال والقوة هو صاحب اليد العليا.. فتتكون حالة من "تأليه" للفرعون، وحالة من "العبودية" لمن يخضع للفرعون. ولا تتصور هذه النفوس المنحرفة أن هناك عدالة ربانية، فهي لا ترى إلا سياط الجلاد، ورضى الفرعون!

وفي الأمة المسلمة:

سلكت نفس مسلك أهل الكتاب في قضية الحكم والتشريع.. ووقعت فيما حذر منه القرآن الكريم، وفيما حذر منه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ.. ووقع فيها من الكفر والظلم والفسق والجاهلية في أمر التشريع وإقامة العدل.. فاستبدلت شرع الله بالقوانين المخالفة لشرع الله، ووقع الظلم في التحاكم إليها، ووقع الفسق والفساد في القضاء والمحاكم والقضاة، ووقعت في الجاهلية بالتولي عن بعض ما أنزله الله إليها!

بل انقلبت الآية.. صارت الأمة من شدة الظلم الواقع عليها في بلادها، ترغب في التحاكم والقضاء عند "المحاكم الغربية"! لأنها وإن كانت باطلة في جانب التشريع، فإنها – في نظرها – عادلة في التحاكم والقضاء!! فصار الغرب العلماني مضرب المثل في العدل الذي تفتقده الأمة! بعدما كانت الأمة – أول مرة – هي مضرب المثل في الإيمان والعدل والحكم والقضاء، عندما أقامت منظومة العدالة الربانية، أما اليوم.. فقد فشلت – وللأسف – حتى في مجرد إقامة العدل حتى على أساس وضعي غير إسلامي، فصارت فرعونية خالصة، محاكم هزلية.. يقضي فيها أصحاب الرياسة والمال والنفوذ.

والله جَلَّجَلَالُهُ حذر الأمة من الافتتان في الدين بالانحراف عن "بعض" ما أنزله الله إليها، وها قد وجدناها تنحرف ليس عن "بعض" بل – في كثير من البلاد المسلمة – عن "كثير" مما أنزله الله! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

جاء عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: "**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ** " [مسند أحمد/ 21655]

وعنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ: "**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ** "، **قِيلَ: وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ:** "**وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ**" [مسند أبي يعلى/ 1571]

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، قَالَ: قُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، قَالَ: **"أَجَلْ، وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ**" [السنن الكبرى للبيهقي/ 10 : 114]

فوقع الكفر: بنبذ شرع الله إلى القوانين المخالفة للشرع والعدل، واستقباح ما أنزله الله، وتفضيل تشريع الفرعونية الباطل عليه.

ووقع الظلم: بالتفرقة بين الناس على أساس مكانتهم، وأموالهم، ونفوذهم، ورياستهم.. وإذا ادعى قوم تحاكمهم إلى الشرع، أقاموه على طريقة يهود.. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا** " [صحيح البخاري/ 3475]

ووقع الفسق: بفساد القاضي، والمحكمة، وطرق التحاكم، والتنفيذ، وجعلها كلها تحت سلطة الفرعون وأمره، وليست مستقلة بذاتها.

وإذا كان هلاك من قبلنا – من أهل الكتاب – كان بسبب التفرقة بين الشريف والضعيف، وترك إقامة الحدود على أصحاب الرياسة والمكانة.. فما بالنا إن فعلنا ذلك بالإضافة إلى عدم التحاكم إلى الشرع ابتداء؟! لا شك إننا على خطر عظيم، يستلزم الحسم القاطع، والتوكيد المستمر، والمبالغة الشديدة في هذه القضية تحديداً بالطريقة التي عرضها القرآن الكريم.

وإن غياب العدل، والتفرقة بين الشريف والضعيف – كما جاء في الحديث النبوي – من أسباب هلاك الأمم؛ لأن هذا الظلم يدمر بنية المجتمع، ويورثه الأحقاد والضغائن والتحاسد والإثم والبغي.. ويجعل الشريف يعتبر في نسبه وماله حصانة تحميه من العقاب، فيزداد ظلماً وعدواناً.. ويزداد عبودية لهذا المال، ونهماً في تحصيله من كل طريق! وعلى الجانب الآخر: يجد الضعيف إحساساً بالظلم القاهر، قد يدفعه إلى التنكر لهذا الدين الذي يحسبه يظلم ويُفرق بين الناس، وقد

يدفعه كذلك إلى الانتقام! والإفساد.. فتفسد العلاقة بين مكونات المجتمع، وتنهار وحدته الإيمانية الجامعة.

ولقد صار التعاطي مع الشرع على طريقة: {إن أُوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تُؤتوه فاحذروا} إذا جاء الحكم في صالحنا، وعلى هوانا، أخذنا به.. فهو شرع ربنا! وإن جاء في صالح غيرنا، وعلى غير هوانا.. نبذنا الشرع، واخترعنا من الأعذار والأوهام والأحكام، ما نتفلت به من الشرع.. ونتبع الجاهلية، وما أولئك بالمؤمنين.

ولقد بدأت الفتنة عن "بعض" ما أنزل الله.. في بدايات "الملك العضوض" بعد انقضاء الخلافة الراشدة، وبدأت فتنة "المُلك الجاهلية" تطل برأسها، وبدأ الفساد في سياسة "الحكم والمال" ينحرف بالأمة شيئاً فشيئاً، حتى صار إلى مرحلة الانحراف عن "كثير" مما أنزله الله إلينا.. ولم يتبق إلا بعض أحكام الأسرة والميراث، الأمر الذي يستكثره بعض المنافقون، ويريدونه علمانياً جاهلياً خالصاً!

ونحن بحاجة إلى العودة إلى البدء من جديد، وإلى قيام "منظومة العدالة الربانية" كما قامت أول مرة في مرحلة رشد الأمة:

- بحاجة إلى نبذ القوانين المخالفة لشرع الله، وإعادة الحكم بكتاب الله، واستنباط الأحكام وسن القوانين على أساس كتاب الله، ووحيه إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.
- وبحاجة إلى إقامة العدل، وتحرير الأمة من الاستبداد والظلم والطغيان، ورد الناس سواسية لا فرق بين أحد إلا بالتقوى.
- وبحاجة إلى إصلاح منظومة القضاء، والقضاة، والمحاكم.. بما يتناسب مع تحديات الأمة، وما وصل إليه العقل البشري من حسن التنظيم والإدارة.
- بحاجة إلى الإحسان والعدل والقسط في كل شيء، لأنه قضية إيمان ابتداء، ولأنه لا وجود للأمة من دونه، ولا فاعلية لها بدون تحقيقها لـ "منظومة العدالة الربانية"..

وهي بحاجة أولاً للتحرر من الآصار والأغلال التي تفتك بجسدها المترهل، وهي إلى شفاء بإذن الله، وإلى عودة.. ولو بعد حين، وسنة الله لن تتبدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد (11)].[1]

***

(1) راجع – إن شئت – فصل "اضطراب مفهوم الشريعة" من كتاب "انحرافات في الحركة الإسلامية".

سابع وعشرون: التطاول على الله جل جلاله

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّـهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّـهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّـهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّـهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّـهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّـهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّـهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة]

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181]

تتحدث الآيات الكريمات في هذا الدرس عن موضوع "الولاية" والمحبة والنصرة.. لمن تكون؟ وهو موضوع مرتبط بالإيمان والعقيدة ابتداء.. فالمحبة القلبية والنصرة الظاهرية أمر لا بد وأن يكون لأهل الإيمان، وإخوة الإسلام. ومن الناحية النفسية لا بد وأن تكون المحبة القلبية هي خالصة لله وحده، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.. إنما هو قلب واحد يجب أن يكون حب الخالق جَلَّجَلَالُهُ هو المحور الذي يدور حوله كل حب، وكل نية، وكل قصد.. ولما كان أهل الكتاب – كما ستُبين الآيات جرائمهم – والكفار، يُعادون الله، ويحاربون أولياءه، ويناصبون البغض للمؤمنين، والسخرية منهم، ومن صلاتهم ودينهم.. فلا يمكن بحال من الأحوال أن يجتمع في قلب المؤمن محبة لمن يحادون الله ورسوله، ويحاربون دينه!

هذا من ناحية القلب، أما من ناحية الواقع والنصرة.. فإن أهل الكتاب – الفاسقون الذين لا يعقلون – والكفار، سوف يبتدؤون العداء والحرب على المؤمنين، وسيحاولون إزاحتهم عن دينهم، وإخراجهم منه، ويبتغون أن يردونهم كفاراً حسداً.. وفي هذه الحالة يجب على المؤمن أن: يدرك حقيقة وأصل هذا الصراع، وطبيعة المعركة، وسبب العداء، وآثاره، وأبعاده، ويستعد لهذه المواجهة، ويعد القوة اللازمة لهذا التدافع بين الحق والباطل! ومن ثم فإن ولاية هؤلاء الأعداء – في الدين – يُعد خرماً وقدحاً في إيمان المرء، ولا يفعلها إلا المنافقون.. الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر – عليهم دائرة السوء – وهكذا حال المنافقين في كل جيل.

فتفتتح الآيات بالتحذير من ولاية أهل الكتاب والكفار الذين يتخذون دين الله "هزواً ولعباً" والذين يناصبون العداء للمؤمنين، ويريدون ردهم عن دينهم.. وتختتم الآية باستجاشة عوامل وكوامن "التقوى" في القلوب، فالتقوى والخشية والوجل والحب لله، هي التي تعصم القلب أن يتجه بالحب لأعداء الدين، ومتى صلح القلب، صلحت النية، واستقام القصد، ومتى صلحت النية، صلح العمل بإذن الله.

ولأهمية موضوع "الولاية" يفصل القرآن تفصيلاً تاماً لسبب النهي عن ولاية أعداء الدين، ويستعرض أحوال أولئك الذين يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً!

وقبل المضي في هذا التفصيل، نذكر بآية سورة الممتحنة التي جاء فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة (8)]

ففي هذه الآية جاء الاستثناء في الذين لم يعادوا المسلمين، ولم يتخذوا دينهم هزواً ولعباً، ولم يقاتلونهم ولم يخرجونهم من ديارهم، ولا يحاربوا دينهم.. فأولئك لهم البر والرحمة في السلوك، والقسط في التعامل، أما الولاء وهو النصرة والتناصر والجهاد فهو مسألة عقيدة يجب أن تكون بين المسلمين، والولاء فيها لله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ والذين آمنوا.

وهذا هو المنهج الرباني.. وهذه طريقته في صياغة وتشكيل العقل والشخصية المسلمة؛ لتكون عادلة في سلوكها، مستقيمة في تصوراتها، منضبطة في مشاعرها وعواطفها.. باختصار: "على الصراط المستقيم".

والآن نشاهد طريقة القرآن في البيان والشرح والتفصيل، الذي يأخذ بالعقول والألباب والأرواح والقلوب.. وهو يُبين الحقائق.. والحقيقة هنا: النهي عن ولاية أعداء الدين.

ويُبين السبب الأول: وهو السخرية من الصلاة، والاستهزاء بها، واعتبرها لعباً وعبثاً!! والصلاة هي الركن الأول بعد شهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وهي المحطة الروحية والقلبية التي يتزود بها المسلم على مدار يومه، وهي الاتصال بالملأ الأعلى، وذكر الله، فهي مرحلة التطهر القلبي والنفسي والروحي.. وهي الوقوف والخشوع بين يدي الله، وعندما يخشع فيها المؤمن، فإنه ينفصل عن الحياة وعن متاعها ومشاغلها؛ ليرتفع إلى آفاق لا يعلم مداها إلا الله، يسقط فيها حاجز الزمان والمكان، وتنسكب فيها العبرات، وتخشع فيها القلوب لله جَلَّجَلَالُهُ..

وأمر بهذه العظمة، وهذه المكانة، وهذا القدر عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعند المؤمنين.. لا يمكن أن يكون محلاً للسخرية والاستهزاء واللعب! بل هو محل العظمة والتقدير والحرص والاهتمام!

فعندما يسخر منها السفهاء - الذين لا يعقلون - فإن ذلك استهزاء بالشعيرة، وبالدين كله.. وانتقاص من قدرها، وإنما يُعظم شعائر الله، أولئك الذين في قلوبهم الخير والتقوى. وعندما يسخر الذين لا يعقلون ولا يدركون معنى التقوى والخشية والوجل، ومعنى تعظيم شعائر الله، ولا يشعرون معنى الصلاة، فأولئك قلوبهم خربة، وأرواحهم ميتة.. لا يمكن أن تكون لهم مع المؤمنين ولاية، ولا رابطة، ولا وشيجة، ولا صلة. وهذا هو السبب الأول.

وتتوجه الآيات بتقريع أهل الكتاب عن سبب نقمتهم وغضبهم وحقدهم وعدائهم للمؤمنين.. ما هي مسوغات هذه النقمة؟ ما الجرم الذي اقترفه المؤمنون؟

أتنقمون منهم لأنهم آمنوا بالله وبرسوله، وما أنزل إليه، وما أنزل من قبل؟!

وهل يمكن لأهل كتاب أن ينقمون ممن آمنوا برسلهم ووقروهم، وآمنوا بما أنزل عليهم، وما أنزل على رسلهم؟!

لا يمكن.. بل يستحيل، إذا كانوا بالفعل يبحثون عن قضية "إيمان" و"حق"، ولكن يمكن أن تكون النقمة والعداء والحقد والحسد والبغض، عندما يكون "الفسق" هو الغاية، وعبادة الذات، والمصالح المادية هو السبيل.. عندها يكون وجود المؤمنين بدينهم وصلاتهم وعبادتهم، أمر يكشف عن عيوب وكفر من يدعي الإيمان وهو يعبد ذاته، وعمن يدعي الإيمان بكتابه، وهو يؤمن بالدنيا ومكانته فيها سواء المكانة الروحية والرياسة على الناس، أو المكانة على الناس بالسلطان والمال والمتاع.. فالشخصية المستقيمة المؤمنة ستُشعر الشخصية المنحرفة الكافرة بانحرافها وفسقها، وتكون دليلاً قائماً وكاشفاً عن الفسق.. ومن ثم يكون الكره للشخصية المستقيمة المؤمنة؛ ومحاولة جرها إلى الفسق، أو الحرب والعداء إذا استعصت على الانحراف؛ فتكون النقمة على أشدها.

وتُبين الآيات سبب هذه النقمة، وهو "الفسق" فسق القلوب عن البحث عن الهدى، وابتغاء سبيل الله.. وفسق الأرواح وفساد الأخلاق، ومتى ذكر القرآن الكريم كلمة "الفسق" فإنه – فيما أرى – كأنه يُوحي بفساد الخامة البشرية فساداً لا يُرجى معه صلاح، كمثل أن يفسد الطعام فلا يعود صالحاً لغذاء الإنسان مرة ثانية.. ولعل القرآن يستعمل كلمة "الفسق" ليوحي بالمعنى الروحي لفساد القلوب والأرواح.. نعوذ بالله من ذلك.

ثم تُبين الآيات السبب الثاني من عدم ولاية أعداء الدين: وهذه المرة يأخذ أهل الكتاب – خاصة اليهود – بالتقريع الشديد، ليجعلهم في شر مكانة، وفي أضل سبيل.. ولا يمكن أن يتلاقى من هو في شر مكانة، ويضمر في قلبه الكفر والشر، مع من هو في خير مكانة – مقام العبودية لله – ويشرق في قلبه الإيمان والخير.. يستحيل أن تكون هناك ولاية بينهما.. إلا في قلوب المنافقين.

لقد جعلهم الله في شر مكانة.. بفساد قصدهم وسوء نيتهم، وبذنوبهم التي يتبجحون بها، ولا يتبون منها، فجزاهم الله بسوء أفعالهم، ولعنهم، وغضب عليهم.. وجعل منهم – بما قدّمت أيديهم – القردة والخنازير، ومسخ أرواحهم – أو أرواحهم وأجسادهم – فأخرجوا أنفسهم بأنفسهم من مقام الإنسانية الرفيع – سواء المقام الروحي أو الجسدي – إلى عالم الحيوان.. وليس أي حيوان بل الأنواع الذي تتناسب مع أحوالهم وقلوبهم، فجعل منهم القردة: التي تتقافز لا تهتدي سبيلا، ولا تعرف طريقاً.. المنحنية الظهر، في صورة على الخضوع والذلة، بعكس الظهر القائم المستقيم الذي يُوحي بالكرامة والحرية والرفعة! وجعل منهم الخنازير: التي لا تقع إلا على القاذورات، ولا ترفع وجوهها من الأرض، في صورة أخرى من الانحطاط والذلة!

ثم صورة ثالثة من عبادة الطاغوت: ولعل المقصود به هو عبادة السلطان الطاغي الباغي الظالم.. الذي لا يحكم بما أنزل الله، ولا يقوم بالحق والعدل.. سواء أكان ذلك في صورة الأحبار والرهبان الذين اتخذوهم "أرباباً" من دون الله، أو ملوك الرومان.. الذين كانوا على دين الوثنية.

ثم تُبين الآيات السبب الثالث من عدم ولاية أعداء الدين: وهو الكذب والنفاق، وهو ادعاءهم الإيمان.. إما لإضلال المؤمنين، وخداعهم، أو للحفاظ على علاقاتهم وتحالفاتهم! والقرآن يصف حالهم: "دخلوا بالكفر، وهم قد خرجوا به" جاءوا كافرين، وخارجوا كافرين! لم يستمعوا للهدى، ولم يريدوه، ولم يبحثوا عنه.. فخرجوا كما دخلوا كافرين! والله أعلم بما يكتمون.

ولا يمكن أن تكون هناك ولاية مع كاذب منافق، يدعي الإيمان.. من أجل الخداع أو الحفاظ على مصالح مادية وعلاقات.

ثم تُبين الآيات السبب الرابع: وهو "المسارعة" وبذل الجهد، والسعي الحثيث من أجل.. "الإثم والعدوان" و"أكل السحت" والمال الحرام.. والتسابق إلى الشر والإفساد! والمؤمن الصادق، والإنسان السوي لا يُسارع في "إثم ولا عدوان" بل العكس هو الصحيح "يتعاون" على البر والتقوى، وصلاح الأنفس وعمارة الأرض، فهو كله خير! أما هؤلاء الأشرار لا يجتهدون إلا في "الإثم والعدوان" وتُذكر الآية بـ "أكلهم السحت" وأخذ الرشوة والمال الحرام، وأكل أموال الناس بالباطل – رغم ذكرها في آيات سابقة – لكنه يعيدها هنا لعظم أكل السحت، واللحم الذي ينبت من السحت، لا بد وأن يسارع في الإثم والعدوان.

ولبئس هو العمل.. ولبئس هو الحال.

ثم تُبين الآيات السبب الخامس من عدم ولاية أعداء الدين: وهو "عدم إنكار المنكر" والتغاضي عن قول الحق، فلم ينهاهم وينكر عليهم الربانيون والأحبار عن "قولهم الإثم، وأكلهم السحت" أو لم يستجيبوا لإنكار الربانيون لهم إذا نهوهم عن هذا الفحش! فلبئس ما كانوا يصنعون.

وأما السبب السادس – وهو موضوعنا هنا –: التطاول على ذات الله المقدسة المنزهة عن كل نقص وعيب.. سبحانه جَلَّجَلَالُهُ، له الأسماء الحسنى، والصفات العُلى.. قال اليهود – لعنهم الله وأذلهم – {يد الله مغلولة} وما قالوها إلا عبادة للمال والذهب! فهو الإله صاحب التوقير والتبجيل عندهم! أما مع خالقهم ورازقهم فلا يرجون له وقارا، ولا يعرف هؤلاء العبيد المناكيد الأدب مع

الله، وتنزيهه، وتقديس جنابه العظيم.. فقالوا ما يكشف عن حقيقة كفرهم، وعن مكنون صدورهم في هذا اللفظ الشنيع، وعن جلافة القلوب، وغباء الفكر، وسفالة الشعور، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أكرم الأكرمين، وبيده خزائن كل شيء، ولا يملك أحداً من خزائنه شيئاً، وأنى لمخلوق أعطاه الله نعمة الحياة والوجود ابتداء أن يقول على الله مثل ذلك؟! لا بد أن شعوره الداخلي في أسفل سافلين، وتصوراته العقلية في أحط وأضيق صورها، وشعوره القلبي متشبع ومتشرب عبادة "عجل الذهب"!

وترد الآيات على قول اليهود هذا باستحقاق اللعنة: {غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا} بل هم أهل الشح والبخل والحرص على الدنيا، والحرص على المال وعبادته.. أيديهم هي المغلولة، فهم رمز البخل والشح - حتى على أنفسهم - ولقد استحقوا هذا العقاب واللعن على هذا التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ، وتبين الآيات أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينفق كيف يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء.. حكمة وابتلاء من عنده لحين.

وقوم بهذه الحالة، وهذا السلوك، والشعور، والكفر.. لا يمكن أن تكون معهم ولاية أبداً. ورأينا طريقة القرآن في الشرح والتوضيح، والأخذ بالقلوب والعقول؛ لتنفر من مثل هؤلاء، ولا تجعل معهم محبة قلبية، أو نصرة لهم! ويفند ادعاءات إيمانهم، ويكشفها بكل وضوح للمؤمنين.

ثم تُبين الآيات للرسول الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن نزول الآيات عليه، لن يكون سبيلاً لهدايتهم، بل سيغرق "كثيراً " منهم في "الطغيان والكفر" والزيادة فيه! وجزاء على هذا "الإعراض" و"الإصرار الشديد" على الكفر والإثم والعدوان، ومحاربة الدين وأهله.. ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء - بما قدمت أيديهم - وإنهم ليسعون في الأرض فساداً، وإشعالاً للحروب.. والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يطفئ حروبهم بقدره وبأيدي المؤمنين، ولا يتطاول وتعلو يهود في الأرض، إلا عندما يترك أهل الإسلام دورهم في إحباط كيدهم ومكرهم وحروبهم، وفي جهادهم لمنع الإفساد في الأرض.. والله لا يحب المفسدين.

ولقد كان طريق الخير مبذولاً لهم، فما حقت عليهم اللعنة والكفر إلا بذنوبهم، ولو أنهم آمنوا واتقوا، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل بلا تحريف ولا تبديل، وما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن - فهو للناس كافة - لكَفّر الله عنهم سيئاتهم.. وطهر قلوبهم وأرواحهم، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.. ولأغناهم من فضله، هذا في الدنيا. أما في الآخرة فهي: جنات النعيم! فما الذي يمنعهم من هذا الخير العميم في الدنيا والآخرة؟! أليس هو كفر القلوب، والإعراض عن كتاب الله، وإضمار الشر والإثم والعدوان؟!

ومن أهل الكتاب أمة مقتصدة مُقصِرة عن الإثم والعدوان وأكل السحت.. يُشير إليها القرآن - على عادته وطريقته - في استثناء أهل الإيمان، وإن كانوا قلة! ويُشرّفهم بالذكر والثناء.. وإن كان أكثر أهل الكتاب ساء ما يعملون.

وينتهي هذا الدرس بتوجيه الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ بالبلاغ المبين، بلا حرج، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عاصمه من الناس، ومن كيدهم، ومن شرهم، ولن يضره الذين كفروا.

وفي هذا البلاغ يُبين الله جَلَّجَلَالُهُ لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن الله لا يهدي القوم الكافرين.. فالذي كفر وأعرض قلبه، وفسقت روحه، لا تكون له الهداية أبداً، فهو قد قطع بنفسه على نفسه الهدى والبيّنات، فلن تتحقق له هداية حتى يبحث عن الحق، ويريد الهدى.

وتعود الآيات - مرة ثانية - إلى الحديث لأهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء من دين الله.. وهذه المرة ليس حديثاً عن الخير العميم في الدنيا والآخرة - كما كان في الآية السابقة - إذا هم أقاموا كتاب الله.. ولكنه هذه المرة ينفي عنهم زعم الإيمان إن هم تركوا إقامة كتاب الله، فهذه المرة حديث عن إيمان وضده! ومن هذا الإيمان: اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التي عليهم.

ثم تُبين الآيات - مرة ثانية - للتأكيد النهائي القاطع للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ أن نزول الآيات من عند الله، ستزيد أهل الكفر "طغياناً وكفراً" ومع ذلك فليُبلغ آيات الله، ولا يأس على القوم

الكافرين.. فلو جاءتهم كل آية ما آمنوا حتى يروا العذاب الأليم! ولن يؤمنوا إلا عند رؤية العذاب وانكشاف حاجز الغيب، وعندها لا ينفع الإيمان.. بل إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا لإعادة الامتحان.. والله يخبرنا بكذبهم وكفرهم حتى بعد رؤية العذاب، في آية من أعجب آيات القرآن الكريم: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام (28)]!!

ونلحظ في نسق هذه الآيات التأكيد المستمر في مثل قوله:

(قوم لا يعلقون، أكثرهم فاسقون، شر مكانا وأضل عن سواء السبيل، لبئس ما كانوا يعملون، لبئس ما كانوا يصنعون، ساء ما يعملون).

ونلحظ كذلك التوكيد مرتين في سياق واحد على قوله:

{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} للتأكيد على أمرين: (1) بيان الرسالة والبلاغ المبين لها، بصرف النظر عن رد فعل أهل الكفر. (2) بيان الطبيعة النفسية لأهل الكفر والطغيان. ولا يمنع بيان الرسالة من التجمل في بيان الحق، والصبر على جهالات الناس، ومراعاة أفهامهم ومدى إدراك عقولهم.. كما كانت هي سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

ولقد أحببت عرض مرض "التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ" - كأحد أمراض الاستبداد - ضمن سياق الآيات التي جاءت تتحدث عن "الولاية" دون اقتطاع عن السياق، لأهمية موضوع الولاية فهو قضية عقيدة وإيمان. وكذلك لأن طبيعة أمراض الاستبداد لا تأتي فرادى، بلا هي متلازمة كبيرة تضم مجموعة كبيرة من الأمراض.. استعرضها القرآن - على طريقته - وهو يكشف أحوال النفس الإنسانية عندما تكفر وتنحرف عن هدى الله.. عن قصد وإرادة! ورغبة في "الطغيان والكفر" ونفور من "الإيمان والاستقامة"! فجاء مرض التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ مقروناً بـ: (السخرية والاستهزاء بالصلاة، عبادة الطاغوت، المسارعة في الإثم والعدوان، أكل السحت، الكذب والنفاق... إلخ).

ولكن.. ما الذي يدفع النفس إلى التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ بهذه الصورة؟!!

إن النفس الإنسانية مفطورة على العبودية، فإذ لم تكن لله وحده لا شريك له، فحتماً ستكون لغيره.. والقلب يبحث عن إله يعبده، وعندما تتجه إرادة القلب وقصده ونيته إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويشاهد آثار الله في الكون والنفس والحياة، ويستشعر عظمة الخالق جَلَّجَلَالُهُ، وقدرته ومشيئته المطلقة.. ومعجزة خلق ووجود الإنسان نفسه! - المعجزة التي تتكرر كل لحظة، ويغفل عنها الإنسان! - وتستغرقه هذه المعاني.. فإن شعور العظمة لله والتنزيه والتقديس له يشرق في القلب والسلوك والشعور، ويستحيل - وإن قصر في جوانب الطاعة والعبادة - أن يخرج عن تنزيه الله، وعن التوجه إليه بالتقديس والعظمة والإجلال.

أما في حالة إحلال آلهة أخرى في القلب، غير الإله الحق.. عندما تحل آلهة ك (عبادة العجل، وعبادة الذات، وعبادة المال، وعبادة الطاغوت)، فإن القداسة والعظمة تتجه لهذه الآلهة المزعومة.. وقد لا يُصرح الإنسان بعبادة لهذه الآلهة تصريحاً مباشراً، أو يتوجه إليها بالدعاء والصلاة - وإن كان قد وقع ذلك بالفعل! - بل إنه قد يدعي الإيمان بالله وحده باللسان، لكن القلب ترتع فيه آلهة كثيرة - والعياذ بالله - وفي هذه الحالة يقع التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ، وسب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بينما الآلهة الأخرى لها التوقير والإجلال والعظمة!

ونجد طغيان الشعور المادي - كأحد ملامح كافة أمراض الاستبداد - فالطاغوت والمال لا تستطيع النفس العابدة لهما أن تتطاول عليهما! فهناك حضور مادي ملموس، وسياط مرفوعة، وشهوات منشورة؛ فتتجه النفس المُستعبَدة لهما بالتعظيم والتقديس، بينما لا نجد ذلك في جناب الله العظيم!

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ وسبه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - بل أصبح عند بعض الرعاع والسفهاء مادة لوصل الكلام والنداء! والعياذ بالله، فأصبح سب الدين، وسب الله شيئاً هيناً على النفوس، بل ربما تجاوز في أحيان تطاول يهود أنفسهم!

ثم جاء من يدّعون العلم والثقافة، فوجدوا سبيلاً للمال والشهرة والجوائز العالمية! وهو التطاول على الله، وعلى رسله، ودينه! فأصبح التطاول والسب أدباً وثقافة وفناً!

ولم تخل المواد الإعلامية سواء في الأفلام والمسلسلات...إلخ من هذا الفحش والإثم العظيم! ولا نجد من يحرك ساكناً، بينما إذا مس إنسان الطواغيت والطغاة بسوء أو نقد أو حتى نصح، فتكون هي الغضبة الكبرى، والجريمة العظمى التي قد تصل إلى حد الإعدام!

والتطاول على الله، وعلى دينه، ورسله.. هو أمر - لا شك - يخرم إيمان المرء، ويُخرجه من الدين، وهو ردة عن دين الله، تستوجب التوبة النصوح أو القضاء فيها بالحكم الشرعي.

ويجب في البنية الصحيحة السوية للمجتمع المسلم أن يُعظم الله، وشعائره، ودينه، وحدوده.. ويُرجى له وقارا، وعظمة، وتقديساً، ولا يسمح بأي صورة من صور التطاول الظاهرة.. وأما باطن القلوب فيجب أن تكون عظمة الله وتوقيره وتقديسه هي المهيمن على القلب المسلم، في نفس الوقت الذي يحتقر فيه الفراعنة والطغاة والطواغيت، وأما قلوب العبيد المستعبدة من قِبل المستبدين، فإن الآية عندهم تنقلب إلى تعظيم الطاغوت، وعدم توقير الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا يمكن بحال أن يكون هذا بقلب مؤمن.

كما تحوّلت بعض "النظريات" التي توصف بـ "العلمية" إلى دين.. يدعو إلى إنكار وجود الله جَلَّجَلَالُهُ! وإن هي إلا خرافات لبست ثوب العلم، ورددها بعض من يزعم العلم في هذه الأمة، مثل نظريات التطور المرتبطة بالإلحاد وغيرها!

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي أمر الإنسان بالسعي والنظر في الأرض وفي كيفية الخلق: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20] فهذه "النظريات الإنسانية" لا بد وأن تحتمل الخطأ والصواب، ومع ذلك أمر الله جَلَّجَلَالُهُ الإنسان بالعلم والنظر والسعي؛ ليس ليكفر بهذا الإله، وإنما ليرى بديع صنع الله؛ وليتواضع أمام هذا الإله العظيم، وليس العكس!

فما يَهم ليس هو مضمون "نظرية الإنسان" – التي قد تتغير وتتوسع وتنمو جيلاً بعد جيل – إنما الغاية الكبرى، هي الإيمان بهذا الخالق، المبدع، المدبر، القائم على كل شيء بحكمته وعلمه ورحمته.. الأمر الذي يتبعه "الحب والخوف والرجاء والتواضع والطاعة" لهذا الإله العظيم.

وهناك نوع آخر من التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ يَقدح في إيمان المرء، وقد يقع عن غير قصد، أو عن قلة رسوخ الإيمان، وضعفه.. ألا وهو سوء الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

وسوء الظن بالله.. هو عدم إدراك – أو عدم اكتمال إيمان – لحقيقة الألوهية والربوبية المتصف بها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.. فهو الإله العظيم الكريم الغفور الرحيم الرحمن الحليم الشكور الصبور الملك القدوس السلام الحق المهيمن العزيز الجبار الناصر الخالق البارئ الغني الرازق... إلخ من معاني مطلقة الكمال والجمال والقدس والجلال، وإله بهذه الصفات لا يمكن أن يُظن به السوء، أو ييأس الإنسان من رحمته وفضله ومنه وجوده وكرمه وحنانه وعطائه وعفوه..

بل إن اليأس من رحمة الله وكرمه هو من خصال الكافرين: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف (87)]

ومن سوء الظن بالله: الاعتقاد بأن الله لا يعلم ما نعمل أو لا يحاسبنا بذنوبنا وأفعالنا: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت :22، 23]

ومن سوء الظن بالله: اعتقاد عبثية الحياة، أو السخرية من نعمة الخلق والوجود ابتداء، أو الاعتقاد أن الأمور لا تجري بمقادير وآجال يُقدرها الله وحده:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27]

ومن سوء الظن بالله: الجزع عند وقوع الشر، وربما قتل النفس، وربما التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ عند عدم الصبر على الأذى – كما انتشر بين أبناء الأمة المسلمة وللأسف هذا الظن السيء – واليأس من رحمة الله، بل ربما وصل بالبعض إلى "الإلحاد"! ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56] فلا يضل أحد عن رحمة الله فهي واسعة.. ومتى أحسن الظن بالله، ورجى من الله الخير والرحمة كان كذلك بإذن الله.. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: " **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** " [صحيح البخاري/ 7405]

والقلب المؤمن العارف بالله في حالة دائمة من حسن الظن بالله، وفي حالة من ابتغاء فضل الله، وكرمه، وعطائه، ومنِه، ورحمته، وحنانه، وعفوه، وإحسانه، وجوده.. فهذا هو شعور المؤمن المعظم لله، والمُوقر لجلاله الكبير.

***

ثامن وعشرون: الإلحاد في ذات الله وصفاته

قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّـهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّـهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّـهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة]

قضية الذات الإلهية من أكثر القضايا التي خاض فيها العقل البشري، وباءت كل المحاولات بالفشل.. أو بمعنى أدق بالإلحاد أو الشرك، فهذه القضية لا يتكلم فيها إلا الله جَلَّجَلَالُهُ عن طريق وحيه إلى رسله، كل محاولات الفلاسفة.. انتهت إلى لا شيء، كل محاولات الكهنة وأصحاب الأديان انتهت إلى شرك أو إلحاد أو ظنون وأكاذيب وافتراءات، ليس لهم بها علم، ولا دليل، ولا يقين.. مجرد تخرّصات وأوهام!

وقضية الذات الإلهية هي قضية خارج التصور العقلي للجنس البشري كله - وهو أرقى المخلوقات - فالتركيب الإنساني الجسدي والروحي غير مؤهل لإدراك كنهها.

وجاءت الرسالات السماوية.. لتقرر حقائق الإيمان بالله غيباً لا شهادة، وخلْق الإنسان ذاته - وخلقه على هذه الصورة البديعة الفريدة المعجزة - هو وغيره من المخلوقات، هو الدليل الكافي على وجود "الصانع" جَلَّجَلَالُهُ، وعلى إرادة حقيقية، ومشيئة مطلقة، والمطلوب: هو الإقرار بالألوهية

والربوبية والقوامة وكل صور العبادة لهذا الإله، دون الإلحاد في ذاته، أو الإشراك في صفاته القدسية التي لا يتصف بها أحد سواه.

والإنسان – ذلك المخلوق الفريد – مؤهل لـ "السمو الروحي" وقادر على الرقي ليستشعر معنى الإيمان، وحقيقة القرب، ومعنى المراقبة؛ ليلمس معية الله، وفضل الله، ورحمة الله، ويرى آثار الله في الوجود والغيب والشهود، وهذه الخصيصة هي التي جعلت الإنسان إنساناً، وسيد هذه الأرض، وخليفة الله فيها، وبدونها يتسافل إلى درك الحيوان.. بل أسفل وأضل.

ضربت الفلسفات من قبل في البحث عن ذات الله، وانحرفت – لأنها بلا هدى من الله – في ضروب شتى من التيه.. فنسبوا لله البنين والبنات، وألحدوا في ذات الله؛ فنسبوا له الصاحبة والولد، وقسّموا ذاته القدسية إلى ثلاثة أقانيم: (آب، ابن، روح قدس)، وقسّم غيرهم إلى: (آب، ابن، أم!) وغيرها من البدع والضلالات! التي كانت موجودة في الوثنيات الفرعونية والهندية والإغريقية.. السابقة لدعوة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ثم لم تكن المسيحية تعرف التثليث حتى نهاية القرن الثاني، حيث كان الاضطهاد لهذه الديانة – ديانة التوحيد – من الوثنيين الرومان، حتى حصل التحول التاريخي للمسيحية على يد قسطنطين، الذي ادعى دخوله في المسيحية.. التي وجد فيها الفقراء والعبيد والمحرومين والرعاع ملاذاً وملجأ يرفع عنهم الضغط النفسي، ويعدهم بحياة طيبة غير حياتهم تلك، والنفس المعذبة لا دواء لها مثل الإيمان، فلما وجد قسطنطين اتجاه الجماهير نحو المسيحية، تحول هو الآخر إليها لأسباب سياسية، تمنع انقسام مملكته أو ضياع الملك.. ولكن قسطنطين لم يدخل المسيحية، بل حوّل المسيحية إلى الوثنية.. وأخرج ديناً جديداً قاعدته "تأليه المسيح" و"التثليث" و"الشرك" بفعل كهنة الوثنية، وأقوال الفلاسفة السابقين.. فخرج هذا الدين الجديد خليط من المسيحية، وخليط من الوثنية! وتم القضاء على دعاة التوحيد، وتم تحريف الكلِم عن مواضعه، وبيع آيات الله بثمن قليل.. فباعوا دين المسيح بذهب الامبراطور! وتحول التعذيب والاضطهاد والقهر والظلم الواقع على أهل المسيحية

إلى سلطان وقوة ومال ورياسة؛ فأصبح العصر الذهبي للدين الجديد، عصر الإمبراطور، والبابا! وتحالف السلطان السياسي للإمبراطور مع السلطان الروحي للكنيسة!

وهنا تأتي الآيات الكريمات لتُبين العقيدة الصحيحة، والدين القويم.. في حسم يليق بقضية بهذه الخطورة: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح} هكذا في نصاعة ووضوح.. إن الله جَلَّجَلَالُهُ ليس هو المسيح، وليس هو أحد الأقانيم.. والمسيح هو عبد لله ورسوله، شهد ميلاده الناس، ولما جاء إلى بني إسرائيل.. جاءهم بما جاء به كل رسول: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}. وإن أي شرك يقع في حقيقة "العبودية" الخالصة لله.. فقد حرّم الله على صاحب الشرك الجنة، وجزاءه النار، وما للظالمين من أنصار.. لا المسيح يملك لهم من الله شيئاً، ولا غيره، ولا أمه، ولا من في الأرض جميعاً، فهو الله وحده لا شريك له في ملكه، ولا أمره، ولا جنته، ولا ناره، ولا إرادته، ولا مشيئته..

وإنّ تصور أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الله، يكشف عن أثر الوثنية التي حرّفت وتلاعبت بدين الله، وأخرجت المسيحية عن تعاليم المسيح الواضحة القاطعة التي هي امتداد لموكب الرسل الكرام..

وتصور أن المسيح هو الله، يوضح كذلك سفاهة العقل البشري في تصور أن الله يمكن إدراكه ورؤيته على هذه الصورة أو ينحصر وجوده في حقبة تاريخية معينة! أو يغيب ويظهر أو يغفل أو ينام أو يُصلب.. ومازال العقل البشري يحاول محاولاته الفاشلة في "رسم" صورة مادية مجسمة لله، يحاول فيقع في الشرك، ومن وراء هذه المحاولة يقف الشيطان ليجعل من أحد أهم أهدافه أن يقول الإنسان على الله ما لا يعلم: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة (169)] وما أفحش وأقبح وأشنع القول على الله بادعاء أنه هو المسيح أو هو أحد الأقانيم... إلخ.

ثم يأتي الحسم القاطع الثاني في أولئك الذين يعتقدون في الأقانيم على نفس صورة التوكيد والحزم والقطع السابق: {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثلاث ثلاثة} ليُبين كفر من يعتقد في "الأقانيم الثلاثة" (الآب والابن والروح القدس).. معتقدين أن "الذات الإلهية" واحدة.. تتكون من ثلاثة أقانيم –

كل أقنوم قائم بذاته!! – هي الآب، والابن، والروح القدس، ولقد فشلت الوثنية – حتى هذه اللحظة – في شرح هذه المعضلة الفكرية، ليعتبروها من قضايا الإيمان "اغلق عقلك واعتقد" فتارة يقولون إنها "صفات" لله، وتارة يقولون إنها "أقانيم" أي تقوم بذاتها ولكل منها دور ووظيفة!! تخبط في التيه لا يهتدي إلى سبيل.

وفي آيات أخرى قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة (116)] ليُبين أحد صور الشرك المتنوع الذي دخل في هذا الدين، تحت تأثير واختلافات "المجامع المسكونية" التي كانت تخرج في كل اجتماع بعقيدة جديدة!

ويُشغب بعض السفهاء – ويعتبر ما يعتقده هو اعتقاد كل المسيحيين في العالم – فيقول: نحن لا نقول إن مريم إله! أو إننا نقول بالتوحيد... إلخ ليخدع بعض البسطاء من المسلمين، ممن لا يعرفون حجم الاختلافات، والعقائد المختلفة لديهم حول هذه القضية تحديداً.

والعقيدة الصحيحة بكل بساطة ووضوح ونقاء: {وما من إله إلا إله واحد} لا المسيح إله، ولا أمه، ولا الروح القدس، ولا أي من مخلوقاته.. إنما هو إله واحد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله.. صاحب الإرادة والمشيئة المطلقة والقدرة الكاملة.. لا شريك له في ألوهيته، ولا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في قوامته.. فهو قائم على كل شيء، وبه يقوم كل شيء، كان الله، ولم يكن شيء مع الله.. يقول للشيء: كن؛ فيكون.

وتمضي الآيات في حزمها القاطع: {وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم} ولقد وقع العذاب الأليم بالفعل بينهم، فقامت العداوة والبغضاء والحروب الطويلة التي كادت أن تفني بعضهم بعضا، بسبب هذه العقائد، ووقع العذاب بأيدي المؤمنين في التدافع فيما بينهم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى..

والإسلام يدعوهم إلى العقيدة الصحيحة والدين القويم الذي جاء به المسيح، والذي جاء به محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، ولقد كان من المفترض عقلاً أن يكونوا أول مؤمن به، ولكن تحالف العرش السياسي والعرش الكنسي.. وحب المصالح والرياسة والمال والنفوذ، حال بينهم وبين الإيمان.. ويقف هذا التحالف دوماً أمام "دعوة الرسل" يقف التحالف السياسي الكهنوتي مع الملأ والحاشية وأصحاب المصالح، مع الجماهير المنكبة على الشهوات.. لتحارب هذه الدعوة النقية، ولكن الله متم نوره، ويهدي أهل الإيمان إلى الله وإلى صراط مستقيم.

ثم تدعوهم الآيات في أسلوب فيه شفقة ورحمة ورغبة حقيقية مجردة للهداية: {أفلا يتوبون إلى الله، ويستغفرونه، والله غفور رحيم} فبعد الحسم القاطع الحازم في بيان حكم من أشرك في ذاته الله، وأفعاله.. تأتي الدعوة إلى المغفرة والرحمة.. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ نعم.. هكذا بهذه البساطة، ولكنها لها عمق في القلوب المؤمنة: فاللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك.. إنك أنت الغفور الرحيم، سبحانك ما أحلمك، وما أرحمك!

وبعد بيان الحكم فيمن أشرك بالله، وبعد الدعوة إلى المغفرة، تزيد الآيات في البيان رحمة من الله، وفضلا: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صدِّيقة.. كانا يأكلان الطعام} المسيح رسول من موكب الرسل الكرام، جاء بما جاء به كل رسول، وأمة الصدِّيقة البتول المصطفاة على نساء العالمين العابدة الزاهدة، الصادقة في إيمانها.. ولكن مع هذا التشريف والسمو في المسيح وأمه، لم يخرجا عن بشريتهما طرفة عين، فقد كانا يأكلان الطعام! وفي هذا إشارة لطيفة متروكة للعقل أن يتأملها، فلا يُنكر أحد من أهل المسيحية أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام؛ ليكشف بهذا الاحتياج إلى الطعام إلى كامل حالتهما البشرية - مثل غيرهم من البشر - وطبيعة الضعف الإنساني الفطري، وإنهما كانا بحاجة إلى: الطعام، وإلى إخراج فضلات الطعام، وإلى التقوِي بهذا الطعام، وإلى النوم والراحة... إلخ من الأحوال البشرية الطبيعية، والله جَلَّجَلَالُهُ لا يحتاج إلى شيء، وهو القائم على كل شيء، ولا تأخذه سنِة ولا نوم.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُبين لهم، ثم هم - بكفرهم وعنادهم - يؤفكون، وينحرفون عن الطريق القويم! فها هي الآيات بيّنات واضحات لا يحول بينهم وبين الإيمان سوى التحالف السياسي الكهنوتي أو أهواء أصحاب المصالح المادية أو غرق وانغماس الجماهير في الشهوات.

وتتساءل الآيات: كيف يعبد الإنسان ما لا يملك له ضراً ولا نفعاً.. كيف يصرف أي من صور العبادة لغير الله؟! المسيح نفسه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يُعبد من دون الله، الذي يملك النفع والضر، ولا يقع شيء إلا بإذنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟! والله سميع عليم.. فهو عليم بذات الصدور، ويعلم حال أولئك الذين جعلوا من المسيح ودعوته "صفقة" سياسية كنسية.. لتعبيد الناس للسلطان باسم الامبراطور وباسم البابا، وما الله بغافل عما يعملون.

وأخيراً: تدعو الآيات أهل الكتاب إلى عدم "الغلو" في الدين، وعدم الغلو في المسيح وأمه عليهما السلام، وعدم الغلو في التصورات الفلسفية المعقدة الغريبة عن دين الله، وعدم اتباع "أهواء السابقين" الضالين من أصحاب الوثنيات الإغريقية والرومانية والفرعونية والهندية... إلخ فهؤلاء قد ضلوا، وأضلوا كثيراً من أمم وشعوب وحضارات، وضلوا جميعاً عن سواء السبيل، وما نسبة الولد إلى الله، والإلحاد في ذاته من اختراع رجالات المسيحية إنما هي من تأثير الوثنيين الرومان الذين ادخلوها على المسيحية فانحرفت، لتصبح على هذا الحال الذي وصفه القرآن، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّـهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّـهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

***

ولكن.. لماذا يُلحد الإنسان في الله، ويشرك في ذاته، وصفاته، ويتخيله في صورة بشرية؟!

عندما يفقد القلب الإيمان، ويضرب العقل في التيه بلا دليل، يتجه إلى "تجسيد" الذات الإلهية في صورة بشرية - كما في حالة المسيح - أو في صورة معقدة - كما في الأقانيم - أو في تصور الإله في الشمس والحجر والبشر وغيرها من السخافات!

ولا تستطيع الإنسانية في حالتها المنحرفة المحدودة الصغيرة أن تتصور الغيب.. ولا تستطيع الإيمان به الإيمان الحقيقي، بل تجد في الغيب انعداماً ووحشة! تعوضها بـ "التجسيد".. تجسيد ما تشاء ومن تحب! ولكنه ليس أي تجسيد إنه تجسيد الذات الإلهية، مما يعني أن أي محاولة لذلك هو "شرك" في ذات الله، وشرك بالله!

ومن هذا التجسيد تخرج الأوثان والأصنام سواء أكانت نفسية أم مادية.. وتُقام حولها "سوق الآلهة" وسدنة الآلهة، وتجارة الآلهة.. ويقترب من هذا السوق الساسة، وأصحاب المصالح؛ لإقامة العلاقات التجارية والتسويق اللازم لأنفسهم!

وإن الجماهير الجاهلة تعشق "الغلو" وتحب "التجسيد" المادي للمعبود، ولعلها ليست عبودية حقاً للمعبود، إنما هي "عبودية للذات" وتقديس للنفس يتم من خلال تقديس الآخر البشري المنسوب له الألوهية! وتفلتاً من الإيمان بالغيب الذي يتطلب السمو الروحي، والرقي العقلي، والتكامل الإنساني..

وهو أبعد ما تكون عنه النفس المقهورة والمُستعبَدة.. فإن الاستبداد يحطم قيمة الإنسان كله، ويُفشل سموه الروحي، ويختزل عقله في التسبيح بحمد المُستبد، ويُفسد التكامل الإنساني، ويأخذ المستبد صورة من صور الألوهية.. قد ينسبها صراحة إلى نفسه، وقد تُنسب إلى غيره من البشر.. أو أن يكون هو "الوكيل" عن هذا البشر المعبود!

وفي كل الأحوال حالة من التفسخ الإنساني، والتسافل الضيق المنحط المحدود؛ يجعل الإنسان يعبد ذاته، أو غيره من البشر، فيصورها في صورة إشراك في ذات الله أو في صفاته.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقع الإلحاد في ذات الله، وفي صفاته.. وضربت الأمة في ضروب شتى من هذا التيه، فتأثر بعض مفكريها وعلماءها بكتابات الفلاسفة، وبلغة الفلاسفة.. فراحت تتحدث عن ذات الله وصفاته، بما لم يأذن به الله.. مخالفة الأوامر الصريحة الربانية في ذلك، ومتبعة لطريق الشيطان الذي قال تعالى عنه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة البقرة]. وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلِلَّـهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة الأعراف]

ووقع الغلو في الدين، ووقع الهوى في تناوله، فدُست أحاديث على لسان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓاٰلِهِۦوَسَلَّمَ مأخوذة عن إسرائيليات، وصارت أحاديث أخرى لم يُقصد منها التشبيه والتجسيد.. فصارت التعبيرات المجازية – المعروفة في اللغة العربية، وفي غيرها من اللغات – تُأخذ على ظاهرها.. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد يكون فيه بعض السعة أو ضرب الذكر عنه..

إنما حدث ما هو أخطر وأعنف من ذلك.. لقد تحولت قضية تشبيه الله بمخلوقاته إلى حد جعلت "كبار" من العلماء يقولون بتشبيه الله بالإنسان تشبيهاً كاملاً "عدا اللحية والعورة"!! وقال البعض إنه: "شاب أمرد"! وقال آخرون: إنه "شيخ"! – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – ولا شك أن هذا التصور مدخولاً على العقيدة الإسلامية متأثراً بلوثة "أهل الكتاب" في التشبيه والتجسيد.. متبعين سنن أهل الكتاب حذو النعل بالنعل!!

ووقع في هذه الفتنة خلق كثير – وفي الحقيقة لم يقدموا للإسلام ولا للأمة شيئاً ذا بال – فمنهم من قال بالتشبيه والتجسيد لفظاً، ومعنى، ومنهم من وقع في التجسيد معنى، مع إنكار التلفظ به، ولم يقدموا للأمة شيئاً ذا بال لأن العقيدة الإسلامية حسمت هذه القضية في كلمات بسيطة، عميقة.. لا تحتاج إلى لغة الفلسفة، ولا إلى الخوض في ضروب التيه هذه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّـهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الإخلاص] فليس له مثيل

ولا شبيه ولا عدل ولا أي صورة من صور الالتقاء بين الخالق والمخلوق فقال: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] وقال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾[الشورى : 11]

ولقد جادل كل هؤلاء في ذات الله، وهو شديد المحال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد (13)]. يستحيل على العقل البشري أن يدخل في هذا النطاق من التصور والتفكير، وكل ما ينتجه عن ذلك فهو محض ظنون وأوهام، وكل تصور عقلي عن "ذات الله" فهو باطل، كما يستحيل على العقل كذلك رسم تصور "لكيفيات" أفعال الله، فهي خارج قدراته، ونطاق عمله، فمعرفة "الكيفية الإلهية" فرع عن معرفة "الذات الإلهية"، وكلاهما مجهول للإنسان لن يصل إلى معرفته أبداً.. لأنه ببساطة مخلوق وليس بخالق، وكل ما قيل من "ألفاظ" عن "بيان" الكيفية لأفعال الله، إنما كانت لتقريب الصورة للعقل الإنساني، وتفضلاً من الله العلي القدير بتوضيح المراد بما يُقرب للإنسان المعنى والتصور للعلم والإحاطة والقدرة والفضل والكرم والمشيئة والإرادة الإلهية المطلقة من كل قيد، والقادرة على كل شيء.

ولما سُئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عن وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نزلت سورة الإخلاص: **"فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ} فَالصَّمَدُ: الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللَّهَ عز وجل لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، قَالَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"** [جامع الترمذي / 2: 865]

وهذه هي الحدود التي نقف عندها لا نتجاوزها إلى غيرها من الأقاويل والأباطيل، والتي لا تزيد في إيمان المسلم شيئاً.. هذه هي الحدود التي نقف عندها، ونحترم عقولنا، وأوامر ربنا، ونقطع عن أنفسنا وساوس الشيطان الذي يدفعنا إلى التقول على الله ما لا نعلم.. لنتجه بقلوبنا وعقولنا إلى الوظيفة الحقيقية الأصلية وهي: العبودية الخالصة لله بالغيب.. واستشعار معية الله، وقربه، وعلمه،

وإحاطته.. استشعار فضله أمام شُحنا، وكرمه أمام بخلنا، وهدايته أمام غوايتنا، ورحمته أمام قسوة قلوبنا، وحنانه أمام جفاف مشاعرنا، وحلمه أمام ذنوبنا، وغفرانه أمام عصياننا، وستره أمام تبجحنا، ورقابته أمام غفلتنا، وشكره أمام قلة عملنا... إلخ، هذه المعاني هي التي تُنشأ وتحرك الإيمان في القلوب، وتُخرج الشخصية الإيمانية الإنسانية التي يريدها الإسلام.

***

لقد كانت "اللغة" هي مسرح عمليات هذا الغلو سواء عند أهل الكتاب أو المسلمين.. وصار التلاعب بالألفاظ، وتحميل الأقوال غير ما تحمله من معنى، وإخراجها عن سياقها، وتحريفها عن مواضعها.. صار كل أولئك مادة لإخراج تصورات باطلة عن الله جَلَّجَلَالُهُ..

ونقول كلمة صغيرة عن "اللغة": إن اللغات البشرية حتماً هي عاجزة عن إدراك ذات الله، وصفاته.. وإن الله جَلَّجَلَالُهُ يتفضل على الإنسان، ببيان ما يقربه من ربه، ويُعرّفه إليه، وما يمكن لعقل الإنسان أن يستوعبه، ولكن في ذات الوقت.. ليس معنى ذلك أن الله محدود في الوصف اللغوي الذي يستطيع العقل إدراكه، كلا.. الله أعلى وأجل وأعظم.

ومن يدرس علم اللغويات يعرف معنى هذه لغة غنية، لغة خصبة، هذه لغة فقيرة، لغة محدودة... إلخ، فإذا كان هذا الحال في اللغات والألسنة التي يتعامل بها البشر في دنيا الحياة، فما بالنا باللغة التي تستطيع أن تصل إلى مرحلة وصف الله الوصف الذي يليق بجلاله، إن اللغة العربية وهي من أغنى اللغات وأخصبها وأجملها وصفاً وبياناً وتعبيراً ودقة.. وقفت عند حدود: {ليس كمثله شيء} {لم يكن له كفواً أحد}! وإن ذلك يكشف لنا عن عظمة الله جَلَّجَلَالُهُ، ومن جانب آخر عن "محدودية" التصور الإنساني، وقدراته – وهو أرقى المخلوقات – أمام جلال خالقه ! وعظمة قدسه!

فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تخضع عظمته إلى قوانين اللغة البشرية.. ولا تنحصر أسماءه وصفاته في مدلولاتها.. ولا يحصي الخلق كلهم ثناء عليه.. ولا يستطيعون إدراكا كلياً له.

ولكن العقل لا يفتأ يبحث عن مَثل.. والله يقول له: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل (74)].

لقد كانت مسألة التقيد الإنساني باللغة، ومحدودية العقل بالزمان والمكان أهم عاملان يجعلان الإنسان في انحصار عن تصور الله جَلَّجَلَالُهُ.

ولكن الإله العظيم الكريم.. يريد للإنسان خاصة أن يقترب.. وأن يشعر وأن يتشوق.. لقد وصفت اللغة بعضاً من صفات الله جَلَّجَلَالُهُ ليس لحصرها ولا لتحديد أوصافها ولا للتقيد بمدلولاتها.. إنما فقط لأن الانسان المخلوق لا يفهم إلا من خلال الإشارة والتعبير.. وكرماً من الله حدّثه بما يقرب إليه المعنى.. وبما يُسهل له عملية التواصل مع الله في الصلاة والدعاء والذكر، وبما يقرب لتصوره البشري عظمة الخالق التي لن تحويها مدلولات اللغة البشرية مهما كانت.. ولن تحويها ألفاظها مهما بلغت.. ولن يستوعبها كاملة العقل مهما اجتهد.

فلغة الاتصال بالله من صلاة ودعاء وذكر، لغة تناسب الوعي الإنساني، والإنسان يتعاطى حتى مع هذا الوعي العقلي والإدراك الروحي من خلاله مجال تصوره هو لا عن حقيقة الألوهية كاملة أو شاملة.

وحتى حيز الزمان والمكان الموجود.. فالإنسان في أضيق زاوية في المكان، وفي أبطأ سرعة زمنية. فهو بالنسبة للكون المخلوق ذرة تائهة! بل الأرض التي تحوي جنسه كله هي كل كحبة رمل في الكون الكبير! أما من حيث الزمان فهو بالنسبة لسرعة الكون وحركته هو أبطأ سرعة وحركة، فإذا كان الوجود الانساني في أضيق زاوية في الكون المنظور والمخلوق، فما بالنا بحقيقة وإدراك خالق هذا الكون؟!

ونرى الفضل الإلهي عندما يتكرم على الإنسان بالاتصال بالله وبالاقتراب من عظمة القدس الإلهي والروح تشرق بحب الله والأنس بالله، ويجد أبسط الناس علماً وأقلهم لغة وتعبيراً وفهماً.. قادراً على القرب من الله، وعلى دعاء الله، وعلى شعور عظمة الله.. وعلى وحدانية الله. ونرى

كذلك أعظم العقول قوة وإدراكاً لن تخرج كذلك في النهاية عن صورة أبسط الناس فهماً؛ فالغاية الكلية هي حب الله وتنزيهه وتقدسيه وتعظيمه وإجلاله وإمتنانه.. الحب المقرون بالجلال، والقرب المقرون بالرجاء، والغنى المقرون بالحمد والشكر، والعظمة المقرونة بالتقوى والخشية..

إن هذا التصور يفرض إلزاما عقلياً على الإنسان التواضع، ويفرض إلزاماً روحياً على الإنسان الحب، و"التواضع والحب" هما العبودية، والعبودية هي الانقياد والتسليم لله، والحرية هي التحرر من محدودية الزمان والمكان للاتصال بشيء أكبر وأعظم؛ يرفع الانسان من عالم البهيمة وإدراكها إلى الاتصال الروحي بالصلاة والدعاء، وكل ما يرضي هذه العظمة الإلهية التي تقبل هذا الجهد الإنساني المتواضع بالمن والقبول، وبفيض الحب والرحمة على الانسان رغم قلة العبودية، ومحدودية الإدراك، وعدم وفاء الثناء على الله.. ولكنه الكرم الإلهي!

***

كما أن "حدود" اللغة، و"قدرة" العقل لا يمكن القفز فوقهما لتحميل الألفاظ والتعبيرات لوازمها "البشرية العقلية" لنفترض قواعد ونظريات ونُلزم بها الذات الإلهية! كأن نقول بما أنه كذا، فلا بد أن يكون كذا! ولا ندري كيف يجعلون العقل حاكماً يضع النظريات والافتراضات ولوازمها على شيء لا يستطيع إدراكه! أي جرأة هذه؟! ثم ليس هذا فحسب، إنه بعد وضع القاعدة والنظرية يرمون المخالف لها بالتبديع والتفسيق والتكفير! حتى جعلوا هذ المعادلات والفرضيات من صميم العقيدة الإسلامية! وهي أجنبية عنها..

وإن مجال "معرفة" ذات الله وصفاته ليس مرتبطاً بتصور وكيفية عقلية.. إنما "معرفة" الله بالعموم.. مرتبطة بـ "القلب المؤمن" الذي يستسلم لله، ويبتغي رضى الله، ويرجو لله وقارا، القلب الذي يستشعر حب الله؛ فيفيض القلب بهذا الحب على كل شيء، ويمتلأ القلب بهذا الحب، وبهذا الغنى، ويتطلع إلى الملكوت الإلهي وهو مازال يدب على الأرض، ويستشعر الوحشة لطول البقاء،

فهو يريد اللقاء! هذا الشعور هو من جذور الإيمان في القلوب، وفيه الغنى والنور الإلهي الذي يُنور الظلام الإنساني، فلا يعود يريد شيئاً من لغة الفلاسفة، وتعقيدات الأقوال، وعذابات الجهل.

إن قضية الإلحاد في ذات الله، وتجسيد الذات الإلهية.. لم تكن قضية فلسفية جدلية فحسب، وإننا إذ لا نشعر لها تواجد أو أهمية في وقتنا الحاضر، ذلك أن الناس لم تعد تتناول هذه القضية كما كان في السابق، أو أنها في حالة "سكون" عنها، لكنها لما أُثيرت أول مرة.. أحدثت كوارث في الفكر والمجتمع الإسلامي.. واشتعلت نيران التكفير والقتل أمام هذه القضية "الجدلية الفلسفية" وصارت طوائف من المسلمين يُكفر بعضها بعضاً.. ولو تتبعنا ما قيل من أقوال كل فريق في تكفير بعضهم أثناء حدوث هذه الفتنة.. لوجدنا أن أغلب الأمة أصبحت عندهم كافرة!! - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فقد أحدثت هذه الفتنة اضطرابات كثيرة، وصارت الناس تُمتحن فيها، في حين أن عموم المسلمين لا يفهمون معنى هذا الكلام، ولا لوازمه، ولا يمكن للعقل تجاوز هذه الحدود وهو في حالة الكمال، فما بالنا بالعقول التي مازالت تحبو؟!

ولقد تعاطى أقوام من أهل الاسلام مع هذه القضية بشيء من الجفاف الروحي، وخرجوا عن مراد الله.. وعن قدسية وجلال وعظمة الحديث عن الله، إلى الغل والبغضاء والتفرق في الدين بغياً، من بعد ما جاءتهم البيّنات.

وأصبح "التعصب" و"الغلو" هو السمة العامة البارزة.. المصاحب لهذه الفتنة، لترجع الأمة - في النهاية - تضرب رقاب بعضها البعض! ولقد حذرها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ في حجة الوداع: "**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**" [صحيح البخاري/ 121]

ولقد كان انحصار فاعلية الأمة سياسياً - في هذه العصور - جعلها تخوض في هذا العبث، ورأى أصحاب السلطة أن هذه المادة خصبة لتلهية الأمة عن حقوقها السياسية والمالية، فمهما حدث فيها لن يضر السلطان بشيء، بل يقرب السلطان هذا العالِم مرة، ويعتقد قوله، ثم يأتي الذي يليه فيقرب خصومه، ويعتقد قولهم.. وهكذا!

ولذا يجب على الأمة والعلماء الحذر من الخوض في هذه الفتنة، والوقوف عند الحدود التي جاءت في كتاب الله عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا نتبع سنن أهل الكتاب الذين خاضوا في التشبيه والتجسيد، والذين خاضوا في ذات الله، وغالوا في دينهم، وغالوا في وصف المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وغالوا في تصور الذات الإلهية..

ونطهر التصور والفكر الإسلامي كذلك من لوثة الفلسفة الإغريقية والوثنيات وغيرها التي تحدثت عن "الحلول والإتحاد" والذي وقع فيه أيضاً بعض المسلمين – عن غير قصد أو معرفة – أو يقول بعض لوازم هذه التصورات الباطلة... إلخ من الأشياء الغريبة عن العقيدة الإسلامية الصافية السهلة القريبة.

ولا نتجاوز قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} "لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ".. ونقول لمن يقع في هذه الفتنة ما قاله الله جَلَّجَلَالُهُ لأهل الكتاب: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.[1]

***

(1) راجع – إن شئت – بحث: ألغام في الفكر الإسلامي .

تاسع وعشرون: عدم إنكار المنكر

قال تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]

دين الله أمانة عظيمة.. ورسالته وتبليغها غاية كبرى، أخذ الله جَلَّجَلَالُهُ على أهل دينه بلاغه للناس وتمامه فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران (187)]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب (39)].

فإن وجد الناس تهاوناً وتغاضياً في أمر من أمور الدين من قِبل أهله، زهد الناس في دين الله.. وفقدوا الثقة في رجاله، وتحول الدين تدريجياً إلى مجرد أهواء، وهو الأمانة العظيمة!

ومن هذا التهاون وكتمان الحق.. عدم إنكار المنكر، ولقد حدث هذا مع بني إسرائيل.. لم يكونوا يتناهون عن المنكر، ويأتمرون بالمعروف، فكان هذا أبأس وأسوأ فعل، واستحقوا به اللعن على لسان أنبياءهم داوود وعيسى ابن مريم عليهما السلام..

استحقوا هذا اللعن بسبب عدوانهم على الأمانة العظيمة، والرسالة الربانية، اعتداءهم على شرع الله، وعلى أصحاب الحقوق، اعتداءهم على الدين، وعصيانهم لأوامر الله، وتعاليم رسله وأنبياءه.

فتحدثت الآيات الكريمات عن ثلاثة جرائم:

- العصيان والعدوان.. هكذا بهذا الإطلاق والتعميم؛ لتوحي بطبيعة الجبلة العصية الغليظة المعتدية على دين الله.

- عدم إنكار المنكر.. فبئس ما كانوا يفعلون، لقد كانوا يعطون "الشرعية الدينية" بسكوتهم على الباطل، فيحسب الناس أنهم على شيء، فيصدون الناس عن سبيل الله، ويتهاون الناس في أمر دينهم، فطالما سكت الكبار والأحبار والرهبان، انطلق الصغار على سنُة كبرائهم.. وجاءت كلمة "منكر" في هذه الآية نكرة تفيد العموم.. ولتفيد كذلك كثرة شيوع المنكر بلا إنكار ولا نهي.

- ولاية الكافرين المعتدين.. وهذا من أعظم المنكر، خصته الآيات الكريمات بالذكر، وهذا من أبأس وأشنع ما يفعله المرء بنفسه، ومن أخطر ما يرتكبه من ذنب، وأشقى ما يصيب به إخوانه في الدين.. ولاية الكافرين الذين يقاتلون المؤمنين ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهروا الكافرين على إخوانهم، وهذه حالقة للدين! الأمر الذي استحق سخط الله ولعنته في الدنيا فما أعظم الفتنة في الدين.. وفي الآخرة: في العذاب هم خالدون.

وتُبين الآيات أن ولاية الكافرين لا تخرج عن قلب يؤمن بالله ورسله.. ولا يجتمع في قلب مؤمن ولاية كافر يحارب دين الله وأولياءه مع الإيمان بالله.. فلو كانوا حقاً يؤمنون بالله.. والنبي الكريم وما أنزل إليه من ربه، لم يتخذوا هؤلاء أولياء من دون المؤمنين..

وتكشف الآيات عن سبب ولاية الكافرين المعتدين - بعدما نفت زعم الإيمان عن مَن اتخذهم أولياء - إنه "الفسق" المرض الذي طالما يشير إليه القرآن، وهو يرفع الحجاب عن هذه القلوب، فإذا هي "فاسقة" فاسدة منحرفة - عن قصد وطلب وإرادة - عن صراط الله المستقيم، ترى الحق، ولا تتخذه سبيلاً، وترى الباطل فتهش له، وتدافع عنه، وتعطيه "الشرعية الدينية" وتصدر له الفتاوى الباطلة، والتأويلات المُضلة.. هذا الفسق جعلهم يقعون في "ولاية الكافرين" ونصرتهم على إخوانهم، ونصرتهم على أهل الحق، وعلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ.. وجعلهم كذلك لا

يتناهون عن هذا المنكر الشنيع، بل أوجدوا له المسوغات الدينية، والتبريرات الشرعية.. فبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم، وبئس ما كانوا يفعلون.

ونلحظ التغليظ الشديد في أمر عدم النهي عن المنكر في قوله: {لبئس ما كانوا يفعلون}. والنهي الشديد في قوله: {لبئس ما قدمت لهم أنفسهم} فذُكرت كلمة "بئس ما" مرتين في سياق واحد، وقد لاحظنا من قبل أن لغة القرآن تتعمد هذا التشديد والتكرار – كما رأينا في موضوعات سابقة – زيادة في التأكيد، ولأن طبيعة هذه النفوس، وطبيعة الأمراض التي تحملها، تحتاج إلى التقريع الشديد، والتحذير المستمر، والتكرار المتنوع.. لأنها عصية ملتوية، تحتاج إلى البيان تلو البيان، والتحذير تلو التحذير، والتوبيخ تلو التوبيخ؛ عسى أن تستفيق، أو تشعر بحقيقة مرضها.. لأنه يغطيه طبقة سميكة من قسوة القلوب، وجفاف النفوس، وسماكة الحس والشعور.

ولقد استحق هذا الفعل – عدم إنكار المنكر، ومن أشد أنواع المنكر "ولاية الكافرين المعتدين" – استحق اللعن من الأنبياء والرسل، ومن الله جَلَّجَلَالُهُ.. لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هو صمام الأمان للمجتمع، وهو الذي يمنع شيوع المنكر.

وإن الناس – وطبيعة النفس الإنسانية – تريد الفجور! وتشتهي العصيان، فإن وقع.. نظر الناس إلى حملة الدين، والأمناء على الرسالة، فإن وجدوهم قد سكتوا عن قول الحق، والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، اعتبروا هذا السكوت إذناً لهم بالمضي في الفسوق والعصيان!

أما إذا تجاوز الأمر إلى مرحلة إعطاء "مسوغ ديني" لـ "المنكر" فهذا هو الضلال المبين، الذي يجعل من المنكر ديناً، ومن الباطل شرعاً ومنهاجاً؛ فيفجر الناس في العصيان والاستعلان به، بل والدفاع عنه.

وأما إذا وجدوا حملة الدين ينهون عن المنكر بحزم وإخلاص لوجه الله الكريم، وأحسنوا النهي عن المنكر؛ ارتدع الناس، وخافوا، وأقصروا عن فعل المنكرات، وإن فعلوها.. فعلوها على استحياء وتخفي!

ولقد كان إنكار بني إسرائيل للمنكر إنكاراً حسب الأهواء.. إنكاراً مقلوباً فيه التنطع والمصلحة الذاتية، وقد وردت بعض الأقوال على لسان عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قوله لنبي إسرائيل: "إنكم تحاسبون على البعوضة، وتبتلعون الجمل" وسواء صح هذا القول أو لا.. فإننا نلمسه بأنفسنا، ونستشعر نماذج كثيرة لهذه الحالة التي تحاسب على البعوضة وتتنطع على الضعفاء، وتحاسبهم بشدة وعنف وتقرعهم على أشياء بسيطة قد فعلوها تقليداً أو جهلاً! بينما لا نجد هذه الشدة في المنكر العظيم كـ "ولاية أعداء الدين" – مثلاً – أو أكل الربا والسحت، أو تبديل شرع الله، أو قتل الأنبياء، وتكذيب الرسل، فيبتلعون الجمل!

حالة تكشف عن "انقلاب" الدين والإيمان في هذه النفوس، الأمر الذي يجعل من مجرد حالها هذا من أعظم وسائل الصد عن سبيل الله، والإساءة إلى دينه ورسالته.. صورة مقلوبة.. صورة التوحش والافتراس على ضعفاء الناس وجهلتهم.. وصورة التودد وإعطاء الشرعية وغض الطرف عن المنكر العظيم، والفتن الكبرى، التي يفعلها السلطان برعاية رجال الدين!

***

ولكن.. لماذا لا يُتناهى عن المنكر؟

النفس الإنسانية في حالتها المقهورة والمستعبَدة.. تشعر بدور الضحية، وحالة من إحساس الانسحاق والظلم.. ولأن الإنسان شديد الالتصاق بذاته، يرى أن ما فيه من قهر هو أعظم منكر يجب على جميع الناس أن يقفوا ليدفعوه عنه، وأن يحرروه منه، ولما لا يجد من يحرره، ويرفع عنه الظلم، بل يطول! فإنه يُسقط الاعتبارات الاجتماعية، والرسالية من حساباته.. إنه يتمحور حول ذاته، ولا يعنيه من هو خارجها، فتحدث حالة من "الفردية الشديدة" و"عبادة الذات" لا يشغلها وجود منكر من عدمه، أو مدى خطورته على البنية الاجتماعية الموجود فيها، لأنه لا يشعر بـ الانتماء إليها أو يعتبر له دور فيها! فهو في حالة من "الانسحاق النفسي".

ومن جانب آخر: مع طول الأمد، وقسوة القلوب، وطول البعد عن الكتاب، وطول البعد عن إقامة "واقع هذا الكتاب" يحدث التغيير الاجتماعي الذي يبدأ يسيراً ثم يكبر ويتطور حتى ينتهي إلى واقع مناقض تماماً لما جاء به الكتاب، وهذه أحد معاني "طول الأمد"..

إن التغيير الاجتماعي من أعقد وأصعب العمليات البشرية، فالبشر لا تستجيب بسهولة للتغيير المفاجئ العنيف.. إنما تستجيب للتغيير البطيء الذي يبدأ بـ "التنازل" عن شيء يسير من الدين أو الرسالة، ثم يبدأ الانحراف عن الطريق؛ ليصل إلى الانحراف الكلي في نهاية المطاف..

ولما لا يحدث الإنكار المبكر، يبدأ التثاقل عن إنكار المنكر بعدما أصبح واقعاً حياً، بل وثقافة اجتماعية.. كبر عليها الصغير، وشاب عليها الكبير؛ لنصل إلى مرحلة أشد ليصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقعت هذه الذنوب الثلاثة:

- العصيان والعدوان.
- عدم إنكار المنكر.
- ولاية الكافرين المعتدين.

وقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القضايا الهامة الرئيسية في هذا الدين، لأنه الدين الخاتم، والرسالة الأخيرة، ولأن هذه الأمة هي الأمة الشاهدة والمعلمة للبشرية، فإن تركت هذه القضية فمن يقوم بها؟ بل إن الله ما أخرج هذه الأمة للناس إلا من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

بل جعل الله "خيرية" هذه الأمة منوطاً بـ "الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"؛ لتأخذ الأمة دورها في حمل الرسالة، وإقامة الدين، وتحقيق الحق والعدل الرباني لكل الإنسان.. في الأرض كل الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71]

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وجاءت الأحاديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة:

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: **"إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ:{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى قَوْلِهِ فَاسِقُونَ} ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا "** [سنن أبي داود/ 4336]

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**" [جامع الترمذي / 2169]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ:"**دُورُوا مَعَ الْقُرْآنِ حَيْثُمَا دَارَ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ نُطِقْ ذَلِكَ ؟ قَالَ: كُونُوا كَحَوَارِيِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ شُقُّوا بِالْمَنَاشِيرِ فِي اللَّهِ، وَصُلِّبُوا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ فِي اللَّهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ نُطِقْ ذَلِكَ؟ قَالَ : قَتْلٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَلَكَتْهُمْ مُلُوكٌ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ فَغَيَّرُوا سُنَنَهُمْ ، وَعَمِلُوا فِيهِمْ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِكَ مِنْ جَوْرِهِمْ أَنْ حَابَوْهُمْ وَضَاحَكُوهُمْ وَآكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلُعِنُوا عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُوا عَلَيْهِمْ خِيَارَكُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ.** " [الوسيط في تفسير القرآن المجيد]

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: "**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**" [صحيح البخاري / 2493]

وعنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: "**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**" [جامع الترمذي/ 2174]

وكان الجهر بالمعصية من أشد المحرمات التي تحرم العبد من "عافية الله وتوبته على عباده" لأن الجهر بالمعصية، وفضح ستر الله على عباده.. يُسهل على الناس إتيانها؛ فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: "**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ**" [صحيح البخاري/ 6069]

وإن عجز الإنسان عن إنكار المنكر بيده فإنه ينكره بلسانه، فإن عجز فقلبه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**" [صحيح مسلم/ 52]

بل كان سيد الشهداء – بعد حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – رجل أنكر المنكر على ظالم صاحب سلطان وقوة، فقال الحق لا يخشى في الله لومة لائم، فقتله السلطان لقول الحق: "**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ**" [المستدرك على الصحيحين/ 3: 191]

ولقد وقع ما أخبر عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟**" [المعجم الأوسط للطبراني/9325]

وذلك بسبب طول الأمد، وقسوة القلوب، وآثار الاستبداد القائمة في النفوس والعقول! فلقد أحدثت العلمانية القادمة من الغرب إلى بلادنا المسلمة حالة من "انقلاب الهوية" وأصبحنا لا نحمل الهوية الإسلامية الخالصة، ولا الهوية العلمانية الخالصة! حالة من "المسخ الحضاري" ونشأت أجيال تلو أجيال من رحم العلمانية الراسخة فكراً وحكماً وسياسة وثقافة وواقعاً.. وأصبحت هي المعروف، ودين الله وشرعه وحدوده هو المنكر – والعياذ بالله – ولا نجد نكيراً – إلا من رحم ربي – فظن الناس أن العلمانية هي الإسلام!

وإذا وجدنا من ينكر المنكر، فإنه ينكر المنكر الذي لا يُغضب السلطان وحاشيته.. إنكار المنكر فقط على الضعفاء على طريقة يهود "الذين يحاسبون على البعوضة، ويبتلعون الجمل"!

فلا هَمّ لهم إلا ملاحقة الناس في الأسواق، ليقفوا لهم على أبسط الأشياء.. صورة من إهانة الدين، وتقزيم تصوراته، وعدله، وحقه، وجماله.. في صياغة وبناء الإنسان والدولة والحضارة والثقافة.

يتركون الباطل والظلم والفساد والإفساد، وسرقة ثروات الأمة بالمليارات كل يوم وكل لحظة، ويذهبون لضعفاء الناس، يُنكرون عليهم..

يُنكرون على جلوس الشباب على المقاهي، وتسكع الفتيات في الأسواق، ولا ينكرون على من نهب ثرواتهم، وقتل أحلامهم، وحرمهم من حقهم في الزواج والعيش الكريم.. بينما أصحاب السلطان – السارق لثرواتهم – يلقون بمئات الملايين في الليلة الواحدة تحت أقدام العاهرات، وعلى صالات القمار، بل ويهبونها لأعداء الأمة لتعود علينا حرباً وخراباً.. ولا نسمع نكيراً، بل من ينكر فهو "صاحب فتنة"! ويجب النصح للسلطان في السر!

حتى أصبحت بلاد المسلمين رمزاً لـ "العنوسة" في العالم أجمع، وصار – حتى في أغنى البلاد – عنوسة الفتيات والشباب تصل إلى عشرات الملايين.. طاقات مكبوتة، ومحرومة، ومعذبة، ولا نجد من يُنكر على من ظلمهم، وحرمهم، ومنعهم.. سواء بسرقة ثرواتهم، أو بعبادة التقاليد الاجتماعية، والأعراف الجاهلية.

لا إنكار على شيوع الربا والاحتكار وأكل السحت والمال الحرام، وأكل أموال الناس بالباطل.. فهؤلاء أصحاب نفوذ وقوة، لا يمسهم أحد بسوء! بل يصل الأمر إلى إعطاء "الشرعية الدينية" لأفعالهم زيادة في الباطل والضلال.

لا إنكار على "ولاية أعداء الدين" وإعانتهم على قتل المسلمين! إما حفاظاً على عرش السلطان، أو عبودية وذلة للكافرين.. ويتم كذلك التلاعب بدين الله، في توليف "دليل شرعي" بتحريف الكلِم عن مواضعه؛ لتسويغ فعل السلطان لهذا الباطل، وهذا في حالة استخدام الفتاوى كوسيلة لتخدير الأمة، وتزييف وعيها، أما إذا كانت علمانية خالصة، فلا حاجة ابتداء للفتاوى!

لا إنكار على تخلف الأمة الحضاري، وتحولها إلى أمة مستهلكة، عالة على غيرها، معتمدة في كل شيء على ما يُصدره لها غيرها.. فطالما السلطان في أمان واستقرار فلا فتنة، والأمور على ما يرام.

إن قضية إنكار المنكر ليست هي في وجود "هيئة" أو "جماعة" من الناس تسير في الأسواق! إنها قضية إيمان وحضارة ورسالة كبرى، يجب أن تُمارس من كل جوانبها، بصورة مستقيمة، متكاملة، معتدلة بداية من السلطان الحاكم مروراً بحكومته ووزارته، وهيئاته، إلى سياسة الحكم والمال، إلى

الإصلاح بين الناس، وإزالة المنكر والفساد، ومن ثم إلى المجتمع؛ لإصلاحه على الوجه الحسن، بالأسلوب اللطيف، وبالأدب الجميل، فهو يحاسب أولاً على الجمل قبل البعوضة.

وقضية الأمر بالمعروف والنهي على المنكر هو مبدأ عام متروك للأمة – في كل جيل – أن تُبدع في طريقة القيام به من خلال مؤسسات رقابية شفافة.. تقوم بهذا العمل باسم الله، من أجل الله، ابتغاء مرضاة الله.. مؤسسات تراقب الحاكم، وتحاسبه، وتعزله، أو مؤسسات تكشف للأمة الحقيقة، ولا تداهن فيها، أو تحابي، تقول الحق لا تخشى في الله لومة لائم، مؤسسات تراقب ثروات الأمة، وكيف تنفق؟ وعلى من تنفق؟ مؤسسات تحقق فاعلية الأمة، وسلامتها، وعافيتها، فإذا صلح الداخل.. بدأت في الخارج؛ لتحقق "الخيرية" التي وصف الله بها هذه الأمة..

لتكون للأمة المؤسسات العالمية.. التي تمنع الظلم، وتنكر المنكر، وتدافع عن المظلومين، وتعطي المحرومين.. المؤسسات التي تأمر بالمعروف والخير، وتحمل رسالة الله إلى البشرية؛ لتكون على نهج رسولها صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ الذي جاء رحمة لـ "العالمين"، وخلفاءه من بعده على طريق "الرحمة" هذا.. تفعل هذا ليس من أجل الهيمنة على البشرية، وسرقتها، واغتصابها – كما هو واقع الآن من النظم العلمانية الغربية – بل تفعل هذا بالحق والعدل الرباني، من أجل ابتغاء مرضاة الله، خالصاً لوجهه الكريم، لا تريد جزاء ولا شكورا؛ وبذلك يتحقق معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾.

***

ثلاثون: اتخاذ البشر أرباباً، وتقديس الرجال

قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّـهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَـٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّـهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّـهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: "**{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ }**، قَالَ: قُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، **قَالَ: "أَجَلْ، وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ**" [السنن الكبرى للبيهقي / 10 : 114] وفي رواية: " إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ لَهُمْ ".

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: " **يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ "، فَطَرَحْتُهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: "أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟ " قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: "فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ "**

[المعجم الكبير للطبراني/ 218]

لما سمع عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله} ظن عُدي أن "الربوبية" المقصودة هنا هي اعتقادهم الخلق والتدبير في الأحبار، أو التوجه بالصلاة

والدعاء لهم فحسب، ولهذا قال عدي: "لم يكونوا يعبدونهم" ولكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ أوضح له أن التحليل والتحريم من دون الله وحسب الأهواء وضد مراد الله.. هو "عبادة" وأن طاعة المؤمن لله في أمر ونهى هي عبادة، والطاعة للأحبار والرهبان فيما يحللون ويحرمون من دون الله حسب الأهواء، وانتقاضاً للحق والعدل.. هي "عبادة" بل خضوع للبشر واتخاذهم أرباباً!

ولا انفصال بين توحيد الألوهية والربوبية.. فالإله الواحد هو الرب الواحد.. الإله المستحق للعبادة هو الإله الرب المستحق للخضوع والاتباع والاستسلام.

وهذا ما انتهى إليه حال أهل الكتاب من اتخاذ البشر أرباباً من دون الله.. وذكرت الآيات حالتين.. الأولى: جعل البشر أرباباً بتشريعهم بما لم يأذن به الله، وجعلهم وساطة بين الله وعباده، وقد قالوا "من فم الكاهن تخرج الشريعة عن طريق الروح القدس!". والثانية: جعل المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ هو رب وإله!

وكل هذه أباطيل، فما من نبي ولا رسول ولا كتاب مُنزل إلا أمر بعبادة الله وحده لا شريك له.. سواء هذه العبادة في التشريع والطاعة وتوحيد الله في ذلك، وسواء في الاعتقاد بوحدانية الله، فليس له شريك، ولا ولد، ألوهية وربوبية تامة خالصة لوجه الله الكريم.. تعالى وعز عن كل شريك، سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهؤلاء الذين أشركوا بالله في طاعة البشر من دون الله ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، أو جعلوا مع الله آلهة وأربابا.. لا شك أنهم سيحاربون "دعوة التوحيد" النقية، وهم قد حاربوها بين أبناء دينهم من قبل، فبعد أن انتهت المجامع المقدسة في القرن الثالث من اختراع "التثليث والأقانيم، وخلطه بعقيدة التوحيد" حاربوا وطاردوا كل من تكلم بالدين الذي جاء به المسيح، وجاء به كل رسول وهو العبودية التامة الخالصة لله، والفصل التام بين الخالق وحده جَلَّجَلَالُهُۥ، وبين كل مخلوق سواه.. أرادوا إطفاء هذا النور من قبل، وهم يحاولون اليوم محاولتهم السابقة، حتى لا يكون هناك حق وحقيقة سوى ما هم عليه من باطل وشرك.

ولكن لقدر الله شأن آخر، إن إرادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوق إرادة من يريد أن يطفأ نوره، وإرادة الله ومشيئته مطلقة، وهي واقعة حتماً لا محالة، فالله متم نوره، ولو كره الكافرون.. متم نوره رغم أنف وحرب الكافرين، متم نوره ولو حنق وحسد الكافرون..

ولقد أتم الله نوره بإرسال خاتم رسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ليكون النور الذي أُنزل هو الرسالة الأخيرة، والدين الخاتم، والهدى الحق.. وهو الحاكم والمهيمن والمرجع لكل دين قبله، وهو – بإذن الله – ظاهر ظافر منتصر بالحجة والدليل، وبالحياة والواقع، وبالمجتمع والحضارة.. على كل دين غيره، سواء الأديان التي حُرفت بفعل الأحبار والرهبان، أو الأديان التي اخترعها البشر من عند أنفسهم.. ظاهر ظافر منتصر ولو كره وعاند المشركون من أي دين وملة، ظاهر ظافر منتصر ولو حنق وحارب المشركون هذا النور، فقد سبقت كلمة الله لعباده المرسلين أنهم هم الغالبون، وكتب الله لهم النصر في الدنيا والآخرة.

وما تتخلف هذه القاعدة وهذه الآية الكريمة أبداً أبداً.. فهي وعد الله، ومن أصدق من الله قيلا؟ ومن أصدق من الله حديثا؟ وإن أي تخلف عن هذه القاعدة بظهور المشركين والكافرين – إلى حين، وفق سنن الله – فإنما هو بسبب من يقوم بأمر هذا الدين، وحمل هذه الرسالة، فالتخلف يأتي من خلال القصور والانحراف عن النور الإلهي الذي وعد الله بإتمامه وظهوره. وسنن الله لا تحابي أحداً، من تخلف عنها.. تخلف عن الأمر الإلهي وهذا من ناحية جهد البشر في ظهور حضارتهم ودولتهم، وهذا عدل الله ورحمته وحكمته.

أما من ناحية ظهور النور، فإن نور الله ورسالته الأخيرة، ودينه الخاتم.. يحمل قوة وبريق في ذاته، ينتشر ويظهر ويظفر حتى دون جهد البشر، فهو دين الفطرة.. التي متى استقامت اهتدت إليه دون تخلف أو تيه! وهذا أحد مظاهر الظهور وتمام النور الذي كتبه الله لهذا الدين، فإنه يظهر رغم الكيد الشديد، والطعن السديد، والحرب الشعواء.. يدخل فيه الناس أفواجا في كل حين.

وبعد أن تحدثت الآية الأولى عن موقف الجماهير من "الأحبار والرهبان" واتخاذهم أرباباً من دون الله.. تتحدث الآية التالية عن حال هؤلاء "الأحبار والرهبان" وسلوكهم الشخصي، وأخلاقهم الحقيقية، هل فعلاً سلكوا طريق العلماء؟ وهل حقاً قاموا بالكتاب؟ وهل جعلوا حياتهم رهبنة وتعبد وزهد؟!

كلا! إنما كانوا "يأكلون أموال الناس بالباطل" و"يصدون عن سبيل الله" كانوا – ومازالوا – يأكلون أموال الناس عن طريق الفتاوى الباطلة، والنذور للأوثان، وبيع صكوك الغفران! والرشوة في الحكم والقضاء، وأخذ ما في جيوب الناس والبسطاء – باسم الله – كذباً وبهتاناً!

وهم بسلوكهم هذا، وانحرافهم.. يصدون عن سبيل الله، فهم قد حملوا لواء العلم والتدين، والدين.. وأصبحوا بذلك منارة وقدوة، وعندما يشاهد الناس هذا الانحطاط والتسافل والجشع والطمع والانحراف الخلقي والنفسي والمادي، يقولون في أنفسهم: إذا كان العلماء والرهبان كذلك.. فلا حرج علينا نحن الجهلاء والجماهير الأدنى علماً ومنزلة! فما أشنعه وأشده من صد عن سبيل الله.. سواء بالكذب على الله ورسله، أو بتحريف شرع الله وحلاله وحرامه، أو باستعمال الدين كـ "مسحوق تجميل" لخبث النفوس، وفساد الأخلاق!

وإن هذه الأموال المسروقة بالباطل من البسطاء والسفهاء ما هي إلا ناراً، وما يكنزونه من ذهب وفضة هو عذاب لهم يوم القيامة، ستُكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم، جزاء وفاقا بما قدمت أيديهم، فهذا ما ادخروه لأنفسهم.

ولكن أليس من المفترض أن يتبع الناس والجماهير الأحبار والرهبان والعلماء في أمور الدين؟

صحيح أن الإنسان عندما يستشكل عليه شيء في أمر من الأمور يرجع إلى أهل العلم فيه.. وبالتالي في أمر الدين يرجع إلى علماء الدين، فما العيب الذي ذكرته الآيات أعلاه؟!

العيب هو في "تحريف" الأحبار والرهبان لدين الله، و"متابعة" الجماهير على ذلك التحريف! وقبِلوا منهم تحريم ما حلل الله، وتحليل ما حرّم الله، اتباعاً للهوى والشهوة! فالحديث عن "الاستجابة" للباطل، والمتابعة بغير سلطان من الله.. وسلطان الله "شرعه وكتابه".

إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰهو الإله الذي يُشرع، وهو وحده الرب الذي يخضع له البشر، ويَدينون.. وليس للأحبار والرهبان سلطان خاص، ولا من فم الكاهن تخرج الشريعة! ولا ينطق باسم الرب! بل كل خصيصتهم هي العلم والاطلاع بالكتاب، وهذا أمر يستطيعه كل إنسان.. أن يتعلم ويطلع، وإذا تكلم فإنه ينطق فقط بما في الكتاب بلا تحريف ولا زيادة ولا نقصان ولا تبديل، وما يستنبطه من أحكام فهو عمله البشري أمام قضية يجتهد ليعرف مراد الله فيها.. ابتغاء مرضاة الله، واتباعاً لكتابه، خالصاً تاماً لله جَلَّجَلَالُهُ.

أما تجاوز ذلك إلى اعتقاد أن الأحبار والرهبان لهم سلطان خاص مقدس، أو من حقهم التجاوز على كتاب الله، وتغيير أحكامه، واعتبار أقوالهم - ولو كانت الضد من كتاب الله - هي ديناً وشريعة؛ فإن متابعة الجماهير لهؤلاء الضالين تعني جعلهم في مقام "الربوبية"، ولا يفعل ذلك إلا الفاسقون عن دين الله.. فنجد أن مسألة "تحليل" المُحرم في دين الله هو استجابة لشهوات وأهواء الجماهير، و"تحريم" المُحلل في دين الله هو تعنت لسرقة أموالهم بالباطل، أو المحافظة على سلطان ورياسة، أو استجابة لسياسة وقهر، وهذا تلاعب بدين الله وصد عن سبيله لا يفعله إلا مجرم ضال ولو كان من الأحبار والرهبان، ولا يستجيب له إلا فاسق ولو ادعى أنه يُتابع أهل العلم!

***

ولكن.. لماذا تتخذ الجماهير الأحبار والعلماء أرباباً من دون الله؟!

حالة العبودية والقهر للنفس.. يجعل إحساسها بالحرية والكرامة إحساساً غريباً وغائباً من جانب، ومن جانب آخر التكيف مع القهر، والخضوع للقوة المُذلة.. هذا من ناحية الجماهير، التي بكثرتها تُمثل - رغم انسحاقها - تياراً عاماً اجتماعياً، يُمثل في ذاته حالة من "المزاج العام"، يحتاج إلى تخدير

إما باسم "الفتاوى" أو "الشهوات" أو كلها معاً.. وعلى الجانب الآخر من الجماهير يوجد الأحبار والرهبان، ونظم الحكم السياسية؛ حيث تنشأ العلاقة الخبيثة والآثمة بينهما، فالأحبار والرهبان قد أصبحوا يتحكمون في المزاج العام للجماهير، ووجدت السلطات السياسية أهميتهم وقيمتهم.. فحدث التزاوج بين الخبثاء، مقابل الذهب والفضة، والمكانة والرياسة.

فيقوم الأحبار والرهبان بإعطاء الشرعية لنظم الحكم الفاسدة، وإضفاء القداسة على السلطان، وتعبيد الجماهير له! ومن جانب الجماهير فإنهم يحلون لهم ما يشاؤون من الشهوات، ويُحرمون عليهم ما يُغضب السلطان! فتجد الجماهير الراحة في ذلك.. الراحة من "تكاليف الحرية"، وسهولة التخلص من بقايا كرامة الإنسان، فهذا هو الوضع المثالي للعبيد، فخضوعهم للسلطان الباغي الظالم المعتدي.. قد جعله الأحبار والرهبان ذلاً باسم الله، وخنوعاً باسم الكتاب! وأما الضغط النفسي المتكون من الذل والقهر، فيتحول إلى خزان الشهوات الذي فتحه الأحبار على مصراعيه؛ لتُفرغ فيه الجماهير جرعة القهر باسم الفتوى وصكوك الغفران! وموافقة العلماء!

والآيات أعلاه تخص الجماهير الذين "اتخذوا" هؤلاء "أرباباً" من دون الله، فبدلاً عن اتخاذ الله رباً وحده لا شريك له، ويتبعون كتبه ورسله، تركوا ذلك - باسم اتباع العلماء - ليُضلوا عن سبيل الله فيما هو ظاهر معلوم ليس بخفي ولا مُعضل.

وبذلك يتحول الأحبار والرهبان بديلاً عن دين الله، دين فيه حالات الانفلات من الشرع، و"التجسيد" في التعامل مع أربابهم.. فلطالما كانت حاجة العبيد إلى ذلك، ومن ثم يمكن رشوتهم! والتعاطي معهم من خلال المال فيمكن شراء وبيع الفتاوى حسب المزاج، وحسب المال، وحسب السلطان، وفي نفس الوقت يظن الجماهير أنهم أهل التدين - وأنهم على دين الله! - فلهذا اتخذ الجماهير هؤلاء أرباباً من دون الله.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقعت جماهير الأمة فيما وقع فيه أهل الكتاب، من اتخاذ العلماء "أرباباً" من دون الله، فحرموا عليهم الحلال، وحللوا لهم الحرام.. وهؤلاء العلماء الذين خانوا أمانة الدين، وانحرفوا عن اتباع الكتاب.. قد تحدثت عنهم الآيات في مواضع كثيرة من تحريف الكلِم عن مواضعه، وبيع آيات الله بثمن قليل، وكتمان ما جاء في الكتاب، ولكن الحديث واللوم في هذه الآيات عن "الجماهير" التي تتبع مثل هؤلاء، وتسير في ركبهم، وتُصدق كذبهم، وتستجيب لغيهم!

فتحذر الآيات من اتباع هؤلاء المضلين، وإن من يبتغي الحق خالصاً لوجه الله الكريم، يهديه الله إليه، كل ما عليه الصدق في التوجه إلى الله، والإخلاص في رضاه.. وحق على الله أن يعصمه من الضلال ولو كان الناس غارقة فيه.

ولكن يبدو أن الجماهير تهش للفتاوى الباطلة، وتستجيب لدعاة الضلالة.

ولقد أحدثت إشكالية "رجال الدين" أزمة كبرى في "الفكر الإسلامي" فحصل في بداية مبكرة من عمر الأمة الإسلامية حالة "تقديس الرجال" وتقديس أقوالهم، وتقديمها على كتاب الله الواضح البين! وعدم تجاوز أقوالهم أبداً، وأَسر كتاب الله وفق ما فهموا وقالوا، وسجن كتاب الله في حدود تصوراتهم!

تم تطور الأمر شيئاً فشيئاً، حتى صارت أقوال الرجال "تنسخ" كتاب الله! وصارت أي آية تعترض فهمهم أو تصوراتهم فهي منسوخة أو يجدون لها مخرجاً ليتوافق مع تصورهم! الأمر الذي عطل "الفكر الإسلامي" من جانب، وعطل مهمة ووظيفة الكتاب في هداية الأمة ورشادها في كل مراحلها ومستجدات أحوالها..

الأمر الذي أدى إلى التعصب والغلو والتفرق في الدين بغيا وعدوا، وجعل القرآن عضين.. مُقسم، يضربون بعضه ببعض.

ولما انتقلت الأمة إلى مرحلة أسوأ وأشد، صار بعضاً من أحبار وعلماء الأمة – إلا من رحم ربي – على الضد تماماً من كتاب الله، حتى صار كثير من العلماء طوع أمر السلطان المعتدي المجرم، بل طوع أمر المحتل الأجنبي! وكله باسم الدين، والدين والكتاب منهم براء، والجماهير تتفلّت من التكاليف بالفتاوى الباطلة المناقضة للكتاب باسم اتباع أهل العلم!

بل حصل نبذ لكتاب الله وشرعه؛ فاتبعت الأمة – في حالتها المعاصرة – المُشرع العلماني الذي حلل لها الحرام، وحرّم عليها الحلال، والأحبار والعلماء يُقرون ويؤيدون ويباركون.. فعبد البعض – من حيث لا يدري – هؤلاء المشرعون بما لم يأذن به الله، وحصل الخلط المتعمد بين قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: "**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**" [صحيح مسلم/2365] في التنظيم والإدارة والعلم التطبيقي، وترقية الحياة ووسائل الخلافة فيها، وعمارة الأرض والسعي فيها، وبين التشريع والتصور الإسلامي الذي وضع الأسس والمبادئ والأحكام والحدود التي لا يمكن تجاوزها أو التعدي عليها؛ لإقامة الحق والعدل الرباني.. فما حرّمه الله فهو حرام إلى يوم القيامة، وما حلّله الله فهو حلال إلى يوم القيامة.

فعنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ: "**مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}** " [السنن الكبرى للبيهقي/ 10: 11]

فيجب على الأمة الحذر من الانحراف عن كتاب الله، أو رد آياته؛ فهي قضية إيمان ابتداء، وبراءة من الشرك، وقضية حرية وقيام للدين، وقضية عودة الأمة لريادة البشرية.. ولكن لا يكون ذلك إلا بعبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ كل ما يُعبد سواه.. سواء هؤلاء المشرعون المخالفون للكتاب، أو سواء العلماء الذين باعوا آيات الله، وصدوا عن سبيله، أو الطغاة والبغاة الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون.

وجماهير الأمة بحاجة إلى الإخلاص التام لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حتى تستحق الهداية، وبحاجة إلى نبذ الغلو والتعصب واتباع الأهواء؛ حتى تنجو من ظلمات الفتن، ومن خبث هؤلاء الذين يُضلونهم باسم الله، وباسم دينه! فلا نجاة من هذه الفتن المُضلة إلا بالاعتصام بالله، والإخلاص له، وابتغاء رضوانه.

***

حادي وثلاثون: الإفساد في الأرض

قال تعالى:

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء]

تستعرض الآيات الكريمات سنة الله جَلَّجَلَالُهُ في هلاك الأمم، عندما تُفسد في الأرض وتطغى، وافتتحت الآيات موضوعها بالكتاب والهدى الذي أنزله الله لبني إسرائيل والرسول الذي أرسله إليهم، وفي اتباع ما جاء به الكتاب، وطاعة الله ورسوله عصمة من الفساد والإفساد، ومن ثم عصمة من الهلاك.

وغالباً ما يكون سبب الإفساد هو البطر، والاستكبار في الأرض بغير الحق، والطغيان طبيعة بشرية تنتفش عندما يشعر الإنسان بالاستغناء عن الله وعن هداه ونوره: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق (6 ، 7)]. ولذا جاء التعقيب بقوله: {ألا تتخذوا من دوني وكيلا} فليس لمن يريد الفلاح والنجاح والنجاة وكيل غير الله، ومظاهر القوة والعلو لن تبق وتدوم.. بل هي مظاهر تخدع الإنسان كما خدعت فرعون من قبل حتى جعلته يقول: {أنا ربكم الأعلى}!

ليس من دون الله وكيلا.. في كل الأحوال سواء أحوال الشدة أو الرخاء، بل حاجة الإنسان إلى الله في أحوال الرخاء أشد – وهو دوماً في حاجة إلى هدايته – لكن في أحوال الشدة تلجأ الفطرة

الإنسانية بطبيعتها إلى الله، أما في أحوال الرخاء يحدث لها الطغيان والاستغناء ما لم تنتبه وتهتدِ، فيكون الرخاء سبب هلاكها، ولو بعد حين.

وتُذّكر الآيات بمصير قوم نوح وهلاكهم إلا الذرية المؤمنة التي منها جاء نسل البشرية من بعد، فهو العبد الشكور.. وفي تحقيق العبودية لله، وفي شعور النعمة وشكرها لنجاة وعصمة من الطغيان والإفساد والاستغناء عن الله.

فماذا حصل لنبي إسرائيل؟ هل استقاموا على الهدى، واتبعوا الرسول؟ هل كانوا على هدى العبودية الخالصة لله والشكر له؟

كلا بل كان هو الإفساد في الأرض.. فيُخبرنا الله بإفسادهم في الأرض وطغيانهم وظلمهم وتكبرهم، فمضوا على سنة فرعون وقارون لا سنة موسى وهارون.. فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص (83)]. فسنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ماضية في هلاك المفسدين، والعاقبة – من بعدهم هلاكهم – للمتقين.

{وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ} والقضاء هنا بمعنى العلم والإحاطة، وليس بمعنى "القضاء القهري" عليهم.. فالله لا يأمر بالفحشاء ولا يقضِ بالإفساد على أحد، القضاء هنا بمعنى الحكم عليهم باستحقاق العذاب جرياناً على سنته في هلاك المتكبرين، ووراثة المتقين.

ففي المرة الأولى: بعد العلو والزهو والاستغناء عن الله، وعن هداه، وكفر النعمة، حق عليهم العذاب.. كما هي سنة الله: قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم (7)]. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء (16)].

فسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، فأفسدوا ديارهم، وأخرجوهم من ملكهم، وحقت عليهم الذلة والمسكنة والعذاب.

وفي هذا العذاب رحمة – إذا اعتبروا منه – وإذا تابوا من بعده، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة (21)]. فيكون في العذاب يقظة من الغفلة، واستفاقة من سُكر النعمة، وكسراً للبطر والكبر، وإيقافاً للفساد في الأرض.

فلما تابوا وأنابوا.. عادت سنة الله ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فأمدهم الله بأموال وبنين. وفي كل ذلك: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم (8)].

وفي المرة الثانية: عادوا إلى مثل المرة الأولى من الفساد والطغيان والاستكبار والاستغناء عن الله، وعموا وصموا عن سماع آيات الله؛ فعادت السنة بالهلاك والهزيمة والذلة عليهم.. فستستباح مقدساتهم وديارهم، وسيحل الدمار الكامل عليهم! ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة (71)]. ولو كان هناك من بقية تنهى عن الفساد في الأرض، وتملك دفعه والوقوف في وجه الظلم والطغيان، لكان في ذلك نجاة للجميع، ولكن اتبع الذين ظلموا ما اُترفوا فيه، وكانوا مجرمين: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾[هود: 116]

وتمضي السُنة: {وإن عدتم عدنا} فهي سنة جارية لا تتخلف، من يعلو في الأرض ويُفسد فيها يحق عليه الهلاك والذلة والهزيمة – ولو بعد حين – فإذا تاب وأناب ورجع، وأصلح.. عاد التمكين والخير والبركة، فإن كفر النعمة، وغره النعيم، وأفسد وطغى.. عاد الهلاك.

وفي النهاية تذكير بمصير الآخرة – وهي أشد عذاباً وأبقى – على الكافرين.. فجهنم جامعة للكافرين جميعاً، مَن كفر النعمة، واتخذ من دون الله وكيلا، ومن طغى وأفسد في الأرض، واستكبر.

***

ولكن.. من الذي يدفع النفس الإنسانية إلى الإفساد في الأرض؟

النفس المقهورة والمستعبَدة تنبهر إلى حد العبودية بمظاهر القوى المادية للذي يقهرها ويستعبدها، وتتمنى أن تكون مثله، فترى من يقهرها في "حظ عظيم" وما هو بذلك، بل هو على خطر عظيم، وينتظره عذاب أليم إذ لم يتب ويرجع، ولا يُفسد في الأرض ويعلو فيها بغير الحق.

وعندما يُهلك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بسنته المستكبر والمُفسد في الأرض، ويأتي الدور على المستضعفين والمقهورين ليرثوا مكان المستكبرين.. فإنهم إذ لم ينتبهوا لأسباب الهلاك، وإدراك سنة التمكين، فإنهم يمضوا على سنة الفراعنة والطغاة الذين أذلوهم وقهروهم!

فالمُستضعف الجهول بمجرد أن يمسك بمظاهر القوة.. يطغى ويشعر بالاستغناء عن الله، ومتى تسرب إليه هذا الشعور.. فهو إلى الهلاك أقرب، وعمر الأمم والشعوب والدول هو حسب درجة شكرها، وكفرها.. ومن مظاهر الشكر: الحق والعدل والرحمة واتباع الرسل والتواضع والتوكل على الله. ومن مظاهر الكفر: الإفساد والاستكبار والطغيان واتباع الشيطان والغرور والاستغناء عن الله.

***

وفي الأمة المسلمة:

فإنه يجري عليها ما يجري على الأمم غيرها من سنن الله، وسنن الله لا تحابي أحداً - ولو كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ - ولكن الأمم عندما يُكرمها الله بالكتاب والرسالة والرسول، ثم يطول عليها الأمد، وتقسو قلوبها.. تظن أن في الكتاب والرسالة محاباة لهم، فيظنوا أن لهم عند الله علاقة تمنع جريان السنن أو العقاب عليهم، على طريقة {نحن أبناء الله وأحباؤه}، حتى إذا وقع العقاب، ظنوه هو ابتلاء لقربهم من الله!

وهكذا تتلاعب الحيل النفسية بالأمم بظنها علاقة قرب ومحبة من الله جَلَّجَلَالُهُ.. بينما هي تبتعد عن حقيقة كتابها، وتحتفظ فقط بالصور الشكلية والمراسم والشعارات والطقوس، ومن ثم تغفل عن سنن الله..

فوقع الإفساد في الأرض، والعلو فيها بغير الحق، وما كان للأمة المسلمة - التي أخرجها الله للناس لتكون رحمة وعدلاً، ولتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر - أن يقع منها الإفساد في الأرض، فهذا كفر بالرسالة، وخروج عن الغاية الكبرى التي من أجلها كان ميلاد الأمة المسلمة!

ولكن بعد الخلافة الراشدة.. وقع الإفساد على فترات، وعلى مراحل مختلفة في فترات "الملك العضوض" حتى نهاية الدولة العثمانية وانهيار نظام الخلافة كله، وانهيار الوحدة السياسية الجامعة للأمة المسلمة كلها.. فوقعت فيما وقع فيه بنو إسرائيل:

(الإفساد في الأرض، العلو فيها بغير الحق، الطغيان، الشعور بالاستغناء عن الله).. فيحق عليها العذاب، وذهاب الدولة، وانهيار المُلك، وضياع السلطان، ووقوع الذلة والمسكنة، فتنتبه.. فترجع وتتوب، فيحق لها وعد الله ويمدها بالأموال والبنين، ويُعيد لها دولتها وعزها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف (96)]. ثم يطول الأمد، ويطغى المال والسلطان - مرة ثانية - بأصحابه؛ فيُفسدوا في الأرض بغير الحق، فيحق عليهم الهلاك: {وإن عدتم عدنا}..

ونقول: وقع الإفساد في بعض الفترات، في مراحل مختلفة، وليست معنى ذلك أنها كانت شراً محضاً، بل كان فيها من الخير والفتوحات والعلوم الكثير، ولسنا بصدد التقييم التفصيلي لكل فترة من فترات التاريخ، ولكن نستعرض سنن الله؛ لنتعلم ونعتبر.

ثم سلط الله علينا - بذنوبنا - الاحتلال العلماني الغربي والشرقي؛ ليحطم الدولة الإسلامية، ويغتصب المُلك، ويهلك الذرية، ويسلب الدين.. وما زلنا نتخبط في التيه، لا نهتدي سبيلا، ورحمة الله أقرب لنا {عسى ربكم أن يرحمكم} وحتى تحق لنا الرحمة، علينا: اتباع الكتاب والهدى، واتخاذ

الله وكيلا، وشكر نعمة الله، وإخلاص العبودية له، والتوقف عن الإفساد والعلو في الأرض، وإعداد القوة لجهاد المحتل؛ عندها تعود العزة والريادة والسيادة والكرامة، والغنى والمُلك.. وهي دورة حياة وسنن جارية لا تَظلم أحداً، ولا تحابي أحداً، وذلك عدل الله ورحمته وحكمته البالغة.

ولعل البعض يسأل: لماذا لا يُهلك الله لنا المحتل العلماني الكافر؟ ألم يُفسد هو الآخر في الأرض؟!

سنن الله تعمل مجتمعة لا مجتزئة، فكما تعمل "سُنة الهلاك"، تعمل "سنن القوة"، و"سنن التمكين"، و"سنن الإمهال"، و"سنن الاستدراج"... إلخ.

فإن كان العدو - مثلاً - يأخذ بأسباب القوة، فإنّ الله يعطيه - إلى حين - مظاهر هذه القوة، وإن كان يمضي على سنن بناء الدول والتمكين في الأرض، فإن الله - إن شاء - يفتح عليهم من كل شيء، إمهالاً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واستدراجاً لمن كفر بالله، وفرح بالحياة الدنيا واطمئن بها؛ فيتمتع بها إلى حين.. ثم يحق عليه الهلاك في الوقت الذي يقرره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا البشر.. فلا يستعجل أحد أمر الله، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

ومتى كان هناك فئة مؤمنة تقوم بسنن الله، وتؤمن بالله، وتشكر له، ولا تطغى ولا تُفسد.. فإن الله يستعملها في إهلاك المكذبين المفسدين، ويكتب النصر لعباده المؤمنين، ويُمكن لهم، ومتى غابت.. فإن الله يُمهل الجميع إلى حين، يُمهل البعض - إلى حين - لينال حظه من الدنيا، ويُمهل آخرين عسى أن يتوبوا ويرجعوا، وما ربك بظلام للعبيد.

***

ثاني وثلاثون: الرهبنة والانحراف

قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّـهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد]

تتحدث الآية الكريمة عن صفات الذين اتبعوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه هي الثمرة الطبيعية لدعوته.. وروحها السمحة، وتطهرها الروحي، ومن ثم كان الذين آمنوا به في قلوبهم من البشاشة والرأفة والرحمة ما تتفضل الآية الكريمة بذكره لهم، وتُكرمهم به، فلقد نهلوا من معين نبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن خُلقه الكريم..

ثم تتحدث الآية عن موضوع "الرهبانية" أو الرهبنة التي وقعت في الذين جاءوا من بعد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولعل كان هناك حالة زهد في حياة عيسى وحواريه.. ولكن - فيما أرى - أن الله هو الذي كتبه عليهم، فلم يصطنعوه أو يتكلفوه أو يطلبوه، بمعنى: أن الأحوال والظروف التي كانوا فيها جعلتهم في حالة من الزهد، أو كان الذين اتبعوه في حالة من المحاربة والمطاردة جعلتهم في قلة من الصحب والآل والمال والرياسة والأمن.. فصبر أولئك المؤمنون على ابتلاء "الشدة" هذا، كما كانوا يصبرون كذلك على ابتلاء الرخاء.. ففي كل الأحوال فتنة كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء (35)].

ولكن الذين آتوا من بعد ذلك.. تكلّفوا وتصنّعوا حالة الرهبانية - وكتبوها على أنفسهم – فلقد ابتدعوها من عند أنفسهم ولم يكتبها الله عليهم ابتداء، وتشددوا على أنفسهم ظناً منهم أن في ذلك ابتغاء رضوان الله! ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع، وقناعة وعفة، وذكر وعبادة.. ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً، وشعائر خالية من الروح..

والله غني عن هذا التشدد والعنت والقسوة.. فهو بعباده رؤوف رحيم، ولا يريد لهم إلا السعادة والخير.. وهي موجودة في كتبه وفي سنة رسله، بلا مشقة ولا ابتداع..

ومن ثم جاء الحكم الإلهي: بجزيل العطاء لأولئك الذين آمنوا من أتباع عيسى، والتزموه سنته، ومنهجه، ورعوا دينهم حق الرعاية، وقليل ما هم.. فقد كان كثير منهم فاسقون.

وسنتوقف قليلاً عند قوله سبحانه: {وكثير منهم فاسقون} ودلالة ذكره في معرض التعقيب على "الرهبانية"..

تعرضت المسيحية – سيما في القرن الأول والثاني – إلى محاربة شديدة من قبل الوثنيين الرومان، جعلت الناس تفر بدينها من بطش هؤلاء، مما جعلت حياة كثير منهم فيها من الزهد والصبر ما يثير الإعجاب، ولكن الذي حدث بعد ذلك أن تحولت الرهبانية إلى "نظام" وطقوس ومراسم وعبادات وزي خاص.. ودخل فيها البدع والخرافات الهندية والبوذية واليونانية، وحلّت فلسفات شتى خارجة عن روح المسيحية ودعوة التوحيد التي جاء بها عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ – والتي جاء بها كل رسول – لتدخل في تيه الفلاسفة حول الحلول والاتحاد والإشراق وفناء الذات ووحدة الوجود... إلخ.

وبدأت الرهبانية بحالة مضادة تماماً للفطرة ولسنن الحياة، فصارت عكس طريق الفطرة.. وعكس طريق الإنسان، فحرّمت الزواج، والطيب من العيش، والكسب، وشدة التعذيب على النفس، وحرّمت النظافة... إلخ مما أدى إلى حالة من "الكبت العنيف" الذي أدى في النهاية إلى "الانقلاب النفسي" والثورة الداخلية؛ مما أدى إلى الانحراف، والخروج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ مما أدى إلى الانحراف الجنسي، والشذوذ الجنسي! والاضطراب النفسي..

الأمر الذي أدى إلى التعذيب النفسي والإيذاء البدني للنفس وللغير. ووقعت إشكالية المرأة مع الرهبانية فهناك عداء سافر بينهما جعلت الرهبان يعتبرون المرأة هي الشيطان ذاته، وشكّوا أن يكون لها روح إنسان! وهذا بسبب شدة التطرف والغلو والحرمان الجنسي الذي جعل المرأة هي العدو، وفي نفس الوقت هي الشيء المراد المُحرم عليهم، مما أدى إلى انحرافات جنسية خطيرة.

ولما قامت الثورة على الدين والكنيسة تحولت هذه الرهبانية الدينية إلى "رهبانية جنسية"! فكانت عبادة الجنس والمرأة باسم "الحرية والتقدم"؛ وتفننوا وأبدعوا في إخراج المرأة على أنها آلة للجمال والمتعة والجنس يجب أن تكون هكذا في الشارع والعمل والجامعة وحتى في أمكان العبادة! وعلى صفحات المجلات والإعلام وفي كل مكان!

حالة من الغلو والتطرف يتلاعب بها الشيطان مرة جهة اليمين فيقع "الكبت والحرمان"، ومرة جهة اليسار فيقع "السعار الجنسي" الذي لا يتوقف، حالة من معاكسة الفطرة، ومن التنكب عن طريق الهدى.

ولهذا جاء التعقيب بقوله: {وكثير منهم فاسقون}.

***

ولكن.. لماذا تقع الرهبانية على هذه الصورة؟

نجد في حالة الرهبانية المذكورة تاريخياً الآتي:

- الحرمان الجنسي التام، وعدم الزواج.
- الحرمان من النظافة.
- الإيذاء البدني للنفس وللغير.
- كثرة العبادة التي لا تتوقف.
- الانقطاع عن الحياة الفطرية الطبيعية.

نجد أن حالة الرهبانية هذه حالة معاكسة لفطرة الإنسان، وعليه فلا بد وحتماً - في النهاية - من الاصطدام بالفطرة، وانهيار الإنسان، ونجد أن حالة الرهبانية تبدأ بالحرمان من الطعام والنوم والاختلاط.. الأمر الذي يؤدي إلى "فراغ نفسي" - وخفة وفراغ في العقل - يكبر شيئاً فشيئاً كلما ازدادت حالة الرهبانية، هذا الفراغ النفسي يبدأ الخيال يسبح فيه؛ ليتصور أشياء يعجز العقل عن

وصفها أو تخيلها، ويتكون الظن بالحديث عن رؤية "الأنوار"، والخروج من الذات، وترك الجسد، والتحليق بعيداً... إلخ من الأحوال والصور التي تخرج عن تحكم العقل البشري! الذي يضبط مسار وحركة الإنسان؛ لتبدأ عملية انقلاب في المصطلحات والمفاهيم، فتصبح القذارة عبادة وشيء جميل.. وإيذاء النفس والقسوة عليها هي الحرية والمعرفة!

يُضاف إلى ذلك مسألة الحرمان الجنسي، وهي مسألة شديدة الوطء على الإنسان، وتضغطه بشدة إلى أن يحدث الانفجار الكبير.. يسبب هذا الحرمان المترهبن المُتعمد حالة من القسوة الشديدة تتمثل في إيذاء النفس، والتلذذ بهذا الإيذاء والقسوة عليها، وذلك لأن التعذيب للنفس يخفف من حالة التعذيب الأخرى الآتية من الحرمان الجنسي، والآتية من الفراغ النفسي، أو الآتية من القهر وسحق الكرامة الإنسانية..

كما يحدث كذلك التلذذ بإيذاء الغير وتعذيبهم ربما لنفس السبب، وربما لرؤية العذاب والمعاناة في الغير، ليتصور أنه يضع حمل العذاب على غيره، أو أن غيره يستحق ذلك لأنه لم يساعده على التخلص مما هو فيه، أو كان – لسبب ما مُتوهم – هو المسؤول عما هو فيه! وهي في كل أحوالها حالة من الاضطراب النفسي والسلوكي الخطيرة على النفس والمجتمع.

ونجد في حالة "الترهبن أو التصوف المنحرف" علاقة غريبة بين "الرهبانية" وبين "الجنس" وبين "المسكرات" سببها – فيما أرى – الاصطدام بالفطرة والخروج عن الصراط المستقيم، فدعوى الرهبانية لن تصمد أمام الرغبة الفطرية الجنسية الطبيعية، وفي ذات الوقت تتحول الرهبانية أو التصوف المنحرف إلى "أيديولوجيا" يصعب الفكاك والتخلص منها، وتساعد "المسكرات" – مثل مخدر الحشيش – في رفع حالة الخيال والخفة العقلية لتصور حالات يحسبها المترهبن أنها حالات من السمو الروحي! بينما هي محاولة للتكيف على أوضاع منحرفة، ومخالفة لصحيح الدين، ومضادة للفطرة السوية.

وهي حالة نموذجية تُمثل أحد نتائج الاصطدام بالفطرة التي خلق الله الناس عليها..

وأما حالة العبادة التي لا تتوقف، فنجد أنه بالفعل تحدث حالة من الصفاء الداخلي في البداية، فالإنسان ينقطع عن شواغل الحياة، وتتجه الطاقة الإنسانية والنفسية كلها في اتجاه واحد! ومن ثم تبدأ عملية التأمل، ولو يتوقف الإنسان عند هذا الحد، ويعيش في حالة الذكر هذه - ذكر الله وعبادته - دون حرمان، ودون مشقة، وعنت، وقسوة.. لكن خيراً عظيماً، ولكن الذي يحدث أن الإنسان لا يستطيع ولا يملك أن ينقطع هذا الانقطاع، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ذلك، فلم يُكلفه به، ولكن لأن الإنسان يخرج عن حدود طاقاته، تخرج عملية التأمل عن حدودها، ويسقط الإنسان في الخيالات والأوهام - والتي ربما يُزينها الشيطان له - فتحدث حالة من الاستغراق والانفصال وربما الفصام، تتجه إلى اعتقاد الإنسان "الألوهية" في ذاته، وإلى اعتقاد الحلول والاتحاد، أو فناء الذات.

ولا يستطيع الخروج من هذه الحالة، لأن الناس من حوله تُعظمه، وتقدسه، وتخلع عليه من الكرامات والأساطير والحكايات، وتجعله مزاراً.. الأمر الذي يُعوض قليلاً من حالة الحرمان، ويأنس بهذا التعظيم؛ فتنشأ حالة من الكبر من بين هذه الرهبانية! وإنه لشيء عجيب.. ولكن أحوال النفس الإنسانية آية من آيات الله!

***

وفي الأمة المسلمة:

إن التصور الإسلامي عن الحياة والإنسان تصور نقي بسيط واضح ناطق به الكتاب، وعليه سنة المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لا تضاد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، ولا تضاد بين عبادة الإنسان وحاجات الإنسان.. بل جعل الإسلام سعي الإنسان في حاجته - طالما أخلص النية لله - جعلها عبادة، بل جعل في إتيان زوجه صدقة له كما جاء في الحديث الشريف: "**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ** " [صحيح مسلم/ 1009]

بل كانت حياة المؤمن كلها عبادة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]

الصلاة والسعي في الرزق – مع الذكر – عبادة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]

لا مشقة ولا عنت لا قسوة ولا ترهبن.. "**جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: " أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي** " [صحيح البخاري/ 5063]

الحياة الدنيا هي رأس مال الإنسان ورصيده ومزرعته.. يزرعها ليحصد ثمارها في الآخرة، ويتلذذ بالعيش فيها من الطيبات، فليست هي محرمة عليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32]

المرأة في التصور الإسلامي إنسان مُكرّم شقيقة الرجل، ليست عدواً، ولا شيطاناً، ولا شراً، بل هي من نِعم الله وآياته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]

فجعلها هي سكن الروح والقلب.. وجعل في العلاقة العاطفية معها "مودة"، وفي العلاقة السلوكية "رحمة".

حرّر الإسلام الإنسان من الحزن على ما فات من حظوظ الدنيا، وحذره من الغرور على ما حصل منها حتى لا يطغى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد :22، 23]

جعل حياة المؤمن كلها خير: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** " [صحيح مسلم / 3001]

بل كانت رهبانية الإسلام الحقة هي الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمته، ورفع الظلم، ومقاومة الباطل، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ، فَقَالَ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ مِنْ قَبْلِكَ: "**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ**" [مسند أحمد / 11365]

فكان تصوراً ربانياً يجعل الإنسان في خلافة للأرض راشدة.. يُعمر الأرض، وقلبه مُعلق بالله جَلَّجَلَالُهُ، وهذا هو "التوازن الفريد" الذي أراده الإسلام للشخصية المسلمة، فلا هو منكب على وجهه منغمس في الدنيا، ولا هو منقطع عنها لا يعبأ بها فيها.

تصور سهل بسيط نقي رباني.. يجعل الإنسان في سعادة إن كان فقيراً أو غنياً، لا يصطدم بحاجات الإنسان الفطرية، ولا يحرمه منها.. بل على العكس جعلها صدقة وعبادة وحسنات.

ولكن هناك جماعة من الناس لم يعجبها هذا الهدي الرباني والسنة النبوية.. بل سلكت أحوال أهل الكتاب حذو النعل بالنعل، فاخترعوا "الرهبانية".. ولقد صرح بعضهم أنهم تعلموا الرهبانية من النصارى، وأُعجبوا بأحوالهم، وطريقتهم، ونظامهم.. فخاضوا معهم فيما خاضوا فيه! فاعتبروا الزواج – سنة الأنبياء وسنة الحياة – ركون إلى الدنيا..

واختلقوا أحاديث باطلة على لسان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وتناقض الكتاب، وتناقض السنة؛ لتؤيد طريقتهم! ولا عجب فالمبتدع لا بد وأن يختلق لنفسه من النصوص – أو الفهم – ما يتوافق مع بدعته.

وتنوعت مصادر الرهبانية المبتدعة – التي لم يكتبها الله على أحد – من الفلسفات اليونانية، والأفلاطونية الحديثة، والوثنيات الهندية والبوذية والفارسية.. ونُقلت بصورة حرفية أحوالهم وطقوسهم، وفلسفاتهم عن الحلول والاتحاد، وفناء الذات، والفيض الإلهي... إلخ.

وتنوعت النتائج كذلك: هناك من وقع في الإلحاد الصريح، واعتقاد الألوهية في ذاته أو في المخلوقات من حوله، وهناك من اعتزل الحياة، وعمل على تعطيلها، وكان لا بد من وقوع الانحراف، والانقلاب من حلقات الذكر إلى حلقات الطعام والرقص والمخدرات، والوقوع في الفواحش، والانحرافات الخلقية..

لا سيما عند طلب الأتباع، فالأتباع لا تصبر على طول الذكر والانقطاع، هي فقط تريد رمزاً تتحلّق حوله.. وتمارس شهوتها باسمه فقط، كأحد الحيل النفسية في اعتقاد العلاقة الخاصة مع الله – عن طريق الأولياء – ومن ثم ممارسة الفواحش بحرية على طريقة ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18] وطريقة ﴿إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28]!

الأمر الذي يقطع على الإنسان التوبة، فهو يمارس الفواحش ويظن أنه على عبادة، أو في حالة من المعرفة والخلاص ليست لغيره من البشر، ويُسقط عن نفسه التكاليف الشرعية! وهذا كله صور منحرفة تماماً عن منهج الإسلام، وطريق الإيمان، وسنة المصطفى عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

ولا عجب أن يتجاوز مثل هؤلاء الأنبياء، ويعتقدون أنهم أفضل منهم، فيقولون عن الأنبياء أنهم وقفوا على شاطئ المعرفة بينما الأولياء هم من خاضوا ومضوا فيه! ولا عجب كذلك من نسج خرافات وأساطير عن ذاك الذي ظل واقفاً على قدم واحدة أربعين سنة يعبد الله! أو الذي لم يأكل ويشرب لسنوات طويلة، أو الذي مشى على الماء... إلخ مما تطرب له الجماهير الغافلة!

ولقد كانت لمثل هذه الحركات المبتدعة آثارها السيئة على المجتمع والأمة المسلمة، منها:

- إفساد التصور الإسلامي السهل النقي، وابتاع سنن أهل الكتاب.
- خداع الجماهير المسلمة بهذه البدع الخطيرة.
- اعتقاد النفع والضر في الأولياء والأضرحة، وتوجيه بعضاً من صورة العبادة لله لهم.
- انتباه المحتل الأجنبي إلى خطورة هؤلاء على أي مجتمع، مما جعله يتعاون معهم لتعطيل الجهاد، وتخذيل الأمة عن مقاومة الظلم والطغيان، باسم "القضاء والقدر".
- السلبية والانعزال والانقطاع عن النهوض بالأمة، وحمل رسالة الله إلى العالمين.

وجدير بالذكر أن نقول إننا نتحدث عن حالات محددة من الانحراف في حال أولئك الذين اتبعوا "رهبانية النصارى" وقلّدوا الأفلاطونية الحديثة والهندية.. وخرجوا عن حدود التصور الإسلامي والسنة النبوية، فهناك حالات من "المدارس الصوفية" الصادقة والتي خرّجت مجاهدين في سبيل الله، تصدوا للتتار والصليبيين، وكانت لهم لمسات كريمة على الأمة المسلمة. وكان مبعث نشأتها هو: التحرر من طغيان متاع الحياة الدنيا بعد انفتاح الدنيا الحلوة الخضرة على الأمة. والتحرر من لوثة التعصب والتقاتل المذهبي. والتربية الروحية الجهادية التي خرّجت مثل جيل صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويقع الخلط كثيراً بين رهبانية النصارى التي مارستها بعض طوائف الأمة، وبين الزهد والتربية الروحية النقية الصادقة الجهادية التي خرّجتها بعضاً من المدارس الإسلامية في القرن السادس الهجري على سبيل المثال.

لقد كانت ملابسات نشأة الرهبانية في النصرانية والإسلام تكاد تكون متشابهة وهو "الطغيان والظلم" فجاءت الرهبانية والانعزال كرد فعل على هذا الطغيان.. وفي الإسلام لما وقع الظلم من السلاطين، ووقع اليأس من التغيير، كانت الحيل النفسية هي الهرب من المواجهة إلى الولي! وإلى

انتظار المعجزة الخارقة على يد الولي! وإلى نسج الأساطير والحكايات عن ذاك الولي! ثم تحول الولي إلى مزار وإلى احتفال بمولد الولي! وإلى دعائه وطلب رضاه!

ووجد المحتل – وجنده من الأنظمة التابعة له وتتكلم بألسنتنا – في ذلك صورة نموذجية لتخدير الأمة، وتعطيل طاقاتها، ووجدت المؤسسات الدينية الرسمية في ذلك مصدر دخل من الصدقات والنذور على أعتاب الولي، فأكلوا أموال الناس بالباطل، وصدوا عن سبيل الله.

وإننا حقاً بحاجة إلى صفاء الروح، وطهارة القلب، ونقاء الصدر.. بحاجة إلى التحرر من طغيان الحياة المادية، وإلى الزهد فيما فُتح علينا من كل شيء، بحاجة إلى الذكر الدائم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلى الوقوف عند حدود العبودية التامة الخالصة للخالق لا نتجاوزها إلى أوهام وخرافات، بحاجة إلى الجهاد الدائم لتحرير الأمة من الطغاة والطغيان، ورد فاعليتها وريادتها، وإقامة نهضتها، وحمل رسالة الله إليها.. بحاجة إلى التجرد والإخلاص، ومعالجة قسوة القلوب بطيب الأنس بالله جلّت عظمته، وتقدس ملكوته.

***

ثالث وثلاثون: الجهل والغباء

قال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة]

يضرب الله جَلَّجَلَالُهُ مثلاً – في هذه الآية الكريمة – عن القوم الذين "حُمّلوا التوراة" ولم يذكرهم – إهمالاً لهم – ليحضر المثل المضروب وحده في الذهن وهو "الحمار"!

ولقد كانت الآيات السابقة تناديهم بـ: أهل الكتاب، بني إسرائيل، الذين هادوا، أما هذه المرة – وهي المرة الوحيدة – التي يُذكر فيها قوله تعالى: "حُمّلوا التوراة" لتصور حالة من العبيد حُمّلت على ظهورها التوراة، كأنها بضاعة مثل أي بضاعة.. حُملوها قصراً ورغماً عنهم، ولكنهم لم يَحملوها!

"حُمّلوها ولم يَحملوها" وُضعت على ظهورهم، لكن لم تحملها قلوبهم، فهم قد ضلوا عنها.. حُمّلوها ولكن لم يفهموها، حُملوها ولكن لم يعملوا بها!

ويضرب الله لهم المثل بـ "الحمار" الذي يُحمل بالكتب والأسفار، يحملها الحمار، ولكن لا يدري ماذا يحمل، ولا قيمة ما يحمل، ولا فهم ما يحمل؟

وإنها لأسوأ صورة يكون عليها قوم.. صورة الخروج من الإنسانية إلى درك الحيوان، وسبب هذا الخروج – هذه المرة – هو حمل الأسفار والكتب كحمل الحمار بلا فهم ولا تدبر ولا عمل، بل مجرد صور وأشكال ومراسم وطقوس وألقاب!

بل جعل الله التنكب عن التدبر والفهم والعلم والعمل أحد صور التكذيب بآيات الله.

وقد ضرب الله جَلَّجَلَالُهُ مثلاً آخر في الذي ينسلخ من الآيات؛ ويتبع هواه، ويلهث وراء متاع الدنيا بعدما باع آيات الله بثمن قليل، سواء باعها من أجل الهوى، أو من أجل إرضاء الطغاة والظالمين، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ

مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف (175:178)].

فصورته الآيات وهو يخلع عن نفسه رداء الإيمان، ويتجرد من موجبات الهدى، ويتعرى عن لباس التقوى.. كالذي ينزع جلده عن جسده، وقد صار غرضاً للشيطان ليضله، ويهديه إلى عذاب السعير، بعدما كان الهدى والخير والفلاح في متناول يده، فهبط بانسلاخه من النور إلى الوحل والطين، وصار في سعيه في الحياة الدنيا وتكالبه عليها كمثل الكلب اللاهث، لا يرتوي أبدا، ولا يهنأ، ولا يطمئن، ولا يرضى، فهذا حال المكذبين بالآيات، وهو أسوأ مثل لقوم يكذبون بالآيات، ولأنفسهم يظلمون.

ويأتي تعقيب الآية: {والله لا يهدي القوم الظالمين} والذي يحمل كتاب الله ورسالته، كحمل الحمار.. هو لا شك ظالم لنفسه، وظالم لغيره عندما يُقدم لهم الكتاب بهذه الصورة التي تصد عن سبيل الله، وتُزهد الناس في دين الله، وتفتن الناس عن دين الله، وهذا الظالم لا يهديه الله، جزاء وفاقا على ظلمه. فالهداية للقلوب المتفتحة للهدى، المتلهفة للخير، المتطلعة لرضى الله جَلَّجَلَالُهُ، للعقول المتطلعة للفهم والتدبر والعمل.

تنغلق القلوب، وتُسد الأفهام، وتتغلّظ المشاعر، وتجهل العقول، وتموت الأرواح.. ويحضر الاستكثار بالأشكال والهيئات والمراسم؛ ليكون كتاب الله مجرد ألقاب وتلاوات، تُتلى بلا فهم ولا عمل. يحضر الجهل والغباء وانسداد الآفاق؛ فيتحول الدين إلى صورة شكلية لا تغري أحداً بالالتفات إليها، ولا يحترمها أحد عندما يتولها "حمار في صورة إنسان".

***

ولكن.. لماذا يقع الجهل والغباء على هذه الصورة؟

إن الأنظمة الاستبدادية وأنظمة الذل والقهر والطغيان.. أول شيء تعمل عليه هو استلاب العقول، وتدمير الوعي، حتى يسهل انقياد القطيع البشري كانقياد الحمار!

وعند الاستسلام للأوضاع القائمة، بلا مقاومة داخلية نفسية، وخارجية واقعية.. وعند الهروب من ضريبة المواجهة، مع طول الأمد، وقسوة القلوب.. يُفضل القطيع البشري الاستسلام للوضع القائم.

ولكي يرتاح الإنسان من وخز الضمير، وصرخة العقل.. عليه إماتة هذا العقل، والاستجابة الفاعلة لعملية "الاستلاب" وبعد أن تتم عملية الاستلاب والتجهيل، تأتي مرحلة زراعة الغباء في العقل، وسد كل منافذ المعرفة، بتقديم القطيع وفكره وطريقته على أنها "الأقوم طريقاً، والأهدى سبيلاً"!

ويتم توظيف الكتاب والرسالة.. بصورة ملتوية منحرفة لخدمة الجهل والغباء، والإبقاء على صورة الأحرف والكلمات، خالية من أي معنى أو فهم أو قيمة أو تدبر..

ومن ثم تربية العقول على طريقة حمل الأسفار كحمل الحمار.. مجرد كميات من المعلومات لا تنعكس صورتها على الإنسان، ولا سلوكها على الحياة، فيتساوى فيها الإنسان والحمار.

***

وفي الأمة المسلمة:

تحول قطاع كبير من أبناء الأمة إلى نفس صورة "الذين حُمّلوا التوراة" فهم قد "حُمّلوا القرآن" ولكن لم يحملوه تدبراً وفهماً وعلماً وعملاً.. بل صار مجرد آيات تُتلى للاستكثار والاستظهار بها! وتحول الدين إلى مراسم وطقوس وهيئات، حُمّلت القرآن لزوم الشكل، ولم تحمله خلقاً وعلماً وسلوكاً.

وصار أحوال هؤلاء - كأحوال أهل الكتاب - صورة تصد عن سبيل الله، وتُزهد الناس في دين الله.. لما يروه من التناقض والجهل وسوء السلوك، والانكباب على المظاهر والشكليات، فلا تشعر القلوب بشاشة إيمان، ولا صدق أقوال، ولا حسن أعمال.

صار هَم الكثير هو حمل أكبر قدر من الكتب والأسفار.. بلا تدبر ولا فهم، ولا علم ولا عمل، سوى التنطع والحصول على المسميات والألقاب، فلا ينشغل أحد بهَم هذه الأمة، ولا ينشغل بكيف يُخرجها مما هي فيه؟! وأنى لمن يحمل الأسفار كحمل الحمار أن يُصلح؟! بل هو فتنة عندما يراه الناس - في صورة إنسان - يحمل كم هائل من الكتب، فيتأتون إليه يسألونه ويستفتونه وهو لا يعقل شيئاً ولا يفهم.

وأهمل البعض العقل تماماً.. حتى صار تهمة يجب نفيها! بعدما عبدوا الرجال وقدّسوا كتبهم وأقوالهم، حتى ولو كانت تناقض بعضها بعضاً، وقدّموا صورة سيئة في الفهم والسلوك، وكثيراً ما يُحدثون إرباكاً شديداً كلما هَمت الأمة بالنظر في قضاياها المصيرية.

ومن جانب آخر: تم زراعة التجهيل واستلاب الوعي والغباء في هذه الأمة بصورة ممنهجة من خلال نظم التعليم والقنوات والأدوات الإعلامية؛ حتى أصبحنا مضرب المثل في قلة الفهم والعمل والإنتاج!

وتم تصميم المناهج التعليمية - عن عمد - على طريقة "تحميل الظهور بأكبر قدر من الكتب" دون فهم أو عمل أو ممارسة! ليتم إفساد وإنهاك العقل بطريقة الحفظ المستمر المرهق للذهن، ولا سبيل غيره!

وأتحدث عن نفسي: لقد حصلت في الثانوية العامة على الدرجات النهائية في مادة الفيزياء، ولم أكن أفهم حرفاً واحداً من أي نظرية أو قانون، ولم أكن أعرف فائدة أو معنى لما أدرسه، ولم يكن ذاك هو المطلوب.. المطلوب أن تحفظ فقط، وليس ثمة أي شيء آخر.

وقياساً على باقي الأمور نجد هذه الصورة المظلمة والخطيرة التي تُحمّل فيها العلوم كحمل الحمار؛ حتى تتحول الأمة وشبابها وطاقتها إلى مجرد حمير بشرية، ولكنها تحمل الألقاب والشهادات مما يزيدها فتنة وتيهاً، وانقياداً لأصحاب الأفهام والعقول ممن لا يريد بها خيراً!

الأمر الخطير الذي نكتشفه فيما بعد هو استحكام الغباء على العقل البشري، فلقد تعطلت وظيفته في "الفهم والتدبر"، ومن ثم عدم قدرته على الاستيعاب، وفشله في النظر في الأشياء، وفقدان قدرته على التحليل والفك والتركيب لما هو حوله، فضلاً عن قدرته على عملية الربط وفهم الترابط والعلاقة بين الأشياء..

لدرجة تصل إلى العجز عن فهم أبسط الأشياء، أو الفهم بطريقة معكوسة، وقِصر النفس في البحث والاستقصاء.. والعجز عن إدراك أبسط البديهيات! بل قد تصل إلى صورة محدودة من الجنون، فتجد من يقول إني اختلف معك تماماً ثم يردد نفس ما تقوله! أو تُكرر له الفكرة عشرات المرات، ثم يُحدثك عن شيء آخر، أو تضع له عنواناً لفكرة ما ثم لا يُفكر إلا في الهاجس الذي يسيطر على عقله ونفسيته.

الأمر الذي يؤدي إلى أحادية التفكير، والحدية الشديدة في النظر، والفشل في التحليل والقدرة على الوصول إلى هدف.. وكل ذلك من أخطر الأمور على أمة يتكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب مسلحين بأقوى عقول البشرية!

والناظر في كتاب الله، يجد الحشد الهائل من الآيات والقصص التي تتحدث عن العبرة والتذكرة والتدبر والتعقل؛ فنجد تذييل الآيات الكثيرة بقوله تعالى:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

وقد عاب القرآن الكريم على من ينكب على آيات الله وهو أعمى عن رؤية حقائق الآيات ودلالاتها، وأصم القلب عن شعورها وتدبرها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ [الفرقان: 73]

فالمتذكرون لآيات الله لا يتلونها في جهالة ولا في عمى ولا في صمم.. بل في علم، وفي تدبر، وفي نظر، وفي تعقل.. بل جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شر الدواب - من الإنس – الصم عن سماع الحق، البكم عن القول به، الذين لا يعقلون الآيات البيّنات: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 22، 23]

وإن الأمة بحاجة إلى آليات جديدة في النظر في قضاياها المصيرية، وطريقة علمية منهجية في طريقة قرأتها فضلاً عن تحليلها؛ والوصول إلى حل في النهاية.[1]

وبحاجة إلى ثورة منهجية علمية في نظم التعليم، التي تحارب العقل، وتُفسد الفهم، وتُخرّج حميراً تحمل أسفارا.

***

(1) راجع – إن شئت – بحث: آلية قراءة قضايا الأمة المصيرية .

رابع وثلاثون: الافتتان بالنساء

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ** " [صحيح مسلم/ 17: 55]

عبودية النفس المُستبَد بها للمادة، وخضوعها للطغيان، ونفورها من الحق، وأكلها للحرام، واتباعها للهوى، ولا تشغلها فكرة أعلى من الذات.. حتماً سيُنتج عبودية للجنس، فالشهوة الجنسية عميقة جداً في النفس الإنسانية.. وهي فطرة خلق الله الناس عليها؛ لتستمر الحياة في صورتها الصحيحة من زواج، وأسرة، ومجتمع نظيف.. لكن في حالة الاستبداد والنفوس الناشئة فيه، ومع كبت الطاقات، وترهل النفوس، وإضاعة الأوقات، تتحول الشهوة الجنسية إلى وحش.. ينهش في النفس الإنسانية، ويخرج بها عن مسارها الصحيح، ويحول حياة تلك النفوس إلى لحظة جنس مسعورة، ثم يكون تجارة، وعمل، ومنظمات، وأداة لتدمير الطاقات الإنسانية، وسحق الأخلاق النبيلة، وتبديد الأموال.. فعبودية "المال، والسلطة، والجنس".. متلازمة فيما بينها، وهذه المتلازمة هي التي استخدمها بني إسرائيل في علوهم الثاني في الأرض!

ولهذا فإن الاستبداد يُطلق سعار الجنس في كل مكان، ومشهد، وكلمة، وإيحاء.. ذلك أنه هو الذي سيُبدد الطاقات الإنسانية، ويُفني الأعمار، ويُضيع الأخلاق، فلا تستطيع تلك النفوس أن تستجيب لحق، أو أن تحمل رسالة، أو أن تقوم بواجب.

والدنيا حلوة خضرة.. زهرة حياتها النساء، بل هي خير متاعها إن كانت صالحة.. **"الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ"** [صحيح مسلم/ 1468] وحتى ينال الإنسان المتاع الصالح منها عليه بـ "التقوى" يتقي بوجهه فتنة الدنيا الحلوة فلا يطغى، ولا يستغنى، ولا يُعرض عن الهدى، ويتقي فتنة النساء فلا يخرج عن الصراط المستقيم..

فالتقوى هي المضي على الصراط المستقيم في توازن لا يختل، فيتقي الإنسان أن يميل جهة اليمين فيقع في العنت والمشقة والرهبنة، أو أن يميل جهة اليسار فيقع في الإباحية والحيوانية والبهيمية.

ويخبرنا الحديث الشريف عن افتتان بني إسرائيل بالنساء – بل هي أول فتنة لهم – ولا ندري على وجه التحديد توقيت معين أو حادثة مذكورة تشير لذلك بالضبط، إلا أن الحديث جاء على إطلاقه.. لعله ليُبين ظاهرة اجتماعية حلت فيها مظاهر الجاهلية بدلاً عن منارات الإيمان والهدى.. مثل: التبرج والإباحية والخلاعة والميوعة والتفلت من التعاليم والآداب والأخلاق.

وما يخصنا في هذا البحث ما له علاقة بالشخصية المُستبَد بها.. ويهمنا أن نفهم علاقة الافتتان بالنساء بهذه الحالة..

سبق الحديث عن مرض الرهبنة المبتدعة.. وموقفها من المرأة، وجعلها هي شر محض، بلا روح إنسانية.. أو تحمل روح شيطان! والزهد في الحلال والزواج، الأمر الذي أحدث آثار نفسية خطيرة، وهذا بالطبع فتنة من جانب الحرمان.

ومن جانب آخر: الانحلال والإباحية، وهو الجانب الشائع.. لأن الإنسان يحب أن يفجر أمامه، وينطلق يركض كالوحش خلف شهواته، لا يُوقفه شيء.. في حالة الشخصية المستبَد بها، واضطراب تكوينها النفسي والعاطفي.. وحرمانها من الكرامة الإنسانية، ومن المشاركة الفاعلة، لا يبقى لها إلا "الحرية الجنسية" وتكون بالفعل طاقتها الجنسية كبيرة نتيجة الكبت والقهر، والنظم المستبدة والطاغية تُهندس هذه الطاقة لتنصرف كلها في هذا الطريق الآثام.. بل وتتفنن في تلهية الجماهير التي تغرق في هذا المستنقع الآسن، فتخر عزيمتها، وتحلل أخلاقها، وتفسد فطرتها، فلا تقوم لها قائمة.. ولذا جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: **"مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى أُمَّتِي مِنَ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ"** [مسند أحمد / 21238] النساء الغير صالحات المنحلات.. يحللن عقدة المجتمع، ويفسدن بنيانه، بعدما يجدن مَن يبارك فعلهن مِن الرجال، ويشجعهن عليه.

هذا الانحلال وهذه الإباحية يتم هندستها بطريقة متينة قوية يقوم عليها المجتمع من خلال النظم الاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية والقانونية والتشريعات.. فيصبح التعري هو الأصل وهو الحرية والانفتاح، والاحتشام والستر هو التخلف والرجعية والانغلاق وضيق الأفق. ويتم خدمة هذا التصور من خلال جميع أدوات المجتمع، ووسائل السلطة، ومن خلال كافة وسائل الإعلام.

بدأت المسألة في الغرب الذي كان يعاني ظلم الكنيسة والإمبراطور معاً، وكان التصور السائد عن المرأة هو تصور الكنيسة المنحرف، ثم لما جاءت الثورات على الإقطاع والكنيسة – بفضل الاحتكاك بالمسلمين والانبهار بحضارتهم حينها – تحول الأمر إلى صورة معاكسة، لا سيما مع القدر العجيب أن صاحب هذه الثورات الاجتماعية قيام الثورة الصناعية، والانتقال إلى مرحلة جديدة في تاريخ البشرية جديدة كل الجد عن سابقتها.. وبدأت الدعوات بحرية المرأة التي كانت تتمثل في مساواتها في الأجور مع الرجل، وحرية التعليم – الأمر الذي كانت تتمتع به المرأة المسلمة حينها وما كفله الشرع لها من حقوق – ثم جاء من بعد ذلك – وبالتدرج – الإباحية، والمناداة بالتحرر من ربقة الرجل، حتى كانت حرية المرأة تعني حرية الكسب والمعاش والاستقلال عن الأب أو الزوج.. فاضطرب النظام الاجتماعي ونظام الأسرة والعائلة؛ ليتحول الإنسان بعد ذلك إلى مجرد آلة بشرية تعمل ليصب عرقها في يد حفنة حقيرة في صورة جديدة من الإقطاع، ولتستمع هذه الآلات خارج نطاق الأسرة والعائلة، فصار مبدأ الحضارة الغربية منذ الثورة الصناعية إلى الآن: "تعمل كـ (الآلة)، وتستمتع كـ (الحيوان)".. وكانت هذه هي الحرية والإنسانية والإخاء!!

وانطلق السعار الجنسي المحموم في صورة بيوت الأزياء، وجنون الموضة، والتفنن في كيفية غواية الرجل، وأصبح لذلك الجنون مؤسسات عالمية تدر مليارات الدولارات، هذا غير العري في الأدب، وفي الثقافة، وفي الإعلام والفضائيات.. وفي كل شيء يحيط بالإنسان، حتى يكون مكبلاً من كل جانب.

ثم مع الاحتلال العسكري لبلادنا بعد سقوط الدولة العثمانية.. انتقلت هذه اللوثة تباعاً وبالتدريج، حتى صرنا ننافس الغرب في الانحطاط والسفالة والعري! بل وصار الإنتاج السينمائي لدنيا أكثر وقاحة وسفالة من نظيره الغربي!! فصارنا على طريقهم حذو النعل بالنعل، ودخلنا خلفهم في كل جحر نجس!

وكان لليهود قصب السبق في إفساد البشرية، وصاروا أصحاب الريادة العالمية في تجارة الدعارة والجنس، بل صار إفساد الأخلاق أحد أهم أهدافهم للسيطرة على البشرية. بل حتى الأنبياء لم يسلموا من شر يهود، فنجد كذبهم على أنبيائهم ووصمهم لهم بالوقوع في الفحشاء والعياذ بالله!

***

وفي الأمة المسلمة:

يحسدنا الغرب – حتى الآن – على منظومة الأسرة، والتماسك الأسري، ويحاول أن يفسدها علينا، كما فسدت عنده من خلال دعوات "استقلال المرأة" و"الشذوذ" "وتدمير المكون الأسري- رجل وامرأة"؛ ليحل الشذوذ والانحراف مكانه، والحمد لله الأمة المسلمة مازالت مستمسكة بقيم الأسرة، وبمسؤولية تربية الأبناء، وتنشأتهم التنشأة الصحيحة الفطرية – ونسأل الله أن يحفظ عليها هذه النعمة – إلا أن المنظومة الثقافية والفنية والفكرية تحاول من قديم – تحت زعم الحريات – إفساد المجتمع، وإفساد المرأة على وجه الخصوص، والبداية كانت مع "التعري" "والإباحية العلمانية الملحدة"..

إن هناك يداً "تنزع" بقوة وعنف وإصرار حجاب الستر عن الإنسان، وتريد له أن يتعرى، ليس كما يزعمون أنها "حرية شخصية"، بل هو هدف شيطاني منذ لحظة المواجهة مع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ!

إن الشيطان يريد أن ينزع "لباس التقوى" الذي يستر الروح، و"لباس الجسد" الذي يستر العورة؛ ليترك الإنسان عارياً من كل شيء..

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف :26، 27]

وإن هذا العري الذي يجتاح البشرية، لتقف يد الشيطان خلفه، وليست هي العلمانية، وليست هي الحرية الشخصية.. بل هي اليد المباشرة للشيطان، التي تقف بالإنسان في هذه الصورة الحيوانية.. أو أضل.

وإن في ذلك عبودية للشيطان، فالشيطان لن يتمثل في صورة شخص أو تمثال ليعبده الناس، ولكنه "يُوحي" للناس و"يُزين" لهم أفعال السوء، حتى يكشف المرء عن عورته المغلظة، ولا يجد في ذلك حرجاً!

ولذا جاء التحذير القرآني المباشر من "عبادة الشيطان" والأمر بـ "عبادة الله" وحده لا شريك له، ولقد يتعجب المرء من سماع الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60] فكيف يُصدق الإنسان عدوه فضلاً عن عبادته؟! ولكن المتأمل في واقعنا هذا يجد جموع البشرية تسير خلف الشيطان وتتبعه، بل ولقد أذل الشيطان قوماً حتى ادعوا عبادته بشكل صريح مباشر، وسموا أنفسهم "عبدة الشيطان"!

والعداوة مع الشيطان عداوة أبدية، حذرنا منها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في غير موضع من القرآن الكريم، وأمرنا الله أن نتخذه عدواً، كما يعادينا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6] وكما يقعد لنا على صراط الله المستقيم.. يصرفنا عنه: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[الأعراف: 16، 17]

وإن دفع البشرية للتعري والإصرار على ذلك، وتجميل وتزين هذه الصورة، هو أقصر صور الهلاك للحياة الإنسانية، والأسرية، ومنها يُفسد الشيطان حياة الإنسان.

أما عن آثار التعري – من الناحية النفسية – فالدعوة إلى التعري يعمل على هدم العلاقة العاطفية والإنسانية مع الزوجة، هذا في حالة الزواج، ويؤدي إلى الإعراض عن الزواج والزهد فيه في حالة العزوبية..

ففي حالة الزواج، عندما يشاهد الرجل المرأة، وهي تسير في الشارع، وعلى قارعة الطريق، وعلى الشواطئ، وفي كل مكان بهذا التعري، سيزهد في زوجته، وسينفر منها عندما يتلذذ بأجساد الأخريات وهي تتمايل أمامه.. ومبذولة له بالمجان.

وفي حالة العزوبية، لن يجد الرجل في نفسه حاجة للزواج والاستقرار، وتحمل مسؤولية وتكاليف ذلك، وهو يجد اللحم المكشوف معروض له باختلاف أشكاله وألوانه، لا يستره شيء، ولا يمنعه منه شيء!

ومن هذا العري، تبدأ الروابط العاطفية والجسدية بين الرجل والمرأة – في علاقة الزواج – في التلاشي والتهتك شيئاً فشيئاً!، والتعري لابد وأن يفضي إلى الإباحية، والفوضى الجنسية.. بل وإلى الشذوذ كذلك!

ومع التعود على التعري، تقل المروءة والغيرة والرجولة، ويفقد الرجل قوامته النفسية، والعاطفية، والمادية، على أهله وزوجته عندما يترك هذا الداء – أو العبودية للشيطان – يستشري في أهله.

ومن هذا التعري تنشأ "الإباحية الجنسية" بطريقة سلِسلة، ولا يوجد معارض لها من النفس، أو المجتمع، أو القيم، أو الأخلاق..

فيهتك التعري حجاب الروح، والجسد، والأسرة، والمجتمع، ويشيع فيه الانحلال، والفساد، والإفساد، ثم يُوحي الشيطان إلى أوليائه.. أن من ينادي بالعفة، والحجاب، والاحتشام، هم

أصحاب "العقول المغلقة" و"الرجعية" و"المتخلفة"، وأن المُتعرين هم أهل الحرية، والتقدم، والعقول المنفتحة!

ويصحب التعري.. الزنا المستمر الذي لا يتوقف، ولا يشبع، ومن هنا نجد لماذا شدد الإسلام في عقوبة الزنا؛ ذلك أن الزنا ومقدماته من التعري والإباحية تهدم بنيان الأسرة.. فحرّم الإسلام الزنا، ومقدماته، وخطوات الشيطان إلى ذلك الطريق.

ولقد بلغت عناية الإسلام بحجاب الروح وهو "لباس التقوى" والوجل، والخوف، والخشية، والحب لله جَلَّجَلَالُهُ واتباع رضوانه وصراطه، وحجاب الجسد للمرأة؛ لحفظ الطاقات العاطفية والجسدية نحو الزوجة، الأمر الذي يحفظ تماسك الأسرة من التفسخ، فلا مصرف، ولا زينة، ولا متعة، للرجل سوى في زوجته، ولا مصرف، ولا متعة للزوجة سوى في زوجها؛ فيزداد التماسك العاطفي والنفسي والروحي والجسدي في كيان الأسرة.. أعظم كيان يحرص الإسلام على تماسكه، وقوته، ويدافع عنه – من خلال التشريعات والآداب الإسلامية – بكل قوة.

ونرى في الجانب المقابل الشيطان – ومن يعبده – وهو يحاول أن يهدم هذا الكيان "الأسرة" بكل وسيلة، وأن يجعل من نزع الستر عن الإنسان هدفاً في حد ذاته، ليلهث وراءه جموع البشرية، والشيطان يقودهم عرايا إلى الهلاك.. والعياذ بالله.

ولا يملك الشيطان شيئاً سوى "تزيين" الباطل للنفس، ولا عجب إذ تكررت جملة "زين لهم الشيطان أعمالهم" في مواضع كثيرة في القرآن الكريم؛ حتى تحذر الناس من كيد الشيطان، ومن إفساده لموازين البشر، وتصوراتهم، وقيمهم، كي يزين لهم الباطل، والفساد، والظلم.

وفي مقابل مكر الشيطان وعبثه بعقل الإنسان وتزين الباطل له، يأتي تحبيب الله جَلَّجَلَالُهُ الإيمان للمؤمنين حقا.. وهذا الحب للإيمان ورؤية زينته وحلاوته في القلوب؛ يحفظ القيم والموازين في قلب المسلم، ويُكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وهذا هو سبيل الرشاد، وهذا محض فضل الله

سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7]

ولذا نجد أن المسألة في الإسلام شرع له جذور عميقة، ليست بالهينة.. وليست كما يظن بعض السفهاء أنها "حرية شخصية"، من شاءت أن تلبس الحجاب فلتلبس، ومن شاءت أن تتعرى فلتتعرى.. كلا.. بل إن الإسلام يحارب كل مظاهر العري، والإباحية بكل قوة، ولا يُبقي إلا صورة واحدة من الحجاب والاحتشام، ولا يقبل أن تنزع يد الشيطان ستر الناس في دولته أو مجتمعه..

لأن المسألة ليست مجرد "قطعة من القماش" بل هو "منهج حياة" وعبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.. ليست قطعة من القماش، بل استقرار أسرة، وحياة مجتمع، وبناء أجيال.. ورحمة نفسية وروحية وعاطفية بالإنسان رجلاً وامرأة.

ولعل هناك من يقول: إن الغرب – أكثر الناس عرياً – أكثر الناس إنتاجاً، ومتعاً في هذه الحياة؟

وكثيراً ما تخدع هذه الصورة للغرب كثير من الناس! إن الناس في الغرب تعمل كما الآلة، لا هَم لها سوى زيادة الإنتاج ليصب كد البشرية كله في حفنة حقيرة قليلة من أباطرة المال وأصحاب النفوذ، ويتركون للناس الفتات، لتفريغ طاقاتهم في نهاية الأسبوع بين اللحوم العارية المجانية، والمُستأجرة..

وليس صحيحاً أن الإنسان في الغرب يملك القدرة المالية لامتلاك بيت، لبناء أسرة، بل يعيش وحيداً – في الغالب – المرأة مكتفية بنفسها، والرجل مكتفياً بنفسه، ولهذا نجد أن مسألة الحصول على بيت يعيش فيه الإنسان هو وأسرته ليستقر – في الصورة الفطرية الطبيعية – تكاد تكون مستحيلة عند الغالبية.. أن يحصل عليه الإنسان بكده وعمله الشخصي – ما لم يكن غنياً من الأصل، أو ورث مالاً، أو له وضع استثنائي – ويأخذنا الحديث هنا إلى مسألة الربا الذي يجتاح العالم، والذي أذن الله جَلَّجَلَالُهُ فيه بـ "الحرب" على من يتعامل به، والعالم الآن غارق فيه حتى أذنيه! ذلك الربا والفساد الذي جعل (10 ٪) من البشر يملكون (90 ٪) من ثروات الأرض كلها!

ويأخذنا الحديث أيضاً عن الخمور والمسكرات التي تحطم مناعة الإنسان النفسية، وتقتل روحه، لينسى، وليتوهم سعادة غير موجودة، أو ليتخلص من ضغوط لن تنتهي، وتحريم الإسلام لكل ذلك من أجل ضبط حركة الإنسان في الحياة، وللرحمة به.

ونجد – في النهاية – أن الإسلام وحدة كلية شاملة متكاملة يشد بعضها بعضاً.. فهو يُحرم العري، والزنا، والربا، والخمر والمسكرات...إلخ من التشريعات الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ ليسعد الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونرى كذلك سفه من يُصور المسألة على أنها مجرد "قطعة من القماش" المرأة حرة في ارتدائها أو خلعها..

ومناقشة القضية بصورة جزئية مختزلة – في صورة من زعم الحريات – هو من أضر الأشياء على رسالة الإسلام، ومفهومه الشامل والكامل والمتوازن للحياة.

ولذا يقف الإسلام في حالة من العداء الكامل والتام مع الإباحية العلمانية الملحدة – والعداء مع الشيطان – ويجعل معركته الأولى والأصلية ضد من يحاول تعبيد الناس للشيطان، ومن يقعد للناس في صراط الله المستقيم.

ويعمل على تحرير البشرية من حبائل الشيطان، ومن عبادته – أقرت بذلك أو لم تقر – وأن يوجهها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإلى صراطه المستقيم، وإنقاذ الناس من الانقياد وراء الشيطان الذي كل ما يملكه من وسائل هو: "الوساوس" و"التزيين"؛ فيُخيل للناس العري حرية وتطورا، واللحظة الآنية هي كل المتاع، والآخرة أمل بعيد قد يكون أو لا يكون، ويضخم في حس الناس المتعة اللحظية، ولو انكشف حجاب الغيب لأدرك الإنسان أنه يعيش في ثوان معدودة، تجعل من كل حياته ساعة من نهار.. ولا بد أن يدرك الإنسان ذلك قبل فوات الأوان، وقبل أن يَعض أنامله من الغيظ على ما ضيّع، وحينها سيقول الشيطان.. كما جاء في القرآن الكريم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴾[الحشر: 16، 17]

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران (8)].

"اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ" [مسند أحمد/ 15066].

***

خامس وثلاثون: الشح والبخل

قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**" [صحيح مسلم/2581]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "**إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا** " [سنن أبي داود/ 1698]

عندما تُذكر جملة "من كان قبلكم" فيكون المقصود الأعم بها هم: "اليهود والنصارى" كما جاء في الحديث الشريف: "لتتبعن سنن من قبلكم" والظاهر من مقصود الهلاك هو الكفر والجحود.. فهو المؤدي – وإن طال الزمان – إلى خسران الدنيا والآخرة، ولقد كان وقت قول هذا الحديث الشريف حضارة الرومان ملء الدنيا، ومع هذا كان في ذلك "هلكتهم" فالإيمان هو طريق النجاة، وإن ضاع.. ضاع بعده كل شيء.

والحديث الشريف أعلاه يكشف عن صفتين: "الشح والبخل" وقد ناقشنا من قبل – بفضل الله – قول يهود لعنهم الله {يد الله مغلولة} في مرض "التطاول على الله جَلَّجَلَالُهُ" والآن سنناقش مرض الشح والبخل.

من خلال استقراء الآيات الكريمات التي ورد فيها ذكر الشح والبخل.. تبين لي أن الفرق بينهما دقيق، فالشح: دلالة معنوية على ضيق النفس، وانغلاق الصدر.. الشح عن السماحة، وعن الصفح،

وعن المودة، وعن بذل الخير، والمعروف. فكأن النفس جافة قاحلة قاسية صلدة مدببة خاوية كالصحراء الجرداء والأرض البوار، وهي حالة أعم من البخل.

أما البخل: فغالباً ما يتعلق بالأمور المالية والإنفاق.. أي دلالة مادية عن الإمساك عن الإنفاق.

ولقد وقع ليهود كلا الأمرين "الشح والبخل" فكان أحد أسباب هلكتهم فقد حملهم على "سفك دمائهم، واستحلال محارمهم" وقد سبق البيان في آيات أخرى عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة (85)]. فوقع القتل فيما بينهم، وأخرجوا إخوانهم من ديارهم، وظاهروا واستعانوا بأعدائهم على أنفسهم.

والقرآن الكريم عندما يذكر "أنفسهم" "دماءهم" في معرض الحديث عن أمة، فإنه يقصد الآخر من إخوانهم، ويستخدم لفظ "أنفسهم" للدلالة على أن الأمة بنيان واحد، وجسد واحد، وأخوة واحدة.. فمن يسفك دماء الأمة، ويستحل محارمها، فإنما هو يسفك دمه، ومحارمه!

والبنيان السوي لأمة من المؤمنين لا يمكن أن يقوم على الشح، ولا على الانعزالية، ولا على الفردية، ولا على ضيق الصدور، فهذه نفوس وضيعة صغيرة لا تقوى على حمل رسالة، ولا أن تكون لبنة صالحة في أمة.. ولما كان يهود أشح الناس وأبخلهم تفسخت علاقاتهم الاجتماعية، وانعزال كل منهم في عالمه الخاص، وحملهم الشح على الظلم والاعتداء والبغي والعدوان.. وهذه خطورة الشح في حال وقوعه في أمة من الناس.

وعند وقوع الشح، واستفحاله في النفس وعدم القدرة على إرواء النفس بماء الإيمان، وبذور المحبة، وجميل الكرم.. فإنه يؤدي – كما جاء في الحديث الشريف – إلى أن يأمر النفس بـ: "البخل" و"القطيعة" و"الفجور" وكأن الشح أصبح هو الآمر الناهي الذي له سلطان على النفس، وهو قائدها؛ فأدى ذلك إلى هلاك النفس.. فقد بخلت بالمال، وبخلت بالشعور والعاطفة؛ فكانت

القطيعة عن الأرحام، وعن الإخوان.. ثم بعد البخل بالمال والمشاعر، كان الفجور.. وهو البغي على النفس، والآخرين، والتطاول والتمادي والتبجح بالباطل، والاستعلان به.

أما البخل: سواء بالإمساك عن الإنفاق في سبيل الله، كالصدقة والتقرب إلى الله قربة ومحبة، ورحمة بالمؤمنين، وبالناس.. أو الإمساك عن أداء الفريضة المقررة في هذا المال كما فرضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو يُفسد المجتمع، ويورثه الضغائن والأحقاد والغل والحسد، ويجعل هَم الناس إما الاستكثار من الأموال، وكنزها.. أو انتقاص دين الناس وكرامتهم من أجل الحصول على الفتات؛ وهو أمر يؤدي من جانب آخر إلى شيوع الربا – مهنة يهود من قديم – ومع شيوع الربا، تشيع مظاهر الفساد في كل شيء.. في الأخلاق والنفوس، وفي العلاقات والمعاملات.

***

ولكن.. لماذا وكيف تقع النفس في هذا الشح؟

يمكن تقسيم الشح إلى قسمين: شح فطري، وشح مرضي.

الشح الفطري: وقد سبق الإشارة إليه أثناء الحديث عن "رغبة التملك" وهو أمر متعلق بـ "التصاق الإنسان بذاته"، وحرصه عليها، ومحبته لنفسه، وهو أمر لا مشكلة فيه – بإذن الله – طالما اتقى الإنسان "طغيان" هذا الشح، وكبح جماحه أن يظلم أو يفسق أو يبخل، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن (16)]. والإنسان بالتربية الإيمانية والروحية، يخرج شيئاً فشيئا من ضيق الذات.. إلى سعة وشيجة الإيمان، وجنة المحبة لله وأولياءه؛ فيتخفف من القعود في سجن الذات، ولقد رأينا النماذج الإيمانية الرائعة في قلوب الأنصار من أهل المدنية.. الأمر الذي تفضل القرآن الكريم بوصفه لهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر (9)]. وهو مرتقى شريف، ومكانة عظيمة.. لا يرتقيها الإنسان إلا بالإيمان.

وأما الشح المرضي: وهو موضوعنا هنا.. وفيه يستفحل الشح ليقضي على بذور الخير الكامنة في القلوب، ويتركها مظلمة خاوية، وحيدة، تضن بالخير ولو بالكلمة.. وهو الأمر الذي يدفع فيما بعد – كما جاء في الحديثين الشريفين – إلى: القتل، واستحلال المحارم، والبخل، والقطيعة، والفجور.

والنفس الواقعة تحت القهر والاستبداد والذل المستمر.. عندما تنهار مقاومتها النفسية لذلك، فإن الشعور بالكرامة الداخلية، والشعور بالآخرين في الخارج يكاد يكون منعدماً.

فكرامة الإنسان.. تُسحق تحت وطأة الاستبداد، وتحوله إلى فرد في قطيع، وتلغي شخصيته وتفرده، وتدمر طاقاته.

وأما الشعور بالآخر: فهو يتلاشى تدريجياً بصورة مطردة، فكلما تلاشى الإنسان من داخله وأظلم، يتلاشى بالطبع شعوره بالآخرين.. وبآلامهم، وآمالهم، وحاجاتهم.

فينكفأ الإنسان، وينكب على ذاته، ليكون سجيناً لها، ومن هنا يكون الشح، فهو تمحور حول الذات – وربما عبادة لها! – تدفعه إلى تقديم القرابين فقط لذاته.. فيعتبر نفسه هو كل شيء، فلا يرى غير نفسه، ولا يعتبر لشيء غير نفسه..

ومثل هؤلاء يتخذهم الطغاة جنداً؛ ليقهروا الناس، ويرهبوهم، ويعذبوهم، دون شعور من وخز الضمير – بعدما طمست عقولهم وقلوبهم – وبعدما مات شعورهم بأنفسهم وبإخوانهم!

وبالتالي لن نجد الصورة الإنسانية السوية التي فيها سعة الصدور، واحتواء الآخرين، والحنو عليهم، وتقديرهم، والاهتمام بهم.. وكل ذلك لا ينبع إلا من الشعور بالكرامة، وبفيض الكرم في النفس الإنسانية، وشعورها بدورها ومسؤوليتها، وضرورة ترك بصمة طيبة لها في الحياة.. تنفع الناس.

ويمكن اعتبار أن الشح آفة خبيثة تحوّل جنة القلوب إلى بوار وخراب لا تُخرج إلا نكدا، وإن الإيمان والكرم هما ماء الحياة لجنة القلوب لتحولها إلى حديقة غناء مثمرة دوماً.. لا تُخرج إلا طيباً.

وهذا الفرق من أوضح الفروق بين الشخصية المُستبد بها، والشخصية الكريمة المتحررة من ربقة الاستبداد.

***

وفي الأمة المسلمة:

وقعت فيما وقع فيه من كان قبلها، فأصابها الشح والبخل.. كأحد مظاهر أمراض الاستبداد، وجاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا**" [سنن النسائي الصغري/ 3110]

وفي هذا الحديث دلالة عجيبة، فالحديث يُبين عدم اجتماع الشح والإيمان في قلب مسلم "أبداً" ويجعل مقابل الشح هو الإيمان.. كأن الشح هو الكفر، الكفر والإنكار وجفاف القلوب وموت الإيمان.. وكأن الإيمان: هو الفيض والكرم بالنفس، والجود بالحب، وبالخير، وبالمال، وبالعطاء.

وحقاً إن القلب المؤمن هو قلب كريم.. وليس أي كرم، إنه القلب الذي يفرح عندما يُعطي أكثر مما يفرح عندما يأخذ، والمؤمن يشعر لذة العطاء، ويجد فرحها في قلبه، ذلك أنه عندما يُعطي فإنه يأخذ في المقابل سعة في الصدر، وفيض في النفس، وكرامة في الشعور، لا تقدر بثمن، ولا تساوي مقدار ما أعطاه لغيره، فالشح ضيق وظلام وسجن، والإيمان سعة وأنوار وحرية؛ فحقاً هما ضدان لا يجتمعان أبداً.

ولا عجب أن يكون الشح من السبع الموبقات، فعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**"، **قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هِيَ؟ قَالَ: " الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالشُّحُّ**،..."[1] وذلك لما يفسده الشح في القلوب، وما يدمره من الشعور والعاطفة؛ فتجعل الإنسان يطغى ويفجر؛ ولا يجد طريقاً يعود فيه إلى الإيمان.. فذلك من الموبقات المُهلكة المُضلة.

(1) [سنن النسائي الصغرى/ 3671] إسناده متصل، رجاله ثقات | تَفرّد النسائي بلفظ "الشح" في هذا الحديث، وغيره يقول الشرك بالله و"السحر".

والشح يجعل الإنسان متكبراً مغروراً مختلاً فخوراً بذاته.. يبخل، ويأمر الناس أن تبخل مثله! ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾[الحديد:23-24]

ونجد من صفات المنافقين الشح بالخير المعنوي، والبخل بالمال المادي، فقال تعالى عنهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: 19]. أشحة على الخير.. وهو مجرد الكلمة الطيبة الصادقة التي تواسي القلوب، وتداوي الجراح، وتهدهد النفوس، ولكن أنى لقلب منافق أن يفعل ذلك؟ وقد رأينا في آيات سابقة أن القرآن يجمع بين اليهود والمنافقين إذا جاءت مناسبة لذلك.

وأما البخل المادي، قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّـهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّـهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[التوبة].

ومن أحد الأسباب في فسوق المجتمعات - التي لا يُرجها منها صلاح - هو الشح؛ لأنه يعزل أفراد المجتمع بعضهم عن بعض، ويتنكر بعضهم لبعض، ويعيش كل منهم لهمه، وذاته فقط.. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لا يَدَانِ لَكَ بِهِ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ**" [السنن الكبرى للبيهقي/ (10: 90)] فهذا الشح المُطاع يُبين أيضاً ما جاء في الحديث أعلاه أن الشح يصبح هو الآمر الناهي.. يأمر بالقتل، واستحلال المحارم، والبخل، والقطيعة، والفجور.. يَأمر.. فيُطاع، وتنقاد النفس لدواعيه، وعندما ينتشر الشح بهذه الصورة في مجتمع مع هوى متبع، ودنيا مُؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فإن صلاح هذا المجتمع لن يكون من خلال "العامة" منهم كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "دع عنك أمر العوام" إنما يأتي بالميلاد الجديد، وبالبناء من جديد، وبالتربية الصحيحة الصادقة الرسالية، وبالجهاد لإعادة بناء المجتمع على أسس الإيمان لا الشح،

والعبودية لله لا للهوى، والامتثال للشرع الحنيف، وتجميع الأمة على هويتها الرسالية، لا على الدنيا الفانية.

وقد جعلهما الله طريقان:

طريق العطاء والتقوى والتصديق بالحسنى، وطريق البخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى.. فإذا اختار الإنسان طريق العطاء والتقوى.. فسيهديه الله لليسرى، وللخير، والسعادة والنجاة، وإن اختار البخل والاستغناء.. فسيكون مصيره – بما قدّمت يداه – هو العسرى، والشر، والتعاسة، والخسران.. ولن يُغني عنه ما بخل به، والله غني عن العالمين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل].

***

سادس وثلاثون: اتخاذ القبور مساجد

جاء عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: **"أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ"** [مصنف ابن أبي شيبة/ 7620، صحيح مسلم/ 534]

جاءت عقيدة التوحيد – وهو الدين الذي جاء به كل رسول – لتُحرر الإنسان من الوهم والخرافة، ومن التشتت والعبودية لغير الله، ولتلملم تفرق النفس؛ ولتجمع طاقة الإنسان في اتجاه واحد نحو خالقه.. ولتفك أسره من أوهام الخوف، والرجاء من دون الله أو مع الله..

جاءت هذه العقيدة لتحارب أي مظاهر للشرك بالله سواء أكانت مادية أو معنوية.. أو حتى مجرد خاطرة تختلج في قلب مضطرب، فصار جناب التوحيد مقاماً طاهراً مقدساً نقياً لا يمسه شائبة، فكان الإنسان المُوحد هو الإنسان الحر الكريم.. فهو متحرر من أوهام الآلهة المزعومة والشركاء، وكريم فهو في أعظم مقامات العبودية الخالصة لله.. ومن لم يُخلص العبودية لله، فحتماً سيقع في الشرك، لأن القلب مفطور على العبودية، فإذ لم تكن لله، فحتماً ستكون لغيره من المخلوقات، وما أذل أن يعبد الإنسان غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر.

تأتي الرسل لتدعو الإنسان إلى خالقه، وتفتح له آفاق السمو الإيماني، والروحي، والأخلاقي.. ثم تنتهي مهمة الرسل، وتترك تعاليمها للناس لتسير عليها.. يحدث أن يطول الأمد، وتقسو القلوب، ويتوحش الظلم والفساد، ويتوقف الناس عن مقاومته – تحت أي ذريعة – هنا يفقد المجتمع فاعليته، وينحسر وجود الأمة، وتبدأ في التمحور حول بعض الأشخاص والأفراد الصالحين فيها، هذا التمحور حول هذه الأشخاص يتخذ صور منحرفة، فالأنبياء والصالحين لا يكونوا عندهم موطن "قدوة وعمل".. بل موطن "هرب وتكاسل"، وهذا ما حدث للذين من قبلنا من اليهود والنصارى.. لما مات أنبيائهم وصالحيهم اتخذوا قبورهم مساجد أي معابد، الأمر الذي كان – فيما

بعد – ذريعة للشرك أكبره وأصغره، حتى صارت قبورهم مساجد بمعنى السجود والصلاة لها! وصار اعتقاد النفع والضر فيها مع الله! إضافة إلى عبادة صور وتماثيل الصالحين!

***

ولكن.. ما الذي يدفع النفس إلى اتخاذ القبور مساجد، وما علاقة هذا الأمر بالاستبداد؟

النفس المقهورة والمُستبد بها، يخالجها دوماً الشعور بـ "المظلومية" – حتى وإن كانت هي نفسها ظالمة! – هذا الشعور لا بد من صرف طاقته.. وعندما تفقد الشعور بالحرية والكرامة الإنسانية، يتكون لديها الولع بـ "التجسيد"، وتفقد النفس – لضيقها وانحسارها – قدرتها على التوحيد الخالص، ويتكون لديها الرغبة بـ "شعور" شيء مجسد، ظاهر، فتميل إلى الوثنية، واتخاذ "القبور" كمحطة لالتقاء الهاربين والمحرومين، ويتكون لديهم الشعور بـ "المودة".. وإذا ذُكر الله "وحده" اشمأزت قلوبهم، وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون!

الذي من دونه هم الأولياء والقديسين والصالحين.. تجسيد النفس لقبورهم، واتخاذها مسجداً.. يعوض ويكافئ شعور النفس المقهورة والمعذبة، وتجد عند أعتابهم ما لا تجده في الصلاة الخالصة لله! وهذا شيء خطير بالفعل على عقيدة التوحيد، فلا بد للنفس أن تكون خالصة الشعور لله، ولا تُشرك مع الله أحدا لا في الشعور والحب، ولا في الطاعة والعبادة، ولا في الخوف والرجاء، ولا في النفع والضر.. وهذا معنى التوحيد الخالص..

والذي يتطلب النفس الحرة الكريمة المتحررة من القهر ومن الاستبداد.. لأن الاستبداد يضغط النفس، ويكبح شعورها، ويقتحم عليها صفاء ونقاء التوحيد؛ ليجعلها تخاف من بطش المستبد، ومن ظلمه، وطغيانه.. فلا تجد مهرب ولا مكان، ولا تقوى على المواجهة فتهرب إلى أعتاب الصالحين!

وهذا ما يقود أيضاً إلى انتظار الخوارق والمعجزات وما يُسمى "كرامات الأولياء"، وانتظار "معجزة تنزل من السماء" وهذا ما يؤدي إلى اعتقاد "النفع" في غير الله من جانب، كما كان اعتقاد

"الضر" في المستبد في الجانب المقابل، وانتظار مثل هذه الخوارق أو البطل المُلهم الذي سيغير الواقع بطريقة سحرية غامضة الأسباب، بدون تكاليف من العبيد.. هو ما يجعل فترة الاستبداد والذل والعبودية تطول، وهو ما يجعل الطغاة يجدون في أعتاب الأولياء والقديسين محطة تفريغ لـ "المؤمنين!" من عبيدهم؛ فيهتمون برعايتها والحفاظ عليها.

***

وفي الأمة المسلمة:

جاء النهي عن اتخاذ القبور مساجد، أي بناء المساجد على قبور الصالحين، أو جعلها مواضع للسجود.. وذلك لرد أي ذريعة للشرك، فأي شيء - ولو مُحتمل - يمس جناب التوحيد.. جاء الإسلام يحذر منه، وينهى عنه.

فجاء التحذير مِن اتباع مَن كان قبلنا في اتخاذ القبور مساجد، حتى لا نقع فيما وقعوا فيه.. ولكن لما مضت الأمة على سنن أهل الكتاب.. وقعنا في المحظور، واتخذنا من قبور الصالحين والأولياء مساجد وموالد وأعتاب ومزارات.

وكانت تعاليم الإسلام واضحة في هذا الجانب.. أن تكون المساجد مكاناً للصلاة والعبادة، ومحل اجتماع الأمة وسياسة أمرها.. ففيها تتصل بالملكوت الأعلى، وفيها تجتمع على الإسلام لتخطط وتجاهد كيف تقيم الحق والعدل؟ وكيف تحمل رسالة الله إلى العالمين؟ ولهذا كان معنى فضل صلاة الجماعة..

وأما الصالحين والأولياء من الأموات فلا مكان لهم في المسجد، إنما مكانهم في المقابر.. وهم محل احترام، ومواطن قدوة وعمل وجهاد، وليس موطن هرب وتكاسل وخمول.. وإن وُجدت قبورهم في المساجد – لسبب ما – فليس معنى ذلك الطواف حولها، أو الاستعانة بها، بل توجه القلب لله وحده، ولقبلة بيت الله الحرام..

وليس هناك من إشكالية في زيارة قبور الصالحين، والدعاء لهم، وتذكر سيرتهم العطرة، والاتعاظ بالموت، وشعور الأمة الواحدة التي تُسلم فيها الراية لمن بعدها، فمثل ذلك مما يُنشط النفس، ويقطع عنها طغيان شعور الحياة الدنيا.

وإذا كان هناك من قبور تم بناؤها في حرم المسجد، فمن الأفضل فصلها عنه ولو بجدار أو حائط أو ستائر، وقد حدث "التكاثر" والتباهي والمبالغة في بناء القبور وزينتها، ولقد نهى الإسلام عن ذلك – وعن كل مظاهر الإسراف – حتى لا تكون أول منازل الآخرة، ومحطة الوعظ في الدنيا.. هي محل للتفاخر والمباهاة، مما يقطع على رهبة الموت معناها، ويجعل الناس تتفاخر حتى في المقابر، ولهذا جاءت تعاليم الإسلام بتسوية القبور والتواضع في بنائها، وجعلها مرتفعة عن الأرض قليلاً.. ليُعلم صاحبها، دون بهرجة أو زينة، فقد صار الإنسان تراباً، ولم يبق له إلا ما سعى.

هذا التصور السهل البسيط، وهذه التعاليم الواضحة المباشرة، وقع الانحراف عنها، وأحدثت إشكاليات كبرى في تاريخ الأمة المسلمة!

الإشكالية الأولى: وهي موضوعنا هنا.. وجود ذريعة للشرك أو التعلق بغير الله، وصرف صوراً من صور العبادة الخالصة لله.. لغيره من الأموات! وهذا شيء وقع تدريجياً مع مرور الوقت، وانتشار الجهل، فوقع التوجه بالدعاء والاستعانة والاستغاثة بغير الله من الأموات، وربما وقع الاعتقاد في نفعها وضرها مع الله، إضافة إلى السخافات والتجاوزات التي تحصل في الاحتفال بموالد الصالحين، وتجميع النذور...إلخ!

الإشكالية الثانية: الصراع المرير الذي وقع بين ما يُسمى بالصوفية الأشعرية والسلفية الحنبلية حول هذا الأمر، حتى وصلت الاتهامات إلى حد التكفير والتبديع والتفسيق.

الإشكالية الثالثة: استحلال دماء وأموال من يتخذون القبور مساجد، بحجة أنهم "مشركون" كافرون – أو كما يسمونهم "قبوريون" – الأمر الذي زاد من تعميق أزمات الأمة؛ حتى صار هذا

الأمر هاجساً خطيرا لدى البعض.. فأصبحوا يظنون أنه بمجرد "تسوية" قباب القبور - وتفجيرها! - ستتحرر الأمة، وتُقام الشريعة!

الإشكالية الرابعة: انصراف الأمة عن مواجهة قضاياها المصيرية السياسية، وتسلط المحتل الغازي عليها، وتسلط الطواغيت والطغاة والفسدة والظالمة عليها، وانصرفت طاقتها إما في تجويز اتخاذ القبور مساجد، أو في تكفير وقتال من يفعل ذلك!

وحتى لا نخرج عن طريقة البحث المقررة لهذا الكتاب، وحتى لا يتضخم المقال بنقل الأراء الفقهية حول هذا الأمر، أو التتبع التاريخي له - فهو أمر معقد ومتشعب - أقول اختصاراً:

- إن الإسلام جاء ليحافظ على جناب التوحيد طاهراً مقدساً نقياً من أي "ذريعة للشرك" فضلاً عن الشرك ذاته، وأجد تعاليمه شديدة الحساسية لهذا الأمر، فهو أراد للإنسان أن يكون "خالصاً" لله.. ودينه "كله" لله.

- بعدما وقع الاستبداد والظلم، وتعلق الناس بالصالحين، والأولياء، والأبطال - والهرب من الظالمين إلى سيرة الصالحين العطرة - بدأ شيئاً فشيئاً أن يتحول الأمر إلى "احتفالية" ورقص، ولغو، وعبث، وهذه أمور منهي عنها.

- ثم اشتد الأمر أكثر فأكثر حتى صار هناك من يستغيث بها، ويدعوها، ويعتقد النفع والضر فيها، وهذا يؤدي إلى الوقوع في الشرك.

- ثم جاء الولع بمنهج "الإدانة والحكم" بدلاً عن منهج "التحليل والتشخيص والعلاج" فصار في منهج الإدانة أن يرمي كل فريق الآخر بالتبديع والتفسيق والتكفير.

- هناك من كبار الفقهاء - كالذهبي وابن حجر والشوكاني وغيرهم - ممن قال بجواز "التبرك" بزيارة قبور الصالحين، و"التوسل" بهم - إلى الله - حال حياتهم وبعد مماتهم..

ولسنا هنا في محل نقل أو تحقيق هذه الأقوال، ولكن نقول ذلك إعذاراً لمن يذهب للتبرك أو التوسل كما تفعل ملايين من الأمة الآن!

- بالتتبع الفقهي لهذه المسألة، وجدت من يتساهل فيها، ومن يُجيزها بضوابط، ومن يحذر تحذيراً شديداً من التجاوزات التي تحصل فيها، والاجتهاد لسد ذريعة الشرك، ولكنني لم أجد أحداً منهم يلقي أحكام الردة بالجملة؛ ويستحل دماء وأموال مَن يقترف مثل هذه التجاوزات عند قبور الصالحين أو جعلوا ديارهم ديار كفر وردة! بل عذروا المُقلد، وتحدثوا عن ضرورة البيان، ورفع الجهل، وسد الذرائع، وتنبيه أولي الأمر بصرف الناس عن ذلك.

- ثم حصل أن وقع الغلو في مواجهة هذا الأمر، والغلو في التكفير، والغلو في استحلال الدماء والأموال، واعتبار ديار المسلمين ديار كفر وردة، ورمي الناس بالشرك.. الأمر الذي حذر منه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "**أَخْوَفُ مَا أَتَخَوَّفُ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، خَرَجَ عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**" [التاريخ الكبير للبخاري/ 5801، صحيح ابن حبان/ 81] لا سيما إذا صاحب هذا الغلو.. "عوامل سياسية برجماتية" كانت تتخذ من هذا الأمر وسيلة للاستيلاء على الحكم، والقتال على المال والملك؛ والاستبداد به، وتوريثه!

وإذا أقررنا بالمرض، فإننا لا نقر أبداً بقتل المريض، فضلاً عن استحلال ماله، وأهله، ورمي المسلمين بالجملة بالكفر والردة، بل والدخول في "التسلسل" في التكفير، وتكفير من لم يُكفر المشركين بزعمهم!

وإنني أرى في الإسلام منهجاً فريداً في المواجهة والعلاج.. إنه يأخذ الناس بالرفق واللين والدعوة والإصلاح والهداية من جانب، ومن جانب آخر يواجه بقوة وحسم الظلم والفساد والاستبداد والطغيان، ولا ينشغل كثيراً بأعراض الأمراض الناجمة، بقدر ما يهتم بمعالجة الأمر من جذوره، فمتى تم القضاء على المرض ومُسبباته، ذهبت أعراضه تلقائياً.

ومثل هذا المنهج يعصمنا من مكر أعدائنا.. عندما يجدون في رمي عموم المسلمين بالشرك واستحلال دمائهم وأموالهم، أو يجدون المسلمين عاكفين على أعتاب الأولياء يبكون أو يتراقصون! فيتخذون من هؤلاء وهؤلاء مطية لقهر الأمة، وإذلالها، وتفريقها، وفتنتها، وتحطيم كافة مقوماتها.

***

سابع وثلاثون: الحسد والبغضاء

عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: **"دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، أَوْ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ مَا يُثَبِّتُ ذَلِكُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ"** [جامع الترمذي/ 2510]

الحسد والبغضاء مرض يتسلل إلى القلوب فيفسدها، ويحلق الدين.. والتعبير الجمالي في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ "دب" و"الحالقة" تصوير كأن هناك وحش يزحف في هدوء لينقض على القلوب، وينهش فيها، فكأنه يحلق الدين من جذوره ويأكل فيه بالجملة بلا حساب، وهكذا فعلت البغضاء!

عند يهود: لما اختلفوا بعدما جاءهم العلم، وفشي البغي بينهم، وافترقوا في دين الله.. دب الحسد والبغضاء فيما بينهم.. الحسد: وهو الشعور الشرير بعدم استحقاق الآخر نعم الله، وتمني زوالها والحقد والحنق على ما فضّل الله به بعضهم على بعض، والبغضاء وهي الحالقة التي تأكل القلوب، وتعمي العقول، وتذهب بالألباب، فتدفع الإنسان إلى البغي والظلم والاعتداء والإفساد، إرواءً لوحش البغضاء الذي لا يسكن. وكما جاء في الأثر: **"إِنَّ الْحَسَدَ يُطْفِئُ نُورَ الْحَسَنَاتِ، وَالْبَغْيُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ"** [مسند أبي يعلى / 3694]

ولما مَنّ الله عليهم بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، دبت البغضاء عليه، وعلى ما جاء به، وحنقوا على أتباعه وحوارييه.. رغم أنه جاء مصدقاً لما معهم، وجاء منهم، وجاء مخففاً عنهم، وجاء يحمل جرعة روحية ندية، تعالج القلوب القاسية الصلدة.. ولكنهم حسدوه وبغضوه، وهموا بقتله، ووشوا بأتباعه لدى الوثنيين الرومان.

ولو طهرت قلوبهم من هذا "الحسد والبغضاء" لكن لهم نجاة.. ولكنهم استجابوا للحسد؛ فهلكوا.

ثم جاء من بعدهم النصارى، ووقع الاختلاف بينهم أيضاً بعدما جاءهم العلم.. بغياً وحسداً، وباع فريق منهم آيات الله بثمن قليل، ففشى بينهم الحقد والحسد والبغضاء، وأعلنوا الحرب فيما بينهم بعدما كفّر كل فريق منهم الآخر، حتى كادت الحرب أن تُفنيهم!

ولما مَنّ الله على البشرية كلها بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ، دب الحسد والبغضاء في قلوب اليهود والنصارى عليه وعلى دعوته وأتباعه فحاربوها جميعاً - إلا قليلاً - رغم أنه جاء مصدقاً لما معهم، وتحقيقاً لبشارة عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وجاء لإنقاذهم من عذاب الاختلاف والتحارب والتفرق في الدين.. ولكنهم حسدوا، واستنكروا أن يأتي في غير نسلهم أو قبيلتهم، كأن الدين والحق بالنسب!

***

ولكن.. ما علاقة الحسد والبغضاء بالاستبداد؟

الحقيقة الحسد والبغضاء قد ينشأ دون وجود بيئة استبداد، فهو "يدب" في القلوب في أي ظروف.. عندما يكون الإنسان أسيراً لنفسه! إلا أن بيئة الاستبداد تُعتبر "حاضنة" مغذية ودافعة له.

ذلك أن الاستبداد ينشأ على قاعدة تكوين "القطيع البشري" وسجنه بقيود القهر والذلة، وسياط الجلاد، والاستبداد كذلك يُؤدي إلى التفاوت الكبير في المال بين أفراد المجتمع نتيجة الظلم والفساد، وهذه بيئة تُنشأ بالطبع "الحسد" من جانب، و"البغضاء" من جانب آخر.. والحسد قد يكون مجرد شعور قلبي، يغلي في القلوب، ولكن البغضاء مرحلة أشد، فهي تُخرج الحسد عن نطاق الشعور إلى نطاق الفعل والأذى والتظالم.

ونتيجة اختزال الشخصية الإنسانية داخل بيئة الاستبداد يكون شعورها وعواطفها جد محدودة وضيقة، فتضيق على نفسها، فضلاً عن الآخرين، فيكون دبيب الحسد والبغضاء إليها من أسرع

وأسهل ما يكون؛ ولذلك فهو قد ينشأ حتى في حالات الغنى لا الفقر المادي، لكن فقر المشاعر عموماً، وجفاف العاطفة الطيبة هو معلم عام في بيئة الاستبداد.

وتنشأ في بيئة الاستبداد حالة عجيبة من "الرضى المُغلف بالبغضاء"! حيث يتكون نتيجة القهر حالة من "الرضى القهري" لا "الرضى القلبي" نتيجة عنف ووحشية المستبد، الذي يجعل القطيع البشري مقهوراً على الرضى، ومع طول فترة الاستبداد قد تحاول النفس المقهورة اختلاق شعور الرضى للتكيف مع هذا القهر، لا سيما إذا صاحب هذا القهر.. التخدير بالشعور الديني، والجزاء الأخروي، كحيلة المستبدين والطغاة لتركيع الشعوب، وسلب ثرواتها وحقوقها.

***

وفي الأمة المسلمة:

دب إليها الحسد والبغضاء كما دب إلى من قبلها – تماماً كما أخبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ – وهو أمر مُهلك للأمة، وحالق لدين المسلم.. فوقع الاختلاف في الدين بغياً وعدواً، وتفرقت الأمة شيعاً وأحزاباً – كل حزب بما لديهم فرحون – ووقعت البغضاء فيما بينهم؛ حتى أشعلت الحروب، واشتد البأس بينها.. منذ بدايات الملك العضوض، حتى يومنا هذا، ولا تنهض الأمة إلا عندما تصفو قلوب أبناءها، وتتطهر من هذا الداء المُهلك "الحسد والبغضاء" وما أن تُشفى، حتى تعود أقوى مما كانت، وتنتصر في كل ميدان في وقت قياسي عجيب بالنسبة لحركة التاريخ، ثم ما أن تغتر بالنصر، وتفتتن بالملك، وتفرح بالمال.. حتى يدب إليها المرض مرة ثانية، فتعود للتقاتل فيما بينها!

والحق والعدل، والقيام لله.. والشهادة بالقسط، والقيام بالقسط، والشهادة لله، هو البيئة المُحصِنة ضد أمراض "الحسد والبغضاء والغل"، وهي التي تمنع – بإذن الله – الاختلاف في الدين، والتفرق فيه، والتحزب والعصبية الجاهلية التي تجعل الأمة الواحدة تتقاتل فيما بينها.

ونتوقف قليلاً عند دلالة هذا الحديث الشريف، وأثره على القلوب، وعلاقته بمرض الكِبر:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]

وقَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**... " [جامع الترمذي/ 2510]

الغل، والحسد، والبغضاء، والحقد.. هي أمراض تفتك بـ "مستقبلات الإيمان" في القلب، وتطفأ نوره، وتفسد وظيفته! فالقلب وكأنه وعاء لها جدران شفافة.. هكذا يكون على الفطرة، هذه الجدران الشفافة هي "مستقبلات الإيمان" وعندما يقذف الله في قلب عبده من نوره.. يضيء القلب، ويشرق.. فهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله: "**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**" [صحيح البخاري/51] وتظل هذه "المضغة" مظلمة.. حتى يأتيها نور الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40]

يزداد هذا القلب ضياء ونوراً.. مع كل طاعة، ومع كل نجاح في الابتلاءات، فيعود القلب أبيضاً سليماً نقياً، تعمل فيه "مستقبلات الإيمان" بكفاءة عالية، ويتسع وعاء القلب، وينمو، حتى يحتوي الوجود من حوله.. ويلمس بديع صنع الله في كل خلقه، ويدرك آثار رحمته وحكمته في الكون، وينهض بأعباء الخلافة الراشدة على الأرض..

ولكن يصيب هذا القلب "أمراض" خطيرة منها: الحسد والبغضاء والغل.. فتُعطل "مستقبلات الإيمان" في القلب، وتتكاثف حول جدران القلب "الظلمة"، ويضيق وعاء القلب أكثر وأكثر.. حتى يغشاه الظلام: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14] ثم ينغلق القلب فلا يعود إلا كتلة صماء مظلمة: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87] فيصبح القلب أسوداً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، ولا تنفع فيه موعظة، ولا يُخيفه وعيد! قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا**

تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" [صحيح مسلم/211]

فلا يستطيع القلب أن يستقبل "نور الله"، ويعجز عن التوبة "ويتشرب" المعصية والكفر.. حتى يجف القلب، ويضيق.. ويتحجر! ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74] فيعجز عن الاستجابة، ويستكبر عن سماع الحق، ورؤية دلائل الإيمان.. فيكون هذا هو "العمى": ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46] ويعجز عن الإيمان: ﴿وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: 97]

والحسد والبغضاء والغل.. هو بداية المرض، وعلى قدر درجته وشدته تكون الظلمة، فالبداية "الانحراف" عن صراط الله المستقيم قليلاً.. ونهاية المرض "الكفر" - والعياذ بالله - لذا فهو أمر جد خطير فيه نجاة الإنسان أو هلكته؛ لذا فكان الحسد والبغض وتوابعه "الحالقة التي تحلق الدين"! وليس مجرد خطأ أو بعض أذى يصيب أخلاق الإنسان أو سلوكه.

***

تنشأ أمراض القلوب هذه من "الكبر" الذي هو ذنب إبليس الأول.. وهذا هو "المرض" الذي يحاول أن ينقله إبليس لبني الإنسان، بعد حادثة السجود.. التي استحق بعدها اللعن والطرد والعذاب!

ومن هنا كانت البداية..

إبليس "استكبر" عن الاستجابة لأمر الله.. في المقام العلوي!! ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75] وقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12] فجاءه الجواب: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13] وكان عقاب "الكبر" من جنس العمل؛ فكان "الصغار".. وأصبح إبليس هذا هو "المخلوق" الوحيد العدو لبني آدم، بينما كل غيره من المخلوقات مسخر للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ

لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13] ونشأت عداوة أبدية بين إبليس والإنسان.. ظن فيها إبليس أن الإنسان هو سبب لعنته وطرده من رحمة الله، فإبليس استكبر في أمرين: (1) عدم طاعة الله في أمر السجود لآدم. (2) عدم الاعتراف بأن الإنسان هو مجرد من أظهر حقيقة نفسه المُستكبرة، وأن الخلل فيه هو، لا في الإنسان الذي كان "موضع السجود" أو الابتلاء.

ولم يلتفت إبليس لخطئه ولا لجريمته، بل ظل في هذا الاستكبار مصراً عليه، لم يعترف بذنبه، ولا بخطئه، بل تبجح به.. بل ألقى باللوم والمسؤولية على الله جَلَّجَلَالُهُ واعتبر أنه – سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! – هو الذي أغواه!: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16] فلم يعتذر إبليس ولم يطلب الرحمة، بل طلب الإمهال ليوم الدين لينتقم من بني آدم! الذي ظن إبليس أنه سبب لعنته، بينما سبب اللعنة هو ما بنفس إبليس من استكبار وعصيان لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ وكان سينكشف ما بنفس إبليس سواء في حالة رفض السجود لآدم أو غيرها! فاستحق لعنات الله جَلَّجَلَالُهُ ولعنات المؤمنين إلى يوم الدين، ثم هو في النهاية في الجحيم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: 79] فكان اللعين يُخطط لإغواء كل بني آدم حتى يوم الدين!

ولحكمته الله جَلَّجَلَالُهُ في ابتلاء الإنسان، ترك هذا العدو الإبليسي.. ليَمتحن به الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الإنسان: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: 80، 81] هل سيستمع إلى نداء الله، ويعبد الله خالقه، ورازقه.. أم سيستجيب لعدوه الأزلي الشيطان، ويستجيب لإغوائه ويعبده؟! بعد أن أدرك الشيطان مداخل الإنسان، وهي "هواه": ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60، 61] فكل عابد لغير الله، هو في النهاية وفي الحقيقة يعبد الشيطان..

فالشيطان يملك الآن أمرين: (1) أن ينقل مرض الكبر للإنسان. (2) أن يسحبه إلى طريق الغواية والهلاك بـ "حبل الهوى".. وبالكبر والهوى أضل الشيطان جموع غفيرة من البشر التي نكثت عهدها

مع الله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: 123، 126]

وبالاستكبار عن سماع الحق، وباتباع الإنسان ما تهواه نفسه.. وبتزين كل ذلك من خلال إبليس؛ ينشأ الحقد، والحسد، والبغضاء.. تجاه الحق وأهله.. وتفسد "مستقبلات الإيمان"، وتطبع على القلب؛ فيعمى عن رؤية الصراط المستقيم، ويأخذه الشيطان في الضلال البعيد: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ [النساء: 60]

ولذا، بمجرد التواضع للحق، والتخلص من الهوى.. يصبح كيد الشيطان ضعيفا: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء: 76]

ولذا حذر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ من الكبر: "**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ**" [المستدرك على الصحيحين/5742]

وعنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ، قَالَ: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ "، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**" [صحيح مسلم/134]

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83]

ومن "الكبر والهوى" كانت بداية كل الذنوب.. وكافة أسباب هلكة الإنسان:

وفي قصة ابني آدم:

ها هو القرآن يحكي قصتهما: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّه مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]

قربا ابني آدم قرباناً لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فتُقبل من أحدهما، ولم يُتقبل من الآخر.

فهل عزم الآخر (الذي لم يُتقبل منه) على:

- مراجعة نيته وسريرته نحو ربه؟
- مراجعة القربان أيكون فيه نقص أو عيب؟
- تصحيح نيته وعمله وأن يتحرى الإخلاص والصواب؟
- تنقية قلبه من كل حقد أو حسد أو غل يمنع قبول العمل؟
- معالجة أمراض نفسه، والبحث بكل دقة وصبر عن العيب؟

كلا.. لم يعزم على شيء من ذلك، بل عزم على "الانتقام" ممن أظهر عيوب نفسه، عزم على إلغاء وجود ذاك الذي أظهر نفسه وهو ناقصة معيبة، بينما هي ترى في نفسها الكمال والعصمة، وربما الشعور بالألوهية! فلما رُفض قربانها غضبت وانفعلت وتولد "الحقد والبغض والغل" بدلاً عن "الخشوع والتقوى والإنابة"! وراحت تمضي في "سُنة إبليس": الانتقام ممن أظهر عيوبها ونقصها؛ فقال لأخيه: لأقتلنك!

وأخيه حريص عليه ويخشى عليه من الهلاك، فأوضح له طريق القبول بجملة قصيرة هي منهج حياة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّه مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]

ولكن النفس المجروحة المتكبرة العنيدة، التي تُصر على الذنب، وتُصر على تمجيد ذاتها، وتطهير ساحتها.. وهي الملوثة بأقبح الذنوب وهو "الكبر" لم تستمع إلى النصيحة، وكيف تستقبل المعرفة وهي هكذا منتفشة بالباطل؟!

لقد كان الطريق لها مفتوحاً للعمل في مجال "التقوى" وتصحيح الخطأ والتفتيش في النفس، هل أصاب العمل شيء في الإخلاص أو في الصواب؟ كان يكفي المحاولة الثانية أو الثالثة أو الرابعة.. محاولة مستمرة حتى يتقبل الله العمل، والإصرار على تقديم قربان آخر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولحظة أن يرى الله صدق القلوب وطاهرتها، وحرصها على مرضاة الله، واتباع رضوانه؛ يتقبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العمل.. بل ويضاعفه أضعافاً مضاعفة؛ فهو: الجواد الكريم الشكور الحليم الرحيم الودود الغفور الرحيم.

ولكن.. لم تر النفس طريق التقوى، وثقل عليها أن تراجع نفسها.. وسَهُل عليها قتل أخيها!!

***

وفي قصة ولد نوح:

ينادي النبي الكريم، والأب الحنون ابنه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: 42]

ويمد النبي الكريم.. الأب الحنون يديه إلى ابنه وهو يغرق، فيأبى الابن! ويبحث عن جبل! يعصمه من الماء! هكذا تصور الابن! ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: 43]

تصور أن الذي سيعصمه جبل.. وأن الذي يحيط به ماء.. هذه هي موازينه الشعورية، موازين باطلة، لم تعرف من العاصم، ولم تدرك ما الماء؟!

أما القيم النفسية، فكان الكبر والعناد في أعلاها.. ولم يشفع لها مشهد الهلاك الحاصل، ورجاء النبي الواصل..

إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك هذا المشهد، إلا عندما يتذكر مشهد الكبر الأول الذي أهلك إبليس.. الكبر في مقام العبودية! والعناد أمام قوة الحق!

غرق الابن بجسده، وقبلها غرقت نفسه.. عندما تعطلت أجهزة الاستقبال والتوجيه فيها.. فلم تستقبل أي شيء مهما كان ضخماً أو يحمل ومضات قوية، لم تدرك الهلاك.. وهو يحيط بها من كل جانب، ولم تعرف طريق النجاة.. والأيدي ممدودة إليها! لم تكن لتدرك، ولا تدرك ما هو أكبر من ذلك!

إنها تتعطل.. عندما يشعر الإنسان داخل نفسه أنه إله، عندما تتمدد نفسه عن حجمها الطبيعي، فتأخذ مسارات مهلكة، لا يستطيع السيطرة عليها.. تتعطل عندما يعبد الإنسان هواه، وعندما يأتيها الحق وهي هكذا، تنفر منه.. تكفر به.. تنكره، وهي تصرخ في داخلها بأنه الحق!

وحين "تظن" عجزها عن تحقيق تكاليف ومقتضيات الحق؛ تُفضل أن تظل على الباطل، ولا تشعر بالعجز.. فتتكبر عن الحق، لأنه يقول لها: إنها باطل؛ فتعلن عنادها وحربها.. هذه هي رحلة النفس المصابة بالكبر مع الحق.. إنه مشهد متكرر في تاريخ الحياة البشرية.. وحاضرها.. ومستقبلها.

***

وبالتفتيش في أسباب "هلاك الإنسان" في قصة ابني آدم، وولد نوح.. وغيرهما من قصص الهلاك.. نجد أن "الحقد والحسد والبغضاء" كان هو الصورة الحقيقية الخفية؛ ومن وراء ذلك "الاستكبار" و"اتباع الهوى" و"رد الحق.. واحتقار أهله"؛ ومن وراء ذلك "تزيين الشيطان" للإنسان، بأن نفس الإنسان هي الأفضل، وهي الأعلى.. كما قالها بالضبط إبليس: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12] وتزينه كذلك سوء عمله ورؤيته فعلاً حسناً: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ [فاطر: 8] ﴿وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43] والعاقبة معروفة، فإبليس استحق اللعن، والعذاب.. والإنسان إن استجاب لعدوه هذا أصابه نفس مصيره! ما لم يرجع ويتوب.. و...

"يُفشي السلام": سلام النفس، وطهرها، وبراءتها من البغضاء والغل والحقد والحسد.. تجاه الآخرين، وإفشاء السلام في محيط الأسرة، وروابط الرحم والقربى، وإفشاء السلام في محيط المجتمع.. وتطهيره من كل مُسببات البغضاء والحقد والغل في النظم الاقتصادية، والاجتماعية،

والتربوية، والثقافية، والفكرية، والسياسية...إلخ، وإفشاء السلام في العالم.. بتحطيم قوى الباطل والطغيان التي تعبد الشيطان؛ وتضل الناس على سعادة الدنيا والآخرة؛ فهكذا ينشأ الحب، وتغشى الرحمة البشرية، ويعود للإنسان الطمأنينة والرضى.. فـ "أفشوا السلام بينكم".

***

خاتمة

إنَّ كل هذه الأمراض التي أصابت الأمة المسلمة لا تعني الموت، ولا تعني النهاية، فهذه الأمة لن تموت، وهي باقية إلى قيام الساعة بإذن الله، وكتاب الله لها محفوظ؛ ليهديها إلى سبيل الرشاد متى عقدت العزم على "الرغبة في العلاج"، بعد اكتشاف الأمراض..

إنَّ الأمة المسلمة كغيرها من الأمم تسير في "دورة الحياة الحضارية" من ميلاد ثم جهاد ثم قوة وانتشار ثم افتتان بالملك والحياة ثم يدب الوهن والشيخوخة الحضارية فيها، ثم تمرض، وتنتهي دورة حياة هذا الجيل؛ لتستعد للميلاد الجديد، ولتُحقق سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الكون والحياة.

ودورة "الحياة السياسية الإسلامية" نستلهمها من قول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "...**أَلا إِنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ**..." [المعجم الكبير للطبراني / 172].

فبدأت الحياة الإسلامية بآيات الكتاب ونورها الذي أخرج الأمة من الظلمات إلى النور، وعليه كان ميلادها، وتكوينها، وهويتها، وتاريخها، وحضارتها.. ثم وبعد الاعتصام بهذا الكتاب، تَكونَ له (سلطان – قوة) تحميه، وتدافع عنه، وتُرهب به عدوها؛ فكان (الحق الذي في الكتاب، والقوة التي في السلطان) السياج الواقي للأمة من الضلال، ومن المهانة والتبعية..

وتحت ضربات سيوف الملك العضوض.. افترق الحق الذي في الكتاب عن القوة التي في السلطان، وظلا يتقاربان حيناً ويتباعدان حيناً آخر.. فبقي الكتاب في قلوب الأمة، وبقي السلطان في يد الملوك!

ثم تحت ضربات الأعداء التاريخيين للأمة افترق الحق الذي في الكتاب، وضاعت أيضاً القوة التي في السلطان؛ فأصبحت الأمة بلا نور يهديها، وبلا قوة تحميها؛ فانهارت وتقسمت وصارت تبعاً لكل عدو، بانهيار الدولة العثمانية.. كآخر مظهر للوحدة السياسية للمسلمين.

وفي محاولات العودة وفي جهود الحركات الإسلامية.. التي نشأت كرد فعل على تفتت الأمة، وتمزقها.. بدأت الأمة تعود إلى الكتاب، وتستلهم نوره، وإن تعثر ميلادها الجديد بفعل "أمراض الاستبداد" إلا أنها مازالت تحاول، ولا بد للميلاد من مخاض..

وفي طريق حماية "الكتاب" بـ"القوة" سلك البعض اتجاهين متضادين:

الأول: يتحلل من كل مظاهر القوة، ويجعل من ذلك منهجاً لحياته؛ فيجد نفسه في النهاية يستجدي الأقوياء ويسترحمهم ويخضع لهم.

والثاني: يرى ضرورة القوة، وبديهيتها في حماية الكتاب.. لكنه أخذ العهد والميثاق على نفسه أن يرمي الأمة بالكفر والشرك والردة قبل أي عمل؛ فأفسدوا وضلوا.

والصواب – فيما أرى – الدوران مع الكتاب بإخلاص وبتجرد، وبحماية الكتاب بالقوة والسلطان.. دون التحلل من مظاهر القوة.. واستِعذاب الاستضعاف، ودون الغرق في بدع التكفير، ورمي الأمة بالشرك، أو دون التخلي عن المشروعات السياسية التي تترجم القوة إلى مشروع حضاري وسياسي ينتشل الأمة من الوهن والتبعية..

وعندما يتحد الكتاب والسلطان الحق ستعود الخلافة الراشدة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في قيادة وحماية أمته، وهو أمر منا جد قريب.. لكنه لن يأتي.. حتى نُغير ما بأنفسنا.

***

وإنَّ استعراض هذا الكتاب لهذه الأمراض ليس الغرض منه الشعور باليأس وقلة الحيلة وانقطاع الرجاء في الإصلاح، كلا.. بل هو من أجل "الميلاد الجديد" للأمة المسلمة، والنهضة الفكرية والحضارية والثقافية والروحية لها، فهي أكثر الأمم تأهلاً لقيادة الحياة البشرية - رغم ما أصابها من أمراض - ذلك لأنها تحمل رسالة الله إلى البشرية، وذلك لأن كتاب الله لها محفوظ بفضل الله وكرمه.

إن الأمراض الروحية والفكرية والنفسية والحضارية، مثلها مثل الأمراض الجسدية التي تصيب أي إنسان.. وفي المرض الجسدي يكتشف الإنسان المرض بالشعور بالألم والخلل؛ فيذهب إلى الأطباء الذين يحاولون استكشاف حالته، ويحللون أسباب المرض، وعلاقته بغيره، وتاريخه، ويفتشون في وسائل العلاج، ثم يجربون ويراقبون ويلاحظون؛ حتى يصلوا إلى العلاج المناسب..

وهكذا الحال في الأمراض الروحية والحضارية، يمكن لأي أمة أن تُشفى منها بإذن الله، طالما سارت في طريق سنن العلاج، واتخاذ الأسباب الصحيحة له.. وتجنبت "الدجاجلة" القاعدون على الصراط المستقيم يصرفون الناس عنه!

وإذا الأمة المسلمة كرّمها الله بالخيرية، وشرّفها بالكتاب، ورفع ذكرها بخير الرسل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فإن ذلك لا يعني أنه لا يجري عليها المرض، والوهن، والضعف.. فسنة الله جارية على جميع خلقه بلا محاباة، ومن سار في طريق الوهن والضعف أدركه ولو كانت أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومن سار في طريق القوة والعلم أصابه وإن كان من أعداء الله.. وذلك من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحكمته.

***

ومن الأسباب التي أدت إلى فساد "الفكر السياسي الإسلامي" لدى قطاعات كبيرة من الأمة المسلمة:

(1) الرضى بالظلم والبغي والعدوان، وتبديل سنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ في جانب سياسة "الحكم والمال"، ونقض أول عرى الإسلام، وجعل "الفئات الباغية" – الداعية إلى النار بظلمها – قد "رضي الله عنها"! وجعل تبديل "سنة" النبي الكريم، هي "السنة"! فكان هذا أول شرخ في الفكر السياسي لدى بعض المسلمين، وأول انقلاب في موازين الحق والعدل.

(2) جعل حديثي: "وإن ضرب ظهرك"، "إلا أن تروا كفراً بواحاً" هما قوام النظام السياسي الإسلامي، وفهم الحديثين فهماً منحرفاً باطلاً بدعياً.. وصل إلى تحريف الكلم عن مواضعه؛ والإساءة إلى التصور السياسي الإسلامي الذي حسبه البعض – وحاشاه – أنه يُؤصل للخنوع والذلة، ويبارك القهر، ويؤيد الاستعباد! وانتظروا محاولة البدء في إصلاح النظام السياسي، وإقامة الحق والعدل، حتى يخرج الحُكام ليقولوا للأمة لقد كفرنا كفراً بواحاً ![1]

(3) انتشار فكر ونفسية الخوارج، حيث أراد الخوارج رد ظلم الحكام، فأحدثوا ظلماً أكبر! وانطلقوا يضربوا البر والفاجر، وأصبح لديهم هوس تكفير الناس، وإدانتهم والحكم عليهم، واستحلال دمائهم وأموالهم! فأفسدوا فرصة مقاومة الظالمين، وأساءوا إلى العدل الذي يدعون إليه؛ فكانوا عوناً للظالمين على هذه الأمة.

(4) ومع انسداد أفق إصلاح الفكر السياسي لدى بعض المسلمين، وعدم العودة إلى سنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ والراشدين من بعده.. انتشر الفكر العلماني، الذي يريد أن يكون بديلاً عن

(1) راجع – إن شئت – مقال: وإن ضرب ظهرك، وبحث: منازعة أولي الأمر.

النظام والتصور الإسلامي؛ فاستقرت العلمانية في بلادنا نتيجة الفراغ الفكري، وفساد الحكام، وسطوة المحتل.

فأحدثت كل هذه الأسباب والأمراض كافة ما نعانيه من مشكلات، وتخلف، وظلم، واستبداد.

والبداية.. وكل بداية تكون مع الثورة على المفاهيم الخاطئة، وتصحيح القيم والتصورات، واستقرار موازين الحق والعدل، والتقوى والإخلاص لله جَلَّجَلَالُهُ حيث هو السبيل الوحيد للاستقامة والهداية.

***

وإنني أرى بعد القيام بأركان الإسلام من: (صلاة، وزكاة، وصيام، وحج...إلخ)، فإن مجال الدعوة الإسلامية، والنهضة الإسلامية، والمشروع الإسلامي، و"العمل من أجل الإسلام" هو:

- علاج أمراض الاستبداد.
- إتمام مكارم الأخلاق.
- إصلاح الفكر السياسي الإسلامي (تصوراً، وتخطيطاً، وجهاداً)؛ ومن ثم تحرير الأمة من الطغاة والظالمين والمفسدين والمجرمين.. الأمر الذي سيجعلنا نخطو الخطوات الأولى الصحيحة الفاعلة في معالجة قضايا الأمة المصيرية، ونهضة الأمة المسلمة.
- ومن ثم بعد كل ذلك حمل رسالة الله للناس كل الناس.

وليس مجال الدعوة الإسلامية – خاصة في عصرنا هذا – الاهتمام بدقائق الفقه، واختلافات المذاهب، فهذا ليس مجال عملها، وليس كذلك الدخول في ترّهات الحديث عن اختلافات الفرق حول ذات الله جَلَّجَلَالُهُ وأمثالها من الموضوعات، وليس مجال عملها الانتصار لأيديولوجيات أو

أشخاص أو مذاهب أو جماعات، أو الانشغال بقضايا التكفير وهوس إدانة الناس والحكم عليهم.. بل الانتصار للحق وحده، والدوران معه حيث دار، وإقامة العدل حيث كان.

والخلفاء عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ آلِهِۦ وَسَلَّمَ في حمل رسالته، والقيام بدعوته:

– يخفضون الجناح للمؤمنين، ويرأفون بضعف الناس وجهلهم، ويحملونهم على الحق برفق ولين وعلم ودراية.

– الذين ينتصرون للضعيف، ويأخذون على يد الظالم.

– ولا ينتصرون لفئة على فئة أو جماعة على أخرى عن عصبية جاهلية، بل يتعاونون على البر والتقوى مع كل فئات الأمة، ولا يتعاونون على الإثم والعدوان ولو كانوا أقرب المقربين.

– الذين ينتصرون للحق والعدل، ابتغاء وجه الله الكريم، وابتغاء رضوانه.

–الذين ينزعون عوامل وبواعث الفرقة والتشتت بين المسلمين، ويهدفون إلى "وحدة الأمة" حول كليات الدين، وحول قضاياها المصيرية.

***

والأمة المسلمة هي أمة مرحومة بإذن الله، وما أن تصل إلى قاع الوهن، ونهاية المرض.. حتى يشق نور في الظلمات، وتجتمع خلايا الحياة من جديد؛ تستنهض الأمة المريضة، وتدفعها للعودة من جديد؛ فيشرق في كل جيل فجر جديد؛ ليأخذ حظه ونصيبه وبلاءه في دورة الحياة الحضارية.. وليتخذ الله الشهداء، وليعلم الله – وهو العليم سبحانه – الذين صدقوا .. ويعلم الكاذبين.

والعلاج والتغيير في المجتمعات عموماً رحلة طويلة، ومعاناة تستلزم الصبر والعزيمة، والإخلاص وحسن التوكل على الله، وعدم استعجال الثمرة، وعدم انتظار الجزاء والشكور من أحد.. فما على المسلم إلا أن يؤدي ما عليه، ويخلص النية وصالح العمل لله وحده لا شريك له، ابتغاء مرضاة الله، وليطمئن إلى أن كل خير يفعله، وكل ثمرة طيبة يغرسها.. هي باقية بإذن الله.. باقية عند الله، وباقية في الحياة الدنيا، وأثرها سيستمر، حتى ولو لم يفرح المسلم برؤية هذه الثمرة في حياته.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النّور (55)].



المراجع:

تفسير القرآن الكريم:

- الإتقان في علوم القرآن.
- أحكام القرآن لابن العربي.
- أسباب النزول.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.
- البرهان في علوم القرآن.
- التحرير والتنوير.
- التفسير الكبير المسمى البحر المحيط.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد.
- التفسير الكبير.
- تفسير ابن كثير.
- تفسير البغوي.
- تفسير الطبري.
- تفسير القرطبي.
- تفسير المنار.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية.
- في ظلال القرآن.

الحديث الشريف:

- إبطال الحيل لابن بطة.
- إتحاف الخيرة.
- الأدب المفرد للبخاري.
- التاريخ الكبير للبخاري.
- السنن الكبرى للبيهقي.
- السنن الكبرى للنسائي.
- المدخل إلى السنن الكبرى.
- المستدرك على الصحيحين.
- المطالب العلية لابن حجر.
- المعجم الأوسط للطبراني.
- المعجم الصغير للطبراني.
- المعجم الكبير للطبراني.
- جامع الترمذي.
- دلائل النبوة للبيهقي.
- سنن ابن ماجة.
- سنن أبي داود.
- سنن الدرامي.
- سنن النسائي الصغرى.

- شعب الإيمان للبيهقي.

- صحيح ابن حبان.

- صحيح البخاري.

- صحيح مسلم.

- فتح الباري لابن حجر.

- مسند أبي داود الطيالسي.

- مسند أبي يعلى.

- مسند أحمد.

- مسند الشاميين للطبراني.

- مسند الروياني.

- مصنف ابن أبي الشيبة.

كتب:

- أنساب الأشراف.

- التمهيد لابن عبد البر.

- تاريخ الطبري.

- معرفة الصحابة لأبي نعيم.

***

فهرس

***

الجزء الأول



أمراض الاستبداد

المواجهة بين موسى وفرعون



